FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018

برتقال إسماعيل

رواية

كلير حجاج

ترجمة نوف الميموني

أثر

برتقال إسماعيل

رواية

كلير حجاج

ترجمة

نوف الميموني

أثر

برتقال إسماعيل

برتقال إسماعيل / رواية

كلير حجاج

ترجمة نوف الميموني

الطبعة الأولى 1438 / 2017

ردمك 978-614-01-0746-5

Copyright © 2015 by Claire Hajaj

All rights reserved

أثر

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية.. بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى.. بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

إلى أفراد أسرتي... القريب منهم والبعيد،

مع حبي وإعجابي

عزيزتي صوفي

لا أنتظر منكِ أن تغفري لي، ولا أعتقد أنكِ سوف تفهمينني. أنت الطيّبة منذ ولدتِ. أنتِ صانعة السلام.

الآن فقط فهمت. الآن فقط.. بعد أن جئتُ إلى هنا ورأيته. رأيته بعيني يا صوفي، بعد أن تخيلته طوال تلك السنين. إنه يشبه الصورة تمامًا. أبيض.. أبيض كالعظم. هناك أشجار خلف بوابته، والتراب يغطي الأرض كالذهب.

كنت أظن أنني سأكرهه. أليس من حقي أن أكرهه؟ لكن المكان جميل جدًا هنا. وهادئ كالحلم. مثل الأفلام التي كنا نسجّلها في الصحراء عندما كنّا صغارًا. أتذكرين؟ كانت بالصورة، لكن بلا صوت. وكنا نضحك جميعًا ونلوّح، وكان هو خلف الكاميرا يهتف لنا ويشجّع. في تلك الأيام، لم نكن نتظاهر بأننا أسرة واحدة، بل كنا حقًا كذلك.

أتعرفين أكثر ما يؤلمني؟ أتذكرين تلك القصص التي كانت تحكيها لنا أمي قبل النوم؟ تبدأ "بكان يا ما كان" وآخرها "انتهت الحكاية"؟ أتذكرين كم كنّا نحب هذه الحكايات؟

عرفت الآن أن كلها أكاذيب. ليس للقصص بدايات ولا نهايات. إنها تستمر بلا نهاية. أنتِ وأنا وهم، وكل البشر من قبلنا نرقص على الإيقاع نفسه. لكنني تعبت... تعبت. ولا أرى طريقة نوقف بها رقصنا.

إن أكثر ما يقهرني هو... ربما لو أننا عشنا في هذا البيت لكنا سعداء. ألا تثير هذه المفارقة الضحك؟ ماذا لو أن العجوز الأحمق كان محقًا، وأننا فعلاً ننتمي إلى هذا المكان؟ نعلّق ذكرياتنا السعيدة على الجدران. أول ظهور لي

على خشبة المسرح. أنا وأنتِ نسير على الشاطئ، ويدي تمسك بيدكِ. أمي في فستان زفافها. وصورة له هو أيضًا، وهو يلعب كرة القدم مثلاً، على التراب بقدمين حافيتين، والبحر يحيط بنا. كل ما قد يجبرني على حبه، وكل ما جعلني أحبه حتى بعد أن طردني.

ليتني أستطيع أن أشرح لكِ يا صوفي. أريد أن أجد وسيلة كي أجعلكِ تفهمينني دون كلام، كما كنا نفهم بعضنا في صغرنا. أعرف أنكِ ستحاولين لأنكِ تحبينني، لكن الحب أحيانًا لا يكفي.

أتعرفين؟ لدي شعور بأننا سنكون يومًا ما كلنا هنا... معًا. القبيلتان... قومه وقومها. ألن تكون تلك نهاية سعيدة؟ نستطيع أن نسير معًا على هذا المشى الصغير هنا حتى نصل إلى البحر. أستطيع أن أسمع البحر من فوق التلة رغم أنني لا أراه. إنه يحدّثني. أقسم أنه يهمس في أذني بألف صوتٍ. إنه يعرف حقيقة ما جرى هنا، لو أن أحدًا يصغي إليه فقط... لكن لا أحد يسمعه. كلنا نتخبط في هذه الدنيا كالعميان. وكلنا ننظر إلى بعضنا دون أن نفهم دواخل الآخر كأننا غرباء، حتى وإن عشنا في البيت نفسه.

تذكري أنني أحبكِ.

مارك، يافا

ديسمبر 1988

أنهى رسالته وهو يعرف أن ثمة الكثير لم يقله. لكن الزمن يجري.. واللحظات تتدفق جارفةً، فتمنحه إحساسًا لذيذًا بالغرق. إنه مع الطوفان الآن، والطوفان يحمله حيث مقصده، بلمعان ماء البحر، ودفء الحجارة البيضاء تحت يده وهو يتسلق الجدار العالي، وارتعاشة أوراق الشجر والظلال، وهي تساعده على النزول في الحديقة الصامتة.

لامست قدماه الأرض أخيرًا. ورآها... هناك، محفورةً في جذع الشجرة، أحرفًا متعرّجة نقشتها يد طفل في اللحاء. لمست أصابعه الخطوط الباهتة. سالم. لم تكن دائرة الميم تامة، وقد ابتلعها الخشب المتنفخ. احتار لحظات بدائرة تلك الميم المنسية. رأى في داخلها وجهًا. ورأى بداخل الوجه عينين تسألانه سؤالاً لا يملك له إجابة. وضع إحدى يديه عليها يغطيها، وباليد الأخرى أخرج سكينًا وحفر اسمه تحتها.

كان زجاج باب المطبخ كالماء الذي انفلق لأجله. كسره بيده ولم يشعر بشيء. عندها رأى حجرات البيت تنفتح له وتستقبله. سمعهم يتجمعون وراء البوابات بعد أن عاد إلى المطبخ يحمل حقيبته الخالية، أصواتهم عالية مزعجة كأزيز النحل. حان الوقت. شعر بالخوف يتسلل إليه، لكنه ذكّر نفسه بأن مهمته تمّت، وأنه مستعد. وقد وقفت بينه وبين تلك الأصوات الأشجارُ الهامسة، وثقلُ التراب، والأغصانُ المتشابكة التي تحرس المكان.

تناهت له أصواتهم وهو يغمض عينيه. أغنية تشدو بها أصوات بعيدة، تنساب إلى أذنيه عبر الأغصان الكبيرة كفقاعات قادمة من الماضي، حرّرتها الريح نفسها التي تحرّك الأوراق، وتنقل شذا البرتقال إلى داخل المنزل.

كان ضحكًا ما سمعه يسري خلال الشجر، أو كان شيئًا يشبه الضحك. أصوات أولاد يلعبون ويقهقهون. ومن وراءه خلف الأبواب المقفلة، صوت امرأة كأنها تغني.

تملّكته الرغبة في لحظة واحدة، الرغبة في أن يرد على تلك الأصوات، أن يقف ويشرع الباب، ويريهم أنه موجود. لكن، في تلك اللحظة، أتت كتلة النار تزمجر غاضبة. دخلت عبر الباب وانقضّت عليه، واقتحمت قلب البيت. غمرته سلامًا بعبورها، وهي تزيح كل شيء في طريقها كالمد الجارف.

حياة كل إنسان تضم حياة كل البشر

وكل قصة ما هي إلا جزء من قصة أخرى.

ستيفن فزنسي، أديب هنغاري

الجزء الأول

أسفار

"الغائب" هو كل مواطن فلسطيني هجر مكان سكنه قبل 1 سبتمبر 1948 إلى مكان [في فلسطين] كانت تسيطر عليه في ذلك الوقت القوات التي قاومت إنشاء دولة إسرائيل... وكل الأملاك التي كانت لغائب تنقل ملكيتها تلقائيًا إلى المجلس القيّم على أملاك الغائبين.

قانون أملاك الغائبين الإسرائيلي لعام 1950م

لا شك أن اليهود قوم بغضاء، وأنا شخصيًا لا أحبهم، لكن هذا ليس سببًا مسوّغًا للمذبحة المدبّرة.

رئيس الوزراء البريطاني نيل تشامبرلين

في خطاب خاص كتبه عام 1938م

1948

"يلا يا سالم الفلاح.. اليهود بدهم يجوا يكسّروا راسك.. بدهم يطردوك ويكسروا لك ضهرك زي الحمار".

كان الولدان يواجهان بعضهما في الطريق الترابي بين بساتين برتقال يافا والبحر. وكان أحدهما أكبر سنًا من الآخر، ذا جسم ممتلئ وشعر أسود. اكتنزت ذقنه وذراعيه وبطنه بطبقات شحم كأنه خروف جاهز للتحمير في الفرن. وفي يوم ما، ستستوي هذه الطبقات فتصبح كرشة محترمة من كروش الأعيان شاربي القهوة، ذوي العزب البيضاء والزوجات المكلفات. لكن اليوم، كانت هذه الشحوم لا تفيد إلا في التنمرد على من هم أصغر منه، وجمع العرق في ذلك الجو الربيعي الدافئ.

أما الصبي الصغير فكان يقف ووجهه صوب مياه البحر التي بدأ لونها يسّود مع الغروب، ممسكًا كرةً في يده. كان يرتدي حذاءً مدرسيًا أسود ذا أربطة، وبنطلونًا بنيًا قصيرًا. وكان قميصه الأبيض محشورًا بحرص حول خصره داخل بنطلونه، ومزررًا إلى ذقنه. وجهه الصغير شاحب ككتاب مفتوح، حتى إن الآباء في المدرسة المسيحية كانوا يحبون أن يغيظوه، فيقولون إن وجهه صفحة يمكن أن يكتب أي شخص عليها.

"ما تقولي يا فلاح"، قالها بحذر، وهو يقلّب الكرة بين يديه. لم يكن من المستحسن أبدًا أن تناقش مازن ويده الثقيلة القاسية رغم أعوامه العشرة.

ليش لا؟ ما أنت عايش في بيّارة. وأبوك بيخليك تلقّط البردئان.. زي

الفلاحين. تعلّق رد غاضب على شفتيّ سالم، لكنه ابتلعه بعد أن باغته التردد. ألم يرجُ أباه أن يذهب إلى بستان البرتقال الأسبوع الماضي؟ كان القطاف قد شارف على الانتهاء، وقد قطف عمّال والده مزرعة الأسرة التي تقدّر بخمسة عشر دونمًا من أطيب أشجار البرتقال. كان من المفترض أن يكون انضمامه إلى القاطفين هديته في عيد ميلاده. فقد بلغ السابعة الآن، وسوف يشارك أخويه حسّان ورافان ملكية المزرعة. خليني أروح معكم.. طلب من أبيه، لكن أباه رفض، وما يسوء سالمًا أنه بكى يومها بكاءً مريرًا.

قال محاولاً تغيير الموضوع: أبوي بيدفع للفلاحين ليشتغلوا بس أبوك بيزتّهم بالسجن. كان والد مازن من أبرز قضاة يافا. قال عنه حسان إن المال يتدفق من بين يديه تدفقًا. حتى لو إجو اليهود وعاشوا في داركم، أبوك ح يساعدهم لَيحبسونا كلنا. ابتسم مازن بخبث، وأجاب: ولا يهمك.. اترجاني وممكن آويك أنت وإمك الحلوة.. إلا حسان الحيوان.. يدوّر له مكان يلمّه.

اختطف مازن الكرة من بين يديّ سالم، ثم ركض نحو البحر. تبعه الفتى الصغير فورًا ويداه الخاويتان تتدليان على جانبيه فيما كانت الشمس تنغمس في البحر في رحلة غروبها. "اليهود ما راح يدخلوا والإنجليز لساتهم هون". قالها سالم متذكرًا ما قاله له الأب فيليب في مدرسة القديس يوسف صباح اليوم، بعد أن نشب شجار بين ولدين في الساحة وقت الراحة، فقد نعت أحدهما أبَ الآخر بالخائن لأنه باع أراضيه لليهود. فصرخ المشتوم بأن أباه ليس جبانًا لأنه لم يفر من منزله كما فعل أبو الشاتم.

جُرّ الاثنان من أذنيهما، وهما ما يزالان يتبادلان الضربات. كان سالم يقف مذهولاً مما جرى، بينما كان مازن يصفق لهما ويضحك. عندها ربت الأب فيليب بلطف على وجهه، وقال بصوت يعلو على صوت فلكات العصا التي تلقاها الولدان عقابًا لهما: "كل هالحكي عن اليهود والجيوش... مش كل

الناس مؤيدة للحرب، ولساتهم الإنجليز عنّا، والرب بيحرس عباده".

قال أحد الآباء بعبوس، وكان على مسمع منهما: "ربنا بيعين اللي بيعين حاله". فأجابه آخر: "لازم ربنا يعينا لأنه الإنجليز مش حيرفّ إلهم رمش".

أعاده مازن إلى الحاضر بضحكة ساخرة: "آه والله إنك حمار يا سالم. شو بيهمهم الإنجليز إذا عشنا أو متنا؟ كل اللي بدهم إياه إنهم يقسّموا البلد زي البردئانة، ويعطوا اليهود القطعة الكبيرة. بس والله لنكون جاهزين إلهم. خليهم يشوفوا شو حتسوّي النجادة فيهم. متى بس ارفع البارودة بوجه اليهودي؟"

لم يتخيل سالم أن بإمكانه أن يرمي أي شخص بالرصاص. رأى مرة شرطيًا بريطانيًا يطلق النار على كلب شارد مريض. لما سمع سالم صوت الرصاصة وهي تخترق جسم الكلب، جثا على الأرض وتقيأ. ولم ينسَ بعد ما حدث الشهر الماضي... الدم الذي سال فوق الطوب حتى بلغ قدميه... لكنه لا يريد أن يتذكر ما وقع.

قال وهو يدس يديه في جيبيه ويشدّ ظهره باستقامة: "ما بتقدر تنضم للنجادة. إنت بعدك زغير. ماما بتقول هم ما بيقبلوا إلا الرجال".

فتيان كشافة مسلحون، هكذا شبّهتهم أمه عندما رأوهم في الاستعراض العسكري الأسبوع الماضي، وسالم يقف على أطراف أصابعه خلف ظهر حسّان، يحاول أن يراهم وهم يقفون الوقفة العسكرية في ساحة برج الساعة. كان الجنود يحملون بنادق طويلة ويرتدون زيًا رماديًا. وقد عرف أحدهم لأنه من شلّة مازن، وكانوا يسمون ذلك الفتى مؤخرة القطة، لأن له بثرة بنية كبيرة في منتصف ذقنه. واعتاد الأولاد على إغاظته والسخرية منه حتى تدمع عيناه. لكن عينيه في ذلك اليوم كانتا متألقتين فخورتين. حتى حسّان كان يود

الانضمام إلى صفوف النجادة، لكن محمد نمر الهواري لم يكن يقبل أي شاب يقل عمره عن الخامسة عشرة.

قال مازن: "أمك بتفكر زي النسوان، مخها مخ مَرة. الهواري صاحب أبوي. وحتى لو انضميت ليش بدي أحكي لك؟ هم أصلا ما بيقبلوا الحمير الزغيرة اللي زيك".

"أنا مش حمار". همس سالم بينما مازن يجري أمامه. كان سالم يتصور أحيانًا، في أشجع لحظات خياله، أن يطرح مازن على الأرض ككرة قدم منفوخة. لكنه كان يخاف مازن وقبضتيه الكبيرتين وإهاناته القاسية أكثر حتى مما كان يخشى اليهود. أتمنى أن يأخذ اليهود مازن معهم عندما يأتون.

سوف يأتي اليهود. هذا ما تهامس به الآباء فيما بينهم في المدرسة المسيحية. وقد بدأ الريف يخلو من الناس مع اقتراب القتال إليه، وقد دُفع اللاجئون إلى يافا غصبًا، بحقائبهم المتعفرة وأطفالهم المذعورين. اشتكى والد سالم إلى رئيس البلدية وجودهم، لكن أمه كانت ترسل حزمًا من الطعام إلى الأمهات وأطفالهن الرضع. لم يفهم سالم كيف يختار الناس النوم في مساجد يافا وكنائسها بدلاً من بيوتهم.

لكن اليوم، والشمس متربعة في عليائها، والهواء محمّل بالملح وشذا البرتقال، لم يكن من السهل أن يجد الخوف له مكانًا في نفسه. ظلا يطاردان بعضهما على الطريق، ويتسابقان عبر الخمائل، ويصيحان فيحمل هواء البحر الدافئ صيحاتهما. طارت الكرة تجاه البحر، فاندفع سالم كالبرق، لاهثًا جذلاً، والتقطها قبل أن يسرقها الموج. التفت وراءه ينظر إلى مازن كي يعلن انتصاره، لكن أدرك فجأة أنه كان يقف وحيدًا. احمرّت وجنتاه عندما رأى أن مازن يبتسم بخبث من أعلى الحاجز. قهقه مازن وقال: "إنت دايما بينضحك عليك".

أخفض سالم رأسه ليخفي حمرة خجله. سمع الحصى على الأرض يسأله: لماذا تدعه يخدعك دائمًا يا غبي؟

قال مازن وهو يشير إلى ركبتيّ مازن القذرتين ووجهه المتعرق: "يلا يا فلاح. أنا جوعان. يلا نروح ع السوق".

***

كان هناك طريقان من العجمي إلى أسواق ساحة برج الساعة في يافا.

كان الطريق الأول من بيت سالم يشق مساحات برية صامتة. وكان يمر عبر الفيلات الساحلية التي صقلت بياضها أشعة الشمس، وحدائقها المسيّجة التي تسكب جداول عذبة من أزهار الجهنمية الحمراء، ويعبق جوّها برائحة البرتقال الذي لم يُفطم عن ترابه. يميل الطريق يسارًا نحو شارع العجمي، حيث تسير السيارات متجاوزة حميرًا تجر أحمالها من الرمان والليمون. باب مخبز أبي العافية كان مفتوحًا دومًا، حتى في أشهر الشتاء الباردة. انتظر سالم أمامه مئات المرات، وحواسه مستعرة بروائح الفطائر المحمولة في سحب من القرفة والفلفل الحلو. كانت أمه تحب المنقوشة المرشوشة بالزعتر والسمسم. وكان يأكلها من يديها قطعة قطعة وهما يسيران في البلدة القديمة، بمقاهيها ودخان الأركيلة الأصفر.

أما الطريق الآخر فهو طريق فتيان يافا، وكان عبور هذا الطريق بالنسبة لهم طقسًا روحانيًا يخطو به الولد عتبة الشباب. فما أن يتعلم الصبي منهم خطواته الأولى حتى يتحداه آخر أن يجرب السير على هذا الطريق الذي يشقّ الشواطئ الوعرة. فيجازفون بسلامتهم فوق الصخور الزلقة، ثم يتقدمون شبرًا شبرًا، بأرجل مترددة أسفل جدار المرفأ العتيق.

كانت شمس ذلك اليوم تسدد أشعتها على هلال ساحل الأبيض المتوسط، والمياه تلتمع ذهبيةً على الشواطئ المظلمة كأنها قرط دائري في أذن أفريقية. تقافز سالم ومازن في برك شكلها الموج، فتطاير الماء من بين أقدامهم ليصيب أولادًا قد شمّروا عن سواعدهم يصطادون السلطعون. سارا بحذر فوق الصخور المدبّبة حتى بزغ ميناء يافا بحجارته البيضاء المغسولة بماء البحر.

علّمهم الأب فيليب: "مينا يافا موجود من لمّا انخلق هالبحر. هالمينا موجود قبل العرب وقبل اليهود. ربنا دلّ يافث ابن نوح لهون من زمان كتير، ومرّ عليه بشر كتير. ومدفون في هالأرض عضام اتنين وعشرين جيش. كان الوثنيين في طيبة بيقدموا العذارى قرابين هناك". وأشار بيده المتغضنة فتبعت أعين الطلاب الإشارة. "هناك ع هديك الصخرة اللي بنسميها (أندروميدا) بيستنوا وحش البحر إنه يبلعهم. وبهاي المينا كان الملك الصليبي ريتشارد قلب الأسد مريض وبيترجى صلاح الدين لينهي الحرب. وجنب الفنار خيّم الإمبراطور الملحد نابليون، والطاعون منتشر بين جنوده، وأسراه المؤمنين بيثوروا عليه، بوقتها تعلّم درس راح اعلمكم إياه mes enfants: يافا هيّ أحب الأماكن لربنا، وملعون اللي بده يخربها".

كان سالم يحمل في صدره إعجابًا سريًا مشوبًا بالإحساس بالذنب نحو الملك الإنجليزي الذي يحتل الأسد صدره، رغم أن معظم الأولاد كانوا يحبون نابليون والناصر صلاح الدين. تراءت له صورة ريتشارد الآن وهو يتقدم بحذر تحت جدار المرفأ الأصفر. قد يكون الملك قد خطا حيث يمشي الآن، وقد ضربته المياه الضحلة بلطف، واشمأز من رائحة قوارب الصيد العائدة برزقها. لا شيء في هذا البحر يدل على مرور القرون غير السفن البخارية في خط الأفق.

بينما سالم يتسلّق الصخور رافعًا جسده ليستقر على أرض المرفأ كان مازن

قد وجد برتقالة مطروحة. رمى لبها على الأرض وأخذ عصيرها الأصفر يتقاطر أسفل ذقنه. "هيّها هناك. هيهم هناك". قالها وإصبعه السمين يشير إلى شمال الميناء، حيث ترتفع بنايات تل أبيب اللامعة مطوّقة الساحل على مدّ البصر.

اعتاد سالم رؤية تل أبيب حتى إن وجودها لم يعد يجذب اهتمامه. كان كبار السن فقط، أجداد أصحابه وجدّاتهم، يحكون أحيانًا عن زمن لم تكن فيه يافا محاطة إلا بالكثبان، أما تل أبيب فكانت مجرد أصداف يحركها الهواء بين انعطافات الرمال. لكن بالنسبة لسالم، فالمدينة موجودة منذ عرف الدنيا، كما أن البريطانيين موجودون منذ فتح عينيه وليدًا. أولئك المندوبون والقادة.. رجال باردون، حمر الوجوه. كان الأولاد يشخرون بأنوفهم كالخنازير إن تحدثوا عنهم، لكنهم مع ذلك يحبون حامية يافا. وكان أحد جنودها، واسمه جونو، يعطي مازنًا وحسّانًا سجائر. وقد وعد أن يعطي سالمًا لفافة عندما يبلغ الثامنة.

غير أن سالمًا أحس في تلك الأيام أن تل أبيب تتوسع، وأن الوجود الإنجليزي ينكمش. يقول الآباء: "حكم الإنجليز في أمنا فلسطين بيخلص الشهر الجاي. وحيطلع من رحمها كائن جديد اسمه إسرائيل وحيقسمها لنصين للأبد". سمع سالم أبا مازن يلخّص الوضع بقوله: "ما حتحس إلا والإنجليز لامّين عفشهم وبيحكوا لنا مع السلامة".

عقد مازن حاجبيه وهو يسمع أذان المغرب يرتفع في السماء. قال: "تأخرنا. لو ما كنت بطيء كان وصلنا بدري". قال سالم فجأة: "بلاش نروح هناك". عاد إليه الخوف الذي كان يزحف إلى قلبه وهو يتسلق جدار الميناء، فانقض عليه كموجة غاضبة الآن. بدت قدماه في ضوء المساء حمراء. حمراء كالدم المتناثر على الطوب، وكأصوات الصراخ. لكن مازنًا ضحك وقال: "يا

خيخة يا زغير". مسح فمه، وجذب سالمًا من ذراعه نحو أزقة يافا الضيقة، وكلمات المؤذنين تحوم في سماء المدينة، عالية، متنافرة، متلاحقة من كل حي.

اندفعا داخلين ساحة برج الساعة مع خفوت ترانيم الأذان. تقطّعت أنفاس سالم وأوجعته ذراعه. أفلته مازن ووقف هو أيضًا يستريح ويلتقط أنفاسه، ويهدئ دقات قلبه المتسارعة. جرت عيناه تلقائيًا على زوايا البرج الحادة. نُصبت فوقه لوحة تحمل اسم السلطان عبد الحميد الثاني. تعرّفوا في المدرسة على هذه الشخصية. هو الحاكم العثماني العظيم الذي طلب من سادة يافا أن يدفعوا ثمن بناء البرج بأنفسهم، إما لشحّ ماله أو لقلة صبره. ولا تجد اليوم رجلاً ثريًا في يافا، مسلمًا كان أو مسيحيًا أو يهوديًا، إلا ويدعي أنه موّل البناء بحُرّ ماله.

لكن ذاك كان في الماضي. في نهاية الساحة تكوّمت أنقاض السراي الكبير مركز الحكومة مثل ورم بشع خبيث، وقد خرق التفجير المبنى فكان فجوة في الساحة كأنه فم خالٍ من الأسنان. زحف سالم مقتربًا من الحجارة المكوّمة، ومازن يراقب رجلاً ملثمًا بكوفية يسحب حجارة من الركام.

أشار مازن إلى بقع حمراء داكنة، وقال: "براهنك إنه لساته فيه ميتين تحت. وإلا يمكن ايدين أو رجلين. لو إنهم انتخبوا أبوي لرئاسة البلدية بدل الغبي هيكل كان لقيت المكان هدا كله نضيف. شامم هالريحة؟ إف.. أو يمكن ما شميتها لأنه حسان ريحته هيك على طول".

عاد الشعور بالغثيان سالمًا. قالوا إن القنبلة كانت مخبأة في عربة برتقال، وإن الرجل الذي كان يسوقها يبدو عربيًا لكنه في الحقيقة من الإرغون، أكثر اليهود إرهابًا.

سمع هو وحسان صوت الانفجار في ذاك اليوم وهما في طريقهما إلى

المدرسة، ثم سمعا الصراخ. دار حسّان على عقبيه وهرب، وحقيبته تتمايل من بين كتفيه. هرب سالم أيضًا، خائفًا من أن يبقى وحيدًا. أمسك بطرف حقيبة حسان حتى اختفت من أمام عينيه في سحابة صفراء معتمة. ابتلعته السحابة وخنقته بترابها، وقطع الزجاج وكِسَر الحجارة تمزّق باطن قدميه. تعثر بها فافترش الأرض. سمع صافرات الإنذار والطنين يصمّ أذنيه. وشخص كان يصيح: "عمر... عمر". كان غارقًا في بئر مظلمة. حاول أن ينادي حسانًا لكن التراب ملأ فمه. شيء ما كبير طري يرقد بجانب ساقيه، ويتسرب منه سائل بدفقات رتيبة أغرقت قماش حذاءه باللون الأحمر تحت الشمس المتوارية في غروبها. ازداد اللون وضوحًا وهو مستلقٍ لا يستطيع الحركة. حتى ظهر حسان فجأة فوقه، والغبار الرمادي يصبغ وجهه، وعيناه مفجوعتان كعينيّ حصان جافل. شدّ حسان سالمًا بقوة من قميصه المتسخ، وسحبه إلى المنزل.

انتحبت الأمهات في يافا في اليوم التالي، والجنود البريطانيون يدبّون بين الأنقاض يمشّطونها. راقب سالم متسمرًا في ذلك اليوم مازنًا وهو يسحب خرقة قميص إحدى الجثث من تحت طوبة. كان القماش أبيض، ملطخًا ببقعة سوداء امتزج بها الدم والتراب. كانت رائحتها مقززة، وقد ظلّت ملتصقة في منخاريه حتى بعد أن طاردتهما الشرطة وفرّا.

جذب سالم قميص مازن. "الله يخليك.. خلينا نروّح. ما بحب ضل هون". أبعد مازن يد سالم عنه، لكنه استدار على أية حال. عندما رأوا الجثث محمولة في ذلك اليوم قال له مازن: "ح يصيروا عفاريت.. ما بيرتاحوا الميتين في قبورهم لحتى ياخدوا بتارهم".

وصلا إلى سوق العطارين ليشتريا حلوى. استقبلتهما هضاب من الفستق والليمون والورد والذهب، ورحبت بهما روائحها الزاكية، لكن فم سالم كان

جافًا. اعتاد الولدان على أن يشقّا طريقهما بصعوبة بين جموع الناس ليحصلا على ما يريدانه. لكن اليوم مختلف، والسوق شبه خالٍ. تطلّع إليهما البائع بعينين نهمتين، وهما يناولانه مصروفهما.

"هييه.. سالم".

استدار سالم في وجل، فلم يكن مسموحًا لهما بأن يكونا في الخارج وموعد العودة إلى البيت قد دنى. قال مازن بصوتٍ عالٍ: "الله ياخده. هذا ابن اليهود".

قال سالم: "مرحبا إيليا. كيف حالك؟". نظر حوله مسرورًا بأن الساحة كانت خالية. ليس من المستحسن أن يراه الناس مع يهودي، حتى وإن كان من أهل المدينة.

كان إيليا أكبر من مازن، فاتح البشرة مثل سالم، ذا ذراعين نحيلتين. "يعني..." هز كتفيه بهذه الكلمة التي تضع حاله في المنطقة الرمادية بين العافية ونقيضها. "كنت رايح أشوف أبوي.." وأشار إلى سوق البلابسة (سوق الملابس). "صرنا نسكّر الدكان بدري هاي الأيام. ما بيحب إني أمشي لحالي والدنيا مولّعة والبلد كلها مشاكل".

قال مازن: "ومين سبب هالمشاكل؟ أبوك وصحابه".

اعترض سالم: "هم مش من هذول الناس يا مازن". تذكر أنه في يومٍ ما كان مسموحًا لهما بأن يكونا صديقين. فوالد إيليا إسحاق يَشوف يكاد يكون عربيًا، ولا يمكنك أن تفرق بينه وبين أي فلسطيني، فبشرته العراقية ملوحة بالشمس، وعيناه عينا صقر تلتمعان فوق فحم الأركيلة، والفقاعات تتراقص في جوفها وهو يدخن طوال يومه. لكن أم إيليا جاءت من خارج فلسطين مع اليهود البيض.

سببّت صداقتهما جدالاً حاميًا مستمرًا في منزل سالم أفضى إلى وضع حد لها. صرخ أبوه في وجهه ذات مساء وهو يضرب الطاولة بقبضته: "اليهودي مش فلسطيني، واليهودي مش عربي. كلهم ولاد كلب إجو هون حتى يسرقونا. بدك تفضحني؟". ردت أمه ببرود، وجبينها منبسط كسطح زجاجة: "بالله شو؟ روّق إنت بس روّق.. كانت عيلة إسحاق بتركب زرار بسوق البلابسة من قبل ما تخلق إنت حتى. وإذا بخصوص مرته الأجنبية، طيب وأنا؟ ما جرجرتني لهالبلاد الملعونة متل البقرة اللي بتجر عربية؟ هاه؟"

كان سالم يعلم أن صداقة غريبة تربط بين أمه ولِي لي يَشوف البيضاء. عندما يرافق أمه لتستلم ملابسها الفاخرة من دكان إسحاق، كانت لي لي تتحدث معها بعربية بطيئة ولكنة ثقيلة. فكانت أمه تبتسم لها ابتسامة قلما تتكرم بها على أحد، حتى زوجات بقية الأعيان.

بدا إيليا أكثر تعاسة اليوم من أي يوم آخر. كانت أسرته من القلائل المعدودين الذين لم يرضوا أن يبرحوا يافا، بينما رحل بقية اليهود إلى تل أبيب. صار دكانهم في سوق الأقمشة مكانًا مستهدفًا، ومع هذا فقد أبى إسحاق أن ينتقل. "راح ضل هون مهما صار". وظل يأتي بعناد إلى العمل كل يوم رغم تناقص عدد زبائنه القليلين.

ردّ إيليا على مازن: "عيلتي بدهاش أي مشاكل. كل اللي بدنا إياه إنّا نشتغل. مش بس الإرغون هم اللي بيعملوا المشاكل". قالها وهو يومأ برأسه ناحية الجنوب، صوب مقر النجادة وجيش الإنقاذ العربي.

رأى سالم على وجه مازن نظرة يعرفها جيدًا، النظرة التي تسبق الضرب المبرح. قال بسرعة: "اسمع إيليا. تعال آخذك عند أبوك هلاّ. لازم نرجع قبل ما تعتّم الدنيا".

قال مازن والبغض يتقاطر من كلماته: "طيب يا ولاد اليهود. تمشوا ع راحتكم. خليني اشوفكم لما تدخل الجيوش العربية". اقترب من إيليا، وهمس في أذنه: "احنا ألوف يا يهودي.. وحتشوف". ثم استدار وركض عبر الساحة.

قال إيليا: "ما فيه داعي إنك تمشي معي يا سالم". بدأت الظلمة تكتسح السماء الآن، والمساء يجر السحب الرمادية خلفه.

"مش راح أمشي معك للآخر. بس شوية. إمك بخير؟"

"آه بخير. المسكينة مرعوبة هلاّ. وهي وأبوي بيتخانقوا كتير".

ركل سالم الحجارة بقدميه. "وأهلي برضه. إمك خايفة أحسن يجو الجيوش العربية ويدافعوا عنّا؟" لم يكن الحديث في الإذاعة ومنابر الجمعة عن شيء إلا هذا.

لم يجب إيليا، وسارا في صمت. شعر سالم بالأسى عليه. لو أنه في مكان إيليا، ألن يخشَ الجيوش العربية العظيمة؟ كان يتخيلهم: صفوفًا وجحافل من الرجال، براياتهم المرفرفة وبنادقهم المصوّبة، مثل البدو في الحكايات الشعبية. قال بتعاطف: "بتقدر تجي ع بيتنا. ماما بتخبيك. مش راح نقول لحدا إنك يهودي. راح تكون بأمان عنّا".

رفع إيليا رأسه بحدة. فزع سالم من تعبير وجهه. قال إيليا ببطء: "يا سالم.. ما بظن إنّا نقدر نعيش زي الأول. ماما بتقول إنكم العرب بتكرهوا اليهود وما بدكم يكون فيه سلام بيناتنا. يعني آخرتها بيكون فيه حرب أكيد. والله وحده اللي بيعلم من اللي حينتصر".

أجاب سالم بحزم: "العرب بدهم ينتصروا". لم يكن يحمل في قلبه حبًا كبيرًا لأبيه أو لأبي مازن، أو لغيرهما من الرجال البدناء الذين يرتادون بيتهم.

لكن عالمه قائم على رائحة سجائرهم وهمهمة حديثهم. ومن المستحيل أن يصدق أن تُسحب منهم سلطتهم التي تسيّر الكون بهدوء.

توقف إيليا بغتة. قال: "إذا كنت بتفكر هيك فإنت زي مازن. ليش ما روّحت معه؟ وراح يعلمك كيف تصوب ع أهلي وتكسّر دكانتنا زي صحابه الفتوة".

أفلتت ضحكة من سالم قبل أن يستطيع حبسها، فشكل مازن السمين وهو يصرخ ملوّحًا بمسدس بيده مضحك جدًا. لكن يبدو أن الضحك جرح مشاعر إيليا. انكمش كتفاه نحو جسده كعفريت العلبة قبل أن ينفلت من النابض صائحًا: "يالله! روح معه! روح!". ضرب صدر سالم بقبضته، ودفعه فارتطم بالجدار الحجري.

كان الألم مثل ذلك الذي شعر به سالم عندما قرصته نحلة ذات مرة: خدر يتبعه ألم حاد متزايد دفعه إلى البكاء، دموع ساخنة تجمّعت في عينيه. انقبضت يداه وصرخ: "إنت روح! اطلع من هون.. هاي فلسطين بلد العرب. روح ع بلدكم".

كتمت الدموع الكلمات في حنجرة إيليا. "يافا هي بلدي! بس هدا الحيوان مازن بده يرمي قنبلة ع بيتنا. شو بدنا نعمل؟"

تذكر سالم رعب ساحة برج الساعة، وركام الحجارة المتكسرة، والصرخات والعويل الذي ملأ السماء مثل الدخان. تحدث هيكل رئيس البلدية عبر الإذاعة في تلك الليلة، ونعت اليهود بالمتوحشين قتلة الأطفال. أقسم مازن ورفاقه على الانتقام. ومنذ ذلك اليوم كان من الكفر أن يظن أحد أن اليهود ليسوا من شياطين الأرض.

رغم كل هذا، ما زال سالم يؤمن أن عالم اليهود منقسم إلى خير وشر.

الأشرار يعيشون في تل أبيب وفي تلك المزارع الشاسعة التي لا يُسمح للعرب بوطئها. قال الناس إن أولئك اليهود طردوا عائلات من بيوتهم، واقتحموا حيفا والقدس وقرى عربية أخرى وقتلوا بالمئات، على مسمع ومرأى من البريطانيين. لم يرَ سالم أيًا من هؤلاء اليهود المرعبين في حياته. لكن عندما يحلّ الليل، يراهم واقفين ووجوههم مطموسة، يلفّعهم الظلام في أطراف منامه.

لكن أسرة إيليا تبدو مثل أي أسرة أخرى في يافا. وتعيش وتعمل كما تعيش أسرته وتعمل. فكيف يكونون أعداءً؟

أراد أن يشرح هذا لإيليا، لكن الارتباك عقد لسانه. فوقف مصوبًا نظره إلى الأسفل، يفرك قدمه في التراب. كانا على بعد مسافة لا بأس بها من بوابات البلابسة، ووقت الإغلاق قد حان. تنهد إيليا كأنه يسأل: وماذا الآن؟ لكن إن كانت هذه دعوة منه إلى سالم ليتحدث، فإنه لم يفهمها.

قال سالم أخيرًا: "لازم أروح ع البيت هلاّ". غدًا. قد يصلحا الأمور بينهما غدًا. أومأ إيليا برأسه وقال: "طيب يا سالم. مع السلامة".

ابتعد إيليا، وشعر سالم بثقل في صدره، كأن به حجارة صغيرة نحتها القلق تقرقع في جوفه. لم يبقَ ما يفعله إلا أن يجري عبر أنقاض الساحة، وعبر المحال المقفلة إلى الأمان في بيته.

***

كان بيت الإسماعيلي يُعرف ببيت الشموطي (نسبةً إلى اسم البرتقال). صف كثيف من أشجار برتقال الشموطي ترفرف أوراقها خلف أسوار البوابة الحديدية، وأزهار الربيع مكتنزة على أغصانها الكبيرة. وعندما يحين الربيع، تتحول براعم الليمون الصغيرة إلى كرات يافا الذهبية. وعندما تُعصر

يتعطر الهواء بمرارة عذبة، أو قد تقطّع ويرش عليها السكر وماء الورد. أما بقية برتقال يافا فيغلّف في أوراق، ويُحمّل في سفن بخارية، متجهًا إلى بلاد لم يعرفها سالم إلا في أحلامه.

تهامس الجيران أن سعيد الإسماعيلي متهدل الشفة (المعروف بين أصدقاءه بأبي حسّان) لا يساوي شيئًا من دون الخمسة عشر دونم من بساتين البرتقال التي يمتلكها جنوب المدينة، وأنه سيكون محظوظًا إن استطاع أن يوفر ثمن سقيفة في حديقة بيته. وكان هذا هو السبب الآخر في تسمية البيت بذلك الاسم.

فكر سالم في إيليا ومازن وهو يسير في الشوارع المظلمة تجاه بيته. كان الثلاثة يومًا ما أصدقاء، لكن كل شيء تغير العام الماضي.

حاول الأب فيليب أن يشرح الأمر في المدرسة. سوف تُقسم فلسطين بين اليهود والعرب. سوف يحصل اليهود على الساحل الشمالي والجليل والصحراء الجنوبية، وللفلسطينيين الضفة الغربية الخصبة من نهر الأردن والتلال الخضراء قرب لبنان، وغزة الميناء الجنوبي. أما القدس فأُعطيت للعالم. وبما أن يافا تقع في الجزء الفلسطيني فلا يحق لليهود قانونيًا أن يدخلوها. نظر سالم إلى أستاذه بذهول. من هم هؤلاء الذين يعطون ويأخذون بيوت أهل البلد؟

إن مجرد التفكير في أن ينتشل أحد أشجاره تجعل جلده يقشعر. فلاح!! كيف يجرؤ مازن على أن يدعوه فلاح؟ الفلاحون قذرون فقراء، أكفّهم خشنة وأسنانهم متساقطة. يشتغلون في الأرض لكنهم لا يملكونها أبدًا. أنا ابن صاحب أرض، ومن حقي أن أقطف البرتقال.

لم يُسمح له بأن يقطف أي ثمار عندما زار البساتين الأسبوع الماضي.

قال أبو حسان إن سالمًا ما زال صغيرًا، وهو يعني طبعًا أنه لم يكن مطيعًا. قال إن القطاف عمل الرجال وليس الصبيان. أما حسّان فكان هو دائمًا من يذهب. كان أبوهما يحب أن يستعرض أكبر أبنائه، ويتمشى به بين صفوف الأشجار كأي أفندي. "كأنه راح يورث مال قارون، مش شوية أطيان" كما تقول أمه. كان أبو حسان خليطًا معقدًا لرجل يعشق المال والكسل والقهوة بهذا الترتيب. رجل يشتري صحيفة "فلسطين" التي تصدر من يافا ليبقيها مطوية كما هي على طاولة الصالة.

ولهذا السبب آلمته سخرية مازن. فكأنه يقول إن أباه رجل مهم وذكي ويفهم في أمور كثيرة، أما أبو سالم فيملك ثروة، لكن عقله عقل فلاح، وإن وقعت الحرب فسوف تتشرد أسرته.

أدار سالم مقبض البوابة الخلفية، وتسلل داخل الحديقة. الأشجار ناعسة في ضوء الغسق، والهواء يحمل بقايا دفء الشمس فيما بينها.

كان يحب عدّها وهو يسير في الممشى إلى مدخل البيت الخلفي. وكل واحدة لها قصة: هذه المنكفئة فقدت فروعها ذات عاصفة باردة لا تُنسى، وهي تقف الآن كمتسولة على عتبة البوابة، تمد يدها الحزينة نحو القادمين. وتلك الأخرى غاضبة تدفع فروعها في وجوه الأشجار الأخرى، وجذورها تبرز من تحت الأرض كوحش يمدّ أذرعه.

وهذه الأشجار الصغيرة الثلاثة للأبناء الثلاثة: أولها لحسّان، والثانية لسالم، ثم شجرة رافان المغروسة العام الماضي. كان طول شجرة حسّان مناسبًا لعمرها. طالت وبسقت حتى صار لها ظلاً يُستظل به، ولها جذور غليظة. نضجت شجرة حسّان مبكرًا، فما أن بلغ الخامسة حتى بدأ يقطف ثمارها. لا يذكر سالم أن مرّت سنة من عمره لم يمسك فيها سلة أخيه الكبير، ويستنشق عبير البرتقال المر حديث القطاف.

وقد أثمرت شجرة سالم منذ عام، لكن أباه رفض أن يدعه يقطف برتقالاتها خلال موسم هذه السنة، ليلقنه درسًا في الطاعة. يقول الفلاحون إن مزارعي البرتقال يغرسون أشجارًا عندما يُولد أبناؤهم، لكن برتقالها لا يصبح حلوًا إلا عندما يبلغ الصبيان مبالغ الرجال.

مسح سالم جذعها بحزن. ألهذا ما زلتِ صغيرة؟ شجرته أصغر من شجرة حسّان بثلاثة أعوام، وبنصف طولها، وكانت تميل ناحية الغرب تلاحق الشمس الهاربة، وأغصانها كالأذرع التي تحاول تسلق الجدار لتهرب.

كان قصر شجرة سالم طرفة يتداولها أفراد أسرة الإسماعيلي فيما بينهم. وأكثر من يحبها ويكررها هو حسّان. "يا رب تصير خصاويك أكبر من بردئاناتك يا سالم.. وإلا يمكن تكون مَرَة وإحنا ما بنعرف". أمه تلوم الأرض التي غُرست فيها، وتقول إن التربة القريبة من البوابة حجرية ولا تصلها شمس الصباح، لكنها لم تسخر قط من حبه لها. لمس القطع الصغير على جذعها، ذكرى تسحّبهما إلى الحديقة الأسبوع الماضي على ضوء الشموع ليعلّما طوله على الشجرة في عيد ميلاده السابع، ويأكلا الحلوى تحت النجوم.

وصل البيت فوجدها تجلس بجانب المدخل، ورافان على صدرها. كانت السماء بدأت تخلو، والظلال الزرقاء قلبت شعرها الأحمر أسود. كان رأسها مائلاً على الرضيع، ونسائم البحر تبتلع هدهدتها الخافتة.

كانت نور الإسماعيلي امرأة بالغة الجمال. حتى سالم كان يعرف هذا من همسات الصبيان، واحترام الآباء في المدرسة لها عندما تصحبه وحسانًا إليها. اعتزازها بنفسها كان هو السبب، كانت راسخة ساكنة حزينة، كأنها منحوتة أو تمثال، وشامخة مثل أندروميدا مقيدة إلى صخرتها. ورثت جبينها ناصع البياض وعينيها الخضراوين عن أسرتها اللبنانية العريقة التي جار عليها الزمان، فباعت بكارة ابنتها ذات الخمسة عشر ربيعًا لسعيد الإسماعيلي،

مقابل سيارتين جديدتين ومبلغ مالي يعين والدها بعد تقاعده.

وهي ما زالت تعيش هنا غريبةً، رغم خمسة عشر عامًا عاشتها في فلسطين، وثلاثة أولاد وُلدوا ونشأوا فيها. كانت لسالم مصدر العجب وكل الحب، وهو لها أقرب أبنائها، حتى جاء الطفل الجديد.

أسند ذقنه إلى كتفها، وقد أنهكه التعب فجأة. أمالت رأسها لتريح جبينها على جبينه، فأغلق عينيه في ارتياح.

سألته: " وَيْن كِنت يا عَيني؟" كان سالم هو الوحيد من إخوانه الذي تخصّه بهذا التدليل. وهي تتعمد نطقها بالفصحى، بعربية الأئمة والمطربين.. كلمات تنأى بها عن هذا المكان، وتدل على أنها أجنبية، لكنها في أذن سالم لهجة نبيلة تحرّك خياله نحو قصص الفرسان والملكات.

"مع مازن يا ماما".

ضحكت، فشخر رافان في حضنها. "ما بَعرف شو شايف إنت بهالإبن الكلب".

شعر سالم بالذنب ينخر جنبيه. قال مدافعًا عن نفسه: "وأنا ما بحبه كمان. بس ما ضل حدا هون". وهذا صحيح، كثيرون غادروا يافا. يقولون إنهم سوف يعودون عندما تهدأ الأوضاع. تردد سالم ثم قال: "قال عن أبوي إنه فلاح".

"إيه. يمكن يكون هيدا مازن أذكى مما كنت مْفكرة". رفعت رأسها نحو خيوط الضوء المنسحبة، ثم أدارت عينيها العميقتين المتفحصتين نحوه. "اتضايقت يا حبيبي؟" أخفض سالم رأسه خائفًا من الإجابة.

قالت وصوتها يخفي ضحكها: " تقبرني شو حلو إنتَ! بس كتير زعلان يا حبيبي، كأنه عَقَصِتَك شي بَرْغَشِة. في كتير برغش هون، بيحوموا حَوالَيْنا.

بس لما بيطلع الضو يا عَيني، شو بيصير بالبرغش؟" بسطت يدها الخالية، وتصوّر سالم أشباحًا صغيرة تختفي في الهواء. "رَحْ يجي يوم ما يعود يهمك فيه مازن وشكاله. رَحْ تصير أكبر منُن كلياتُن".

خفضت يدها ثم رفعت وجهها تنظر إلى الأفق، حيث استقر الظلام الشاحب على البحر. قالت بلا اهتمام: "إذا بدك تشوف كيف رَح يصير مازن بس يكبر فُوت لَجَوَّه. أبو مازن عنَّا، عَمْ يحكي مع بيَّك بالشغل".

كان المطبخ مظلمًا، وأطباق العشاء معدة ومغطاة على الطاولة. روائح عطرية دافئة.. أرز ولحم ضأن وحمص وملفوف محشو. كان باب المطبخ ينفتح مباشرةً على الصالة التي يجلس فيها أبو حسّان، بكراسيها الجلدية الفاخرة وطاولاتها المطليّة بالورنيش.

سمع سالم من وراء الباب دمدمة أبوه المتشكية، وردود أبو مازن السلسة. سمع كلمة (اليهود)، ففتح الباب قليلاً كي ينصت.

كان أبو مازن يقول: "صدقني يا زلمة إنه ما حدا فاهم وعارف إلا اللي عم يطلعوا هلاّ. شوف هيكل والهواري! هيكل هو أول سياسي في يافا، والهواري أول قائد عسكري فيها. لكن بتشوفهم هون؟ لا! عم بيستنوا في بيروت والقاهرة لحتى تخلص هالأزمة. هم عارفين إنه الإنجليز رمونا رمية الكلاب. اليهود أخدوا حيفا والقدس، والإنجليز ما رموهم بطلقة وحدة. والدور الجاي علينا. ولما يجو راح يعملوا فينا متل ما عملوا في دير ياسين".

دير ياسين. تجمد الدم في عروق سالم. لقد رأى صور الجثث في تلك القرية بعد هجوم الإرغون. يقولون إن اليهود صفّوا أسرًا كاملة أمام الجدران وأفرغوا فيهم الرصاص.

تكلم أبو حسّان بصوته الجهوري العميق: "اليهود جبناء. ما كان في حيفا

ودير ياسين أي حماية. احنا عنّا جيش الإنقاذ العربي هون، أكتر من ألفين نفر".

"شو بيهمهم من هذول الزعران؟ عندهم الأميركان والأمم المتحدة في صفهم. عندهم أسلحة ومدفعيات جايه من أوروبا. يعني فلسطين محكوم عليها بالإعدام بعد تلات أسابيع. لما يطلعوا الإنجليز راح يرفعوا اليهود علمهم ويدافعوا عنه. تفتكر إنه بن غوريون راح يستنّى لحد ما نضرب جنوده والكيبوتسات؟ لحد ما المصريين والأردنيين يحتلوا إسرائيل الجديدة؟ ليريحوا أول في بلادنا بعدين يطلعوا للقدس ويدمروه؟ والله ما راح يخاطروا اليهود بهيك اشي. راح يهاجمونا أول وراح ينهبوا كل اشيء بيطولوه. راحت حيفا. وإحنا وراها. تتذكر اللي صار في ساحة برج الساعة؟ بيهتموش شو بيصير فينا. يمكن صار لازم كلنا نطلع من هالبلد لحد ما يعبر صحابنا الحدود ليساعدونا".

نطلع؟ قال أبوه: "ليش أنا أترك بيتي منشان اليهود؟ خل الجيوش العربية يقاتلوهم من حولي".

صاح سالم فجأة بفزع. أطبقت يد على عينيه وأخرى على فمه. عرف من القهقهة أن حسانًا وراءه. شعر بقرصة قوية على خده وحسان يقول: "شو هدا يا سليمو؟ بتتسمع عند الباب مرة تانية؟ أقول لبابا وإلا تدفع لي لأسكت؟"

تلوّى سالم في رعب يحاول الإفلات من قبضة حسّان، فصفعت يده بلا قصد خد حسّان. توقف أخوه الكبير عن الضحك وبدأ بالصراخ: "بابا! بابا!".

توقف الحديث. اقتربت خطوات نحوهما، وفُتح باب المطبخ بقوة.

رأى سالم ورأسه محشور بين ذراع حسّان وعضده وجه أبيه المنتفخ وعينيه الغائرتين تحدّقان فيه.

قال حسّان: "ضربني يا بابا. كان عم بتسمّع ع الباب. ولما حاولت أمنعه ضربني".

غص سالم بالظلم الذي يسمعه. انطلقت الكلمات كالقذيفة من فمه قبل أن يمنعها. صرخ: "كذاب! يا كذاب يا ابن الكلب!".

اتسعت عينا حسّان من الصدمة، واستوعب سالم ما قاله. قطعت كف أبي حسّان بخاتمها الضخم الهواء بينهما، فصفعه بقوة حتى انغرزت أسنانه في شفتيه. اختلط لعابه وطعم الدم بدموعه التي جرت على خديه.

نظر إلى شفة أبيه المتهدلة، الشفة نفسها التي قالت لا الأسبوع الماضي لذهابه معهم إلى القطاف، ولا لشجرة البرتقال التي غُرست من أجله، ولا لفكرة أمه في إقامة حفل عيد ميلاد له مثل أولاد البريطانيين. سمع نفسه يقول: "يا رب يجو اليهود ويطردوك". ركض من بينهم كالصاروخ صاعدًا الدرج نحو غرفة نومه، وصفق الباب بشدّة.

***

جفّف الهدوء دموعه تدريجيًا. تناهت إليه الأصوات من وراء الباب مرة ثانية، تناولت أسرته العشاء من دونه، والآن ارتفع صوتا أمه وأبيه في جدالهما الليلي. وموضوع اليوم هو عقد اللؤلؤ الذي فرطه رافان، لكن بابا قال إن إصلاحه سيكلف الكثير. صرخ بصوته المتقطع: "بتفكري إنك تزوجتي واحد معبّا مصاري؟ ما بيكفي إنه هذول اللبنانية الحرامية نشلوني لما خدتك؟ هلاّ إنت جاية تخلصي ع الباقي؟ بدك تلبسي وتتزبطي زي بنت

ليل بيروتية ارجعي هناك. من ماسكك؟" ثم أتى ردها البارد: "بِبيروت، حتى بنات الليل بيعيشوا أحسن منّي". وضع سالم الوسادة فوق رأسه.

سمع صرير الباب يُفتح بهدوء بعد العشاء، ثم سمع خطوات خافتة. همس صوت حسّان نادمًا: "سالم. بابا قال بتضل في غرفتك وإنت محروم من الأكل. بس أنا جبت إلك طبق". انقلب سالم على جنبه لينظر إليه، لكنه لم يتكلم.

"يا الله يا سالم! كنت بمزح معاك بس. كل اشي بتاخده عن جد يا أهطل. بس ليش زعلّت بابا منك؟ إنت ما بتعرف طبعه؟" مد يده ومسد شعر سالم بلمسة خجولة.

حاول سالم أن يتجاهل الطعام بعد أن غادر حسّان. لكن بطنه قرقرت فلم يستطع إلا أن يقرّب الطعام إليه ويحشره في فمه، ازدرد اللقمة وأنزلها في بلعومه بغضب.

التفّت الأفكار في عقله كالأفاعي. ظلم حارق، من حسّان وفخره بيوم قطافه، ومن رافان الذي أتى ليستحوذ على ذراعيّ أمه ووقتها. ومنه هو سالم، لا رجل يُحترم ولا طفل يُحتضن. وفوق هذا جاءت كلمات أبي مازن فنزلت في حنجرته الساخنة بطعم الخوف والثلج. لماذا سيأتي اليهود إلى هنا؟ لماذا يُجبرون على ترك بيتهم؟ راح يعملوا فينا متل ما عملوا في دير ياسين. شاعت قصة المذبحة في أنحاء فلسطين كريح حمراء.. خمسون قتيل، مئة، مئتان. شعر أن طعم الأرز في فمه كالرمل، وصراخ المرأة يرنّ في أذنيه.. "عمر! عمر!".

نحّى الطبق جانبًا واستلقى ثانية، وسحب الغطاء على رأسه. وبعد ساعة سمع مقبض الباب يتحرك للمرة الثانية. وهذه المرة شعر بيد باردة تلمس جبينه، واستنشق عطر أمه فزالت مخاوفه. حاول ألا يتحرك قدر أنملة، خائفًا

من أن ينطق بكلمة تجعلها تتركه.

طال الصمت. لم يستطع أن يحتمل أكثر من ذلك، فهمس: "مش غلطتي يا ماما. بابا بيكرهني".

كان وجهها صفحة بيضاء في الظلام. "بيكرهك؟ إنت ما بتعرف شو يعني الكره يا عَيني".

"طيب ليش حسّان بيروح للبيارة مرة تانية وأنا لا؟ مش عدل هيك".

قالت بصوت واهن: "وين العدل بهالحياة؟ حتى الله مش عادل. واللي بيفَكِّر غير هيك بيكون حمار. رَح تتعلم يا سالم. لما حدن بَدُّه شغلة لازم يلاقي هو الطريق لَياخدا".

اعتدل سالم على السرير جالسًا. "بدي ألقّط البردئان. هدا حقي. هدا دوري".

ضحكت بحنان: "يعني بدك تصير فلاح إنتَ كمان يا ابني الذكي؟" لسعته كلماتها كما فعلت كلمات مازن.

قال بحرارة: "أنا مش فلاح. بس هذول شجراتي متل ما هم شجرات حسان. وصار عمري سبعة، يعني إجا دوري. إنتِ وبابا وعدتوني".

أمسكت ذقنه بيدها، وأصابعها الملساء كالرخام على وجهه. "طيب يا أفندي. اشكُر ربَّك على شي واحد بس، إنه الله عطاك إمّ ذكية... والله ذكية متل ابنا. وأذكى من بيَّك بكتير. حكينا الليلة، بعد ما راق شوي بالأركيلة. بكره الصبح بتنزل ع بكيّر وبتبوس إيده... ورَح تروح ع البستان. ارتحت؟ هيدي هدية عيدك يا عَيني".

تمسّك سالم بطرفي وسادته. استلت موجة السعادة المفاجئة أنفاسه، كأنها

موجة باردة على الشاطئ. أطبق ذراعيه حول عنقها، وكلمة "ماما! ماما!" محبوسة في حنجرته، لكنه ابتلعها كيلا تطفر الدموع من عينيه كالأطفال.

احتضنته إلى صدرها. لامست همساتها الدافئة شعره: "ما يكنلك فكر يا عَيني". ثم تغيّر شيء فيها، فأبعدت ذراعيه عن رقبتها، وأعادته إلى مكانه في السرير. قالت له وهي تدير وجهها نحو الباب: "بكره إن شاء الله". فكرر وتلك النغزة نفسها تعود في صدره: "بكره".

مالت عليه تقبل خده، فتذكر قلقه السابق فقال بسرعة: "ماما.. واليهود اللي بدهم يجو هون؟"

توقفت أمه عند عتبة الباب، خلفها ضوء الصالة ينير المكان. "شو بهن؟"

"كان أبو مازن بيحكي عنهم. ومازن برضه والمعلمين في المدرسة. رح يصير متل ما صار في دير ياسين؟ ليش عملوا هيك؟"

لم تجبه في البداية، فظنّ أنه أغضبها. لكن عندما تكلمت، كانت كلماتها متأنية، كأنها تسحبها واحدة تلو الأخرى من بئر عميقة.

"كل الناس هون عم يحلموا. اليهود بيحلموا ببلد. والعرب بيحلموا إنه الماضي يرجع. بيَّك بيحلم إنه يصير غني. حتى أنا.." تنهدت وأشاحت بوجهها. "لما تصير الأحلام أهم من الحياة ما بيعود يهمك شو تعمل لتحققها".

بقي سالم بلا حراك، والوسادة ملتصقة بيديه، يحس بأن وزنه من البهجة صار خفيفًا. عندما تكلمت أمه عن الأحلام، لم يستطع التفكير في أي شيء إلا أشجار البستان.

استدارت لتخرج من الغرفة، لكنه رأى ترددها. مدّت يدها لتلمس وجهه.

"سالم. إذا حدا قال إنك فلاح ما تنكر. ما حدا آدمي وصادق بفلسطين غير الفلاحين. هنِّي اللي بيملكوا الأرض... مش اليهود ولا الأعيان. هنِّي اللي زرعوها بإيدَيْهن وعرقهن. ولو قدروا كانوا حموها كمان. بس خانوهم.. عم تفهم؟"

أومأ سالم مصممًا على ألا يخيب ظنها فيه. والحقيقة أن حديثها كان غامضًا كأغنية غريبة تثير حيرته وعجبه.

تركت يدها خده وقالت: "نام هلاّ". لكن سالمًا ظل مستيقظًا بعد خروجها لفترة طويلة، حتى انسلّ منه نهار ذلك اليوم في غمامة تعبه، فأغلق عينيه.

كانت ربيكا تردد دائمًا: "لكل يهودي قصة بداية. أين كان عندما وُلدت إسرائيل. وأنت يا جوديت قصة أمك".

"لكنني لا أريد أن أكون قصة حرب".

"قصة حياتك مختلفة يا صغيرتي. قصتك ليست لأحد غيرك يا موميلا. لكنك لا تستطيعين أن تغيّري ما تكونين بالنسبة للآخرين".

كلما تعاظم القلق في كنيس رايهب رود على المقاتلين في الحرب لأجل الوطن كأنهم كلاب تتقاتل على عظمة، قالت دورا وإصبعها يلوح في الهواء، كموسيقار يقود سيمفونية شجن: "ظللنا أيامًا نحاول إخراجها من بطني. لم أستطع أن ألدها لأن القلق على عمها الذي سافر ليحارب في الجيش في يافا وحيفا كان يفترسني. كنا نلتصق بالبي بي سي ليلاً نهارًا. نتابع الماشوغنا[1] الذي يجري هناك.. أولئك العرب الملاعين الذين يهددون بقذفنا في البحر".

هذا في الحقيقة ما جرى؛ كان والداها قد أقفلا محل الأسرة (أزياء غولد) وركبا السيارة في طريقهما إلى المنزل. شعرت دورا بموجة الألم الأولى تصعقها كضربة من حافر حصان على بطنها. شدّت ذراع جاك وهو يمسك مقود السيارة وصرخت: "أوقف السيارة يا أحمق. سوف ألد!"

دخلا مستشفىساندرلند رويال بعد نصف ساعة مترنحين. ودُوّن اسم دورا في ملف طبيب التوليد كالآتي: د. غولد، خَروس كبيرة في السن، ملاحظة: ولادة متعسرة. تأكدت القابلة أن الطبيب المناوب لم يكن ثملاً، ثم

1- الجنون باليديشية

غيّرت مريلتها وحضّرت بلاسم الكلام لتصبّه في أذن الوالدة.

لكن كل هذه التحضيرات ذهبت هباءً. فآلام دورا تواصلت، والطبيب يجتهد وكزًا ووخزًا، لكن ماء الجنين لم ينزل. ظلت يومين على هذه الحالة، تحت أضواء المستشفى الساطعة، إلى أن اكتفوا من الصبر وقرروا أن يخرجوا المولود حبًا أو كرهًا.

سمّى جاك ولادة جوديث "معجزة القيادة الحذرة". لكن دورا كانت تقول إن ولادتها قدرية، إشارة إلهية أن مولد ابنتها كارثة سلمت منها بمشقة. كان تعسر مخاضها الثمن الذي دفعته لدخول مسرح العذاب اليهودي العظيم.. ثمان وأربعون ساعة من آلام المخاض جعلتها تصرخ "أخرجوها مني... أخرجوها أرجوكم!". وبعد كل الدم واللحم المتمزّق الذي لا يراه المرء إلا في ساحة حرب خرجت في النهاية بنت صغيرة هزيلة، تحاول أن تسحب الأوكسجين بصعوبة، في اللحظة نفسها التي تنفست فيها دولة إسرائيل أول أنفاسها.

وُضعت جوديث في غرفة تسكنها غيرتروود (وتناديها أسرتها بغِرتي) من قبل مجيئها. غرتي هي طيف سارح في السادسة عشرة من عمرها. حدّثت الجدة ربيكا جوديث مرةً عن حكاية غرتي: "إنها ليست أختك بالدم، لكنها من أهل الله مثلنا". كانت أولى ذكرياتها عن غرتي وهي مضطجعة بجانبها في الليل تنتحب. ومعزوفة بكائها منسوجة في أحلام طفولتها كخيوط زرقاء يشيع فيها الحزن. في أحد الأيام، وجدت صورة تحت وسادة غيرتروود: أسرة ثانية.. فتاتان جامدتان تكتسي ملامحهما نظرة رزينة، وتحملان طفلاً رضيعًا في ذراعيهما. مكتوب خلف الصورة: غيرتروود، أستير، دانيال كراوس – فيينا، 1939.

مكتوب في شهادة ميلاد جوديث، التي ملأها جاك بيدٍ مرتعشة: جوديت

ربيكا غولد. أصرّت دورا على جوديت. كان هذا اسم أمها التي ماتت في بودابست ميتة عنيفة في بداية الحرب، ولم تجف مقلتاها على فراقها بعد. امتلأت حياة دورا بالجوديتات حتى إنه لم يخطر في بالها أن الاسم قد لا يلاءم فتاة بريطانية سوف تعيش خارج أسوار الطائفة اليهودية في ساندرلند، وستكون في فصل إنجليزي جامد يعجّ بالتشارلوتات والفيكتوريات. ولو علمت بالـ(h) الخائنة التي أضافتها جوديت خلسة في نهاية اسمها ليصير جوديث بعد أن بلغت الخامسة لماتت كمدًا.

قالت جوديث مرة لجدتها ربيكا وهما تسيران معًا عائدتين من الروضة، تهز رأسها الأشقر الصغير: "اسمي مضحك يا بوبي. يضحكون عليّ. لماذا لا أغيّر اسمي؟ هل يمكنك أن تكلّمي ماما من أجلي؟"

ربّتت يد ربيكا المنمّشة على يدها البيضاء المكتنزة: "أوه موميلا. يومًا ما ستكبرين وستختارين اسمك، كما فعل بابا، وكما فعلت أنا أيضًا. لكن عندما نكون أطفالاً فيجب أن نتسمى بالأسماء التي أعطونا إياها آباؤنا. هذه الأسماء تظهر أن أمهاتنا وآباءنا يحبوننا جدًا ويريدوننا دائمًا قريبين منهم".

"لكن لماذا اختارت اسمًا مضحكًا؟ اسمكِ ليس مضحكًا. واسم توني ليس مضحكًا". أنثوني (أو توني) هو ابن عمها الثري المراهق، حديث أسرة غولد ومحط حسدهم.

"سمّتك أمك على أمها لأنها تحبك كثيرًا كما أحبّتها أمها. هكذا نتذكر أحبابنا، بأن نحيي ذكراهم في أطفالنا. ولهذا أعطاك بابا اسمي أيضًا، حتى تتذكريني عندما أموت، وتظل قطعة مني معكِ".

ارتجفت جوديث وشدّت كف جدتها الدافئة إلى خدها. في الأسبوع الماضي، مات طائر زينة كانوا يربونه في فصلها، وقد شاهدت بعينين دامعتين

المعلمة وهي ترفع كتلة الريش الصغيرة وساقيها الحمراوين الملتويتين من أرضية القفص القذرة.

قالت بجدية تفوق عمرها: "لا تموتي يا بوبي. أريدكِ هنا". كيف ستكون الحياة بدون صوت جدتها الحنون، وشعرها الأحمر الدافئ، وحضنها الناعم لتجلس عليه؟

كانت ربيكا جزءًا من جوديث، ليس في اسمها فحسب. ربيكا هي صياح النوارس في سماء رايهب رود، والهواء النقي النظيف، وهدير أحواض بناء السفن البعيدة. هي زبد البحر على شاطئ روكر، وهدير المرفأ وصخبه، تلك الأصوات التي تسميها نبض الشمال. وأحيانًا كانت ربيكا تأخذها إلى ضفة نهر الوير لترى الناقلات الضخمة تمخر عبابه وتثير الرغوة على سطحه فتبث فيها الحياة، وجوديث مرفوعة بين ذراعيّ جدتها لتسمع هتافات الحشد، وتلوح منديلها مودعةً الوحش الفولاذي اللامع.

أحيانًا تفكر جوديث في حال أسرتها الصغيرة مقارنةً بالعشائر اليهودية التي تلتمّ كل سبت في الكنيس. لم تشعر قط أن أفراد أسرتها مترابطون. حتى في نزهات الأسرة في شاطئ روكر، تجد دورا تختفي خلف نظارتها الشمسية جالسةً على كرسي الشاطئ بلا حراك، وجاك يلّوح بنسخة من جريدة (ساندرلند إيكو آند شيينغ غازيت) أمام وجهه ليحرّك نسمات الهواء، وغرتي تجلس تحت المظلة مرتديةً كامل ملابسها. أما جوديث فتجلس لوحدها مع دلوها ورفشها، تشتاق إلى التجديف في البحر لولا خوفها من الأمواج.

شرحت لها ربيكا الأمر.

"أنت من أسرة كلها مينش". واستعملت مينش الكلمة اليديشية التي تعني البطل الفاضل. كانت أصابعها تعبث بنجمة داود الذهبية المعلّقة حول

عنقها. هدية زفافها. "وليس كل من هم حولنا مينش يا موميلا. رزقنا الإله أنا وجدك رحمه الله ثلاثة أبناء رائعين. وكل واحد منهم يفعل خيرًا في حياته. عمك ماكس يحارب ليبني وطنًا لنا في إسرائيل. وعمك أليكس يتبرع بشيء من أمواله ليساعد المعوزين والمرضى. أما أبوك جاكوب، فقد ظنّ وأمكِ أنهما لن يُرزقا بأطفال، فتبنيا غيرتروود عندما كانت صغيرة في عمرك، وأنقذاها من معسكرات الاعتقال. وهما يرعيانني الآن في هرمي. فأنتِ إذًا العطية التي أرسلها لهما الإله. وأرسل رزقًا لإبنيّ الآخَرين، أهم من تكوين أسرة كبيرة. فلا تحزني. إنها متسفا... نعمة لنا كلنا".

لكن ابن عمها الذي كان قادمًا من لندن في زيارة له كانت له وجهة نظر مختلفة. قال وملء فمه آيس كريم الرم والزبيب: "أبي يقول إن ماكس مجنون. مجنون حقًا. يعيش في الصحراء، ويزرع البطيخ، ويرمي أهل البلد بالنار. نحن نسميه القديس ماكس الصهيوني. أما أبي، فربما جدتي العجوز تخادع نفسها إن اعتقدت أنه روبين هود اليهودي، يسرق من الأغنياء ويعطي التعساء". ابتسم ابتسامة عريضة وهو يلعب بشعر جوديث الأصفر. "بصراحة لا أظن أن هناك شخص طبيعي في هذه الأسرة إلا أباك. لكن لا تحزني يا بوبيلا. أنت ستكونين طبيعية أيضًا".

تتذكر جوديث أنها فكرت: ليس من الطبيعي أن يكون أطفال الحروب طبيعيين. يجب أن يكونوا أبطالاً. مينش. وتلك كانت نهاية القصة بالنسبة لدورا، قصة ولادة إسرائيل وجوديت غولد (نسخة ساندرلند). عاد القديس ماكس من الحرب بعد تأمين "اليشوف" ودحر الجيوش العربية الخمسة، واختفاء نصف الأهالي العرب على آثارهم. أهدى ماكس دورا خرقة زرقاء متّسخة مطرّزة بالنجمة السداسية هديةً لوضعها طفلتها. وكانت تقول دائمًا: "قال لي ماكس إنه في تلك اللحظة، لحظة ولادة جوديت، كان بن غوريون

ينصب العلم. لقد ارتدى هذه القطعة عندما تطوع للتجنيد، وسافرت معه من يافا إلى يورشليم. إنها ذكرى لجوديت بالتضحيات التي قدّمها جيلنا".

لكن جوديث لم ترَ نجمة ماكس هذه إلا مرة واحدة في حياتها. قطعة قماش بالية مقصوصة على شكل مربع، تخفيها دورا في حقيبة مكياجها كأنها خرقة قديمة. سمعت أمها مرة تقول لأبيها في صراحة: "قد يكون أخوك من جنود الله الصالحين، لكنه لا يساوي شيئًا في البنك".

لمستها جوديث برفق، كأن القماش سيجرحها. أطرافها مقطّعة ورائحتها غريبة، رائحة حمراء ساخنة كالتراب. لم تكن تشبه العلم الأزرق البديع الذي تراه في التلفزيون. هذا الأزرق باهت ومجروح، وقد استحال رماديًا كنهر الوير إن ارتفع مدّه، وعليه بقع داكنة كالدم.

استيقظ سالم على صوت انفجار.

سمع دويًا حادًا قويًا جرّه من نوم عميق، كأنه طرقة عالية على باب الغرفة. جلس على فراشه مشوشًا. لم يرَ إلا غرفة مظلمة ما زال في هوائها بقايا عطر والدته.

كان ظلام سماء يافا قد بدأ ينقشع. وسرير حسّان خاليًا لم يُمسّ. وهدوء المكان يجعل أنفاسه مسموعة.

ثم جاء الصوت مرة أخرى. دوي ثانٍ هزّ الجدار وأثار الغبار من السقف.

قفز مفزوعًا. ما الذي يجري؟ أين هم؟ هل تركوني؟ احتضن مفرش السرير، والدموع تنهمر من عينيه.

بدا باب الحجرة المفتوح مرعبًا كحفرة سوداء تقود إلى المجهول. ثم وقع انفجار آخر. وهذه المرة دفعت الغريزة قدميه لتسابق الريح. شعر وهو ينزل الدرج بانفجار ثالث كاد يوقعه. وجد الباب الأمامي مفتوحًا، وضوءًا فضيًا يتسلل إلى داخل البيت.

رآهم في الخارج.. أمه وأبوه وحسّان واقفون في بستان البرتقال، يرتدون مناماتهم. حسّان حافٍ، ورافان يصيح بين ذراعي أمه ووجهه أحمر ككدمة فوق كتفها. سماء السحر فوقهم منشقّة بخطوط بيضاء كوميض البرق. وكل انفجار يرسل ومضات ضوئية برّاقة من بين أوراق شجر البرتقال. وأعمدة دخان سميكة تنتشر نحو البحر.

سأل والخوف يملأ فمه بالرماد: "شو بيصير؟" حتى حسان كان الرعب

ظاهرًا على وجهه، ممسكًا يد أبيه كطفل ضعيف.

ردّ أبوه دون أن ينظر إلى الأسفل: "قذائف هاون". تبع كلماته صوت صفير حاد، ثم وقع انفجار هز الأرض. "بدهم يخوفونا بالقنابل لنهرب. بعدين يخلصوا على الباقيين".

نظر سالم إلى أمه. كانت تقف جامدة كالحجر، وعيناها متعلقتان بالبحر. وخلف رؤوسهم ظهرت بوادر ضوء أبيض ينذر بانبلاج الصبح.

لم تكن ضربات القذائف قريبة منهم. بل تركّزت في الشرق والشمال، ناحية ساحة برج الساعة ومركز المدينة، بمستشفياتها، وسينما الحمراء ومقاعدها التي منحتها الاسم، وجامع المحمودّية، وكنيسة القديس بطرس وأيضًا كنيسة القديس جورج. ومن بين ارتطامات القذائف، تناهى إلى سمع سالم أصواتًا أخرى أقرب إليهم؛ صرخات وصافرات إنذار، ونباح الكلاب المُثارة، وصرير عجلات السيارة.

أخذ شخص ما يضرب البوابة بقوة، فجفلت عائلة الإسماعيلي، حتى إن أمه وقد تملّكها الخوف فعلت ما لم يصدّقه أحد؛ تعلّقت بذراع أبي حسان. همست بحزم لحسّان وسالم: "فُوتوا لجُوَّه". لكن الولدين لم يستطيعا حراكًا، وقفا متجمدين في مكانيهما كقطط تراقب كلب صيد.

"أبو حسّان!" أتاهم صوت رجل يخترق فتحات البوابة الحديدية، صوت يستنجد. "افتح الله يخليك".

تعرّف سالم على الصوت فورًا، وكذلك عرفته أمه، لأنها قالت لأبيه: "هيدا إسحاق يشوف. بسرعة.. خليه يفوت".

أبواب يافا نادرًا ما تقفل ليلاً، حتى بعدما حلت أيام الخوف عليها. لكن أبا حسّان قرر في تلك الليلة أن يقفل المزلاج الصدئ لأول مرة منذ أعوام.

صرّ القفل وارتجّ وأبو حسان يتلمّسه في تخبّط ليفتحه. ظلت عائلته خلفه متكومة على بعضها في قلق.

اتّسعت عينا إسحاق يشوف مع اندفاع الخوف، ومحرك سيارته الأوستن العتيقة وراءه يعمل. وقفت لي لي عند باب السيارة المفتوح، وشعرها الكستنائي مغطى بوشاح أصفر مزين بزهور. جلس إيليا في المقعد الخلفي بجانب كومة من الحقائب وحزم من الملابس. التقت عيناه بعيني سالم، فأشاح بوجهه في ارتباك.

تحدّث إسحاق بسرعة مع والديه. "هذولا هم الإرغون يا أبو حسان. راح ياخدو يافا اليوم أو بكره. وأنا خايف إنهم راح يدخلوها من حارتنا، من شان هيك راح اطلّع العيلة كلها". كان إسحاق يعيش في المنشية، على الحدود بين يافا وتل أبيب. "سكروا الباب عليكم ولا تخلي حدا من الجنود يستعملوا بيتك. خليكو بعيد عن الحرب والإرغون راح يبعدوا عنكم".

تقدمت أم حسّان لتقف إلى جانب زوجها. "وين بدكن تروحوا؟"

حلّ الاعتذار مكان الفزع في نظرة إسحاق. "لتل أبيب. خلص الحلم اللي كنا عايشين فيه. إما الإرغون راح يضربونا وإلا العرب راح ياخدو التار منا".

قلب أبو حسان رأسه يمينًا يسارًا، كأن الإجابة سوف تظهر من العدم من بين أشجار البرتقال. ولمّا لم يحر جوابًا ردّت أم حسّان ببرود: "ما رح نهرب. هيدا بيتنا. وفيه جنود هون كمان. خليهن يحرسونا".

رفع إسحاق كفيه في استسلام. "لا تحطي أملك في الجنود يا إم حسان. شوفيهم آلاف عم يهربوا للميناء والمراكب. وبيناتهم الجنود العرب. كنت مفكّر أن يافا خليت وإنكم لوحدكم باقيين هون. بس.. إذا ما ضل حدا هون

مين راح يكون بيافا بعد ما ينعدل الحال؟" هز رأسه وقد خانته العبارات، ودهش سالم عندما رأى عبراته دموعًا تغرق وجنتيه.

اقتربت لي لي ولمست ذراع إسحاق. قالت بعربيتها المكسّرة: "ما تخوفهم إنت إيزاك". استدارت إلى أم حسّان وقالت: "خليكو إزا بدكو بيتكو ما بيضيع. روحوا لقبو وضلوا فيه. أنا عارف انتو شو يفكر. بس هدولا مو وحوش. هدولا بس بدهم...". أشارت بيدها، ثم سكتت ونظرت إلى الأرض. حملق سالم بها. ماذا تقصد؟ ماذا يريد هؤلاء اليهود؟ لا حق لهم هنا. كل شيء هنا من حقه هو.

ثم أخذت لي لي تجرّ كم إسحاق، وتحدّثه بعبرية سريعة، فاستدار إلى السيارة وإيليا. قال: "صار لازم نروّح. الله يحفظك يا أبو حسان أنت وعيلتك. يا ليت..." لكن أمنيته ضاعت وسط ارتطام وارتجاج آخر.

رمى نظرة أخيرة على سالم، واستحث زوجته على السير نحو السيارة. ظلّت عينا إيليا معلقتين بسالم والمحرك يستيقظ من غفوته القصيرة. انطلقت الأوستن نحو الطريق الساحلي.

التفتت أمه نحو أبيه. "مش رح نطلع من هون. لي لي معا حق. إذا طلعنا مين عارف شو رح يصير بهالبيت. والإنجليز بَعْدُن مسيطرين بيافا. مش هيك؟ كلّن ميشيل العيسى". كان العيسى اليافاويّ المسيحي قائد وبطل من أبطال جيش الإنقاذ العربي في نظر اليافاويين. "روح شوف الإنجليز. خليهن يعملوا شي!". كوّرت قبضتها في غضب، كان جسم رافان يرتفع وينخفض بفعل الفواق في ذراعها، والسماء تلتمع وترتعش خلفهم.

***

أشرق صباح يوم الأحد طويلاً متمهلاً، وغاب عن بيت الإسماعيلي تدريجيًا صوت وقوع القذائف. استقرّ صمت ثقيل. لا مسجد رفع أذان الفجر ولا الظهر. لكن حرارة اليوم هي التي ارتفعت، وتعالى معها زعيق أبواق السيارات، وطقطقة المحركات، وثرثرة الأصوات الجافلة. بدت لسالم أنها قادمة من الميناء. كان إسحاق يشوف محقًا. كل يافا أطلقت ساقيها للريح.

قعد سالم مع أمه وإخوته في المطبخ يستمعون إلى الراديو. كان ميشيل العيسى يتحدث. يقول إن القنابل فتكت بمئات العرب قرب مركز المدينة والميناء. واليهود يتقدمون من الشمال، تقذفهم أحشاء تل أبيب الحديدية. والناس يهرعون من أمامهم. فرغ شمال يافا من سكانه تقريبًا. ناشد المواطنين أن ينبذوا الفزع ويظلّوا في بيوتهم. سوف يدافع عن يافا حتى آخر قطرة من دمه.

لم يحتمل سالم حرارة الظهيرة، فذهب يتمشى في البستان. غطّى السماء ضباب أصفر. وبدت الأشجار كأنها ترتجف، وأوراقها تنتفض رغم سكون الهواء. أيصيب الخوف الأشجار؟ مسّد جذع شجرته بيده، متحسسًا علامات طوله المحفورة عليها. همس للخشب: "ما تخافي. راح يرجع كل اشي لحاله. بس ضلي اكبري لحتى أقطف بردئاناتك". وقف في تلك الظهيرة يكررها همسًا. لا تخافي. لا تخافي.

بعد ليلة مسهدة، ارتدى والده أفضل بدلاته، البدلة الصوفية البنية التي اشتراها من القدس، ليذهب إلى مدير البوليس البريطاني ويستجديه ليقدم لهم يد المساعدة. حاولت أزرار قميصه منع كرشه من البروز، أما قميصه فتلّون بعرق إبطيه. مرّ من أمام سالم الواقف عند الباب، وخرج من المطبخ ثم من البوابة الخلفية. كانت سيارة أبي مازن الجديدة في انتظاره، ومحركها يئن بلطف كجناحي يعسوب يرفرفان فوق بركة. صحبهما مازن في المقعد

الخلفي مرتديًا زي الكشّافة. كان وجهه شاحبًا فوق قميصه الضيّق. وعندما أدار وجهه نحو سالم، رأى أن عينيه حمراوان منتفختان. لكن عندما انتبه إلى أن سالمًا يراقبه، رفع أصابعه على شكل مسدس وصوّبه على سالم من خلف نافذة السيّارة. أطلق مازن رصاصة وهمية والسيارة تنطلق بكامل صحتها عبر الشوارع الصامتة.

رجع أبو حسّان في تلك الليلة يحمل أخبارًا جيدة. "أعطى الإنجليز موعد لليهود. لو ما انسحبوا، راح يفجروا هالجرذان من حفرهم".

تنفس سالم الصعداء، وصفق حسّان بجانبه وهتف: "الحمد لله!"

ردّت أمها بتجهم: "ما تصدق كلامهن. يا ما وعدوا الإنجليز من قبل. رايحين بعد تلات أسابيع. ليش بدُّن يضحّوا بجنودُن؟ أحسن يخلونا نقتِّل بعضنا".

لكن لا شيء يمكن أن يفسد فرحة سالم هذه المرة، ولا حتى كلمات أمه السوداوية. لقد نجوا من السقوط بعد أن كانوا على حافة الهاوية. تذكر تلك الحادثة التي وقعت في الصيف الماضي، عندما سقطت طفلة في البحر من على رصيف الميناء، وأمها تصرخ. قفز الجميع في المياه الداكنة، لكن موجةً جاءت من حيث لا يعلمون، فجرفت الطفلة إلى اليابسة.

ناموا جميعًا تلك الليلة. لكن ما أن أشرقت شمس اليوم التالي حتى تسلل الخوف إلى قلوبهم ثانية. مرّت ثلاثة أيام منذ بدأت القذائف تنهال فوق رؤوسهم. ثلاثة أيام بلا كهرباء ولا ماء. فاحت رائحة العرق وقذارة الحمّام في المنزل، وصار هواؤه ثقيلاً كامدًا كدخان الزيت.

أين البريطانيون؟ ظلّت الشوارع خالية. قالت نشرات الراديو المتقطّعة إن القتال ما زال دائرًا في الشرق وخارج المنشيّة. أما القرى القريبة من يافا

والضواحي المتطرفة فسقطت في يد الاحتلال. أين جيش الإنقاذ العربي؟ أحسوا بأنهم وحيدون بلا معين.

عند الظهر، طلبت أم حسّان من حسّان أن يبدأ بإحضار مؤونهم الغذائية من سقيفة الحديقة. "لازم نخبيهُن. مين بيعرف قدِّيش رَح نضل ع هالوَضْع؟"

ساعد سالم أخاه على حمل أخياش الدقيق إلى الداخل. تبدو مثل الأكياس التي يحملها اللاجئون، الأكياس التي يستعملها الفلاحون لينقلوا الفاكهة إلى السوق. هذه الأكياس هي الآن دفاعه الأخير ضد ضراوة الجوع. أصبحتَ الآن فلاحًا غبيًا مثلهم يا حمار.

عادت الرجفة إلى جسد سالم مع حلول المساء. وصلته أصوات قذائف الهاون من الشمال. ركض نحو غرفة والديه في الظلام المتزايد. كانت أمه هناك تملأ حقيبة بيدين راجفتين. سألها وقد نشّف الخوف ريقه: "شو بتعملي ماما؟"

لم تلتفت إليه. "مش رَح خليهن ياخدوا أغراضنا إذا إجوا. روح إنتَ كمان حضِّر حالك. حط تيابك بشنطة وجيبها لعندي.. وقول لحسان". كان صوتها هادئًا، لكن يديها مضطربتان مشغولتان بجمع فساتينها وحليّها.

جرى سالم يهبط الدرج مذعورًا، يجره قلبه كحيوانٍ يائس، يستحثه: اخرج! اخرج! اركض! اختبئ! حاول أن يهدّئه، أن يخبره أن أمه تحتاجه رجلاً في هذا الموقف.

اتجه ببطء إلى رف المدفأة في الصالة. كانت الصور المرتّبة ترتيبًا دقيقًا تتراص فوقه، صورة جديه اللذين لم يقابلهما في حياته، وصورة صفراء لشابة حزينة في يوم زفافها. بحثت عيناه بيأس عن الصورة التي يريدها.

ها هي. صورة مستطيلة صغيرة لرضيع واسع العينين يستند إلى شجرة. كان الطفل ينظر بحيرة وادعة إلى شيء ما خلف الكاميرا، ويبدو في الخلفية منزل الإسماعيلي الأبيض كالطيف، والأزهار تلتفّ حول واجهته.

أُلتقطت الصورة في الحديقة بمناسبة غرس شجرة رافان قبل عام. ويظهر فيها الطفل وشجرته والمجرفة الصغيرة منصوبة في الأرض، إعلانًا ببدء حياتين جديدتين. لكنّ شجرة رافان كانت صغيرة ولا يمكن الاستناد إليها، فوضعوه بجانب شجرة سالم.

وعندما اشتكى سالم إلى حسّان بأن هذا ليس عدلاً، عاتبه أخوه: "ما تكون زي الولاد الزغار! هي بس صورة. ايش بيهمك فيها؟" لكنه كان يتظاهر دائمًا بأنه هو من كان في الصورة، في مكانه الشرعي.

لمس جذع شجرته في الصورة واستمدّ منها الشجاعة. سحب الصورة من الرف وجرى إلى غرفته. وضع في حقيبة المدرسة بيجامته وملابس داخلية وقميص، ثم وضع الصورة في المنتصف. بعدها خرج لينتظر ما سيأتي.

***

سهر سالم تلك الليلة في الحديقة في أحضان شجرته، ومعه مطواة في جيبه. حاولت أمه مرتين أن تدخله إلى المنزل لكنه يرفض في كل مرة، حتى جلبت له في آخر الأمر بطانية تدفئه.

تكوّر على نفسه مع حقيبته مستندًا إلى جذعها. اختفت أنوار يافا فكانت ليلة ظلماء لم يرَ مثلها من قبل. ومن بين الأوراق الداكنة المرتجفة رُشت السماء بالنجوم المضيئة. أسدل جفنيه فتمازجت معًا كنهرٍ برّاق.

عندما اقترب الفجر، وقف على قدميه يستنشق هواءه العكر. اتّشحت

الدنيا بهدوء مطبق، وخلت ما عدا من الطيور والكلاب. ظنّ للحظات أنه ما زال نائمًا، وأنه سيستيقظ في سريره ونور الشمس يتسلل من النافذة.

ثم رآها.. سحب سوداء تعلّقت في الهواء فوق الميناء. رائحة احتراق علت فوق البيوت الهامدة. صارت أصوات الطلقات النارية والصياح أقرب من قبل، خليط متوحش من الهتافات والصرخات. انقبضت معدته. صلصلت البوابة الخلفية، فاستدار في غمضة عين، ورأى أباه يهرع نحو المنزل. وما هي إلا لحظات حتى خرجت أمه تركض ووجهها ناقع في القلق. جرّته من ذراعه وبدأت تسحبه إلى الداخل.

قالت بصوت مشحون: "اليهود اجو. راحت المنشيّة ووصلوا للبحر. رَح يجو هون.. خانونا الإنجليز. تعا هلاّ.. يلاّ بيّك بيقول لازم نطلع هلاّ".

رفع سالم رأسه فرأى أباه ينزل الدرج حاملاً حقيبتين كبيرتين. لحقه حسّان بحقيبة قماشية من غرفتهما. انهمرت الدموع على خديّ أخيه، وأثار مرآها مزيدًا من الدموع في عينيّ سالم.

شعر بعجز فظيع، كورقة شجر في ريح عاصفة. انتحب: "بديش أروّح. هدا بيتنا. بدي ضلّ هون".

كان وجه أبيه المستدير ينضح بالعرق، وتفوح من جلده نتانة الخوف. أجابه: "بتستهبلش! راحت يافا واليهود صاروا هون. ما بتتذكّر دير ياسين؟ راح نموت إذا ضلينا!" لم يعبأ سالم بأي من هذا. تابع أبوه كلامه وهو يجرجر الحقائب الثقيلة إلى السيارة: "راح نروح لأختك". كان أبو حسّان يقصد ابنته الكبيرة من زوجته الأولى التي تُوفّيت منذ أعوام. سبق أن زاروا نادية وزوجها طارق مرة من قبل، وارتشفوا معهم الشاي المسكّر وأكلوا البلح في الناصرة الجبلية.

تناهى إلى أسماع سالم صوت الغراموفون الخاص بأمه، صوت امرأة تغني بالتياع عن الحب. لن يجبرونني على الرحيل! طرقت الكلمات عقله، أعلى من النواح، وأعلى من الدويّ القادم من الميناء. ركض خارجًا من الباب متجاهلاً نداء حسّان وبكاء رافان.

لا يمكن أن يرحل. إنهم لا يفهمون. كان الجو مثخنًا ثقيلاً، وأغصان الأشجار تتهدل مرهقةً تجاه الأرض وهو يجري بينها.

ارتّجت المطواة الثقيلة في جيبه. نشلها من خزانة حسّان قبل أسابيع. أخرجها وشرع يحفر في لحاء شجرته المطواع الكلمةَ حرفًا حرفًا. إذا جاء أحد إلى هنا سيعرف أنكِ لي. كانت يده ترتجف فظهرت الخطوط ضعيفة، وقبل أن ينتهي، شعر بيد أمه تمسك بذراعه.

قالت لاهثةً، وهي تسحبه إلى الداخل: "تعا يا سالم. خلي الأمور تقطع على خير. قرر بيَّك وخلصنا، ويا رب ما يطوِّل الوضع".

سوف تأتي لحظات في السنوات المقبلة يحاول فيها سالم أن يسترجع في ذاكرته تلك الدقائق الأخيرة في بيت الشموطي. قصاصات من ذكريات تتراقص في الهواء مثل الشرارات المتطايرة من الجمر. رفرفة الستارة الصفراء في غرفته وهو يلبس جواربه، وانعكاس صورة أمه في مرآتها وهي تجمع ما تبقى من جواهرها. رياح الربيع المباغتة التي أعطت شجر البرتقال القدرة على التهامس فيما بينها، وهم يدفعونه إلى المقعد الخلفي. صرير البوابة وانغلاق مزلاجها. انصفاق باب السيارة لآخر مرة. تردد صدى هذا الصوت الأخير في قلبه، وهم يبتعدون عن بوابة المنزل.

1956

"مدّي ذراعيك يا فتاة! مدي ذراعيكِ يا جوديث! تحركي يا صغيرة! كيف ستنجحين في أي شيء إن لم تبذلي كل جهدكِ؟!"

في ظهيرة كل خميس طوال السنة الثامنة من عمر جوديث، كانت تدسّ رأسها تحت الماء في نادي ويرسايد للسباحة، لتهرب من تحضيرات احتفال الذكرى المئوية الثالثة لعودة اليهود إلى بريطانيا. لم يعبأ السيد هيكس مدرّب السباحة في ويرسايد أن رئيس الوزراء بنفسه، وبصحبة دوق إدبنرة أيضًا، سيشرّفان حفل عشاء سيحضره "كل يهودي مهم في البلد". استشاطت دورا غضبًا، ويحق لها. فأليكس غولد هو أحد منظميّ الحفل، ومع ذلك لم تتلقَ أسرته دعوة للحضور!

كانت جوديث تعرف أنهم ليسوا أغنياء، لأن دورا لم تترك فرصةً تمر دون أن تذكّرهم بذلك مرة واحدة في اليوم على الأقل. تسمّي عمها أليكس "الثري المدلّل من لندن"، وتصرّ على معاقبة جوديث وجاك كأنهما خدعاها بحرمانها من مكانها الحقيقي بين نخبة المجتمع.

ناح جاك باللوم على الحرب. حظي محلّ "أزياء غولد" بنجاح باهر في الثلاثينيات. لكن عندما سقطت القنابل على أحواض السفن في ساندرلند وجعلتها حطامًا ركامًا، رحل نصف زبائنهم. ولطالما سمعت جوديث أباها يتذمر وهو يعدّ حساباته: "ما بين ملابس أملِك وأولئك السفلة في البنك، حتى الفئران لن تجد ما تأكله في بيتنا".

ويلغت ثورة أمها أقصاها في اليوم السابق لعيد ميلاد جوديث الثامن. زعقت في وجه جاك: "إنه يشعر بالعار لأنك أخوه. نحن بالنسبة له أقرباؤه الفقراء من الشمال. أما هو فيتبختر كالطاووس في ريجنت بارك".

تراجع جاك خارجًا من الباب الخلفي وقال: "ما هذه السخافة؟ هناك أربعمئة ألف يهودي في بريطانيا، لا يمكن أن نتعشى كلنا مع رئيس الوزراء. اهدئي وأعدّي حفل عشاء هنا في الكنيس إن أحببتِ. يجب أن أذهب الآن إلى المحل، غرتي تواجه صعوبة في الحسابات. باي يا قطتي". قبّل رأس جوديث، ثم انسحب مسرعًا.

عبرت دورا أمام جوديث إلى المطبخ كومضة برق خاطفة بكعبها الأزرق، وأخذت تعدّ المائدة بقرقعة ساخطة بالأواني الصينيّة على خشب الطاولة. دخلت جوديث على أطراف أصابعها.

رفعت أمها ذقنها بألم. "أترين ماذا يفعل أهل أبيكِ؟! كأنهم لا يعلمون أنهم يهود. ذهبٌ باسمهم، لكن قلوبهم من فحم، وهذه هي قيمتهم[1]. بعد كل العذاب الذي مرّ به اليهود يجب أن يقفوا معًا متلاصقين. أما هؤلاء الأسياد النبلاء فلا طبعًا.. إنهم لا يروننا في مقامهم. نفسي نفسي ولا يعرفون كلمة غيرها. أما نحن فإلى الجحيم. لا تصبحي مثلهم يا فتاة". هزّت إصبعها محذّرة صورة جوديث المنعكسة على صنبور الماء في مغسلة المطبخ. "لا فخر في تربية طفل يصبح عاقًا لوالديه عندما يكبر".

هزّت جوديث رأسها بوقار. أحسّت بالغثيان وهي تتصور ألوف البشر يلتصقون ببعضهم البعض، أجساد اليهود الملتحمة كقطع "البيبر ماشيه" الرمادية اللزجة التي يشكّلونها في المدرسة.

1- غولد بالإنجليزية تعني ذهب

تخيّلت عندما أوت إلى فراشها تلك الليلة أنهم كانوا واقفين في أفخر ثيابهم خارج موقع الحفل الشهير الذي يقيمه عمها أليكس في لندن. لكن تحول الحفل، لسبب ما بعد أن غطّت في النوم، إلى حفل زفاف، وآلاف الأقدام كانت تدور وتدور في رقصة الهورا ‖ صخب لا يُطاق جعل جوديث تصمّ أذنيها. ثم سحبت دورا يدها وهي تهتف: "هيا تعالي! كلنا ننتظركِ يا سيدتي!" لكن شيئًا ما منعها من الحركة، وعندما نظرت إلى الأسفل، رأت قدميها تغوصان في قطع ورق لزجة، تلتصق بها، وتلصقها في مكانها.

***

لم تكن الطالبات اليهوديات في ابتدائية هيلفيو يفعلن شيئًا غير الالتصاق ببعض، ولذا فلم تعرف جوديث ولا أي من هؤلاء الفتيات ما معنى أن تكون لها صديقة غير يهودية. لكن عندما انتقلن إلى الصف الثاني، وجدن أنفسهن مقسّمات في الفصول بحسب الحروف الأبجدية لا بحسب الانتماء الطائفي. أُجلست جوديث بجوار طالبة جديدة اسمها كاثلين، لها شعر أجعد أسود وأسنان متفرقة، وترتدي بنطلونًا ورديًا ضيقًا تحت تنورة المدرسة.

وفي وقت الفسحة، عندما اتجهت عضوات نادي الكنيس (كما كان توني يدعوهن) إلى ركنهن المعتاد في الساحة، طلبت كاثلين من جوديث بمرح أن تريها مكان الأرجوحات والحمامات. سارت الفتاتان في الملعب تحت ضوء الشمس الباردة، ثم شعرت جوديث بيد كاثلين النحيلة تمسك بيدها، وهي تثرثر بلثغة محببة.

طردت كاثلين صبيًا كان يتأرجح، ثم رفعت تنورتها وجلست على الأرجوحة. قالت: "أنت لستِ مثلهن على الإطلاق. إنهن مثل الفتيات

اللاتي كنّ في مدرستي السابقة.. لا يحببن الاختلاط بأحد. أما أنتِ فظريفة".

خجلت جوديث وهزت كتفها. قالت بغير اقتناع: "إنهن لسن بهذا السوء". نظرت إلى الخلف بتوتر، فرأت المجموعة التي تعرفها حق المعرفة، ميني وبلانش وإيثل ورايتشل، يحدّقن فيهما بدهشة واضحة.

بدأت كاثلين تتأرجح. حرّكت قدميها على الأرض، ورفعت ساقيها نحو السماء. جلست جوديث بجانبها وفعلت مثلها، وشعور كاسح بالغبطة يملأ صدرها مع الأنفاس القوية.

سألتها الفتاة الجديدة وهما تمرّان ببعضهما أثناء التأرجح: "لماذا تلعبين معي وليس معهن؟"

لم تعرف جوديث بماذا تجيبها. لم تكن تكره صديقاتها الأخريات، لكنها لم تكن تحبهن أيضًا. قالت أخيرًا: "هكذا". شعرت بنفحة شجاعة لأنها تعرف أن أمها لم تكن لتقبل بما ستقوله: "أنتِ تعجبينني. لماذا لا أصاحبكِ؟"

قهقهت كاثلين وقفزت في الهواء فحطّت على الأرض. صاحت: "أنتِ متمردة! ماما تقول إن المتمردين هم أفضل الناس". أخذت تثب حول جوديث، وتلوح بذراعيها في الهواء. "يا سلاااام. شيء جميل...". ثم بدأت تغني:

توتي فروتي...

يا جودي!

وأخذت تردد الأغنية، حتى مالت الفتاتان على جدار المدرسة، والدموع تفيض من عينيهما من الضحك. ومنذ ذلك اليوم، أصبحت جوديث جودي، وصارت هي وكاثلين متلازمتين كالجسد وظله.

كانت كاثلين سبّاحة. "ماما تقول إن هذا هو الشيء الوحيد الذي أجيده". وكان مسبح ويرسايد في طريقهما إلى المنزل، وقفت جوديث مبهورة تراقب الفتيات يقطعن المسافات سباحةً، بطاقياتهن البيضاء التي تبرز من زرقة المياه الصافية التي تشبه صور البحر في بطاقات العم ماكس البريدية. ليس ثمة يهود ولا غيرهم تحت الماء، هذا ما فهمته جوديث من السيد هيكس بطريقة غير مباشرة، عندما دفعتها كاث نحوه لتسأله عما يتطلّبه الانضمام إلى فريق السباحة. أجابها: "تحتاجين ساقين قويتين، وقليل من الجراءة يا صغيرة".

تغيّرت الحياة منذ تلك اللحظة. أصبحت دوامة من فقاعات الماء والهواء، ونشوة الشهقة الأولى بعد اختراق سطح الماء، والضغط المريح على أذنيها الذي يحجب صوت دورا المزعج، والخدر الناعم في ذراعيها قبل أن يتحول تدريجيًا إلى قوة. كل خميس بعد تمرين السباحة، تعود مع كاثلين إلى منزلها لتستمعا إلى أسطوانات بات بوون وليتل ريتشارد على غراموفون والدتها.

كانت رائحة منزل كاثلين سجقًا وبطاطس مقلية. وأمها ترتدي البناطيل الضيقة صارخة الألوان التي تظهر كاحليها، وقمصان مقلّمة تجعلها تبدو كالعروسة. وللأم كابنتها شعر أجعد أسود، وهي تدخن وتضحك كمراهقة، وقد دعت جوديث إلى أن تناديها مولي. سألت جوديث مرةً عن والد كاثلين، ولم تلقَ جوابًا أكثر من هزة كتف من كاث، و"ذهب بلا رجعة" من مولي.

أحبّت جوديث جو المرح الذي تلقاه معهما، ونصائح مولي التي لا تنتهي، وكلها تحث الصغيرتين على أن تعيشا حياتهما كما تشاءان، وأن تصنعا قواعدها بنفسيهما. كانت جوديث أصغر من أن تستوعب أن كاثلين تعاني من مشكلة في القراءة، وأن مولي تغرق أحيانًا في نوبات من الثمالة والنحيب، وأن ملابس كاث قذرة، ولو أن اتساخها يتدارى خلف ألوانها.

في ظهيرة آخر جمعة من العطلة الصيفية، طرقت كاث باب بيت جوديث.

وسمعت جوديث من حجرتها صوتها وصوت غرتي، فهرعت إلى الأسفل. تأففت غرتي بإنجليزية شمالية تشوبها لكنة ألمانية طفيفة: "انتبهي أين تجرين يا جوديث!" انسلّت جوديث من جانب أختها، وهي تقلّب عينيها في ضجر وعناد. قهقهت كاث تقفز ورائها، وتقفز معها خصلاتها السوداء فوق كتفيها.

قالت كاث عندما اختفت غرتي: "أتعرفين ما سأفعل؟ سأذهب إلى ويرسايد من أجل غطسة سريعة. خرجت أمي مع رجل ما ولن تمانع ذهابي. أتأتين معي؟"

نظرت جوديث بسرعة من فوق كتفها. كانت غرتي وربيكا في المطبخ، ورائحة سمك الجيفلت المحشو تتغلغل داخل البيت حتى وصلت الصالة. قالت بعبوس: "لا أستطيع. الليلة هي ليلة السبت".

رفعت كاث كتفيها في استغراب. "كنت أظن أنكِ متمردة يا جودي!" لكنها ابتسمت ابتسامة واسعة خبيثة أضاءت وجهها المنمّش. "سنذهب إلى شاطئ روكر هذا الأحد. آخر مكان نسبح فيه هذا الصيف. أمي تقول لماذا لا تأتين معنا؟"

تململت جوديث في تلك الليلة أثناء تأدية صلاة السبت. وكل ما كان يتردد في رأسها أثناء غناء دورا هو هتاف كاث "لا تبتلي بالماء يا حلوة"، وهي تسير وثبًا في الشارع.

وعلى طاولة الطعام، أخذت جوديث تدير ملعقتها وتقلّبها بتجهّم في وعائها، تتابع بعينيها كرات الزلابية تطفو على السطح. كانت قد شاهدت ربيكا أثناء إعدادها لهذا الطبق. لفت الزلابية بخبز الماتزو والبيض، ثم طرحتها بلطف في الإناء، ورائحة الدقيق تملأ المطبخ. لكنها الآن تطفو وتحوم

حول ملعقتها متثاقلة كئيبة. تقلّبت معدتها بمجرد التفكير بوضع واحدة في فمها.

استرقت أصابعها كرة من الكرات، فدحرجتها تحت وعائها. كانت غرتي تركّز بشدّة على إنائها، ودورا مشغولة بالحديث مع جاك، تحكي له عن امرأة في الكنيس كانت تضاجع غويا[1] جاء من العاصمة.

رفعت جوديث كرة ثانية وخبأتها. وهمّت بدحرجة الثالثة لولا أن ربيكا قالت فجأة: "موميلا! ماذا تفعلين بكرات الكنيدلاخ؟"

التفتت دورا بسرعة نحوها، ورأت عيناها الصغيرتان كرات الزلابية المغدور بها تطلّ من تحت حافة الصحن. سألتها: "ماذا تفعلين يا فتاة؟ تخبئين طعامكِ مرة ثانية؟"

أجابت جوديث بعناد: "بطني يؤلمني منها". رفعت دورا حاجبيها، وصوّب جاك ملعقته نحوها. قال: "بعد كل الجهد الذي بذلته جدتكِ من أجلنا اليوم يا قطتي؟ ألا تعرفين أن هناك أطفالاً جياعًا في العالم؟"

زمّت دورا شفتيها، والتمع قرطها على ضوء الشموع. قالت: "لا أعرف ما خطبها مؤخرًا. لم أسمع قط عن طفلة لا تأكل ما يقدمه لها والداها. كانت غرتي بعمرك يا سيدتي عندما جاءت إلينا.. وكانت تتضور جوعًا". أخذت تشير بإصبعها النحيل إلى جسد غرتي المكتنز. "كانت تموت جوعًا في الغيتو مع ملايين اليهود. وقد قتل الجوع أعدادًا كثيرة مثل ما قُتل من اليهود في معسكرات الهولوكوست. هذه إهانة لذكراهم عندما تنفرين من الأكل والخير كثير، أليس كذلك يا غرتي؟"

قالت غرتي بوقار لجوديث، وهي تنكزها بمرفقها: "يأمرنا الرب أن نأكل

1- أي رجل غير يهودي.

في يوم السبت. هذا أمر إلهي يا جوديث".

دفعت جوديث ذراعها عنها. قالت بتعاسة شديدة: "توقفوا عن الحديث عن الرب طوال الوقت. هذا ليس طبيعيًا!" انقلبت سحنة غرتي بدهشة مجروحة، ورفعت دورا يديها في الهواء. قالت بنبرة تقريع: "طبيعي؟! وما الطبيعي في طفلة تجادل أوامر والديها؟ ما الطبيعي في احتقار تقاليدك؟ هاه؟!"

لم ترفع جوديث عينيها عن الطاولة، حاولت أن تتظاهر بأنها غاطسة تحت الماء، وأن صوت دورا بعيد خافت، كنغمة تشق طريقها بصعوبة بين الأمواج.

أخذت دورا تحشو فمها بكرات الكنيدلاخ، وتومأ بشكر مبالغ فيه ناحية ربيكا. "الأفضل إذًا أن تذهبي إلى غرفتكِ إن لم تكوني جائعة. هيا.. اذهبي! بدأت أشعر بعسر الهضم بسببك".

قامت جوديث من الطاولة، وساقاها ترتجفان كأنما رُبطت بهما أثقال من رصاص. خرجت ببطء من المطبخ، وشعرت وهي تسير بلمسة ربيكا الناعمة الحانية على ذراعها.

صار جوعها وهي مستلقية على سريرها في الطابق العلوي خواءً مثيرًا بداخلها. وصلتها همهماتهم من المطبخ. إنهم يتكلمون عني. وقد ملأها هذا بشعور بالذنب، وببهجة قلقة.

رفعت ساقيها في الهواء لتنهض عن السرير، ثم فتحت حقيبتها المدرسية. أخرجت كرّاسة حمراء وقلم رصاص مقضوم. قطعت ورقة ورسمت في أعلاها قلبًا صغيرًا، ثم كتبت:

عزيزتي كاث، حرمتني أمي من الطعام وحبستني في غرفتي. أنا فعلاً

متمردة الآن! أتمنى أن تستمتعي في روكر في نهاية الأسبوع. أراكِ في المدرسة. جودي.

طوت الورقة وكتبت اسم كاث عليها. أتستطيع يا ترى أن تقنع غرتي أن تمرّ بمنزل كاث يوم الأحد في طريقها إلى درس العبرية الأسبوعي؟

***

بعد أسبوع من "حادثة الكنيدلاخ" كما سماها توني، وصل ماكس من الكيبوتس الذي يعيش فيه في إسرائيل لحضور يوم كيبور، وهو كما قال الحاخام لهم في درس التوراة: "إنه يوم نستغفر فيه من كل ذنوبنا". وعلّمهم أن لا أكل ولا شرب فيه من غروب ذلك اليوم حتى غروب اليوم التالي، ويحرم ارتداء الأحذية الجلدية، والاغتسال، ووضع الزيوت أو العطور، ويحرم كذلك الجماع. احتارت جوديث من معنى الأخيرتين، فهي لا تتذكر يومًا مرّ دون أن تتطيب دورا بعطرها. أما فيما يخص معنى "الجماع"، فقد مرّت أعوام طويلة قبل أن تفهم ما المفروض أن يحدث في غرفة جاك ودورا ذات السريرين المنفصلين. ولمّا عرفت شعرت بغضب شديد من خداعها بعيشهما في زيف هكذا لسنوات.

كان الطقس حارًا رغم أنه شهر سبتمبر. وقد أمضى جاك الشهر كله يندب حظ مبيعاته المتدنية في بضاعة الخريف. تسللت جوديث في إحدى الليالي إلى سرير غرتي، وصراخ دورا على زوجها يصلهما مخترقًا أرضية الغرفة. صاحت بسخط: "ما فائدة شراء معاطف إضافية في أغسطس؟!"، أما رد جاك فضاع في غمغمةٍ خجلة. همست جوديث وذراعا غيرتي الناعمتان الشاحبتان تحتويانها: "أيكرهان بعضهما؟" ردت غرتي هامسةً: "لا. لكنهما تعبا حتى

وصلا إلى ما هما عليه، ولذلك فهما خائفان من السقوط مرة ثانية". ووجدت جوديث نفسها تفكر ما إذا كانت غرتي تريد أن تعود إلى وطنها، أو إن كانت تتمنى أن جوديث هي إستير أو دانيال من فيينا، بدلاً من أن تكون أختًا زائفة تدفعها بعيدًا عن حياتها.

جرت العادة ألا تذهب جوديث إلى المدرسة في يوم كيبور، رغم أنها كانت أصغر من أن تؤدي فرض الصيام. وعندما سألت ربيكا لماذا عليها أن تظل محبوسةً طوال اليوم في البيت، أجابتها بلطف: "لأن معدتك الصغيرة لا تحتمل أن تظل فارغةً لوقت طويل. وشرعنا يضع سلامة الإنسان وحياته فوق أي واجب ديني. يعني أن صحتك تأتي أولاً يا موميلا. لكنك تستطيعين أن تجلسي معنا وأن تفكري وتصلي كما نفعل".

ذهب جاك ودورا وغيرتي إلى المعبد في يوم كيبور. لم تصحبهم ربيكا بسبب قلبها المعتل، فبقيت في المنزل مع جوديث لتعدّ طعام العيد، فصنعت خبز الحالا، وقطّعت البيض المسلوق، وحضّرت كعكات الكوجل الحلوة. لم تحاول جوديث أن تذهب إلى ويرسايد، فذهبت كاث من دونها ثانيةً.

أشعل عمها ماكس عند غروب الشمس شموعًا أحضرها معه من الكيبوتس. قبّل أمه وطلب بركتها، وعانق جاك ودورا، وصافح العم أليكس الذي جاء من ريجنت بارك. وقد حضر الاحتفال ابن عمها توني قادمًا من سكن الجامعة. وعندما غطست الشمس خلف الأفق، أطلق توني صفيرًا عاليًا من بين كفيه المضمومين ليقلّد صوت بوق الشوفار، وغمز مداعبًا جوديث وهو يفعلها.

استمتعت جوديث باجتماع الأسرة، وحضور العمّين يعني حضور المغامرة والدراما. فأليكس يشبه أبيها لولا أن مزاجه أشدّ حدةً، وأنه يرتدي البدلات المفصّلة على مقاسه بالضبط، ويزيّن إصبعيه الصغيرين بخواتم

ولسانه بلهجة لندنية ناعمة. تشعر جوديث متى ما تحدث بأن كلامه كأنه ميلك شيك بطعم الشوكولاته يُصبّ في كأس بارد. أما العم ماكس فكان يبدو بلياقته وبشرته التي لوحتها الشمس كنجم سينمائي. أشرق وجه ربيكا فخرًا وسعادةً وهي ترى أبناءها كلهم يتحلقون حول المائدة. جلست تمسك كف ماكس وتمسح من عينيها دموعًا خرساء.

قال أليكس وهو يقتطع من الكعكة لنفسه: "أخبرنا يا ماكس.. كيف حال بطيخ صهيون؟"

أجاب ماكس بنصف ابتسامة: "تعال وانظر بنفسك. تبرّع بجهدك بدلاً من مالك".

ابتسم أليكس ابتسامة عريضة وربت على رأس جوديث. قال لها: "يظن عمك ماكس أنني مرابٍ من مرابي المعبد. إنه لا يفهم أنه لولا الأنذال أمثالي الذين يموّلون المثاليين أنقياء السريرة أمثاله لغرقت إسرائيل في مستنقع منذ سنوات". طقطقت ربيكا بلسانها ولوّحت بكفها تجاه أليكس. قال جاك: "لا حاجة لمثل هذا الحديث".

قال ماكس منحنيًا إلى الأمام بعينين زرقاوين واسعتين: "لا. لا. لا... قل ما تشاء يا أليكس". ثم استدار نحو جوديث وتوني وأردف: "عمكِ أليكس يعرف أن الحرب لم تترك لنا شيئًا في الكيبوتس عندما انتهت، ولا حتى ماء. لا أتذكر أنه اتصل بي مرة يعرض عليّ شراء أدوات أو أنظمة للري. اضطررنا إلى صنعها بأنفسنا".

أومأ جاك رأسه وقال: "خيرًا فعلتم"، وأليكس يضحك. تابع ماكس كلامه:

"كنتُ أصغر من توني، وكنت أعتقد أنني قد ذقت مشقة العمل. لكنني

كنت جاهلاً". ألقى ابتسامة متحسرة نحو جوديث وهز رأسه. "بعد الأسبوع الأول من العمل، كانت التقرّحات تملأ يديّ حتى أنني لم أكن أستطيع أن أمسك ملعقة لأتناول طعامي. كانوا يطعمونني كالطفل. ولا تنسوا العرب طبعًا! يقذفوننا بقنابلهم، ويرموننا برصاصهم في الظلام. فلا تنصتي لكلام عمكِ أليكس يا جوديت. أبوكِ أعلم بالحال. والمال لا يشتري كل شيء. المال لم يشترِ لليهود وطنًا".

قاطعه أليكس: "بالله عليك! لماذا يجب أن نعكّر كل حفل عشاء وكل عيد يهودي بالحديث عن إسرائيل والهولوكوست؟ أليس لدينا موضوع آخر نتحدث عنه؟"

أشار ماكس بشوكته إلى جوديث: "انظر إلى هؤلاء الصغار هنا. يجب أن يعلموا أن إسرائيل لم تظهر بمعجزة ما بين ليلة وضحاها. ذُبح اليهود هناك أيضًا كي يأمّنوا لنا جميعًا مكانًا على الأرض".

مررت ربيكا يدها بحنان على وجه ماكس وقالت: "أعرف يا حبيبي".

ارتشف أليكس من النبيذ. "أنت تأخذ الأمور بجدية زائدة يا ماكس".

"لأن الأمر جاد جدًا. يجب أن أرعى يوميًا ثلاثمئة إنسان، وعشرات الأفدنة، وأكثر من مئة رأس ماشية من بقر وخراف، وأطنان من المعدات والآلات الزراعية. وبئر في حاجة إلى إصلاحات وتصريف كل سنة".

"لا عجب إذًا أن آثار العمر ظهرت عليك".

"أليكس. منذ عشر سنوات وأنا أطلب منك المال.. وهو مال أبي بالمناسبة، المال الذي أراده أن يكون لنا جميعًا. ماذا؟ ألا تظن أنني أستحق بنساتك المعدودة؟ ألا تظن أنه يمكن للرجل أن يكون فقيرًا وفاضلاً في الوقت نفسه؟" قلّب أليكس عينيه امتعاضًا. تابع ماكس: "أتذكر يا جاك؟

كان المفروض أن تكون (أزياء غولد) استثمارًا للأسرة كلها بعد موت أبي، أن تكون تأمينًا يكفل لنا الحياة. لكن أخانا الصغير طبعًا كانت له أفكار أخرى... لماذا يضحي هو؟ لا طبعًا. كل المال ذهب في مصروفات جامعته العريقة، وبدلاته الراقية التي لم نستطع أن نشتري مثلها، ولكنته المتفاخرة المزيفة. أأتوسل أسرتي ليعطوني قليلاً من المال؟ أسألكم بالله عليكم، أيجب أن تتوسل إسرائيل اليهود؟"

اكفهّر وجه أليكس، ورأت جوديث الجالسة بجانبه يده تنقبض تحت الطاولة.

"تريدني أن أشكرك على تضحياتك؟ تضحية ماكس غولد العظيمة... هجر أمه وأسرته ليجري وراء أوهام المجتمع الاشتراكي الزراعي الواحد ويطلق النار على العرب؟ إن اليهود أمثالي دفعوا ما فيه الكفاية لإسرائيل. من تظن دفع ثمن شراء آلاتك الزراعية وأبقارك الغالية؟ أؤكد لك أن السوفياتيين لم يدفعوا شيئًا".

"ولا المصرفيين دفعوا شيئًا كذلك".

"صحيح؟ من دفع إذًا؟ موسى؟! خسر أبي كل ما يملك هاربًا من حرب واحدة يا ماكس، ولم يكن ليرضى أن يُصرف ماله على حرب ثانية. مكان آمن! الجدران العالية والأسوار الشائكة لا يعني أن المكان آمن. إنها تعني أن المكان محاصر".

حاول جاك المقاطعة، لكن ماكس الذي شحب وجهه رغم سمرته قذف سؤالاً: "وخطأ مَن هذا؟ لقد جرّبنا طريقتك. جرّبنا أن نعيش مع العرب، لكنهم همج بدائيون. لا تعليم ولا حضارة، وكلهم يكرهوننا. إنهم يطلقون علينا الرصاص ويقذفوننا بالقنابل منذ خمسين عامًا ليحاولوا إخراجنا من

أرضنا. يسموننا وحوشًا! وقرار التقسيم... كان سيضمن السلام. لكنهم رفضوا حتى مناقشته. إنهم يفضّلون محونا من على وجه الأرض!" دفع أليكس نفسه عن الطاولة، فأصدر كرسيه صريرًا أفزع جوديث.

قال أليكس بهدوء: "لم يكن العرب وحدهم من يحملون الأسلحة والقنابل. أنسيت الإرغون؟ أنسيت مندوب الأمم المتحدة الذي فجّروه... برنادوت؟ والأهم من ذلك، ماذا عنّا نحن الذين لا نعيش خلف أسواركم الشائكة؟ آسف يا ماكس، لكن إسرائيل لم تجعل يهوديًا واحدًا يشعر بالأمان. وكثيرون جدًا من يكرهوننا بسبب ذلك، سواءً كانوا محقين في كرههم لنا أم مخطئين. إنهم يدسّون منشورات معادية للساميّة تحت باب غرفة توني في سكن الجامعة!" التفت ماكس إلى توني الذي كان ينظر إليه في ثبات. "ما الحل؟ أن نحزم متاعنا ونهاجر إلى القدس العام المقبل؟" رفع أليكس كأسه كما يفعلون في نخب دعاء عيد الفصح. "لا. أشكرك على معروفك وأفضالك التي تقدمها من أجلنا لكنني سأبقى هنا في لندن وسأظل أدفع ضرائبي. اذهب أنت فاحفر آبارك في الصحراء لتبني لي بلدًا آمنًا".

شيء ما جعل جوديث تدير رأسها لتنظر إلى ربيكا التي كانت تجلس بصمت إلى جانب ماكس. ربيكا، الجدول العذب الذي يحملهم جميعًا معها.

كانت جدتها تدير وجهها ناحية رف المدفأة الذي يحمل صورًا من حياتهم محبوسةً داخل إطارات مغبرة. حفظت جوديث الصور عن ظهر قلب، رغم أنها لا تتذكر أبدًا ماذا في كل صورة. كانت نظرة ربيكا سارحة، "على بعد أميال طويلة" كما كانت تعبيرها دائمًا. وعلى ضوء الشموع الواهي، بدت كأنها تعوم في حزن خاص، والأشباح تحاول التكالب على جسدها لجذبها معهم. قفزت صرخة في حلق جوديث، ومدّت يدها وقالت: "بوبي!" التفت أليكس إليها بسرعة وقال: "أمي! هل أنتِ بخير؟" مال جاك يمسك

بكتفها، فعادت من حيث سافر عقلها. وضعت كفها على عينيها في تشوّش.

قال جاك: "أمي.. نعتذر عن هذا الإزعاج. تريدين أن ترتاحي قليلاً؟" تنفس ماكس الصعداء، وعاد أليكس إلى كرسيه، ومدّت دورا يدها من وراء ظهر زوجها لتمسك يد ربيكا.

تكلمت ربيكا رغم أنه لم يكن واضحًا من كانت تقصد بكلامها: "لا عليك يا عزيزي. لا تقلق عليّ. أمك عجوز". جالت عيناها حول الطاولة، وما زالتا دامعتين غائمتين. قالت بأنفاس متهدجة: "كلوا يا صغاري.. كلوا. إن وجودنا معًا نعمة. ووطننا هو حيثما نكون مجتمعين، مهما كانت الأرض. أسر كثيرة تفرقت".

هزّت رأسها وعادت إلى تناول طبقها. أمسك أليكس وماكس الشوكة والسكين، وشرعا يتحدثان عن شيء يُدعى قناة السويس وهي، حسبما فهمت جوديث، معبر مائي مثل الوير، استولى عليه مؤخرًا عربي اسمه ناصر. وقد اتفق الإخوان الثلاثة على أن هذا التصرف سيء جدًا، وأنه سيقود إلى مشكلات أكبر.

نامت جوديث في ظلام حجرتها بعد انتهاء العشاء. حلمت ببطيخ ينمو في الصحراء ثم ينفجر، فيخرج منه أفواج من مئات البشر، ويتفرقون هنا وهناك حتى تأتي أحذية عملاقة ثقيلة فتدهسهم وجوديث تصرخ: "من هنا! من هنا!"، وتبكي بحرقة.

***

أعطى السيد هيكس في نهاية سبتمبر الإذن لجوديث لتخوض اختبار الالتحاق بفريق الناشئين للسباحة. قال مثنيًا عليها: "أنتِ لستِ سبّاحة

سيئة". سألت نفسها في حجرة التغيير فيما بعد عن سبب عدم ابتهاجها بالأمر.

كانت جوديث وكاثلين تجففان نفسيهما، والنظارات الواقية تقطر ماءً. قالت: "كاث؟"

"نعم يا جودي رودي؟"

"ما رأيكِ بنا؟"

"أنا وأنتِ؟"

احمرّ وجه جوديث وهي تجيب: "لا. نحن... اليهود".

وقفت كاث تفكر بهذا السؤال.

"لا أدري. لماذا؟ ما رأيكِ أنت بهم؟"

"أنا أيضًا لا أدري". ليس هناك أي تشابه بين ماكس ودورا وأليكس وربيكا. إنهم أقرب إلى أن يكونوا غزاة من المريخ على أن يكونوا أفرادًا من أسرة واحدة.

جففت كاث شعرها حتى وقفت خصلاتها فوق رأسها كأنها أسلاك.

قالت وهي ترتدي بنطلونها الضيق المبلل: "ماما تقول إن الناس لا يحبون اليهود لأنهم أغنياء جدًا ويتحكمون في كل شيء".

ردّت جوديث: "نحن لسنا أغنياء. ولا أعرف أي شخص غني ما عدا عمي أليكس".

هزت كاث كتفيها وابتسمت. "إذًا لا عيب فيكم". أومأت جوديث بغير اقتناع. وما أدرى كاثلين بهذه الأمور؟ هي نفسها لا تعرف.

حرصت جوديث خلال الأسابيع التالية على العودة إلى المنزل ومتابعة أخبار الساعة السادسة على شاشة تلفزيونهم الجديد. فقدت كل اهتمامها ببرنامج (كراكرجاكر)، ولم تعد لها رغبة في الاستماع إلى الأسطوانات في بيت كاثلين.

في التاسع والعشرين من أكتوبر، بدأت القنابل تتساقط على سيناء. أنصتت جوديث باهتمام إلى مذيع البي بي سي وهو يوضّح أن بريطانيا وفرنسا تمدان يد المساعدة لإسرائيل الصغيرة عقابًا لمصر بعد إغلاقها قناة السويس. لوّح الجنود الإسرائيليون للكاميرا بسعادة وهم يصعدون طائراتهم المقاتلة. بعدها انتقلت الكاميرا إلى الانفجارات، والحشود الصاخبة في لندن التي ترفع لافتات مناهضة لإسرائيل، وتهتف بعبارات معادية لليهود.

تتابعت الأيام حتى بلغ العام نهايته. وبعد أن سافرت كاثلين إلى إيرلندا، وبينما الأخرون يستعدون لاستقبال عيد الميلاد، كانت جوديث وغرتي تشعلان شموع الحانوكا في منزل أسرة غولد، لإحياء عيد الأنوار اليهودي.

نظرت جوديث إلى لهب المينورا[1] في بداية انتشار ظلام الشتاء، فسمعتها مرة ثانية.. أصوات الانفجارات والصرخات. تراقص لهب عود الثقاب فوق طرف الفتيل، فاشتعلت الشمعة الأخيرة بضوء باهر. تذكرت نجمة عمها ماكس المحبوسة في ظلام خزانة دورا. وتساءلت كيف ستكون الحياة لو أن كل شخص على الأرض فعل الشيء نفسه في اللحظة نفسها، وما كان هناك أي فرق بين إنسان وآخر.

1- شمعدان ذو ثمانية أذرع تشعل فيها شموع الحانوكا.

كانت سماء اليوم الذي تعرض فيه للخيانة زرقاء مبهجة في عز صيف الناصرة.

كان يومًا دراسيًا. رنّ جرس الانصراف عند الظهر. أُغلقت الكتب، وحُملت الحقائب على الأكتاف، ودقت الأحذية الأرض الإسمنتية المغطاة بالتراب. انتشرت ثرثرة المراهقين المنفعلة في هواء وسط الناصرة الخانق، بعيدًا عن دروس الحساب والإنجليزي والعبري، متأهبين للسير المرهق صعودًا على التلة.

كان سالم أحد الأولاد القليلين الذين يسيرون لوحدهم، وقد أضاف له بلوغه الخامسة عشرة مؤخرًا وجنتين بارزتين وبشرة شاحبة وذراعين نحيلتين.

تحولت الناصرة في القيظ الشديد من ذهبية بلون الرمال إلى بيضاء كبياض الحليب. تسلّط ضوء الشمس على عينيّ سالم فأوجعهما، وهو يصعد الطريق الرئيسي الملتوي. مرّ بجانب أكشاك البيع في الشارع. أطفال يبيعون الصابون وقطع غيار السيارات وملابس رديئة الصنع.

في الحقيقة إن عائلة الإسماعيلي كانوا محظوظين. حلّوا في الناصرة مثل كثيرين غيرهم قبل وقوع النكبة. آلاف من الفلسطينيين أتوا معهم، فتقاطر الفلاحون والأعيان في موكب واحد، وفي كارثة مشتركة.

والآن، بعد مضي ثمان سنوات على النكبة، صار لسالم سرير في شقة أخته، ومدرسة وجواز إسرائيلي. كان مصدر دخلهم مرتب طارق ومجوهرات والدته، لكن الأهم هو أنهم ما زالوا يملكون في حوزتهم صكوك ملكية

بساتين البرتقال في يافا. أما هؤلاء الأطفال فلم يكن لديهم شيء. كان آباؤهم فلاحين يشتغلون في الأرض. والآن ذهبت الأرض. صار العمل الآن يعني العيش على الكفاف، مما يجنونه من ورش تصليح السيارات، أو من بيع الطماطم في السوق.

صعد سالم بتمهل درج العمارة التي تسكنها أسرته الآن، وهو يعد الدرجات كما يعدون الأيام. كان الدرج واسعًا، لكن القذارة ونتانة الحياة اليومية تملأ جوه.. غسيل وطبخ وعرق وصرف صحي من تحتهم.

كانت أخته نادية في المطبخ تميل من النافذة تعلّق غسيلهم في الشرفة الضيقة. نادت: "يا هلا.. كيف كانت المدرسة اليوم؟" ما هي إلا ثوانٍ حتى ظهرت من باب المطبخ تمسح يديها. وجهها الأسمر المستدير يشبه وجه أبي حسّان، لكن من دون غلاظة ملامحه. ترك القلق خطوطًا على وجهها تتجاوز سنواتها الخمسة والعشرين، مثل كثير من النساء العربيات الجديرات بجرعة سعادة أكبر من تلك التي تعطيهن الحياة.

ابتسم سالم وقال: "منيحة. شو؟ طلعوا كلهم وتركوك براحتك؟"

قالت بتوتر: "إيه.. إيه. أشياء كتيرة صارت اليوم. يا الله! أكيد أنت شوبان. خليني أجيب لك كاسة ميّ". ثم خرجت فجأة تركض نحو المطبخ، كفأرة تحاول الاختباء بين أكياس الحبوب.

كانت شقة نادية وزوجها طارق الغانم كالمرآة التي تعكس شخصية صاحبيها، مرتبة ومنظمة ومحافظة. بيت دافئ اتّسع متجاوزًا إمكاناته المحدودة ليأوي خمسة أشخاص إضافيين. صار عيب نادية وهو قلة الخَلف، بعد رضيع مات في مهده وثلاثة إجهاضات، سببًا للحمد والشكر. لو كان لها أطفال يعيشون هنا فأين كانت أسرة أبي حسّان ستذهب؟

عادت نادية بكأس ماء، وجلست بجانب سالم. لاحظ أنها تعتصر يديها بعصبية وقلق.

قال: "شو مالك؟ لا يكون مخبية حبيبك هون؟" لم تصفع رقبته كما توقع. أقلقه أنها لم تضربه واقشعر جسده متخيلاً أن مصيبة وقعت.

"اسمع يا سالم". سكتت. مدّت يدها تلمس ذراعه. "الله يخليك يا سالم.. اوعدني ما راح تتصرف زي المجنون". مجنون هي الإهانة المفضلة على لسان أبيه. وليس لاختيار نادية لهذه الكلمة تحديدًا إلا معنى واحدًا، وهو أن ثمة مشكلة حصلت.. مشكلة لها علاقة بأبي حسّان.

انفتح باب خلف سالم فاستدار، ورأى رافان يخرج من غرفة النوم. وجهه الأبيض الصغير ناعس، وعيناه الخضراوان كعيني أمه تختبأن وراء جفنين شاحبين.

سأله سالم وهو يفتح ذراعيه لاحتضانه: "شو بتساوي بالبيت؟"

"كنت تعبان وماما ما خلتني أروح ع المدرسة". تقدم رافان منه ببطء، يلمس الكراسي بأصابعه حتى وصل إليه، فتكوّر محتضنًا جسم أخيه، ورفع رأسه ينظر إليه.

قال رافان وأصابعه تنقر ذراع سالم: "حكت لك نادية؟ بابا راجع لَيافا منشان يبيع البيت".

"شو؟!!"

تجمد سالم. شعر بالفزع يسري فيه كالماء المثلج. "مستحيل! مستحيل بابا يعمل هيك. أبدًا". التفت إلى نادية، فرفعت كفيها في استسلام يائس. صفعت جبين رافان صفعة خفيفة تأديبًا.

قالت: "رافان! صحيح إنك مشكلجي! شو بيفهمك بهيك مواضيع يا قرد؟ حبيبي سالم... لا تزعل. ما تحدد شيء هلّا. أبوك مع طارق في المكتب بيحكوا مع أبو مازن". طارق مختص بقضايا الأسرة، يكسب قوته من إلصاق قطع حياة الأسر العربية المكسورة.

"بس مش معقول يبيع البيت! هدا كل اللي ضايل إلنا. كل الفلوس راحت". شعر من توسلاته بأنه عاد طفلاً في السابعة.

"وهَاي هي المشكلة يا سالم. ما عاد ضايل فلوس. أبوك وأمك بدهم يخلو لكم اشي تعيشوا عليه، مش أحلام وبس". كانت الشفقة تطل من عينيّ نادية، لكن الحياة علّمتها أن العواطف لا تغذّيك ولا تدفئك في زمهرير الليل.

سأل سالم: "وين ماما؟" يستحيل أن تدع أمه هذا يحدث.

أجاب رافان: "راحت ع صالون الجميلة لَتقص شعرها. بس هي بتعرف الموضوع. هي قالت لي". حملق سالم بأخيه غير مصدق. ما زال رافان طفلاً في الثامنة.. أي حق يملكه في أن يكون حافظ أسرارها؟

أمسكت نادية يد سالم. قالت بلطف: "صدقني يا حبيبي.. بعرف قد ايش بتحب المكان. بس الله يخليك.. ما تشيل هم. بس يرجعوا على البيت راح نحكي في الموضوع".

أومأ برأسه وسحب كفه من بين يديها. رفع حقيبته على كتفه ثم دخل إلى غرفتهم الصغيرة. غرفة هواؤها حارّ لا يتحرك. استلقى سالم على فراشه تحت النافذة.

كان الأولاد يتشاركون الغرفة نفسها، إلى أن رحل حسّان إلى إنجلترا قبل عامين، ليعيش مع أقارب طارق. ظلّ سرير حسّان كما تركه، بملاءته

المزخرفة بصور كرات قدم سوداء صغيرة. وفراش رافان على الأرض بجانبه ينشر رائحته الكريهة في الغرفة. حاول الصغير في البداية أن ينام مع حسّان في سريره، لكن حسانًا ردّه ردًا صارمًا. "عم بيشخ على الفراش كل ليلة. يا بيشخ يا بيبكي. هدا كل اللي يعرف يساويه". فلجأ رافان إلى التسلل إلى فراش سالم في الظلام متى ما أصبح فراشه شديد البلل، أو لاحقته الكوابيس. كان سالم يستيقظ أحيانًا مبللاً تفوح منه رائحة البول، لكن قلبه لم يطاوعه في أن يصد أخاه وهو في حاجة إليه.

بدهم يخلو لكم اشي تعيشوا عليه، مش أحلام وبس. إنهم لا يفهمون. ما قيمة الحياة إذا صارت أحلامها غبارًا يطير في الهواء؟

***

سمع صوت مفتاح يُدار في الباب الأمامي، ثم هتاف رافان: "ماما! ماما!"

قام سالم من على السرير، واتجه نحو باب الغرفة ففتحه قدر أنملة. مرّت أمه أمام الباب، شعرها يلتمع تحت ضوء الشمس وهي تنحني لتحتضن رافان. بدت مسترخية، بل سعيدة.. متعطرة ومسرّحة شعرها، ترتدي فستانًا أحمر مطرّزًا بالأزهار في حاشيته.

فتح الباب وقال: "مرحبا ماما". استدارت إليه ورافان يحيط ساقيها بذراعيه.

"سالم حبيبي، كيف كانت المدرسة اليوم؟" ابتسمت ومدّت يدها إليه. لا شك أبدًا أن هذا الكلام عن بيع بيتهم هراء.

"منيحة. بيقولوا إنه درجاتي ممتازة".

"طبعًا ممتازة. كلك ذكا ونباهة. لو عندي نص عقلك كنت صرت فوق الريح".

رفع سالم كتفه مخفيًا سعادته. تقدمت نادية التي كانت تقف عند باب المطبخ نحوه، ووضعت يدها على كتفه.

قالت كأنها تدافع عنه: "فعلاً.. شب ذكي كتير". كم كان يزعجه أن تتصرف نادية كما لو أنها لا تثق بأمه أحيانًا.

قال سالم بعد أن استدارت أمه لتدخل غرفتها: "ماما. البيت... بيتنا في يافا".

"شو به؟"

"بدنا نبيعه؟" خرج السؤال بنبرة حادة لم يكن يقصدها. انقلب وجه أمه إلى صفحة بيضاء.

"القصة مش بهي البساطة يا سالم". أتى صوت الباب فمنعها من أن تكمل ما كانت تريد قوله. وصل أبو حسّان وطارق إلى المنزل.

أسرعت نادية تقبّل زوجها، وتساعد أباها المتعرّق على الجلوس على الكرسي. رمت بنظرة تجاه سالم ثم قالت: "بظن أن الولاد بدهم يعرفوا شو عم بيصير يا بابا. فيك تخبرنا شي؟" أدرك سالم أنها أرادت أن تدرأ عنه المتاعب بأن تطرح السؤال الأول بنفسها.

هزّ أبو حسّان رأسه، وقال: "هذول اليهود عم بيصعبوا علينا كل اشي. مرة بيقولوا إنه بيتي ومرة مش بيتي. يلعن أبو هالقوانين الجديدة! بالله كيف بيكون من حقهم يقولوا إنه مش بيتي؟!"

أخذ بملء كفه بذور دوّار الشمس المالحة، وبدأ يقضمها. لم يره سالم

مهتاجًا هكذا من قبل. تذكر ذلك اليوم، قبل أعوام في يافا، عندما سخر مازن من أبيه. لقد ضاق الخناق على أبيه رغم ثرائهم، كالسمكة التي وقعت في الشبكة.

سأله سالم محاولاً الحفاظ على ثبات صوته: "بابا.. ليش بدك تبيع البيت؟ ما كنا دايما بنقول إنّا راح نرجع له؟" هذا هو حلمه.. أن يمحو تعاسة الأعوام الثمانية الماضية في اللحظة التي يدير فيها المفتاح في قفل بابهم.

أجابته أمه: "القصة مش إذا بدنا أو ما بدنا يا سالم. صار لازم نفكر بالمستقبل. مين قَوْلك رَح يدفع حق تياب المدرسة؟ ولّا الجامعة يلي بدك ترُحلا؟"

نقل سالم بصره ما بين طارق وأبي حسّان، ما زال قلبه يرتعد وأصابعه مخدرة.

قال طارق لأبي حسّان: "شو رايك ناخد سالم معنا بكره؟"

سأل سالم: "شو راح يصير بكره؟"

قال طارق وهو يضع حقيبة أوراقه على الطاولة: "راح نروح لمكاتب البلدية في تل أبيب. الظاهر إنه فيه خلاف على ملكية البيت. ضلّينا طول اليوم بنحكي مع أبو مازن والسلطات الإسرائيلية".

غمز طارق لسالم وأشار برأسه تجاه المطبخ. "خلينا نروح نساعد أختك حبيبي، وراح احكي لك كل اشي".

كانت نادية تقول دائمًا إن المطبخ صغير جدًا، حتى إنها لا تكاد تمدّ ذراعيها إلا وضربت الحائط. كانت نادية مشغولة بنشر الغسيل على الشرفة. وضع طارق ركوة قهوة تركية سوداء ثقيلة، مضيفًا أربع ملاعق سكر صغيرة، وأخذ يحركها. انتظره سالم بصبر نافد. تنهد طارق وشرع يحكي.

"الحكاية كالتالي.. لما انتهت الحرب بدأوا الإسرائيليين يخططوا كيف ياخدوا كل الأراضي الفاضية اللي تركوها العرب. اللي عملوه إنهم طلّعوا قوانين بتقول إنه الناس اللي طلعت ما عاد إلهم الحق يرجعوا مرة تانية. ومنشان الدولة تبين لَلناس إنهم عادلين أخدوا البيوت وأعطوهم شوية مصاري. فاهمني؟"

أومأ سالم برأسه حريصًا على أن يبين استيعابه للأمر.

"أبو مازن نقل لَبيت أبوك وعمل نفسه قريبه لحتى يمنع اليهود من إنهم ياخدوا البيت بموجب هَاي القوانين. وهلأ أبوك بيفكر يبيع الأرض منشان يكون فيه مصاري لتعليمك ومستقبلك. لكن الظاهر فيه شوية مشاكل. منشان هيك إحنا رايحين نشوف أبو مازن بكره في مكتب البلدية في تل أبيب لَنحكي معه ومع الإسرائيليين. ساعتها بنشوف. طيب حبيبي؟"

ضغط زوج أخته كتفه تشجيعًا له، فاغتصب سالم ابتسامة. "كل اشي راح يكون تمام. لا تشيل هم". فجأة أصبحت نادية واقفة بينهما تشتكي لطارق عطلاً في الموقد، قاطعةً سيل أسئلة سالم قبل أن تخرج من فمه.

خيّم جو غريب على الشقة مع قدوم المساء، كعاصفة عاتية تقترب. أُزيلت أطباق العشاء، واسترخى الرجال أمام الراديو يستمعون إلى العقيد عبد الناصر يخطب من مصر عن قناة السويس. ألصق رافان أذنه بالجهاز مسحورًا بالأصوات الصغيرة المنبعثة منه، وأصابعه تنقر هذا وتدير ذاك. بقيت نادية في غرفتها ترفأ الثياب.

جلس سالم وحيدًا، ليس معه إلا أفكاره المتنافرة، حتى داهمته رغبة قوية في رؤية أمه، خاصةً أن رافان كان مشغولاً وهذا يعني أنها ستكون وحدها.

وجدها تجلس في الشرفة. وبينما هو يحث خطاه نحوها أشاحت وجهها

بعيدًا، فتوقف بغتة في قلق. أتبكي؟ رأى خطوطًا على صفحة خديها، ولم يستطع رؤية عينيها. ثمة ورقة مفتوحة في يدها، صفراء بخط أسود عريض. برقية؟ عندما رأته أمه طوت الورقة مخفيةً اسم المرسل.

سألها: "شو هاد؟"

استدارت تنظر إلى ناحية الشمال. أجابت: "ما شي. مكتوب من رفيقتي".

قال مداعبًا: "من لبنان؟" في ناحية الشمال تظهر الحدود اللبنانية ممزقة إلى شقوق حمراء وسوداء.

تصلّبت أمه في جلستها. "ليش هالسؤال يا عَيني؟"

ردّ مندهشًا: "هيك. إنت أحيانًا بتقولي إنك بتشتاقي لَهناك... بتشتاقي للبنان قد ما بتشتاقي ليافا. وإلا؟"

رآها تلقي عليه نظرة عجلى، نظرة متسائلة لم يفهمها. قالت بتأنٍ: "صحيح. كنت زغيرة كتير". أفلتت منها ضحكة مريرة. "زغيرة وهَبْلا. بيِّي كان مسميني نوّارة البيت. كنت مدللة وجوهرة العيلة. وكنت مفكرة إنه بيقصد إني رَح ضل كل حياتي المدللة. بس ما كذَّب. طلعت فعلا الجوهرة. الجوهرة يلّي باعها للي دفع أغلى سعر". كانت عيناها داكنتين، ونظرتها تخترقه محملقة بالأفق الفارغ. "وشوف شو صار فينا..". رفعت كفها نحو الشمس الغاربة كأنها تحاول إنكار الواقع. أنزلت يدها، وقالت بهدوء: "ما حدا فهمان. باتمنى تفهم بيوم من الأيام يا سالم ليش الأمور ماشية هيك".

"أي أمور يا ماما؟" تدفق سيل من الحب في قلبه فتقدم يحتضن أمه. أخذته بين ذراعيها فتبخر من رأسه كل ما يقلقه.

سألها بعد لحظات: "ليش بابا ما رجع أبدًا ليافا؟"

"راح مرة وحدة بس. إيام الهدنة التانية. راح يشوف أبو مازن لَيعطيه نسخة من صك الملكية تبع البيت. ضل هونيك 3 أيام". ضحكت فجأة. "وانتو الولاد ما حسيتوا بشي أبدًا. وبعدين..." تنهدت أمه وأشارت نحو السماء التي بدأت تغرق بالظلام. "وبعدين صرنا بهالإسرائيل وما عدنا فهمانين شي. والحياة كملت... إنت بالمدرسة، وحسان تركنا ليعيش بإنجلترا... القصة بدها رجال مصحصح ليحلّها. وبيك مش مصحصح بالمرّة".

"بس إنت بدك ترجعي يا ماما؟ هداك بيتك برضه.. أكتر من لبنان".

ضحكت أمه.

"آه يا سالم... إنت بتعرف. البيت مش مطرح ما عشت أطول مدة. بيتك هو إحساس هون". ربتت على صدره. "إحساس بيخليك تنتمي لمكان محدد وبتحس إنه هالمكان بينتمي إلك. بس أنا بدي قول لك سر يا حبيبي. في كتير ناس مش عارفين لَوين بينتموا. وين ما عاشوا بيضلهن تعيسين كل حياتهن". ارتجف صوتها. "بيتنقّلوا من مطرح لمطرح بيدَوروا ع راحتهن. وغالبًا بتلاقيهن بيرجعوا لمطرح ما كانوا. هيدي أكبر مصيبة بالدنيا". سحبت نفسًا عميقًا ومسحت جبينها. أمسكت أصابعها بذقن سالم. "وبضل إدعيلك إنه ما يصير فيك هيك يا ابني الذكي".

قال سالم مضطربًا: "بس إحنا بنعرف وين بيتنا. وكنا مبسوطين هناك. إنت كنت مبسوطة".

رفعت كتفيها. "صحيح كنا مبسوطين؟ حتى لما كنا في يافا، أنا وإياك ما كنا نقدر نضلّ محلّنا".

نهضت أمه بسرعة وحزم، وجسدها يستدير ناحية الشمال كإبرة البوصلة

نحو المساء الحالك.

قالت: "خلّي بيّك يحلم برجعة فلسطين. هو الوحيد يلّي عارف مكانه.. مع باقي الأعيان. ياكلوا بزر ويشربوا قهوة. خلصت إيامُن هلّا. منشان هيك بده يبيع البيت. بس إنت يا سالم.. إنت أحسن منه بكتير. حياتك رَح تكون أحسن من هيك بكتير. ما تِنسى أبدًا".

قال متلطفًا: "حاضر ماما". شاهدها وهي تدخل المطبخ المظلم حتى لم يعد يرى ظهرها. كانت قبضتها النبيلة تمسك البرقية بقوة. تذكر منظر فلوكة رآها مرةً، بشراعها الأبيض الطويل المستقيم واضحًا في الليل، والبحر يجرفها بعد أن انقطعت حبال مرساها.

***

حاول سالم أن يركّز في غرفته على حل واجب الرياضيات. كان بارعًا في الحساب. كانت الأعداد بالنسبة له مصدر راحة، تشير إلى وجود عالم يتضح فيه الصح والخطأ، ويخضع لقوانين أساسية لا يحيد عنها.

لكن الأعداد اليوم تراقصت أمام عينيه. ما أهمية أن نعرف أن واحدًا وواحدًا يساويان اثنين؟ لا يبالي الإسرائيليون بشيء إلا قوانينهم. ما أهون عليهم أن يدّعوا أن واحدًا وواحدًا يساويان عشرة، كما قالوا إن ما كان لك أصبح لنا.

أزاح الكتب جانبًا، ودس يده تحت وسادته. لمست أصابعه زوايا إطار الصورة، فاطمأن. نامت هذه الصورة معه ثماني سنوات حتى اختلطت بأحلامه.

لمس الشجرة الهزيلة تحت الزجاج، قطعة داكنة أمام الجدران البيضاء.

مر زمن طويل منذ أن رحلوا. وكانوا يعتقدون أنهم عائدين إليها يومًا ما في انتصار.

ما زال بإمكانه أن يستعيد تفاصيل ذلك اليوم المرعب كلما أغلق عينيه. تحوّلت شوارع يافا المألوفة إلى متاهات مقفلة تهدد بحبسهم إلى الأبد فيها، حتى لحقوا بالآلاف المتجهين نحو البحر. اندفعت سيارة أسرة الإسماعيلي باضطراب إلى الأمام، وأخذت تدور في حلقات متواصلة طويلاً، حتى وجدوا الطريق الذي أوصلهم إلى تلال الناصرة الساكنة وذراعيّ نادية المرحّبتين.

ومنذ ذلك الحين لم يستسلم لليأس، لم يفقد الأمل. وعندما سمعوا رئيس البلدية هيكل على الراديو يقول إن يافا سقطت بأيديهم لم يصدق. صرخ: "هيكل غبي!" كما قال مازن في الساحة في ذلك اليوم. حتى بعد أن سمع أن اليهود حشدوا كل العرب خلف أسوار شائكة في حي العجمي، كان واثقًا بأن أبي مازن سيحرص على سلامة بيتهم.

لكنه لم يجد مع حرقة الصيف، ورائحة العرق الجاف تملأ المكان، إلا أن يسلّم أن النجادة وجيش الإنقاذ العربي والدول الخمس التي وعدت بالنصرة قد هُزمت كلها. وعندما تقدّم الجنود اليهود بزيهم الأخضر إلى الناصرة خرج سالم من الشرفة يصرخ: "تعالوا! طلعونا من هون! رجعونا!" لكن طارقًا ما لبث أن عاد ليبلغهم أن القائد اليهودي بقلبه الطيّب أبى أن يخرجهم من المدينة، فانتحب سالم بقهر.

ثم تذكر أسوأ لحظة. كان حسّان يردد كلامًا سمعه ويتوعد بأنهم سيلاحقون كل اليهود حتى يركبوا البحر، انتقامًا لما فعلوه في ساحة برج الساعة في يافا وفي دير ياسين. هزّ طارق رأسه وقال: "هالحكي هاد هو اللي بيعيد دير ياسين على رووسنا. يمكن هلّا صار لازم ندور السلام قبل

ما نخسر الشوية اللي ضايلة إلنا". خبط أبو حسّان الطاولة بقبضته مفزعًا الجميع. صاح: "أبدًا!"

كان صوته كالرمح الذي اخترق قلب سالم. في تلك اللحظة كان ينظر إلى الصورة ويخطط يوم عودته. أبدًا! عادت إليه الكلمة الآن يتردد صداها بعد أعوام طويلة من الانتظار.

سمعها في أحلامه. رآها في العالم الجديد الذي يعيش فيه، وفي نجمة داود المرفرفة في شوارعهم وعلى مدارسهم. لم يكن يصدقها. وضع كفه على الصورة الباهتة، وهمس بوعده. سوف أعود.. لم يفت الآوان. سوف أعود إليكِ وسوف نقطف ثمارك.

***

وقعت مغامرة تل أبيب، كما سمّتها نادية، في يوم ثلاثاء حار مشمس. لم يكن لدى سالم مدرسة في ذلك اليوم. أعاره طارق بنطلونًا أنيقًا وقميصًا أبيض نظيفًا.

وفي القبو المظلم، انحشر سالم وأبو حسان وطارق في الأوستن الوفية. وصكوك ملكية البيت ومزارع البرتقال محفوظة في حقيبة طارق. نزلت المرأتان ومعهما رافان ليتمنوا لهم التوفيق والحظ. شعر سالم لأول مرة في حياته بأنه رجل.

أخرج رأسه من النافذة الخلفية وابتسم لأمه. كانت ملابسها في ذلك اليوم بسيطة. فستان أسود طويل وحذاء أسود ثقيل. لم تكن متأنقة كعادتها. ظنّ سالم أن هذا يعني أنها ستشتاق إليهم، فهو يعلم أنها ستقضي اليوم بطوله في الشقة لوحدها، لأن الثلاثاء هو دور نادية للخروج لشرب القهوة والدردشة

في السوق.

تمنّى لو أنهم يقومون برحلة معًا، رحلة عائلية إلى مكان ممتع وغريب، مثل الكرنفالات التي كانت تقام في صحراء النبي روبين. ربما سيعودون إلى تلك الحياة وتلك الرحلات بعد أن يفرغوا من مهمتهم في تل أبيب.

هتف: "مع السلامة ماما. راح نرجع بأخبار حلوة. باوعدك".

انحنت أمه بجانبه وقالت: "أنا متاكدة من هيك يا عَيني. فجاة صرت شاب كبير". ربتت على خده ثم أردفت: "خلي بالك منه يا طارق".

ردّ طارق بمرح: "ما توصي عليه"، ثم مال من مقعد السائق إلى الخلف ليضرب كتف سالم. أتى رافان من خلف أمه ليطبع قبلة على خد سالم، ورأه يلوّح وهم يبتعدون، نصف وجهه مشرق بابتسامة خاطفة، والنصف الآخر مغطى بالظلال. ثم تصاغرت أشكالهم حتى اختفت في ظلام المرأب.

كانت الرحلة من الناصرة إلى تل أبيب رحلة من العالم القديم إلى العالم الجديد. وعلى حدود مرتفعات الجليل تحاول القرى والبلدات العربية القديمة الحفاظ على توازنها فوق عظام الأرض المتكسّرة. بالاتجاه نحو الجنوب الغربي تنبسط المنحدرات الصخرية الخضراء إلى مروج سهل زرعين الصفراء.

درسوا في المدرسة عن قرون الهيمنة التركية، عندما كانت الحقول الفلسطينية تنتج الحبوب بوفرة في سهل يزراعيل. لكن هذا كان قبل أن تبيع عائلة سرسق اللبنانية أراضيها للصندوق القومي اليهودي. امتدّت أياديهم من بيروت فطردوا سبعمئة فلاح تقريبًا من مزارعهم، كما حكت له نادية في إحدى أمسياتهم الواجمة. وقد دفع اليهود مالاً للفلاحين مقابل أتعابهم.. دراهم معدودة ترضي ضمائرهم. قالت إن هذا هو سبب نزوح الفلاحين

إلى حيفا ويافا والناصرة، لا يملكون سوى أسمائهم وحفنة نقود. أُعطيت حقولهم لليهود، فخلت للطيور والجرذان.

بدأ سهل زرعين يتوارى عن الأنظار، واستنشق سالم رائحة البحر. انبسط السهل الساحلي العريض أمامهم.. عالم قاسٍ أجرد، كان العرب واليهود يعمرونه معًا، يصرّفون المستنقعات ويقيمون المزارع العظيمة من يافا إلى عكّا.. ثم جاء الصهاينة، كما تحكي نادية. فلم يعد للعرب وجود في المستعمرات التي انبثقت على امتداد السهول. أخبرته نادية أن ملّاك الأراضي من الأجانب، بل وحتى الأعيان، رجال مثل أبيك باعوا الدونُم تلو الدونم لليهود، فتحولت المزارع والمراعي المستأجرة إلى سماد يغذّي الحلم اليهودي. قالت نادية: "خلّوا الأرض تروح من بين أيدينا. راحت منا ومش ضايل إلا الحجارة والمر".

على تقاطع سهل شارون وسهل فلسطين تقع تل أبيب. رآها سالم تطل برأسها من بين الضباب بعد أقل من ساعة من خروجهم من الناصرة. الشمس تعمي الأبصار بانعكاسها على واجهات بناياتها الملساء، وحوافها الحادة كالسكين.

كان وهج الشمس شديدًا حارقًا، والطرق متشابكة والدخان يخنقها. تباطأت سرعة السيارة حتى ظنّ سالم أن موعدهم سيفوتهم. نقرت أصابع طارق على مقود السيارة بتوتر، والأبواق تزعق حولهم. قال طارق: "إن شاء الله راح نوصل ع الموعد".

ألصق سالم أنفه بالنافذة فارتدّت أنفاسه إليه تدفئ وجنتيه. كانت الشوارع واسعة تعجّ بالسيارات الفارهة الثمينة، وعلى جانبي الطريق عالم من الزوايا والزجاج والزحام.

أوقف طارق السيارة في الشارع المقابل لمبنى البلدية عند الثانية عشرة إلا خمسًا. قفز سالم من الباب الخلفي وفتح الباب لأبيه. كان المبنى فندقًا عتيقًا جميلاً متهدمًا وبجانبه جيرانه الأصغر منه، والدراجات النارية تكثر حوله والناس يتزاحمون من حولهم هم. ما كان من طارق وسالم إلا أن يسحبوا أبا حسّان خلفهم ويشقّوا طريقهم بأكتافهم، حتى وصلوا البهو الرحيب.

بحث طارق عن أبي مازن. هزّ ساعته وقرّبها من أذنه ليتأكد من أنها تعمل، قال: "وصلنا على الوقت. لكنه وينه؟!" ثم رأى شيئًا جعله يشهق دهشةً.

كان رجلاً طويلاً يقف عند طاولة الاستقبال، مهلهل حاله كحال المبنى الذي يقف فيه. رأى الرجل أسرة الإسماعيلي يصعدون الدرج، فتقدم نحوهم وحيّاهم: "أهلاً وسهلاً يا أبو حسان". لم يصدق سالم عينيه.. كان الرجل إسحاق يَشوف.

بدت الصدمة واضحة على وجه أبي حسّان. أمسك يد إسحاق الممدودة إليه في ذهول، وردّ بلا تفكير: "أهلين".

التفت إسحاق إلى سالم وقال: "كيف الدنيا معك يا سالم؟ كيف الماما؟ إيليا وصّاني أوصلّك سلامه. مشتاق لك". أومأ سالم وحاول أن يبتسم. كانت رؤيته مرة ثانية سعيدة ومؤلمة في الوقت نفسه. لكن ما الذي أحضره إلى هنا؟

قال إسحاق موجهًا حديثه لأبي حسّان وطارق: "سامحوني إني اجيت بدون دعوة. أنا بشتغل هلّا حاجة زي الـ... زي الوسيط مثل ما بيقولوا.. بين البلدية هايّ والعرب اللي في يافا. ما أنا بتكلم عربي وبصراحة..." طأطأ رأسه محرجًا ثم أكمل: "ما عاد لي اشي اساويه هاي الأيام بعد ما نظري بلّش

يخف وما بقدر أخيط. المهم.. شفت اسمك على قائمة المواعيد، فحبيت أسأل إذا بقدر أساعدك. أنا بعرف الرجال اللي راح تقابلوه... رجال ماشي حاله بس زغير".

تناقلت نظراته ما بين أبي حسّان وطارق، وعيناه ضيقتان أكثر من قبل وقد زادت غباشتهما. أصبح إسحاق بوجهه المغبر المتغضن يشبه وجوه الفلاحين أكثر من أي وقت مضى.

رفع أبو حسّان كتفيه وقال: "إذا بتقدر تساعدنا يا أبو إيليا فيا ريت والله. جوز بنتي طارق محامي، وعم بيقول إنه بيفهم قوانينكم هاي". كان تأكيده على "قوانينكم" واضحًا، لكن إسحاق لم يرف له جفن.

جاء رد طارق سريعًا حازمًا: "إذا بتساعدنا بنكون شاكرين إلك".

قال إسحاق: "على خير. خلونا ندخل لعاد. راح افرجيكم الطريق".

كانت اللافتة المعلّقة على باب المكتب تقول: مكتب القيّم، بلدية تل أبيب. جلس شاب أشقر على مكتب مكتظّ بالأوراق، وكان يضع على عينيه الزرقاوين نظارة، والعرق يتجمع على منابت شعره.

قال بالعبرية: "تفضلوا.. تفضلوا. وصلتم في موعدكم، وهذه بداية مبشّرة بالخير". كان تعلّم العبرية إلزاميًا في المدارس، وسالم يتحدثها بطلاقة، لكنه لم يسمع أبا حسّان ينبس بحرف منها قط. وهذا ليس من مصلحتهم في هذه المهمة. فمناقشة أبي حسّان في أمور مصيرية كهذه باللغة العبرية هي كمن يحاول حل معادلات حسابية وهو يتوازن فوق حبل مشدود في الهواء.

أشار إسحاق لأبي حسّان بالجلوس أمام المكتب، بينما وقف طارق وسالم خلفه. قال: "سعيد الإسماعيلي، هذا هو السيد غيدون ليفنور".

مدّ السيد ليفنور كفه لأبي حسّان يصافحه. تردد المسنّ ثوانٍ قبل أن

يمسكها، ثم سحب يده بسرعة.

قال ليفنور بحيوية: "شكرًا. تفضل يا سيد إسماعيلي. أرجو أن ننهي لك المسألة اليوم. لدي بعض السجلات هنا"، ووضع يده على ملف فوق مكتبه. "وأعتقد أن معك أوراقًا ثبوتية؟ صكوك الملكية؟"

ترجم طارق كلامه لأبي حسّان الذي أجاب: "أيوه.. أيوه"، ومدّ للمسؤول الأوراق من حقيبة طارق. تناولها ليفنور وتفحّصها، وهو ينفخ على عدستيّ نظارته ويمسحها من حين لآخر. فتح ملفًا أمامه، فرأى سالم أنه يقارن بين أوراقهم وأوراق أخرى داخل الملف. لم يفهم ما يجري في البداية، ثم أدرك أنه يقارن أوراقهم بالأوراق التي حفظها أبو مازن لهم طوال تلك السنين.

تنهدّ ليفنور بعد حين، ثم خلع النظارة مرة أخرى. كم تمنى سالم أن يترك الرجل نظارته على وجهه. أحس أن هذه النظارة المتسخة نذير شؤم عليهم.

قال: "أودّ أولاً أن أتأكد من أنه لا لبس في الموضوع على الإطلاق. سيد إسماعيلي، أنت تدّعي أنك تمتلك قطعتي أرض في يافا، منزلاً في حي العجمي، وخمسة عشر دونمًا من مزارع الحمضيات في ضواحي يافا. صحيح؟ وتريد الآن أن تبيع هذه الأملاك للدولة؟" حملق أبو حسّان دون أن يجيب، فسارع طارق يجيب بالعبرية: "صحيح". نقل ليفنور بصره بينهما، ثم أعاد انتباهه إلى الأوراق.

"لكن هناك مشكلتان يا سيد إسماعيلي. أولاً، تشير سجلاتنا إلى أنك هجرت أملاكك الواقعة في يافا في مايو 48. وقد ظلّ هذا المنزل وهذه الأراضي فارغة منذ ذلك الحين. مما يجعلك بموجب تشريعاتنا القومية (غائب حاضر)". نيفكاديم نوهاهيم.. عبارة غريبة بالعبرية، كأنها أنشودة

يغنيها الأطفال.

قاطعه أبو حسّان: "أنا ما طلعت من البلد. عيلتي هين من سنين".

قال ليفنور: "أنت لم تهجر البلد، لكنك خرجت من مزارعك. وبصفتك غائب حاضر تنتقل ملكية أرضك تلقائيًا إلى المجلس القيّم. وسجلاتنا تبين أن مزارعك خارج يافا أصبحت تحت وضع اليد يا سيد إسماعيلي". كان صوته رتيبًا آليًا، تساءل سالم كم شخصًا تلقّى منه هذا الخبر السيئ؟ وهل يبكي هذا الرجل في فراشه ليلاً على حال هؤلاء الناس؟

قال طارق بصوت أجشّ غاضب: "ما تفعلونه لا يجوز لا في الأخلاق ولا في القانون، ولا في كل الأعراف والشرائع".

"هذا هو القانون. كثيرون تركوا بيوتهم، فظلت مئات القرى والمزارع مهجورة. كان يمكن أن تظل المزارع مبوّرة لأعوام طويلة، لكننا تدخلنا وعمّرناها لصالح المواطنين الإسرائيليين".

سأل سالم بصوت مرتعش: "وهل استوليتم على البيوت التي هجرها اليهود؟" رماه طارق بنظرة محذّرة، لكن ليفنور تجاهل وجوده.

قال وعيناه معلّقتان بأبي حسّان: "سوف تمنحك الدولة التعويض الذي يحقّ لك حسب ما ينص عليه القانون". لوّح ورقة ثانية من الملف وأردف: "سجلاتنا الضريبية تبين أن مزارع البرتقال التي كنت تملكها قد قُدّرت بأربعمئة وخمسين ليرة إسرائيلية عام 1948. ولكن للأسف..." ورفع بصره إلى طارق. " تظهر سجلاتنا أيضًا أن هناك ضريبة كبيرة مستحقة للانتداب البريطاني، وما زالت واجبة الدفع حتى الآن. وبعد حساب هذا الدين..." أخذ يخربش على الدفتر. "...يصبح المبلغ المستحق لك ثلاثمئة ليرة إسرائيلية تعويضًا عن تلك الأراضي المهجورة".

قطع الصفحة من الدفتر وناولها أبا حسّان. لفّت الصدمة رأس سالم. من الثراء والاستقلال إلى ثلاثمئة ليرة! تمسّك بكرسي أبيه.

احتجّ طارق: "أهذه مزحة؟ حتى لو سلّمنا أن الأرض لكم، وهذا غير صحيح بالمناسبة، فإن سعر السوق اليوم سيكون أعلى بكثير من أربعمئة وخمسين ليرة. لا أدري من أين جئت بهذه الأرقام!"

رفع ليفنور كتفيه وأشاح بيده في لامبالاة. "أنا آسف. هذا هو القانون. إن أردتم استئناف الحكم فهذا قراركم. أو يمكنكم استلام المبلغ وإراحة أسرتك من أي متاعب أخرى".

أمسك أبو حسّان الورقة بدون أي تعليق، وحملق فيها ذاهلاً. طال صمته حتى قال له طارق بلطف: "بابا؟"

أخرجت الكلمة العجوز من ذهوله. رفع أبو حسّان رأسه وقال: "والبيت؟"

نظر ليفنور مرة ثانية إلى أوراقه متفحصًا، ثم أخرج من الملف صكيّ ملكية متطابقين.

رفع الوثيقة المصفّرة التي قدّمها أبو حسّان له وقال: "لأول مرة أرى هذا الصك يا سيد إسماعيلي. مكتوب هنا أنك المالك الوحيد لمنزل في حي العجمي. لكن لدي وثيقة أخرى مسجّلة لدينا منذ أعوام، قبل عملي هنا. وهذه الوثيقة تثبت أنك كنت مجرد مستأجر في المنزل، وأن المالك الوحيد وفقًا لما هو مكتوب فيها هو حمزة الخليلي وكنيته أبو مازن".

انتصب أبو حسّان هذه المرة. وشهق سالم.

خلع ليفنور نظارته مرة أخرى، ومال إلى الأمام وحاول أن ينظر في عينيّ أبي حسّان. قال بنبرة يشوبها شيء من التعاطف: "أنا آسف يا سيدي. لم يعد

البيت ملكك".

تناول إسحاق الورقة من يد ليفنور.

قال بصوت متحشرج مغموم: "سيد ليفنور.. أنا لا أعرف ما المكتوب في هذه الأوراق، لكنني أؤكد لك أن أبا حسّان الجالس أمامك هو المالك الشرعي للمنزل. أنا أعرف أسرته منذ أعوام. وأنا مستعد للشهادة بذلك".

بسط أبو حسّان يديه على الطاولة كأنما يتوسل. قال: "أنا أعطيت أبو مازن صور من الصكوك قبل ما تنتهي الحرب. اكيد فيه غلط. البيت بيتي. عيلتي هي اللي بنته. أكيد فيه غلط. أكيد فيه غلط". وضع كفه على جبينه وحرك رأسه من جهة لأخرى.

قال طارق: "هذه الوثيقة غير صالحة. إنها مزوّرة أو مبدلة. لابد أن حكومتك رأت هذه التغييرات. انظر.. لا يمكنك أن ترى الأسماء بشكل واضح. وكل الناس كانوا يعرفون أن البيت ملك لأبي حسّان".

هزّ ليفنور رأسه. "كما قلت لكم، كان ذلك قبل عملي هنا". نقرت أصابعه على المكتب. "كانت الفوضى عارمة بعد الحرب. وكان العرب يسببون الكثير من المشكلات في يافا. قد لا تكون المعلومات صحيحة مئة بالمئة".

شعر سالم بأنفاسه تخرج لاهثة. تمنى أن يتكلم أبوه. لكن ذراعيّ أبي حسّان كانتا مرتخيتين في قنوط. لم تتحول عيناه عن ورقة ليفنور، ولم تبدر منه إشارة على أي شعور يعتمل في داخله سوى زفرة حارة خرجت من صدره.

استرخى ليفنور في كرسيه ومسح العرق عن جبينه كطبيب بصدد إبلاغ مريضه أخبارًا سيئة. أعاد قوله: "أنا آسف. لا يوجد بيدي ما أستطيع فعله".

أحس سالم بالدوار وقد جفّ ريقه. سأل: "ما معنى هذا؟ ما المقصود؟"

أجاب ليفنور: "يعني أن البيت قد بيع فعلاً للدولة. باعه السيد الخليلي. وقد تم تسليم الثمن له". خلع نظارته وقال موجهًا حديثه لأبي حسّان: "يجب أن تتفاهم معه هو يا سيدي، لأن الموضوع خرج من مسؤوليتنا".

***

لا يتذكر سالم أنه نزل الدرج، لكنه يتذكر أنه وصل البهو الرمادي الكئيب، وأن الهواء خارج المبنى لافح ساخن. لم يظهر أبو مازن، فاتجه أبو حسّان إلى أقرب هاتف عمومي، تاركًا الآخرين واقفين في ظل مبنى البلدية كأن على رؤوسهم الطير.

اعتدل طارق في وقفته ووضع يده على كتف سالم. قال إسحاق متلعثمًا منكسًا رأسه: "أنا مش محامي، لكن أكيد متآمرين مع بعض. الورقة اللي مع ليفنور أكيد مش مزبوطة. أكيد الحكومة كان همها تاخد البيت بأي طريقة".

عاد أبو حسان بعد عشر دقائق، وأخبرهم أنهم سوف يقابلون أبا مازن في أحد مقاهي الشاطئ. لم يسأله سالم لماذا لا يقابلونه في يافا. إنه لا يريد أن يقربها. يافا خانته.

كان شاطئ تل أبيب يمثل التحضر الغربي في أجمل تصوراته وأسماها. رجال ونساء يتضاحكون ويمرحون ويتسابقون على طوله، يلعبون الكرة أو يتشمسون في تجمّعات لا ترى منها سوى الأذرع والسيقان. كان الرجال الأربعة واقفين تحت مظلة أحد المحلات. شعر سالم بمزيج مربك من المشاعر وهو يراقب هؤلاء البشر الذين تلتمع بشراتهم تحت وهج الشمس.

وعلى مبعدة برزت مرتفعات يافا عن الساحل كأنها أسنان صفراء مدببة. بحث في داخله عن رغبة فيها ولم يجد شيئًا. هذه ليست يافا. تلك مدينة

أخرى، مدينة مهزومة قذرة، ماتت بساتينها وقُطعت أشجار برتقالها.

تحققت أسوأ مخاوفه، ومع هذا فإنه يشعر بأنه أخف وزنًا، كأنه عصفور متعلق على غصن. رأى في خياله مسارات مستقبله تنفصل عن بعضها، مجرد فقاعات في الهواء تنتظر من يطلقها. مسارٌ ظهرت فيه فلسطين كعربة مكسورة، وحياته مربوطة بها وبرجال مثل أبيه. ومسارات أخرى فيها أحلام وعوالم لا يستطيع أن يتبين ملامحها.

اقتحم صوت إسحاق أفكاره المتلاطمة: "الناس متسلين.. مش هيك؟ أحيانًا بوخذ لي لي على الشط يوم الأحد. بتحب تتشمس". هزّ رأسه وابتسم. "تل أبيب ما بتضل على حالها. بتتغير وبتتبدل ع طول.. لكن يافا ما تغير فيها اشي. لي لي بتقول إنه العرب ما بيحسو بالوقت شو ما كانت ديانتهم".

وقبل أن يتمكن سالم من الرد، سمع صوت فتى يناديه بالعربية. "سالم! سالم!" استدار فرأى شابًا يقترب منه. كان أبيض من إسحاق، ذا هيئة جادة، وله أنف أمه لي لي يَشوف.

برزت ابتسامة عريضة على وجه سالم رغمًا عن نفسه، وصافح اليد التي مدّها إيليا إليه.

قال إيليا مبهور الأنفاس: "أبوي حكى لي إنك جاي.. بس ما صدقت. طلعت من المدرسة وركضت لهون. كيفك؟ كيف حالك؟ راح ترجعوا ليافا؟"

طعن السؤال قلب سالم فأعاده إلى الحاضر. أفلت كف إيليا، وقد لاحظت عيناه حمرة وجهه كاليهود الأوربيين. استدار بعيدًا عنه وقال: "يمكن". شعر بوجود إيليا خلفه، وأحس بألمه رغم أنه قصد أن يجرحه. تذكر يوم اجتماعهما الأخير في السوق. يبدو أن إيليا معه حق. لن تعود الأمور كما كانت أبدًا.

تنحنح إيليا ليقول شيئًا ما، لكن أبا حسّان رفع رأسه بعصبية وقال: "خلص يا ولاد".

كان أبو مازن يسير تجاههم، ومن ورائه مازن. اختفى الطفل المكتنز تمامًا، وحلّ مكانه شاب ذو عضلات مفتولة وبدلة ضيقة أنيقة. لم يبقَ شيء كما هو سوى شعر الخروف الأسود المجعّد فوق رأسه.

عندما اقتربا رفع مازن رأسه، ولمّا رأى وجه سالم انتفض كأنما ارتكب جريمة.

قال: "يا سالم...". تحية فاترة لا يقصد بها الترحيب. "شايفك لسه مصاحب اليهودي!" أثار صوته ذكريات عكّرت مزاج سالم. لكنه رأى أن مازن أدار وجهه عنه بسرعة.

جلس أبو مازن على كرسي وطلب فنجان قهوة. انتظر سالم بتوتر أن يبدأ شخص ما النقاش، وأن يتهم أبا مازن بجريمته، لكن هذا ليس من شيم العرب. يجب أولاً أن يشربوا قهوتهم ويسألوا عن الأحوال والأهل، وبعد ذلك يمكن أن يدخلوا في صلب الموضوع.

شبك أبو مازن بعد دقائق ذراعيه خلف رأسه ومد ساقيه، ثم سأل: "احكوا لي.. شو صار معكم بالبلدية؟"

رد طارق ببرود: "كنت مفكّر إنك راح تجينا هِناك".

أكرم أبو مازن إسحاق بابتسامة حرباوية: "بس الظاهر إنكم لقيتوا مين يساعدكم. لشو آجي؟ بس حاتقّل عليكم وازحمكم".

كان أبو سالم يعبث بفنجانه، مقلبًا القهوة الثقيلة المسكّرة. لم يرفع عينيه عن الطاولة، بل قال بصوت أجش هامس: "ليش بعت بيتي يا حمزة؟ بأي حق بعته؟"

احمرّ وجه أبي مازن ومال إليه فوق الطاولة: "سمعتك مزبوط يا سعيد؟ ما تكونش مفكر حدا ظلمك".

قال أبو حسّان: "إنت ظلمتني. زوّرت الأوراق وتعاونت مع اليهود. فهّمتهم إنه البيت بيتك وبعته إلهم". ارتعش صوته وما زالت عيناه تتحاشيان النظر إلى عينيّ أبي مازن.

أدرك سالم الحقيقة. أبي خائف منه. كل جعجعة أبي حسّان وثوراته كانت مخصصة لأسرته فقط.

أطلق أبو مازن ضحكة قصيرة مجلجلة. "أنا ظلمتك؟! إنت لازم تركع ع ركبك وتبوس إيدي يا أبو حسان. كان اليهود راح ياخدوا البيت من تحت رجليك وما يعطوك ولا قرش. إنت يا دوب بتفك الخط... قلت لابنك هالاشي؟ كيف كنت بتقدر تتفاهم معهم؟ أنا اللي أنقذتك... بطبية قلبي.. وجبت المشاكل لحالي. بعتها إلهم بالسعر اللي عرضوه.. سعر كويس كمان".

شعر سالم بالدم يفور في رأسه. صرخ: "احنا اللي بنقرر إذا حنبيعهم وإلا لا مش إنتَ".

التفت أبو مازن إليه بابتسامة. "أهلاً بسالم الفلته. يمكن صار لازم تعرف أصل عيلتك يا ولد. عيلتك عمرهم ما اشتغلوا بالتجارة في حياتهم. كل اشي بيملكه أبوك ورثه عن جدك. بتفكر حالك رجال هلّا؟ كل اللي بشوفه قدامي لسان طويل وجيبه فاضية". هبّ سالم واقفًا، ولم يمنعه إلا يد طارق التي أمسكته بحزم.

أكمل أبو مازن: "بس ولا يهمك يا أبو حسان.. مصاريك عندي. صحيح مش كتار بس هاد اللي قدرت ألّه. ولو كنت مكانك كان أخدتهم وسكتت. خد المصاري لمرتك البرنسيسة وفرحها بهدية". ودفع برزمة من

الأوراق النقدية عبر الطاولة: احتبس النَفَس في صدر سالم، هذا المال نجس مسموم... كأحلامهم في العودة.

تسمّر أبو حسّان في مكانه برهة. انقضّت يده على المظروف ورأسه منكس. اعتصر منظره قلب سالم. لم يطق أن يراه مكشوفًا عاريًا بهذه الوحشية، كمتسول تجرّد من ثيابه.

قال أبو مازن وهو يقف: "يلا... نشوفكم. المرة الجاية تعاو اشربوا قهوة معنا في يافا. سلّم لي على إم حسان. يا أخي شو بيحتاج الرجال من الدنيا غير مرة حلوة.. هاه؟" ثم تركهم خلف ظهره ومشى.

نادى دون أن يلتفت إليهم: "يلا يا مازن". ورأى سالم صديقه السابق ينتفض عندما سمع الأمر.

توقف مازن والتفت إلى عائلة الإسماعيلي المتجمعين. رآه سالم يرفع يده نحوهم باسطًا كفه السمينة. فظن أن الفتى الذي كان يعرفه ما زال موجودًا في داخل هذا الجسد، يحاول أن يخترق الحواجز ليوصل إليهم اعتذارًا.

لكن اليد ارتفعت أكثر فأكثر حتى لمس مازن جبينه بإصبعه. عرف سالم هذه التحية فورًا. هذه هي تحية الخضوع التي يقدّمها الفلاح لسيده، تحية الامتنان من العامل عندما يكرم عليه السيد بأجرته. ولمّا اتسعت الابتسامة المتشفيّة على وجه مازن، أدرك سالم أن نكات الطفولة أصبحت حقيقة اليوم. هو الفلاح ذو اليد الممدودة، وقد منحه أسياده أجرته الأخيرة.

***

قبع المظروف ومحتواه البخس في حقيبة طارق في الرحلة الطويلة البطيئة إلى المنزل، بجانب صكوك الملكية عديمة الفائدة. تكلّم طارق أثناء رحلتهم

المتعبة، يحاول قدر الإمكان مقاومة الصمت الذي خيّم على ركّاب السيارة. تكلّم عن حلول وإستراتيجيات، وعن نقض القرار في المحاكم، والقضايا التي سيرفعونها.

وما بين الحين والآخر تصدر عن أبي حسّان دمدمة، ويهزّ رأسه موافقًا كلام صهره. لكن سالمًا كان يعرف أن ما هذا إلا مجاراة له. لقد أذعن أبوه وسلّم للقدر. يجب أن تستمر الحياة، ويجب أن يجد سالم مكانًا جديدًا له فيها.

ما إن أوقف طارق السيارة في المرأب الصغير المظلم حتى شعر سالم برغبة قوية في رؤية أمه والتماس الحنان من يديها. ركض يقطع درجات السلم في عتمة نسبية واقتحم الشقة مناديًا: "ماما... وصلنا!"

جاءت نادية مسرعة من المطبخ. في يدها منشفة رطبة تحملها بشكل غريب. قال لها: "مرحبا.. وين ماما؟"

لم تجبه. استوعب جزء من عقله أن ما تحمله لم يكن منشفة بل منديلاً. وأدرك أيضًا أن وجهها وحركاتها غير طبيعية البتة. عيناها حمراوان ووجهها منتفخ. مدّت ذراعيها نحوه، لكنه تراجع وقد تملّكه الفزع.

استدار وركض إلى غرفة أمه يصرخ: "ماما! ماما!" كانت الغرفة مظلمة وستائرها منسدلة. ورغم الظلام استطاع سالم أن يرى الخزانات والأدراج خالية مفتوحة، وملابسها غير موجودة.

دفع يد نادية بعيدًا عنه، وجرى نحو غرفته هو ورافان. اختفى الصندوق الصغير الذي كان يحوي ملابس رافان. واختفت كذلك البطانية التي تشاركاها طوال السنوات الماضية، وحقيبة القماش التي أحضرها سالم معه من يافا.

انهارت ساقاه فسقط فوق فراش رافان المتسخ، والغثيان يملأ حنجرته.

فهمتك الآن يا ماما. كانت تعرف ماذا سيحصل. كانت تعرف أنهم سيفشلون. بعد سنين طويلة من التظاهر بأن مكانها بينهم لم تعد تحتمل فرحلت.

1959

عادت دورا من الكنيس يومًا فنادت زوجها وابنتيها لتعلن أمامهم قرارها: "سوف نقيم لجوديت بات متسفا[1]". مدت أظافرها المصبوغة بعناية تقرص وجنة جوديث. "لقد تكلّمت مع الحاخام وهو يتفق معي تمامًا. لقد أقام لإبنة هايمي ومارثا حفلها الأسبوع الماضي، وسوف تقام ثلاث حفلات بات متسفا خلال هذا العام".

صفقت غرتي حبورًا، وقال جاك: "صحيح؟ حسنًا.. إن كان هذا ما ترين، فلم لا؟ وأمامها عام كامل لتستعد".

تجمّدت جوديث في مكانها من الرعب. مرّ عيد ميلادها الحادي عشر بسلام دون صخب والحمد لله. والآن تطلب منها دورا أن تقرأ من التوراة أمام حشد كبير من الناس، قد يصل إلى المئات! سيدات هنّ نسخ متطابقة عن أمها، ورجال يرتدون طواقي الكيباه! ارتعدت فرائصها واقشعرّ جلدها.

قالت: "لكن يا ماما، ستكون أنظار الجميع عليّ! لا أستطيع القراءة أمام كل أولئك الناس!"

أجابت دورا باستخفاف: "طبعًا سينظر إليك الجميع. ولماذا لا ينظرون إلى فتاة ذكية مثلك؟ فكري ببوبي وكم ستكون فخورة بك.. وأختكِ أيضًا التي لم تحصل على احتفال ببلوغها".

1- حفل يهودي ديني يقام عند بلوغ الفتاة الثانية عشرة ويومًا من عمرها، ويسمى حفل الأولاد «بار متسفا»

دخلت المطبخ وهي تكلّم زوجها بمرح: "سوف نتفق على الترتيبات لاحقًا يا جاك. لن يكون الحفل كبيرًا ولا صاخبًا كالذي أقامه أخوك لتوني. سندعو الأسرة وبعض الأصدقاء".

نظرت جوديث بتوسل إلى أبيها وغرتي، فابتسمت أختها ابتسامة لطيفة وهزت كتفها كأنها تقول: ليس باليد حيلة.

همست: "أيجب عليّ أن أفعلها؟"

"حبيبتي جوديت، إنه حدث رائع". كانت السعادة تشعّ من وجه أختها، وهي تضع نظارتها ذات الإطار الأسود كالقفص فوق وجهها المستدير. أصلحتها بيد، وربتت بالأخرى خد جوديث، بأصابع طرية كالخبز الطازج. تأكد والدها أن أمها بعيدة عنهم، ثم مال إليهما وهمس: "حفلات البات متسفا هذه! لا أفهم بصراحة ما فائدتها للبنات! لكنها بدعة وأمكما حفظها الله تحب البدع".

وكان رأي ربيكا كرأي أمها في أن الفكرة فعلاً جميلة.

قالت وهي تعانق جوديث: "في أيامي كان الناس سيضحكون لو أقام أحد حفل بلوغ لفتاة. كل ما كنا نعرفه هو أنه عندما ينزل دم الفتاة تصبح جاهزة للزواج". احمرّ وجه جوديث. فقد أجلستها دورا قبل أسبوع تقريبًا لتعلّمها (هذه الأمور). تابعت الجدة: "لم نكن نقيم إلا البار متسفا للصبيان. فلم أنل هذا الشرف، ولم تنله غرتي ولا حتى أمك. تغيرت الدنيا إلى الأحسن يا موميلا".

توسلت إليها جوديث: "لا أفهم كيف يكون هذا أحسن؟! ماذا لو لم أستطع تعلم الآيات كلها؟ ماذا لو أخطأت؟"

ابتسمت ربيكا. هربت بعض الخصلات الحمراء من تحت وشاحها

الأزرق، والتمعت عيناها الخضراوان بحب الحياة. قالت: "لا تقلقي يا حبيبتي. كل طفل يخشى البلوغ. حتى الأطفال غير اليهود يخافون. لكنك أوفر حظًا منهم لأنك تعرفين اليوم الذي ينتهي فيه خوفك، إنه اليوم الذي تقرأين فيه من التوراة ويباركك الحاخام لبلوغك". انحنت جدتها وأمسكت وجهها بين كفيها الخفيفتين كجناحي فراشة. "إنه شرف عظيم يا جوديت. إنه يعني أن لك مكانة خاصة بين قومك. فارفعي رأسك يا صغيرة، وتشجعي. كوني مينش".

لم تصدّق كاث عندما أخبرتها جوديث في مسبح ويرسايد، وعلّقت على الخبر بقولها: "هذا جنون جودي رودي!" كانتا واقفتين في صفٍ مع بقية الفتيات تنتظران صافرة السيد هيكس، وسط الضجيج والصدى ورذاذ ماء المسبح. "لو كنت مكانكِ لبللت سروالي! لكن لماذا لم تقولي لأمك عن اختبارات الفريق؟ أنت أفضل سبّاحة في النادي، وسيقبلونكِ في فريق الناشئين ولا شك".

كان القبول في فريق ساندرلند للناشئين بالنسبة لجوديث شرفًا أعظم من اختيار الإله لها. وقد اقترب موعد اختبارات القبول، وجوديث تكاد تهلك نفسها بالتدريبات، ولا تعود إلى المنزل إلا بشعر مبلل وعينين متورمتين. كان فريق الناشئين حلمها السري، والانضمام إليه رغبة قوية تخيفها أحيانًا. في سباقها الأخير، أومأ السيد هيكس رأسه وهي تخرج رأسها من الماء وتشهق، وقال: "أنتِ جاهزة".

ضغطت جوديث على ذراع كاث، وقد غمرها الحزن من أنهما لن تجلسا في الصف الدراسي نفسه بعد هذا الصيف. اقترب موعد اختبارات ما فوق الإحدى عشرة، وجاك ودورا لا يرجوان من الدنيا شيئًا إلا أن تُقبل ابنتهما في مدرسة بيد الثانوية للمتفوقين. أما أم كاثلين فلم تسمع حتى عن هذه

المدرسة، والحقيقة أن فرصة ابنتها في قيادة صاروخ والهبوط على سطح القمر أكبر من فرصتها في الالتحاق بهذه المدرسة. لكن الفتاتين تعاهدتا على الحفاظ على صداقتهما. قطعتا ميثاقًا بالدم بعد أن جرحتا طرفي إصبعيهما بشفرة مولي، وضغطتا قطرتي الدم معًا.

صاح السيد هيكس: "كفى ثرثرة! أول محاولة للمجموعة (أ). استعدوا. تذكروا.. أريد سمكًا يعوم في الماء وليس حيتانًا ميتة على الشاطئ!"

تقدمت جوديث إلى الأمام، أصابع قدميها منعكفة فوق بلاط المسبح الزلق، وهي تشعر بجذب الماء أسفل منها. ومن طرف عينها رأت كاث تلوّح لأحد ما، وقد احمرّ وجهها حياءً. ولم ترَ جوديث قبل أن تنطلق الصافرة وتقذف نفسها في الماء إلا طاقية سباحة حمراء وعينين زرقاوين كزرقة السماء.

ذاب العالم فورًا في صمت الفقاعات الزرقاء، في نعيم بارد هانئ يلف جسدها. تقطع الاندفاعات العنيفة أطرافها ونبضاتها وأنفاسها، ثم تصلها كما قطعتها بنفس الإيقاع. شخص ما صرخ: انطلقي! شعرت بالكلمات تمر من بين أنفاسها المتهدجة ولم تسمعها بأذنها. أسرع يا جوديث! سوف تصلين! اقترب جدار المسبح، ومدّت جسمها لتبلغه بكل قوتها وعزيمتها. لمست أصابعها الحافة، ثم شقّت برأسها سطح الماء. ولكن عندما تنفست النَفَس الأول، رأت العينين الزرقاوين تبتسمان لها، فعرفت أن الفتاة الطويلة التي بدأت تخلع طاقيتها وصلت قبلها. طفت جوديث فوق الماء محتقنة الوجه تعبّ ما افتقدته من هواء. مالت إليها الفتاة وهمست: "آسفة يا حلوة"، ثم سحبت قدّها الميّاس من المسبح، وسارت نحو غرف تغيير الملابس.

قالت لها كاث وهما تجففان جسميهما فيما بعد: "لا عليكِ. ما زلتِ من المجموعة (أ). سوف يختارون سباحتين من المجموعة الأولى". طأطأت جوديث رأسها. لقد ظنّت أنها ستفوز في المجموعة الأولى. كانت واثقة من

فوزها.

ضربت كاث ذراعها وقالت: "انظري يا جودي.. ها هي آتية! إنها رائعة صدقيني".

عندما رأتها جوديث بدون الطاقية عرفتها فورًا؛ هذه هي مارغريت سمايلز، أو "بيغي إس" كما كانت تسمّي نفسها على أغنية بودي هولي المعروفة. بعد أن تفشّى التهاب اللوزتين منذ أسبوعين بين الطالبات، أصبحت بيغي رفيقة كاث وشريكتها في المنضدة نفسها، ومنذ لحظة التعارف الأولى، لم يخفت بريق الإعجاب من عيني كاث. كانت بيغي أطول من زميلاتها، ذات ساقين قويتين طويلتين، تمتدان من تحت تنورة طولها أقصر مما تسمح به لوائح المدرسة. ويلحق بها دائمًا في أنحاء المدرسة سلسلة من الفتيات المقهقهات، كأنها رأس المذنّب، وهن ذيله.

رفعت الآن شعرها الأشقر الرطب في ذيل حصان، وبرقت أظافرها بالطلاء اللّماع. رأت جوديث سلسلةً ذهبيةً تتدلى حول عنقها.

أشارت إليها بيغي بإصبعها. "كيتي كاي.. هذه هي صديقتك الأخرى.. صحيح؟"

ابتسمت كاثلين أوسع ابتساماتها وقالت: "صحيح. هذه هي جودي".

تململت جوديث في وقفتها بارتباك، خجلةً من شعرها المربوط على الجانبين وجوربها البني. سألت: "من هي كيتي كاي؟"

ضحكت بيغي. "من تظنين أن تكون؟ كيتي كالين طبعًا، نجمة السينما". لمست بيغي شعر كاثلين الثائر. "إنها جميلة جدًا بشعرها البني المتموج. أمي تقول إنها ليست فنانة عظيمة لأنها مجرد أمريكية استعراضية تافهة. لكنني أرى أنه لا يهم ما أصلك إن كنتِ بهذه الجاذبية؟ صحيح؟" كان قميصها

الأبيض مفتوحًا يكشف عن نهدين غضين ترتاح بينهما سلسلة يتدلى منها قلب. ظنّت جوديث أنها رأت طرف حمالة صدر من الدانتيل، وانتبهت إلى أنها تومئ برأسها كما تفعل كاثلين.

"إذًا أنتِ جودي، صحيح؟" ترشق بيغي جملها "بصحيح" كأنها أعيرة نارية، ومن المستحيل ألا تتفق معها. "لكن اسمك الحقيقي ليس جودي. صحيح؟ رأيته في سجل الأسماء. اسمك جوديث، صحيح؟ أنت واحدة من اليهوديات. لا عليك.. يمكنك إخباري بالحقيقة". رغم أن صوتها كان دافئًا ودودًا، فإن جوديث أحسّت بريح باردة تحرّكها. لم يدعها أحد من قبل بالفتاة اليهودية، ما عدا والدتها في معرض توبيخها. رمت كاثلين بنظرة سريعة، فابتسمت هذه وأجابت: "إنها يهودية فعلاً لكنها رائعة. إنها أعزّ صديقاتي. صحيح يا جودي؟"

"لكن أظن أننا نستطيع أن نجد اسمًا أظرف من جوديث لهذه الحلوة. صحيح يا كيتي كاي؟ جودي لا يليق بك. ما رأيك بجود؟ جود يناسبك. صحيح؟"

قالت جوديث تلقائيًا: "جود اسم ولد".

"لكنه رائع جدًا. ألا تريدين أن تكوني رائعة يا جود؟ انظري إلى جمالك وخصلاتك الشقراء". كانت بيغي تنظر إليها وهي تميل رأسها إلى الجانب، وعلى وجهها ابتسامة بيضاء خلابة. ارتفعت معنويات جوديث، وأحست بتوترها يتطاير شيئًا فشيئًا، كطائرة ورقية ضاعت في الهواء.

قالت: "حسنًا. أعجبني جود".

"عظيم!" أخذت بيغي تدور وتهز خصرها، ورأسها مرفوع إلى السماء وعيناها مقفلتان. "كيتي كاي وجود.. رفيقات السباحة!" ثم ضغطت على

ذراع جوديث بحب، فاحمرّ وجه جوديث وقهقهت معها.

شعرت جوديث طوال الأسابيع التالية أنها واقعة في غرام بيغي. كانت بيغي أكثر شخصية عرفتها جوديث إثارة للاهتمام. ورغم أن بيغي لم تتجاوز الثانية عشرة، فإنها كانت الشخص الذي تتمنى أن تكونه جوديث عندما تكبر. كانت تعرف كيف تلبس زي المدرسة بطريقة تجعل رقاب الصبيان تلتوي عندما تمر بجانبهم، وتعرف الوزن الصحيح في تعاملها معهم ما بين اللطف والقسوة. وهي تعرف أشياء أخرى أيضًا.. أشياء لم يتخيلنها بعد. إنها تعرف "كل شيء" عن الرجال، فهي - كما همست لهنّ ذات مرة - لديها صديق، وهو شاب "عليم بهذه الأمور"، يحب تقديم الهدايا الجميلة لها مثل هذا العقد الماسيّ الذي يخفي تحته علامة حمراء على عنقها. قالت لهن إن هذه تسمّى قبلة الحب. عيبها الوحيد هو أظافرها لأنها كانت تقضم جلدها باستمرار فيحمرّ، وكانت تخفي ذلك بالطلاء اللماع.

وهكذا فقد تلاشى توتر جوديث وتجهمها مع إشراقة ثقة بيغي الوهّاجة. علّمتها بيغي ألا تهتم بأي شيء، ولا حتى باختبارات تحديد المستوى. سوف تلتحق بيغي بمدرسة خاصة العام المقبل، بغض النظر عن النتائج التي ستحققها، ووعدتهما أن ترسل إليهما رسالة كل أسبوع. قالت وهي تلهو بعقدها: "قلت لبابا إنني أريد أن أدخل مدرسة داخلية في لندن، لكنه لا يطيق أن يبتعد عني". وعندما اقترحت جوديث أن يسافروا إلى لندن لزيارتها في المدرسة الجديدة، انقلبت بيغي على الأرض من شدة الضحك حتى ارتفعت تنورتها فوق فخذيها.

"آه يا جود... كم أنتِ ظريفة! تريدين أن تأتي إلى مدرستي! سأخبر البواب كي يسمح لكِ بالدخول. ها ها ها ها". وتابعت قهقهتها الصاخبة، حتى امتثلت الباقيات وضحكن هنّ كذلك، فتبعتهن جوديث رغم الجرح

الذي شعرت به في داخلها. بيغي تحب المرح وهذه هي عادةً الأشياء التي تضحكها، مثل ما حدث أمس عندما انزلقت جوديث على بلاط المسبح فسقطت على وجهها في الماء، ضحكت بيغي وبدأت تناديها "جود قنديل البحر".

حدّثت جوديث توني عن بيغي عندما جاء لحضور عشاء عيد الفصح. "إنها أعزّ صديقاتي.. إنها جميلة وممتعة ومرحة".

"أهذه التي تسميها أمك بالشيكسا[1]؟"

"لم ترها إلا مرة واحدة في اجتماع أولياء الأمور، فهي إذًا لا تعرف عنها شيئًا".

"وهل قابلتِ أسرتها؟"

ترددت جوديث: "لا. إنهم أثرياء كما أعتقد.. مثلكم".

ضحك توني. "الثراء لا يجعلنا من هؤلاء الناس، خاصةً لأننا يهود. أتعلمين أنهم لا يسمحون حتى بانضمامنا إلى نواديهم؟ أنا أعاني في الجامعة أيضًا".

فكّرت جوديث: أنت لا تفهم. لا أحد منهم يفهم. إنها بالنسبة لهم قطعة حلوى يهودية صغيرة صنعتها أيادي ماما وبابا لتمتصها أفواه يهودية يومًا ما. لكنها بالنسبة لبيغي شيء آخر. شخصية مستقلة ومختلفة.

قبل أسبوع من اختبارات فريق الناشئين للسباحة، انتزعت جوديث من دورا موافقة للتغيب لمدة نصف ساعة عن درس العبرية. فرحت بيغي كثيرًا، لكن كاث كانت متجهمة بشكل غريب. كانت بيغي تحتضن جوديث كعادتها

1- الشيكسا هي المرأة غير اليهودية، وهي غالبًا صفة يقصد بها الإهانة

وتقول: "أنا سعيدة جدًا أننا سوف نكون سبّاحتين في الفريق نفسه يا جود الصغيرة". كانت تعرف أنها وبيغي تحتلان المركز الأول والثاني في الفريق، وأن هذا ولابد ما يثير غيرة كاث، لكنها مع ذلك لم تستطع أن تحجب وهج سعادتها. إنها تشعر بأن يدها تكاد تمسك بشيء لها وحدها، إنجاز صنعته بنفسها وسوف يحوّلها من هذا المخلوق الذي لم يكتمل نموه إلى كيان كامل. وهذا هدف تتمنى أن تصل إليه من صميم قلبها.

***

كانت اختبارات فريق الناشئين في يوم الإثنين. وجوديث مستعدة لهذا الحدث الذي سيغيّر عالمها إلى الأبد. حتى قلق البات متسفا لم يعد يشغلها في غمرة حماسها للانضمام إلى فريق السباحة.

جمعت بيغي إس جميع الفتيات يوم الجمعة بجانب سور المدرسة في وقت الغداء، وأخبرتهن أنها سوف تقيم حفلة قبل اختبارات فريق الناشئين من أجل صديقاتها المميزات.

كانت تضع يدها تحت ذقنها في تصنّع كأنها نجمة أفلام، فمها منفرج قليلاً ومصبوغ بالوردي. قالت لهنّ: "سوف أشتاق لكنّ كثييييرًا في العام القادم. بابا سيطبع دعوات خاصة لكنّ. لكن هناك شرط واحد فقط.. يجب أن تكون كل واحدة منكنّ على شكل نجمة جميلة. كيتي كاي، لا أعتقد أن هذا سيكون صعبًا عليكِ، صحيح؟" اتسعت ابتسامة كاثلين وتلوّت بحبور، وبيغي تلف شعرها الأسود حول أصابعها، وأمسكت يدها الأخرى بيد جوديث. أحست جوديث بأن كفها ملساء كأنها طبق صيني.

"وأنت يا جود الصغيرة؟ أتستطيعين أن تأتي على شكل نجمة مشهورة؟"

سألت جوديث بقلق: "من النجمة التي تريدين أن أكونها؟" كانت جوديث هي الوحيدة التي لم تنعم عليها بيغي باسم نجمة من عالم التمثيل أو الموسيقى.

"يا إلهي! جود... ليست أنا من تقرر. أنت اختاري. صحيح؟ كوني حرة نفسك". ضغطت بيغي يد جوديث ثم التفتت إلى بقية السدنة، تاركةً جوديث يفترسها القلق عما يعنيه أن تكون حرة نفسها.

وصل والد بيغي إلى المدرسة بجاكوار فضية ليوصل بطاقات الدعوة للفتيات، ووزّعتها بيغي عليهن يوم الجمعة في المدرسة. كانت بطاقة جوديث تحمل اسم (جود) محاطًا بالبالونات والقلوب.

مكتوب داخلها: الأحد الثانية عشرة ظهرًا. تذكرت جوديث أن درس العبري سيكون ظهرًا أيضًا. وهي في الحقيقة لم تحرز تقدمًا في قراءة التوراة، وقد نصح الحاخام أن تتلقى دروسًا إضافية. أتستطيع يا ترى أن تقنع دورا أن تسمح لها بألا تحضر الدرس لهذه المرة فقط؟

في نهاية الحصة كانت بيغي ترتب درجها بمساعدة كاثلين. اقتربت جوديث منها بخطى مترددة، فمنحتها بيغي ابتسامتها العذبة. "ما الأمر يا جود الصغيرة؟"

"بيغي.. أتسمحين أن آتي إلى حفلتكِ متأخرة؟"

"ولماذا تتأخرين عن حفلتي؟!"

"لأنها في نفس موعد درس العبري. وقد وافقت أمي على أن أفوّت الدرس من أجل اختبارات الفريق، ولن توافق أبدًا على أن أحضر الحفلة أيضًا". سمعت جوديث قهقهة فتاتين وراء ظهرها. ألقت بيغي نظرة ذت معنى تجاه كاثلين، وظنّت جوديث أنها رأت كاثلين تبتسم لها ابتسامة صغيرة

خفية.

نظرت بيغي إلى جوديث وعلى وجهها نصف ابتسامة. "درس عبري! واو.. ممتع جدًا. لا يمكن أن تفوّتي درسك طبعًا، صحيح؟ إن كنتِ تفضلين حضور الدرس فأنا لا أمانع على الإطلاق".

قالت جوديث: "لا. لا.. أريد أن أحضر حفلتك. لكن...". لم تسعفها أي كلمات وهي ترى بيأس بيغي ترفع حقيبتها فوق كتفها وتسير خارجة من الفصل، وظهرها الطويل مشدود كعلامة تعجب. وقفت عند الباب، وذيل الحصان فوق رأسها يتأرجح من نفسه رغم ثباتها، ثم استدارت لتكلّمها من فوق كتفها. "إن أردتِ الحضور فتعالي يا جود. كوني حرة نفسك. ليتك تفعلين".

تابعت عينا جوديث بيغي وهي تخرج من الفصل. كانت كاث ما زالت ترتّب كتبها داخل حقيبتها. حاولت جوديث أن تنظر إلى عينيها، لكن عيني كاث الزرقاوين ما برحتا الأرض. اعتدلت كاثلين فجأة وشدّت كتفيها. رفعت الحقيبة فوق ظهرها ثم قالت: "إنهم من الطبقة الراقية يا جوديث. ربما يكون من الأفضل أن هناك ما يمنعكِ من الحضور".

***

في عشاء يوم السبت فتحت جوديث موضوع عدم حضور درس اللغة العبرية كي تذهب إلى حفلة بيغي.

قالت دورا: "طبعًا لا! مرتان في أسبوع واحد! انسي الموضوع. ألا تعلمين أن موعد البات متسفا قد اقترب؟ والحاخام غيشن يقول إن قراءتك ليست بالمستوى المطلوب. ألهتكِ أولاً السباحة، والآن الذهاب إلى الحفلات... ما

خطبك؟"

توسّلت جوديث: "أعدكِ أنني سأجتهد أكثر في الأسبوع الذي يليه. أرجوك يا أبي. أتسمح؟" لكن جاك هزّ رأسه وقال: "اسمعي كلام أمكِ يا قطتي".

قالت دورا: "إلهي ألهمني الصبر! ماذا جرى لعقلكِ يا جوديت؟ أواقعة أنت في غرام هذه الشيكسا؟ هل سترتدّين عن دينك؟ ستأتي حفلات أخرى غيرها، لكن لن يكون لك إلا بات متسفا واحدة. فلا تزعجينا بموضوعها".

لكن الجدال استمر وطال إلى يوم السبت، حتى ضربت دورا الأرض بقدميها في حنق وانصرفت إلى الكنيس، ولاذت جوديث بحجرتها. وعندما جاء صباح الأحد، فكرت في التسلل خارج المنزل. لكن دورا، وفي لحظة تجلٍ وبصيرة نافذة على غير عادتها، أمرت غرتي أن تظل عند باب حجرة جوديث.

لم تكن غرتي تجيد الانتظار والترصد. وفوق ذلك فإن صدرها الكبير ووركيها المدوّرين يجعلانها عملاقة في الدرج الضيق. قبعت جوديث في حجرتها كارهةً غرتي ونظاراتها البغيضة وتظاهرها بالفضيلة.

فتحت غرتي باب جوديث بنفسها بعد حين، وقالت وهي ترمش بسرعة: "جوديت.. حان وقت الذهاب إلى الدرس. أتريدين أن نذهب معًا؟" حدجتها جوديث بنظرات مسمومة لكنها لم تجرؤ على الرفض. قامت وهي تمقت ضعفها فوضعت حقيبتها على كتفها. ما هي إلا دقائق حتى تطرق كاثلين باب منزل بيغي وهي تتزين بأجمل ملابسها، أما جوديث فستكون جالسةً مع حاخام يتصبب عرقًا، تحاول أن تفهم كتابة مخطوطة على ملفوفات أثرية.

سمعت فجأة صوتًا غريبًا يصدر عن غرتي، كأنها صيحة حيرة وخوف. كانت أختها تنظر إلى شيء ما على سرير جوديث. قطعت غرتي الحجرة بخطوات هي أسرع ما رأت جوديث من حركات أختها، فأخذت الشيء بيدها. كان الشيء بطاقة دعوة حفل بيغي المزخرفة.

قالت جوديث بحدة: "أعيديها إليّ". تجاهلتها غرتي. استدارت لتواجه جوديث وأنفاسها تجعل ثدييها الضخمين يعلوان ويهبطان بصعوبة، وهي تمسك الدعوة كأنها مسدس في يدها.

سألت بصوت مخنوق: "ما هذا؟ من كتب هذا لك؟ جوديت.. لماذا لم تخبرينا عن هذا الأمر؟"

قالت جوديث بحذر: "إنه لا شيء. هذه بطاقة الدعوة لحفل صديقتي. ما المشكلة؟"

"لكن ما هذا؟" كررت غرتي السؤال ووجهها أكثر امتقاعًا من قبل، لكنها هذه المرة وضعت إصبعها على الاسم المكتوب على البطاقة.

"هذا اسمي. جود. هذا الاسم الذي ينادونني به في المدرسة". تراجعت غرتي إلى الوراء وحاجباها منعقدان في رعب وتكذيب. "أنت تريدين أن ينادوكِ بهذا الاسم؟! ألا تعرفين ماذا يعني هذا الاسم؟" ظهرت حبيبات العرق على جبينها العريض تلتمع تحت ضوء الحجرة. "هذا هو الاسم الذي كانوا ينادوننا به. جود. Jude و Juden.. هكذا كانوا يسموننا في الغيتو وفي معسكرات الهولوكوست".

تقدمت نحو جوديث، فتراجعت هذه إلى الخلف: "كيف تسمحين لأحد أن يناديك به؟" لوّحت بالدعوة في وجه جوديث الخائفة، ثم سألتها ثانية: "كيف تسمحين لهم؟"

أحست جوديث بنخزة ذنب، لكن سرعان ما حلّ مكانها قرصة قاسية وسريعة من الشفقة على نفسها. غرتي الفاضلة.. تجد دائمًا خطأً ما ارتكبته.

قالت جوديث وهي تتظاهر بعدم المبالاة: "لم يطلق أحد عليّ هذا الاسم. أنا سميت نفسي به. أنا أحبه وقد اخترته. إنه رائع".

ما كادت تخرج الكلمات من فمها حتى أحسّت بكف غرتي ترتجّ على خدها بصفعة حارة، كأنها خبزة ساخنة أُخرجت من الفرن.

صرخت جوديث من قوة الصدمة، وغطّت غرتي فمها بقبضة يدها والدموع تتساقط من بين أصابعها. همست من وراء يدها: "كيف تقولين هذا الكلام يا جوديت؟ أنت لا تفهمين أي شيء. أنت لا تفهمين أي شيء. لا تعرفين من تكونين ولا ماذا حصل لنا".

أحسّت جوديث بخدّها يحمرّ وينتفخ. لم تصدق أن غرتي ضربتها. كرهت أن ترى البطاقة البيضاء الرقيقة بين تلك الأصابع القاسية الجلفة. تذكرت بغتة صورة قديمة رأتها: غيرتروود، أستير، دانيال كراوس فيينا، 1939، فارتفع في صدرها الغضب الحارق على غرتي وعلى الإحساس الدائم بالذنب.

صرخت: "لا.. أنت لا تفهمين أي شيء. تعبت منكم ومن تحكمكم فيما أفعل وفيمن أكون. أنا لا أحب أن أكون يهودية. اتركيني وشأني".

دفعتها قدماها ركضًا، فتجاوزت غرتي في مروقها من باب الحجرة. نادتها أختها، لكن هتاف قلبها كانت أعلى في أذنها. حملت قلبها المرتعش، ونزلت الدرج بسرعة كالسهم المنطلق وخرجت من الباب الأمامي، فصفقته بعنف خلفها. استعذبت وتألمت من لفحة هواء البحر البارد، كأنه شهقة الأكسجين الأولى عندما تدخل إلى رئتين محترقتين في نهاية شوط السباحة.

استقلّت الحافلة متجهة إلى منزل بيغي. احتضنت جوديث حقيبتها إلى صدرها، والحافلة ترتجّ بركّابها من طريق رايهوب إلى الأحياء الراقية من المدينة. أصابها الحماسُ والانفعال بدوار. تابعت ببصرها صفوفًا كئيبة من منازل متلاصقة تمرّ بها، والحافلة تبتعد أكثر فأكثر عن المرفأ. سيكنّ سعيدات برؤيتي. وسوف يضحكن عندما يعلمن المشكلة العويصة التي أوقعت نفسي فيها.

توقفت الحافلة في إحدى ضواحي المدينة، وكان للبيوت فيها حدائق خلفية وأخرى أمامية، وسماؤها زرقاء لا يعكّرها الدخان. نزلت جوديث من هناك، فوقفت على الرصيف الخاوي تراقب الحافلة تبتعد عنها.

شعرت جوديث وهي تتجه نحو منزل أسرة بيغي بأنها طويلة ورشيقة مثل بيغي. أنزلت تنورتها قليلاً ورفعت شعرها عن وجهها. عبرت سحابة قلق خاطفة عقلها، فهي لم تنفّذ شرط الحضور.. ولم يكن فيها ما يشبه ألق نجمة سينما ولا حسن أي مطربة. لكن بعد أن قرصت وجنتيها وعضت شفتيها لتعيد إلى وجهها بعض الحمرة، رجت حظها أن تلهيهن حكاية حضورها عن الاهتمام بعدم تنفيذها للشرط.

فتحت البوابة الأمامية بحذر، ورأت حركة سريعة في إحدى النوافذ الكبيرة التي أُسدلت فوقها الستائر. ملأت الورود الحديقة، وورود حمراء كأنها وجوه فتيات في خفارهن. ابتسمت جوديث وقفزت الدرجات، ثم رفعت يدها لتطرق الباب.

لكن شيئًا ما استرعى انتباهها. تراجعت فرأته؛ وضع شخص ما لوحة صفراء كبيرة على جدار المدخل، ومكتوب عليها بأحرف كبيرة: "NO JEW-DES ALLOWED" (دخول اليهود ممنوع).

كذّبت جوديث عينيها في البداية. تراقصت الأحرف أمامها، وفقدت ساقاها ثباتهما، فأمسكت أعمدة المدخل كيلا تقع. انقبض صدرها وأحست كما لو أن أحدًا ألقمها حجرًا.

سمعت حركة من وراء الباب فنظرت إليه. وعندما فُتح رأت أن الفتاة الواقفة في البهو المضاء هي كاثلين، ومن خلفها بيغي. كانت الشقراء تبتسم ابتسامة الثعلب الماكر، شفتاها مصبوغتان بالأحمر الفاقع، ويدها تستند على كتف كاثلين. كانت كاثلين تحدّق في الأرض ووجهها يلتهب حمرةً.

مدّت جوديث قامتها وهي تتساءل ما إذا كانتا تنتظران منها أن تبتسم أم تبكي. وإذا تصرفت على النحو المتوقع، هل سيكون كل شيء على ما يرام؟ أهذا اختبار؟ رددت بيأس في داخلها: هذه مجرد مزحة. سوف تطلبان مني أن أدخل. لكن عينها ما برحت تراقب بوضوح يمزّق القلب اليد المستندة على كتف كاثلين، وطلاء أظافرها الوردي يلتمع رغم عتمة جهتها من المدخل.

انقبضت أصابع تلك اليد، فارتفع رأس كاثلين إلى الأعلى تنظر إليها. كان البؤس المرتسم على وجهها مريعًا، حتى إن الدموع فرّت من عيني جوديث نفسها، ووقع في قلبها الشعور بالخذلان. لكنها لن تدخل معها.. لن تدخل معها.

لم يتحرك أي شخص لثوانٍ. سحبت جوديث نفسًا عميقًا يحدوه الأمل. ثم أغلقت كاثلين الباب، وصرير خشب البلوط يعلن لجوديث قرار صديقتها.

***

لم يكن العالم هو العالم الذي تعرفه جوديث عندما عادت إلى رايهب رود.

أول صوت سمعته عندما فتحت الباب هو صوت نحيب. ظنّت أن الصوت خارج من أعماقه قلبها، أنها هي التي تبكي. ثم فكّرت أن غرتي تبكي. ثم انقضّ عليها الإدراك بسرعة، كلدغة الأفعى. ربيكا.. ربيكا هي التي تبكي. لقد عرفتْ. إنها تبكي بسببي.

ظهرت غرتي من باب الصالة، ووجهها أحمر منتفخ. مدّت يدها نحو يد جوديث. "جوديت.. الحمد لله. هناك أخبار سيئة. عمك ماكس... سيخبرك أبي".

دخلت جوديث الصالة وهي ترتجف. كانت ربيكا جالسةً على الأريكة الخضراء، تنوح وتندب على كتف جاك، ودورا على جانبها الآخر تشدّ ذراعها.

فتحت ربيكا عينيها عندما اقتربت جوديث، فسحبت حفيدتها إلى حضنها. قاومت جوديث لمسة جدتها خوفًا من أن تشمّ الجدة رائحة العار تفوح من جلدها.

سألت بلسان ثقيل: "ماذا حدث؟"

أجابتها دورا همسًا كأنها تبوح لها سرًا: "أصيب عمك ماكس يا جوديت. هوجمت الحافلة التي كان يستقلّها، وأطلقوا النار عليه". استغرق الأمر دقيقة أو دقيقتين حتى استوعبت جوديث ما حصل، لتذكّر نفسها بحياة أناس آخرين مرتبطة بها. في الوقت الذي كانت تسخر فيه من غرتي وتهرب من المنزل، كان الأشخاص الذين يكرهون اليهود يؤذون أسرتها.

نظرت دورا إلى جاك الذي كان يحتضن أمه بقوة. قال لها: "سيكون بخير يا أمي. ماكس قوي ويتلقى أفضل رعاية".

هزّت ربيكا رأسها. "يا ولدي.. يا ولدي المسكين!" كان صوتها مبحوحًا

يكاد يشقّ حنجرتها. رفعت كفيها إلى السقف وأردفت: "ألن ننتهِ من كل هذا العذاب؟ أتى أولاً الروس، ومن بعدهم الألمان، والآن يصاب ابني برصاصة وهو يركب حافلة! متى سيتوقف العذاب؟"

اقتادوا ربيكا إلى سريرها، ثم شرح جاك لجوديث ما حصل بهدوء. كان ماكس في حالة حرجة في مستشفى في تل أبيب، وسوف يذهب جاك وأليكس إلى إسرائيل في أول رحلة متاحة.

تلقّت جوديث بعرفان صامت أوامر جاك بأن تطيع أمها في غيابه. وعندما نظر إلى وجهها وهز رأسه يمنةً ويسرةً، ظنت للحظة أنه سيخبرها أنها خيّبت أمله بما فعلته. لكنه لم يقل إلا: "يا للأسف يا جوديث! إنه ليس سوى مزارع يحصد ويحرث ويبني بيديه. ما الضرر فيما يفعله؟"

تسللت جوديث إلى غرفة ربيكا بعد ساعات، بعد أن سكن المنزل وخيّم عليه الصمت. كانت دورا وغرتي جالستين في المطبخ مع كأسيّ شاي بارد، وجاك في المحل يقلّب صفحات دفاتر حساباته لعلّه يجد ثمن تذكرة الطائرة. كان باب حجرة ربيكا مواربًا، تستطيع جوديث أن ترى منه جدتها جالسة على السرير، ووراءها وساداتها الرفيعة. نقرت بخفة على الباب فرفعت ربيكا رأسها قليلاً.

"تعالي يا موميلا". كان صوت جدتها واهيًا قطّع قلب الحفيدة. جلست جوديث على ركبتيها، وأمسكت يد ربيكا. قالت: "أنا آسفة بوبي". أومأت ربيكا، ثم أدارت وجهها نحو النافذة وسماء الصيف البيضاء. لفّهما الصمت لدقائق، وجوديث تحسّ بتدفق الدم في عروق ربيكا، حتى فتح ثقل الأشياء التي تريد أن تعترف بها فمها فقالت بسرعة: "تشاجرت مع غرتي اليوم".

أدارت ربيكا رأسها تنظر إليها بعينين متعبتين: "أجل.. لقد أخبرتني.

عن الاسم". احمرّ وجه جوديث وانتظرت رأي ربيكا. لكن جدتها لم تفعل شيئًا، غير أنها أسندت رأسها إلى الوسائد وتنهدت.

عادت عيناها تنظران إلى النافذة وما وراءها، وما وراء الحاضر. قالت: "لن أنسَ اليوم الذي جاءتنا فيه أبدًا. كانت طفلة صغيرة، بل كانت أصغر منكِ وأنحل. رغم أن من ينظر إليها الآن لا يصدق. جاءت على متن قطارات إنقاذ الأطفال kindertransport من النمسا. ذهبتُ مع أمك إلى محطة ليفربول للقائها. كان مع غرتي أختها، وكانت تمسك يدها بقوة حتى ظننت أنها لن تفلتها أبدًا. كانتا ملتصقتين ومتعلقتين ببعضهما بشدة، وقد انفطر قلبي عندما اضطررنا إلى تفريقهما، لأننا لم نستطع أن نتبنى الاثنتين. وقضت غرتي رحلة العودة إلى المنزل في بكاء مرير، وظلت تبكي لأسابيع طويلة. لم تكن تعرف أي كلمة إنجليزية، فحاولت التفاهم معها باليديشية. لا تقولي لأمكِ أنني قلت ذلك، لكن لولا غرتي لما فهمت أمك اليديشية". قطع السعال حديثها.

"لم تكن غرتي ترغب في الحديث عن أمها أو أبيها، أو إخوانها الذين تركتهم. ولم ترغب في الأكل ولا النوم. لم تكن تريد شيئًا إلا رؤية أختها التي أتت معها. رأيت أن من الظلم أن ننقذ طفلة من الموت، ثم نتركها تموت حزنًا وكمدًا في مكان آمن. عرفت بعد السؤال أن أختها تعيش على بعد بضعة أميال، فصرنا نأخذ غرتي لزيارتها كل جمعة قبل أداء الصلاة، أذهب أنا في أسبوع، وتذهب معها دورا في الأسبوع التالي، وهكذا. كانت الرحلة تستغرق أربع ساعات ذهابًا وإيابًا، لكننا لم نفوّت الزيارة قط. كنت أجلس وأنصت إليها وهي تتحدث مع أختها بالألمانية واليديشية، فأحس بالرضا والارتياح. ثم وقعت الحرب، وأُلقي أهلها في معسكرات الاعتقال، ولم يخرجوا منها أحياء. ثم انتقلت أختها إلى مكان آخر لأن بيت أسرتها بالتبني

قد تعرض للقصف. فلم ترها غرتي بعد ذلك، وليس بينهما تواصل إلا عبر الرسائل". انهمرت الدموع فأغرقت وجه جوديث، لكنها لم تجرؤ على مسحها. تذكرت... غيرتروود، أستير، دانيال كراوس.

"لا يمكنك أن تتخيلي كم كانت الحياة صعبة على اليهود بعد أن قامت الحرب. كان للنازيين أصدقاء كثيرون هنا ممن كانوا يؤمنون بأن ما فعلوه بنا كان عدلاً وحقًا. وعندما تعرضت المرافئ هنا للقذائف، رأيت هذا واضحًا على وجوه الناس. كانوا يعتقدون أننا جلبنا لهم الطاعون.. وربما كانوا محقين. فأينما نذهب يلاحقنا الغضب والكره. ونظلّ نحلم أن الجيل القادم سيقطع حبل النحس". تنهدت ربيكا وضغطت على يد جوديث.

"قلتُ كلامًا سيئًا لغرتي". أحسّت جوديث بالراحة عندما اعترفت. "لم يعجبها اسمي وكنتُ غاضبة جدًا، فقلت لها أنني أتمنى لو لم أكن يهودية".

ابتسمت ربيكا وقرصت وجنة جوديث. "أنت واسمك هذا الذي يشغلك! دعيني أخبرك بشيء مهم. إن لاسمك تاريخ مذهل. عندما أرسل نبوخذ نصر قائدًا قاسي القلب ليدمّر اليهود، تسللت جوديث الشابة إلى خيمته. أتعرفين ماذا فعلت بعد ذلك؟ أسقته الشراب حتى ثمل ثم جزّت رأسه. فتفرّق جيشه، وأنقذت جوديث قومها. جوديت هي المرأة القوية في كل عصر يا جودتي. أرأيتِ أن اسمك ليس سيئًا على الإطلاق؟"

تكلّفت جوديث ابتسامة. ظهرت في عقلها المتعب بيغي وكاثلين وغرتي، وأطفال بلا وجوه من قطار الإنقاذ، ينادونها ويسحبونها نحوهم. أرادت أن تضطجع وتطردهم من عقلها.

وقفت وقالت: "أنت لا شك متعبة يا بوبي. سأحضر لك فنجان شاي". أومأت ربيكا وقالت: "لكن دعيني أعطيكِ شيئًا يا موميلا قبل أن تذهبي".

فتحت درج الخزانة بجانب السرير، فرأت جوديث بيدها ظرفًا مكتوبًا عليه اسمها بخط جدتها المتعرج. "كنتُ أحتفظ به لحين البات متسفا، لكنني انتهيت من كتابته فلا داعي لإبقائه معي. لكن لا تقرأيه قبل يوم البات متسفا، حتى لا يصيبك النحس". أسندت جدتها ظهرها وأغلقت عينيها. أخذت جوديث المظروف منها بحرص، سألت وهي تزن ثقل الأوراق بيدها: "ما هذا؟"

جاءها الرد همسًا: "شيء بسيط. لكن عديني أن تقرأيه في وقته".

"أعدكِ". لم يبدُ أن ربيكا سمعت إجابتها. خرجت من الحجرة بهدوء، ثم توقفت عند الباب ونظرت إلى الجسد الهزيل في السرير الكبير. سمعت نفسها تقول: "أحبكِ يا بوبي". لكن تنفس جدتها قد هدأ وانتظم، وهذا دليل على أن عقلها المسنّ قد استسلم لطغيان النوم.

وضعت الرسالة على سريرها الذي ما زال يحمل أثر دعوة بيغي. ترددت لحظةً ثم مدّت يدها تفضّ الظرف لتخرج ما فيه. خرجت صفحات عديدة مسوّدة بخط ربيكا. قرأت السطر الأول:

ابنتي الحبيبة جوديت،

اليوم هو يوم البات متسفا.. إنه يومك، اليوم الذي تصبحين فيه امراةً. وأنا واثقة أنه سيكون يومًا رائعًا وأننا سنفخر بك كثيرًا.

غطت غشاوة عينيها ففركتهما. ولم تكتفِ بل ضغطت براحتيها عليهما حتى أوجعتاها. ولما فتحت جفنيها وبدأت تتضح الرؤية أمامها، رأت حقيبة السباحة معلقة على مقبض الباب. سحبتها وضمّتها إلى صدرها. ما زال قماشها الأحمر يحمل رطوبة الروائح المألوفة، رائحة الكلورين والمطاط المبلل. رسمت كاث قلبًا أصفر على زاوية الحقيبة في أول يوم قضته في

ويرسايد. أحست بشيء قاسٍ يضغط على صدرها.. جدول اختبار الانضمام إلى فريق الناشئين غدًا.

زاد إحساسها بالخزي والقرف. أخرجت الجدول من الحقيبة ومزقته، ثم ألقت القصاصات تحت السرير. فتحت باب خزانة الملابس ودسّت الحقيبة في إحدى زواياها، وكوّمت الأحذية فوقها فدفنتها، حتى نسيت وجودها تمامًا. استلقت على فراشها وأخفت نفسها تحت اللحاف، فسقطت رسالة ربيكا على الأرض. سنفخر بكِ كثيرًا. كيف تجعلهم يفخرون والثقة قد هجرتها وصار مكانها في نفسها فارغًا؟ همست للوسادة: أنا لستُ مينش يا بوبي. أنا لست مينش ولن أكون أبدًا.

لم يتحرك أحد للبحث عن أم حسّان. لم يفزع أحد من أسرته. لا اتصلوا بأحد يستفسرون، ولا هددوا أحدًا ولا توعدوا. اختفت من حياتهم بلا رجعة كأنها لم تكن. ورغم غضبه الشديد على تركها له، ورغم أنها رمته كأنه من فضلات حياتها، فإنه لم يجد في قلبه أي بغض لها. وجّه الألم أصابع اللوم إلى اليهود، وإلى القدر، وإلى أبيه قبلهم.

ركض في ذلك اليوم خارجًا من حجرته وسحب يد أبي حسّان، فاحتضنها إلى صدره وتوسل إليه أن يبحث عنها. "مستحيل تكون بعّدت". بكى وشعر بمعدته تنقبض، وقد حولته المصيبة إلى طفل مكلوم حتى أحس بسائل يتسرب على ساقه. لكن أبا حسّان ظلّ واقفًا بلا حركة فاغرًا فمه، وعيناه بركتان كدرتان. خرج صوت ما من حلقه كأنما قال: "لا.. لا"، ثم استدار مبتعدًا عن ابنه. صرخ سالم: "كله منك. إنت نكدّت عليها. إنت سبب كل شيء صار معنا. وهلاّ ما عنّا ولا اشي". جذبه طارق إلى صدره في عناق شديد، أو ربما كان يحاول أن يبعده عن أبيه. همس في أذن الشاب قائلاً إنه لا ينبغي أن يلوم أباه الذي يحبه رغم كل شيء. "ما بيقدر يحكي لك قد ايش بيحبك لأنه رجال كبير، والدنيا ما تركت له اشي يحكيه". لكن سالمًا لم يعرف في تلك اللحظة إلا الغضب واليأس، ولو أن أبا حسّان كان يملك بيت الشموطي لأحرقه سالم وأحاله إلى رماد.

كان فراشه في تلك الليلة فارغًا باردًا بعد أن رحل رافان، والغرفة التي قضى فيها الأولاد الثلاثة أيامهم يخططون لعودتهم موحشة تقبض القلب. عجّت أحلامه بصور أمه. حلم أنه يفتح أبواب بيوت غريبة لا يعرفها فيجدها فيها.

لم تفلح الشهور في تخفيف حرقة قلبه. وإن كان أكثر ما أحزنه هو أنها أخذت رافان ولم تأخذه. وجد الغيرة والحزن ينشبان مخالبهما في صدره كلما قرر أن ينسى ويرتاح.

أصبح يمضي ساعات يتخيل أين ذهبت، والحماس رغمًا عنه يملأ قلبه. أوصلت إلى جادّات أوروبا الواسعة؟ أذهبت إلى شوارع باريس المنيرة؟ وشيئًا فشيئًا، صار ألم هروبها سكينًا ماضية تقطع حبال الوصل بينه وبين فلسطين، وتغذّي خيالاته فيسافر معها إلى الفضاء والمجهول، مرتفعًا ومترفعًا عن بيوت الناصرة المزدحمة.

وقد تكون الحسنة الوحيدة لهروبها هي أنها أطلقت سراح سالم. أصبح أبوه أكثر تقبلاً لفكرة التخلص من ابنه الباقي بعد أن انتعش وضعه المادي بمال أبي مازن الملعون، ونقصت المصاريف بعد أن نقص عدد الأفواه اثنين.

كان طارق ونادية يحبان سالمًا حبًا صادقًا، وكانا يقلقان على مستقبله. ولأنهما شعرا أن بقاءه في الناصرة قد يسبب المشاكل فقد بدءا بوضع خطة. قال طارق لأبي حسّان ذات ليلة، ماذا لو أن سالمًا حسّن لغته الإنجليزية، وتعلّم صنعة نافعة؟ إن ذهب ليعيش مع حسّان في إنجلترا، فإنه قد يستطيع إرسال بعض المال إلينا فيكون خير عون لأبيه.

سارع أبو حسّان بالموافقة. فقد بلغ سنًا لا تساعده على تربية مراهق. وقد أصبح من السهل الحصول على تأشيرات المغادرة هذه الأيام إن وجد الشخص كفيلاً.

طار سالم من السعادة عندما أبلغه طارق الخبر. ووافق على أن يجتهد ويحصل على درجات ممتازة، وأن يبتعد عن المشكلات وألا يضايق أباه. كان يتوق إلى أن يهجر حياة العرب التعيسة، وأن يصنع من نفسه إنسانًا آخر. فأي

رغبة في البقاء في إسرائيل هذا البلد الجديد قد خمدت وانطفأت.

وفي آخر ليلة نامها سالم في إسرائيل، جمع ملابسه وكتبه وبعض الصور. رتّب الملابس في حقيبة سوداء صغيرة، ووضع الصور في سلة القمامة. أدخل يده إلى آخر الخزانة، فتناول علبة أحذية ورفع غطائها.

اصفرّت صورة بيت الشموطي مع مرور السنين. وهذه هي المرة الأولى التي ينظر إليها منذ أن عادوا من رحلتهم إلى تل أبيب. ما فائدتها الآن؟ رمى الصورة في القمامة وسمع صوتًا خفيفًا عندما وصلت القاع. جلس بعدها على السرير وهو يتنفس بصعوبة.

انحنى بعد لحظات واسترجع الصورة من السلة. حملقت عينا الطفل الرضيع في الصورة بوجهه كأنما يوجّه إليه اتهامًا. رد سالم: أصبحت لدي أحلام جديدة الآن. لكن سرعان ما دسّها في حقيبته.

كان الفصل خريفًا بعد بلوغه السابعة عشرة، ومع قرب موسم اقتطاف البرتقال، وقف سالم في مطار اللد في تل أبيب ليسافر إلى لندن عبر طيران العال الإسرائيلي. وفي جيبه تذكرة ذهاب بلا عودة، وجواز سفره الإسرائيلي، وهويته الوطنية، وشهادة ميلاده الفلسطينية. أعطاه والده ما يعادل مئة جنيه إسترليني ليبدأ حياته الجديدة. هذا هو كل إرثه من ماضيه، الأعطية الأخيرة من بيت الشموطي.

أوصله طارق وأبو حسّان إلى طاولة الجوازات. لم تفكر نادية في المجيء وقد شلّها الحزن. اغرورقت عينا سالم بالدمع عندما احتضنها مودّعًا، وهو يدرك أنها خسرت ابنها.

أخذ طارق سالمًا في عناق طويل، وهو يكرر والدموع تبلل خديه: "الله يحفظك.. الله يحفظك. دير بالك ع حالك. وتذكّر وقت ما تحتاجنا بيتنا

مفتوح إلك".

ردّ سالم وقد غلبته العاطفة: "بعرف". كان يريد أن يقول لطارق أنه يحبه، وأنه كان له أخًا ووالدًا في نفس الوقت. لكن أباه كان واقفًا معهما فلم يستطع أن يقول أي شيء. كل ما استطاع أن يقوله هو: "سلّم لي على نادية. احكي لها إني راح آكل وراح أدرس.. وإني راح اشتاق لصراخها علي". هز طارق رأسه ثم ابتعد ليعطي أبا حسّان فرصة الوداع الأخير.

حملق الاثنان ببعضهما بصمت. رأى سالم بوضوح تحت أضواء صالة المغادرة الساطعة كم كان أبوه هرمًا. وتذكر أنهم أسرة أبي حسّان الثانية، محطته الأخيرة في حياة طويلة. رأى هزال جسده ودقة ساقيه، ولاحظ شفتيه الرماديتين، فأحس بعطف على هذا الشيخ ليس له تفسير.

مدّ ذراعيه فطوّق بهما كتف أبي حسّان. فتّش في عقله عن كلمات صادقة وحانية. قال بلطف: "مع السلامة يا بابا. راح... راح أبعت لك مكاتيب. انتبه ع حالك".

رفع أبو حسّان ذراعًا ترتجف فوضعها لحظات على ظهر ابنه. شد الأب سالمًا إلى صدره بسرعة، فشعر سالم بقلبه العجوز يدقّ دقات واضحة على أضلعه كما يدّق نقار الخشب بمنقاره. أفلته أبو حسّان وقال: "مع السلامة". وقف سالم لحظة، ثم رفع حقيبته على كتفه وتوجه إلى البوابات.

***

كانت تلك القفزة من حياة إلى أخرى أسرع من أن يعيها عقل سالم. جلس سالم مربوطًا بحزام الأمان إلى مقعده، وطائرة العال ترتفع فوق سحب الغبار الأصفر الذي أثاره قيظ الصيف.

كانت الطائرة قد عبرت إسرائيل قبل أن ترتفع. نظر من نافذته إلى الأرض التي تنازع عليها كثيرون، وهي تكاد تختفي عن عينيه. صغيرة جدًا لكنها آسرة. لمست الطائرة زرقة السماء الباهرة، فشعر بفراغ داخلي عميق، بعمق الفراغ الذي يراه من نافذته، خواء مرعب مثير يريد أن يمتلئ.

هبطت الطائرة بعد أربع ساعات على مدرج مطار لندن. تعجّب عندما وجد أن روحه انتعشت برؤية الغيوم الرمادية الموحشة والمسطّحات الخضراء الواسعة. رحّب سالم بهذه الفروق بين العالم الذي تركه والعالم الذي سيحتويه قريبًا.

أخذ يتفحص الوجوه الواقفة بجانبه وهو واقف في الطابور لفحص جوازه وتأشيرة دخوله، بعضها سمراء، وغيرها شقراء، ويعلوها كلّها الرضا والاطمئنان. سأل نفسه كم واحدًا منها مثله يبدأ حياته من جديد؟ نظر إلى الجهة المقابلة حيث صف حاملي الجواز البريطاني، وهو الصف الوحيد الذي يتحرك بسرعة. عاهد نفسه أنه سيكون واقفًا في ذاك الصف في المرة القادمة.

لم يجد في صالة القدوم إلا وجهًا واحدًا مألوفًا.. وجه حسّان. ما زال وجهه يحمل الفرح والبساطة والشحوم كما كان صغيرًا. كان يلوّح بذراعيه حتى كادتا تنقطعان، والابتسامة الواسعة تغطي وجهه. كان يرتدي سترة ثقيلة ومعطفًا جلديًا أسود. سارع في احتضان أخيه وقال: "يا الله يا سالم! ما تغيرت أبدًا. شو هالحلاوة؟ والله زي اللي بيطلعوا في الأفلام. راح أفسحك في كل مكان، ويمكن حظي مع البنات يكون أحسن وإنت معي".

ضحك سالم: "كيف ينعدل حظك معهم وإنت لابس هالشوال يا أهبل؟" كان سعيدًا حقًا برؤية أخيه، ومرتاحًا أن وجد شيئًا مألوفًا يتمسك به في هذا البلد الغريب. صفع حسان مؤخرة رقبته وقال: "يلا.. خلينا نروح ع البيت".

كان الجو في الخارج ثقيلاً كاتمًا رطبًا. لم يتوقع سالم أن يرى مطرًا بهذه الغزارة. كيف يعيش الناس هنا؟ أصابه كل هذا بالدوار.. السماء المنقبضة، والمطار الفسيح، وصفوف السيارات التي تلتمع في الضباب، وضجة الطريق الذي يتفرق في كل اتجاه. مضت نصف ساعة قبل أن يجدا السيارة ويمضيا في طريقهما.

لم يستطع سالم أن يركز كثيرًا على ثرثرة حسّان وهو يقود السيارة في الشوارع الممطرة المزدحمة. كان يحكي له قصصًا عن ورشة تصليح السيارات التي يمتلكها، والمشروعات الجديدة التي يمكن أن يبدأ بها، والفتيات اللاتي سوف يقابلانهن. وعندما سأله حسّان عن خطته، داعب حزمة المال التي في جيبه وقال بلا تفكير: "راح أتعلم إنجليزي واحاول أدخل الجامعة".

"الجامعة؟ شو بدك بالجامعة؟ صدقني يا سالم.. إنت ما بتحتاج للدراسة والهم. راح تكسب أكتر بكتير إذا اشتغلت معي بالورشة". لم يرد سالم. ظل يراقب الشريط الخرساني الرمادي الممتد خارج نافذته، وهو يسأل نفسه: كيف سيترك بصمته هنا؟ كيف يجعل هذا البلد الغريب بلده؟

وصلا أخيرًا إلى طريق فرعي ترابي تحت جسر السكة الحديدية. حكم سالم على المكان من مبانيه المتداعية المصفوفة على طول الطريق، وسمرة الوجوه التي تسير في الشارع، بأنه حي فقير لا يقطنه إلا الأجانب أمثالهما. أخرج حسّان حقيبة سالم من السيارة وسحبها إلى بابٍ بني صغير. كان البيت يقع بجانب محل يبيع أكلات هندية، له لوحة ذات إضاءة خضراء وصفراء، تومض وتنطفئ بكسل في الجو الماطر.

وصلا إلى رأس الدرج المظلم وقال حسان: "وصلنا. هو مش قصر.. بس بيت بيلمني ومكانه ممتاز. راح تشوف بحالك".

فتح الباب فدخلا جحرًا أصغر من شقة طارق ونادية، فيه غرفة نوم واحدة ومطبخ صغير وصالة أصغر منه، وكلها مفروشة بسجاد برتقالي ذي دوائر. قال حسّان: "راح تنام على الكنباية بالأول. ومن اللي تكسبه راح ننقل لبيت أكبر. تمام؟ بدك بيره؟"

أومأ سالم برأسه، والإرهاق والبرد ينخران عظامه. اتجه حسّان إلى المطبخ، فجلس سالم على الأريكة البنية. تأرجحت قوائمها وصرّ خشبها بثقل جسمه. رأى من النوافذ الصغيرة حديقة خضراء صغيرة في الشارع المقابل، وفي منتصفها ملعب للأطفال تعجّ فيه ألوان مبهجة في ذلك الجو الكئيب.

ناوله حسّان علبة بيرة ففتحها. كان طعمها حلوًا لاذعًا أحرق بلعومه. رأى الأطفال بملابسهم الملونة يلعبون في الحديقة رغم المطر، وأذرعهم مرفوعة في بهجة. شعر كأن حاجزًا عملاقًا يفصل بين العالمين وهو يجلس في هذه الحجرة الصغيرة القذرة. ارتشف من بيرته فشعر بالانفصام، كأن جسده لم يكن موجودًا هنا، كأنه شخصية من فيلم قديم، رسمها الضياع بألوان صارخة صامتة.

***

أرسل حسّان سالمًا لشراء بعض الحاجيات من البقالة. "عشان تتعود على الوضع هون". أخذ معه محفظة نقود حسان المليئة بالعملات المعدنية، وخرج يسير تحت زخّات المطر. كانت الشوارع شبه خالية، والقلة السائرون يتحركون بسرعة منكسي رؤوسهم. وجوه هؤلاء البشر خاوية لا ترى فيها لمحة مألوفة، كلهم غرباء تشغلهم متاعبهم، وإن نظروا إلى بعضهم فإنهم لا

يرون شيئًا. غص سالم بالحنين إلى وطنه.

كانت لوحة المحل الذي دلّه حسّان إليه تحمل اسم "فريدي". رفع صاحب المحل رأسه عندما أعلنت الأجراس دخول سالم. كان الرجل ذا لحية بيضاء وعمامة برتقالية. تحرك سالم بين ممرات البقالة ينظر إلى أسماء المنتجات. أخذ منها ما عرفه من أيام الانجليز في فلسطين، أيام الضابط جونو الذي كان يدس السجائر في أيديهم. وعندما امتلأت سلته انتبه إلى المفارقة.. أن يكون الطعام الإنجليزي أقرب ذكرى بحياتهم السابقة في يافا، وبأمه والشاي الإنجليزي الذي كانت تحب أن تشربه، والبسكويت المستورد الذي كانت تعشقه.

عندما جاء دوره لدفع الحساب، اختلطت عليه العملات الفضية والبرونزية، فأخذ يقلب النقود في توتر، والأشخاص في الطابور خلفه يتذمرون. هتف رجل ما خلفه، لكن سالمًا لم يفهم ما قاله. قد لا تكون الكلمات إنجليزية حتى. طفح الكيل بصاحب المحل، فأزاح يد سالم بحنق وجمع بنفسه العملات والأوراق النقدية، وهو يشير في نفس الوقت إلى الزبون التالي. أخذ سالم مشترياته وخرج من المحل.

أُغلقت قِرَب السماء، وانقلب لون السحب من الأسود المكفهر إلى الرصاصي اللامع. أثقلت الأكياس ذراعيه، لكن هذه هي كل بداية، أي بداية، كما كان يطمئن نفسه. كل شيء سيأتي في وقته.

سمع أصوات الأطفال العالية وهم يلعبون، حتى طغت على ضوضاء السيارات. تغلغلت إلى أذن سالم تدفع غمّه بضحكاتهم السعيدة الطروب.

فكر وهو يراهم من بعيد: قد تكون السعادة موجودة هنا. وقف يشاهدهم لوهلة، ولندن تتحرك حوله بسرعة في دوامة من الوجوه وأبواق

السيارات. كان الأطفال يطاردون بعضهم البعض في مرح لا يحمل ذرة هم من هموم الدنيا، وهم يعاندون الجاذبية، ويطيرون ما بين أرجوحة وأخرى بنشوة السعادة تحت رذاذ المطر.

في صباح يوم السبت متسفا، وقفت جوديث بجانب الحاخام مع والديها، وكلها استسلام وخضوع. حفظت الجزء الذي ستقرأه من التوراة عن ظهر قلب. حتى إن أجزاءً منها تسربت إلى أحلامها لأسابيع، كأنها خفافيش تطير في ظلمة الليل.

كانت متأنقة وجاهزة. تنورة جديدة، وقميص أزرق أنيق، ومعطف صوفي. وقد صفّفت شعرها وزّينت أظافرها في اليوم الذي يسبقه. بدت كأنها دورا صغيرة، أو عروسة اختارتها دورا عندما كانت صغيرة. هذه مجرد تمثيلية. كلها تزييف وتظاهر. لست امرأة بالغة اليوم، ولن أكون امرأة غدًا.

فُتح باب مكتب الحاخام بلا استئذان. تعالت أصوات قلقة في الردهة، ورأت جوديث دورا تشدّ ذراع جاك في فزع. أثارت حركتها الرعب في نفس جوديث، فتحرك الحجر الصغير الذي كان يمنع الخوف الجارف من هدم السد الذي بنته حول قلبها.

كان رجل يرتدي الكيباه يقول: "تعالوا بسرعة! إنها في الخارج". ركضت وراء والديها الذين هرعا إلى الباب الأمامي كأنها في حلم. بلغهم عويل متواصل من الخارج، نحيب مفجع لم تعرف سببه. وعندما انفتح الباب ودخل ضوء الشمس، رأت غرتي تقف هناك محمرّة الوجه تبكي بكاءً هستيريًا.

ركضوا مسافة الخمسمئة ياردة التي تفصل بين الكنيس ومنزلهم، دورا وجاك في المقدمة، وجوديث خلفهما ممسكةً يد غرتي بقوة.

رأت سيارة الإسعاف بعد أن قطعا نصف المسافة، أنوارها مضاءة لكن

الصافرة مكتومة. كان ذلك الصمت فألاً سيئًا. ركضت جوديث وكعبها الجديد يطقطق على الرصيف مرسلاً آلامًا في ساقيها.

كان باب منزلهم مفتوحًا على مصراعيه، فولجت بسرعة. وقف رجل أمام باب حجرة ربيكا فأخذ يتحدث مع جاك. نزل لون الماسكارا الأسود مع دموع دورا، وطرقت أذن جوديث كلمتي التهاب رئوي وقصور في عمل القلب. كان جاك يهزّ رأسه بقوة كأنه كلب دخل الماء إلى أذنيه، أما دورا فغطّت فمها بيدها.

صعدت جوديث الدرج ببطء لتقف بجانب أبيها. كان وجه جاك بلون الرماد، والدموع تترقرق في مقلتيه. همست: "ماذا جرى لبوبي؟"

ردّت دورا عليها بصوتٍ ثابت حانٍ. "بوبي سوف ترحل عنّا يا جوديت. لا يمكننا فعل شيء لها. لقد عاشت حياة سعيدة. يريدون أن يأخذوها إلى المستشفى، ولكن أباك يقول..." مدّت دورا يدها تحتضن كف جاك. "يقول إنه يريدها أن تبقى هنا. هذا ما تريده جدتك".

أومأت جوديث. كوني شجاعة. كوني مينش. سألت: "كم بقي قبل أن... ؟"

قال جاك بصوت مبحوح: "يوم أو يومان يا قطتي". كان يمرر يده على صلعته التي تخفيها الكيباه السوداء الرقيقة، كأنها تؤلمه. أرادت جوديث أن تحكّ رأسها وإن أفسدت شعرها المصفف بعناية. "لا أكثر من ذلك. سوف تخلد إلى النوم قريبًا وترتاح".

"أيمكنني أن أراها؟"

نظر جاك إلى دورا. وافقت أمها بإشارة من رأسها. "يجب أن تريها يا جوديت. أنت أحب الناس إلى قلبها".

دخلت جوديث الحجرة التي دخلتها مئات المرات بحثًا عن الحنان، لكنها الآن يجب أن تعطي مثل ما أخذت في كل تلك المرات.

كانت ربيكا مستلقية على وسائدها وقناع الأكسجين يغطي فمها. وكانت عيناها نصف مغلقتين وفمها منفرجًا. اختفى اللون من جسدها، إلا صفرة نجمة داود التي تلتمع على جلدها الشاحب.

تحدث الحاخام في دروس التوراة التي حضرتها جوديث عن كرامة الموت. لكنها لم ترَ أي كرامة هنا. بدت جدتها مهزومة وقد انسلّت الحياة منها. فزعت جوديث من مقدار الغضب الذي يعتمل بداخلها. شعرت بأنهم خدعوها. قالوا لها إنها سوف تكبر اليوم، وإن كل شيء سيصبح أفضل. قالت لها جدتها ذات مرة: "اليوم الذي ينتهي فيه خوفك هو اليوم الذي تقرأين فيه من التوراة ويباركك الحاخام لبلوغك". لكن ما قيمة هذا إن لم تره ربيكا؟

انحنت جوديث وتناولت يد ربيكا الساكنة في كفها. كانت كفها غريبة.. خاوية. كأن نارًا بدأت تخبو في داخل ربيكا، ولا تخلّف وراءها إلا عظامًا محترقة وجلدًا متغضنًا. قالت: "أنا هنا يا بوبي. لا تخافي. كلنا حولك". فتحت ربيكا عينيها. أدارت رأسها الأصهب نحو جوديث، وأخرجت من مؤخرة حنجرتها صوتًا خافتًا. ضغطت اليد الضامرة على يد جوديث بلطف، كأن ريشة لمستها. ثم حال طبيب بين الجدة والحفيدة فدفعها إلى الخلف، ومال إلى ربيكا حتى اختفت وراء ستار من المعاطف البيضاء.

قابلها جاك عند الباب. "حبيبتي.. يجب أن نقرر ماذا سنفعل بالبات متسفا وحفل الاستقبال. نحن نرى أن علينا أن نلغيه. وأمك تتفق معي. وسيقدّر الجميع الظروف". وقفت جوديث محتارة. أراد جزء منها أن تبكي في ارتياح وأن تنزع معطفها وحذاءها الجديد، وأن تعود طفلة كما كانت.

انقبضت أصابعها تحاول أن تحمل معها ذكرى لمسة ربيكا.

سألت بعد حين: "أيمكن أن ننتظر؟ أريد أن أصلي لأجل بوبي". كانت في الحقيقة تكذب. لو أن ربًا خلق هذا العالم الذي يسرق أشياء كثيرة من الناس فلم تكن جوديث تريد أن تعرفه. لكن كان هذا عذرًا أقنع جاك. مرر يده على جبهته وقال: "طبعًا. لدينا بعض الوقت".

في صمت حجرتها مدّت جوديث ذراعها تحت السرير، وسحبت الأوراق المطوية المخبّأة هناك، بجانب قصاصات جدول اختبار السباحة الممزقة. تكسّر خط ربيكا على سطح الورقة كأنها أغصان متساقطة. لم تستطع عينا جوديث أن تركّزا، فدعكتهما في حنق. كوني شجاعة. كوني مينش. لقد وعدتها بذلك. أخذت نفسًا عميقًا، وشعرت بأن بقية البيت يختفي من محيطها. بدأت جوديث تقرأ رسالة جدتها.

خرجت بعد مدة، فوجدت دورا وجاك واقفين على الدرج يتحدثان بأصوات منخفضة حزينة. ووقفت غرتي بجانبهما وذراعاها تلتفّان حول خصرها.

قالت: "لا تلغيا البات متسفا. سأقوم بالمراسم. أريد أن أقوم بالمراسم".

سأل جاك مندهشًا: "هل أنت متأكدة؟" ووضعت دورا يدها على صدرها كأنها تحاول إبطاء دقات قلبها.

"أنا متأكدة". كان صوت جوديث ثابتًا لا يشوبه لمحة شك. كانت تولي حجرة ربيكا ظهرها، فأنار الضوء المتسرب من بابها المفتوح تقاسيم وجهها الصارم.

عندما تتذكر جوديث يوم بلوغها فإنها تتذكر زوبعةً من الاتصالات الهاتفية المضطربة، وضبابًا امتدت فيه الأيادي المشفقة تشد عليهم في حفل

الاستقبال، وبذرةَ حزن بدأت تنمو في قلبها.

ومن بحر الوجوه الذي سبحت فيه لم تتذكر أي وجه. لابد أن جاك ابتسم لها من مقعده في الصف الأمامي، وأن دورا وغرتي مسحتا دموعها بجانبه. كانت الذكرى الوحيدة الواضحة، والصورة التي لم تنمحِ من عقلها منسوجة من أصوات، لا من مشاهد.. صوتها وهي تقرأ من التوراة. وأصوات غناء كأنها تصدح من جوفها، تغني لتقودها من الخوف إلى عالم البالغين.

ابنتي الحبيبة جوديت،

اليوم هو يوم البات متسفا.. إنه يومك، اليوم الذي تصبحين فيه امرأةً. وأنا واثقة أنه سيكون يومًا رائعًا وأننا سنفخر بك كثيرًا. لقد شاهدتك تعملين بكل جد طوال هذا العام استعدادًا لهذا اليوم، حتى إنني شعرت أحيانًا أنني أستعد معك. لم يرزقني الإله ببنات حتى رزقني بك، فالتمسي لي العذر إن اعتبرتكِ نفسي وابنتي وحفيدتي في آن واحد. عندما تكبرين سوف تسرق منكِ الذاكرة أحداث الحياة، والأشخاص الذين قابلتهم فيها، لكنها في المقابل سوف تكشف لكِ حقيقة أسرارها. والحقيقة هي أنك كل ذلك بالنسبة لي وأكثر.

عندما كنتُ صغيرة، كان من عادتنا أن نقدّم هدية للصبي في اليوم الذي يحتفل فيه بالبار متسفا. شيء من إرثه. وبهذه الطريقة فإن أسرته تعترف بأنه لم يعد طفلاً، بل أنه أصبح فردًا نافعًا في مجتمعه وعقيدته. فكّرت بما أقدمه لك ياجودتي. ليس معي من إرثك إلا قطعة واحدة. وها هي بين يديك.. إنها قصة حياتي التي هي جزء من حياتك كذلك. أعتذر إن كانت الهدية بخسة. وأتمنى أن تجدي لها قيمة يومًا ما.

أتعلمين أن اسمي الحقيقي ليس ربيكا؟ بل رفكا بالعبرية. اختاره لي أبي

من التوراة. رفكا هي الفتاة التي تزوجها إسحاق، التي سقت خادم إبراهيم من البئر. تقول التوراة إن إبراهيم كان يبحث عن زوجة مناسبة لإسحاق، ولمّا لم يجد في المدينة، أرسل خادمه إلى أقصى البقاع، حتى أصابه وجِماله الحر والظمأ. توقف الخادم ليستريح عند بئر، فاقتربت فتاة أصغر منك لتسقيه. وقالت إن كانت جماله عطشى مثله فإنها ستسقيها كذلك. بلغت بها الرحمة أن فكّرت بالجمل!

أعتقد أن هذا هو السبب الذي جعل الله يختارها لتكون أمًا لليهود. كانت الرحمة مغروسة في قلبها، وهذه طبيعة أي أم. وهي أيضًا شجاعة لأنها تركت بلدها لتجد مكانها الحقيقي في الدنيا. عندما كنتُ على متن السفينة التي جلبتني إلى هنا، وكنت أبكي على أمي وأبي وأختي إتكا، كنت أذكّر نفسي برفكا، فينجلي حزني.

عندما كنت في عمرك، كنت أعيش في كيشينف في الإمبراطورية الروسية. لقد تغيرت أسماء هذه المدن الآن. كانت مدينة جميلة، فيها مبانٍ عظيمة، وتحيط بها أشجار الصنوبر والورود من الخارج. كنا نقول إن الطيور تهاجر إلى كيشينف في الصيف لأنها باردة، وتقضي فيها الشتاء لأنها دافئة. وكان أبي يضع الحبوب لها لنستمتع بتغريدها.

كنا نعيش في مزرعة يملكها عمي سايمون في ضواحي كيشينف. كان كل اليهود يعيشون في مدن صغيرة نسميها "شتتل" في تخوم الاستيطان اليهودي في روسيا. حكى لي أبي أن كاثرين الثانية جمعت كل اليهود في هذه التخوم كالماشية، وأمرتهم بأن يبقوا هناك وإلا فإن مصيرهم القتل. كانت الأوضاع صعبة على اليهود يا جودتي. كان الروس يأخذون أولادنا، ويجبرونهم على الانضمام إلى الجيش طوال حياتهم. بعض الأمهات كنّ يلجأن إلى قطع سبابات أبنائهن كيلا يستطيعوا الضغط على الزناد. ووضع القيصر الجديد

قوانين ضدنا سموها "قوانين مايو"، وهي قوانين تحرّم على اليهود العيش في مناطق المسيحيين، وتمنعهم من امتلاك الأراضي، وتمنع أولادهم من الالتحاق بمدارس المسيحيين.

كان عمي سايمون من القلة المحظوظين. كانت مزرعته أصغر من أن تجذب انتباه الدولة، لكن قريبة بما فيه الكفاية من كيشينف، على بعد خمس دقائق مشيًا. نفذنا من عين رئيس البلدية، فكنا في أمان. لكننا لم ندرس في المدارس بل تعلمنا في المنزل، بينما كان أبي وأمي يعملان في الخياطة.

كانت إتكا أختي أكبر مني بتسعة أعوام، قوية الشخصية، ذكية إلى درجة تثير فيني الخوف. كانت تصفع مؤخرة رأسي إن رأت أنني أتلكؤ في العمل. وكان لدي أخ أصغر مني بتسعة أعوام، اسمه موشي. كان طفلاً مرحًا يحب المشاغبة ويعشق الضحك، مثل عمك أليكس. لو كان موشي كلبًا لرأيت ذيله يهتز دائمًا من السعادة. وكنا نعيش مع أبناء عمي؛ إيزاك وكايا كانا في سنّي، وغيرتا لم تبلغ سن القراءة، وبنجامين هو الرضيع. أتعرفين أنني كلما شممت نارًا تحترق أتذكرهم؟ رائحة الخشب المحترق كانت تنتشر في بيتنا في تلك الأيام دائمًا، من تحريك القدر على الموقد. إن أكثر شيء يحزنني في حياتي هو أنني تركتهم وابتلعني الطوفان الذي جرفنا جميعًا.

وصلت في حكايتي إلى أصعب جزء يا عزيزتي. كان الوقت إبريل من السنة الثالثة من هذا القرن. أتذكر أن اليوم كان عيد الفصح عند المسيحيين. كنت في الحادية عشرة مثلك، وعلى مشارف البلوغ. وحيث إنّ عمل اليهود في الأعياد المسيحية غير قانوني، بقينا في المنزل ننتظر شروق شمس اليوم التالي.

سمعنا الخبر لأول مرة من عمي سايمون. جاء من قلب المدينة وقال إن الروس تركوا كنائسهم وبدأوا يسيرون في مظاهرة في الشوارع. قالوا إن اليهود قتلوا طفلاً في بلدة ليست بعيدة عنا. حاول الأطباء اليهود أن ينقذوه،

لكنه مات بتأثير السم. لكن الروس يقولون الآن إننا قتلناه لنصنع من دمه فطائر الماتزو. كم أقرفني هذا الكلام يا جوديت! أكانوا يظنون أننا وحوش أو خنازير نأكل القاذورات؟

كانت أمي قد همّت بالذهاب إلى متجر صديقنا نافتوريلي في شارع ستافريسكي، لأنها تحتاج إلى شموع نشعلها في عشاء السبت المقبل. فانتظرت حتى حلّ المساء لينشغل المسيحيون بعشاء يوم الأحد، ثم أخذت موشي معها وذهبت إلى المدينة.

انتظرناها يا جوديت.. انتظرنا وانتظرنا. وبعد أن حل الليل جاءنا أحد أبناء نافتور ومعه رسالة. عاد الشغب إلى المدينة وخافت أمي من العودة، ففضّلت أن تبقى في منزل نافتور. حلمتُ لآلاف المرات أنها خاطرت وعادت إلينا. كيف كان مصيرنا سيختلف لو أنها عادت؟ لكن بماذا يفيد هذا التفكير؟

قضينا ليلتنا في خوف. وعندما بزغ الفجر، رأينا دخانًا أسود كثيفًا يتصاعد من المدينة. أراد أبي أن يذهب لإحضار أمي، لكن إتكا أقنعته بالبقاء.

وعندما جاء الظهر، وصلتنا صيحات عالية. جاء إيزاك راكضًا يقطع الممر المؤدي إلى المنزل. قال إن الروس قادمون من وراء التلة، مسلحين بالعصي والسكاكين. تخيّلت إحدى تلك السكاكين تنفذ في جسمي، فشلّني الرعب.

خبّأنا أبي وعمي في القبو وأغلقنا الباب من الداخل. كنت أرى ما يجري عبر ألواح الأرضية الخشبية. رأيت رجالاً يقتحمون المنزل ويكسرون كل شيء كأنهم كلاب مسعورة. حطّموا حتى انكسرت عصيّهم. كسروا أوانينا، ورموا آلة الخياطة على الأرض. سمعت صياح الدجاج خارج المنزل وهم

يقتلونها واحدة وراء الأخرى.

لابد أن الخوف قد حجب عن ذاكرتي بقية التفاصيل وأنا قابعة في ذلك القبو، لكنني أتذكر إحساسي بالعار. كنا مختبئين كالجرذان. لم أشعر أنني مينش، بل لم أشعر بأنني إنسانة. جعلونا حيوانات كما كانوا يدّعون بالضبط.

بعد أن خرجنا من القبو، لم نكن نعرف كيف نبعد عن عقولنا العجز والضياع لنكون بشرًا مرة أخرى. أخذنا نلتقط القطع المحطمة لبضعة دقائق دون أن نعرف ماذا نفعل. ثم بدأ أبي يصرخ وينادي أمي، ويقول إنه يجب أن يجدها. أردت أن أذهب معه. لكنه أمرنا أن نختبئ جميعًا في المنزل وننتظر عودته. ظلّت إتكا معنا تحرس باب منزلنا المكسور بفأس في يدها.

أظن أنني كنت أعرف يا جوديت أنها لن تعود. الابنة أقرب الناس إلى أمها. سمعت النواح والصراخ يأتيان من مكان بعيد، لكنني لم أعرف وقتها إن كان ذلك حلمًا أم حقيقة. حتى إتكا أحست بذلك. رأيت دموعها تتساقط على فأسها وهي واقفة تحرسنا. عرفت فيما بعد ما جرى. كانوا قد دخلوا محل نافتوريلي عند الحادية عشرة صباحًا. حطموا الباب وقتلوا كل من كان بالداخل. ماتت أمي وهي تحمي موشي خلفها، ثم قتلوه هو. لا أريد أن أعرف إن كان موشي مبتسمًا عندما هجموا على المنزل، أو إن كانت أمي قد بكت. أريد أن تكون آخر ذكراهم هي كما أراهم الآن في قلبي.

قُتل خمسون شخصًا تقريبًا في كيشينف الجميلة. دفناهم ونحن نخاف أن نلحق بهم. دفنّا ماما وموشي في تابوت واحد. وبعد يومين، رحلتُ مع أبي وإتكا، ومعنا حمار وعربة واحدة. الخوف يا جوديت.. الخوف من تلك النصال والعصي دفعنا إلى الهرب. جلست في مؤخرة العربة أشاهد أبناء عمي يتضاءلون أكثر فأكثر حتى اختفوا، كأنهم لم يكونوا موجودين قط.

قال لي أبي إننا متجهون إلى مكان يدعى بينسك يعيش فيه أقارب لنا. لو أنه قال لنا إننا سنذهب إلى القمر لم نكن لنعرف الفرق. أتتخيلين أنني لم أخرج من كيشينف في حياتي؟ لم أبتعد إلا أميالاً معدودة عن النهر. والآن سوف نسافر أكثر من سبعمئة ميل على الأقدام، نتبادل الأدوار ما بين ركوب العربة وجر الحمار.

بعد أن تقطعي مشيًا المسافة التي قطعناها، يصبح الواقع كالحلم المتواصل، حتى إن ساقيك ترتعشان وأنت نائمة. كنا ننام أحيانًا في أنزال، وأحيانًا ننام في العربة. كانت إتكا دائمًا ما ترفع قبضتها إلى السماء ساخطة وتقول: «الحمد لله أن ما أصابنا وقع في الصيف. لو كنا في الشتاء لهلكنا». كان ثمة يهودًا آخرين مسافرين على الطريق. بعضهم متجه شمالاً مثلنا، وبعضهم متجه جنوبًا إلى أوديسا. كانوا يحاولون العودة إلى الأرض المقدسة كما يقولون، فلسطين كما كانت تُدعى حينئذٍ. قالت إتكا إنهم مجانين. كانت تجادلهم وتقول لهم إن الرب أخلف وعده، وإن خير ما يفعلونه هو المضي إلى الأمام بدلاً من الرجوع إلى الخلف.

لقد بلغتُ في تلك العربة يا جوديت، لكن لم يلاحظ أحد. لم نكن نقيم بات متسفا للفتيات في ذلك الحين. لم نكن ننل إلا همومًا فوق همومنا. لم تتذكر إتكا إلا بعد أن وصلنا بينسك، ووبختني لأنني لم أذكّرها. عانقتني وأحضرت لي إناءً من اليخنة. كنت سعيدة جدًا بأننا توقفنا أخيرًا عن السير، حتى إنني نسيت حكاية بلوغي وأنا أتناوله، وحمدت الله على سلامتنا.

عشت في بينسك مع أبي وإتكا خمس سنوات مريرة. قد تظنين أن ذلك المكان كان موطنًا لي، لكن الحقيقة هي أنني كنت أكرهه. كان أقرباؤنا الذين سكنوا فيها قد رحلوا منذ فترة طويلة، وكانت المدينة تعجّ باليهود الفقراء الخائفين مثلنا بالضبط. أدارت إتكا بيتنا وكنت كالخادمة عندها، أطبخ

وأنظف طوال اليوم. أعتقد أنها كانت تخاف أن نتوقف لحظة عن العمل، فكانت تحرّكنا وتشغلنا كل يوم. ربما كانت إتكا محقة. كانت تصلنا أحيانًا أخبار مذبحة في مكان ما، أو تثور مشكلات في المدينة، فيتجمد الدم في عروقي، كما تتجمد البرك في الشتاء. ولولا إتكا لتباطأت حياتي، ولنسيت كيف أعيش من جديد.

ثم مات أبي. لم تستطع إتكا أن تشغله بالحياة إلى الأبد، فتوقف قلبه ذات يوم. دخلتْ إتكا إلى حجرته لتوقظه ذات صباح، ولم أسمع إلا الصمت الموحش لبعض دقائق. بعدها خرجتْ إلى الورشة حيث كنا نحن ننام وقالت: "مات بابا. اذهبي لاستدعاء الحاخام كي ندفنه". ثم شرعت تسخّن الإناء لتحضير إفطارنا. أخجل وأنا أعترف لكِ بأنني لم أبكِ حينها. لكنني بكيت فيما بعد عندما تذكرت رائحته، وكيف كان يلاحقنا أنا وموشي متظاهرًا بأنه دب بري مفترس.

حزمت إتكا متاعنا بعد أن دُفن أبي. قالت لي إنه لا مستقبل لنا هنا، وإن هذا المكان مقبرة لأي يهودي، وحتى يهود بينسك الأثرياء لن يمهلهم القدر، وسوف يصبحون قريبًا جثثًا. تساءلت أين يمكن أن نذهب. لم أعد طفلة في ذلك الوقت، بل شابة في السادسة عشرة. وأي فتاة في سني كانت متزوجة ولها أطفال. إتكا التي كانت في الخامسة والعشرين كانت تعتبر عجوزًا، وقد ظهر أثر الزمن في وجهها. كنت فتاة جميلة، وقد صوّر لي كبريائي أن إتكا امرأة قاسية القلب سليطة اللسان كريهة. لم أفهم إلا بعد حين، بعد أن حملتُ طفلي الأول بين ذراعيّ، أنها ضحّت بكل شيء وبكل أمل في حياة جميلة تعيشها من أجل أن تحميني.

لم تكن لدينا عربة هذه المرة. لذا سرنا حوالي مئتي ميل إلى مينسك. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها محطة قطارات، ورأيت فيها سيدات

روسيات يرتدين قبعات من فرو. لم تبدُ لي رحلتنا أنها حقيقية في ذلك الحين، لكنني أدركت فيما بعد أن هذه الرحلة سوف تأخذنا إلى حياة مختلفة تمامًا.

ابتعنا تذكرة سفر إلى ليبو على بحر البلطيق. سمعت إتكا قصصًا مفزعة عن الحرس الروس الذين ينصبون كمائن لليهود على منافذ حدودها مع ألمانيا. كان طريقنا أطول لكنه أكثر أمانًا. كلفتنا التذكرة خمسة روبلات، وكان هذا المبلغ كبيرًا في تلك الأيام. كانت إتكا تحتفظ بأموالنا في حقيبة تدسّها في ملابسها الداخلية، وكانت تقول إنها تريد أن ترى الرجل الذي يجرؤ على أن يفتش عن شيء في ذلك المخبأ.

كنا في تلك الرحلة واقفتين، كبقرتين محشورتين مع أبقار أخرى كثيرة. لكننا لم نمانع أبدًا طالما أن تلك العجلات الحديدية هي التي تقوم بالسير بدلاً من أرجلنا. لم تتحدث إتكا معي طوال الرحلة إلا مرة واحدة. وكزت أضلعي بمرفقها، وقالت إننا عبرنا الحدود إلى ليتفك، وهي ليتوانيا اليوم. لابد أنها عرفت من خلو وجهي من أي تعبير أنني لم أفهم، لأنها تابعت: "ألا تعرفين ما يعنيه هذا يا غبية؟ لقد خرجنا من التخوم". خرجنا من التخوم! كان الخبر كالموسيقى لأذني. لكن العالم لم يختلف كثيرًا عما قبل، كل ما هنالك أنه أصبح أكبر وأبعد عن وطننا.

ركبنا في كونفو قطارًا آخر، ووصلنا إلى ليبو في اليوم التالي. كانت تلك هي المدينة التي يسافر منها اليهود بحرًا من روسيا إلى العالم الجديد. لم تكن تلك المدن الساحلية الروسية تشبه ساندرلند أبدًا. كانت ليبو تثير في قلبي الخوف، بقذارتها ورائحتها المنتنة. والسكارى والنساء السيئات فيها في كل مكان. استأجرنا غرفة في نزل تفوح فيه رائحة الحمامات، إلى درجة أنني أصاب بالغثيان كلما دخلت إليه. وكان الغناء من الطابق السفلي لا ينقطع، والحرارة لا تسمح لنا بالنوم.

قضت إتكا يومين وهي تحاول أن تجد إحدى منظمات الإغاثة اليهودية، لتشتري تذكرتين على متن السفن الدانماركية المغادرة إلى إنجلترا أو أمريكا. عادت في اليوم الثاني تكاد تفرط الدموع من عينيها، ورمت ورقتين على السرير. أمسكت المينورا التي جلبناها معنا من كيشينف، وقذفتها بقوة على الأرض وهي تصرخ: "اللصوص الشياطين! يا رب اخسف هذا المكان كما خسفت سدوم فور ركوبنا تلك السفينة الملعونة". أعتقد أن محتالاً طمع بعمولة جيدة، فأجبرها على دفع كل ما كنا نملك مقابل تلك التذكرتين.

حلمت تلك الليلة أن إتكا كانت تكلمني في منامي. وعندما استيقظت رأيت أن ملاءتها كانت حمراء مبللة. أعتقد أنني أصبت بالهستيريا، فكل ما أذكره هو أنني هرعت إلى الطابق السفلي وأنا أصرخ. استدعت المرأة التي تملك النزل طبيبًا، وقد جاء على عجالة. قال لنا إنها مصابة بالزُحار، وإن حالتها سيئة جدًا. عرفت من طريقته معي أنه لا يحمل أي ود لليهود. كان يردد "أنتم" عندما سأل عن حياة إتكا وحياتي.. "أنتم ماذا تأكلون؟ وأنتم ماذا تشربون؟"

بقيت مع إتكا ليلتين أفرغ الدلو وأنظفه. وفي اليوم الثالث من مرضها تنبّهت من غيبوبة الحمى، وأمسكت يدي بشدة حتى آلمتني. أمرتني أن آخذ التذكرتين وأذهب إلى ميناء ونتر هاربور، وأن أبيع تذكرتها لأستفيد من ثمنها في بدء حياتي في إنجلترا، وأن أرحل على متن السفينة قبل أن تغادر من دوني. رفضتُ طبعًا. لم أرفض لأنني شجاعة، بل العكس هو الصحيح. كانت إتكا هي ملاذي. ما فائدتي بدونها؟ لوت إتكا معصمي، وقد احمرّ وجهها غضبًا كما كان قبل اعتلالها، قالت: "لا تكوني غبية يا رفكا. حان الوقت لتكوني مينش. لن يسامحك أبي ولا أمي إن أضعتِ هذه الفرصة. وسوف تطاردكِ روحي بعد موتي، وسأظل أعذبك إلى الأبد".

قررت الرحيل، لكن روح إتكا سكنت حياتي رغم ذلك. لم أتركها إلا بعد أن وعدتني أن تحتفظ بالتذكرة الثانية معها، وأن تغادر على متن السفينة التالية. كنّا كلانا طبعًا نعلم أن إتكا سوف تموت في تلك الحجرة، لكن ماذا يمكن أن نقول؟ وعندما حان الوداع، كانت نافذة الصبر كعهدها دائمًا. كان آخر ما قالته لي: "غادري بسرعة يا فتاة!" سرت إلى المرفأ أبحث عن سفينتي، ليس معي إلا مينورا والدي وروبل واحد وبعض الثياب. كان هذا كل ما بقي معي بعد قطع الأميال الطويلة.

كانت اسم الشركة المشغّلة للسفن شركة البواخر المتحدة (Det Forenede Dampskibs-Selskab). حملقت في تلك التذكرة حتى نُقشت الكلمات في ذاكرتي إلى الأبد. كانت السفينة ضخمة كأنها وحش هائل، ورائحة الأبقار المريضة تفوح فيها. ركبت السفينة كأنني أسير في نومي، دون أي شعور في قلبي. يقولون اليوم إن هذه طريقة الإنسان في التعامل مع الأمور التي لا يمكنه احتمالها. وإن كانوا صادقين فأنا شاكرة لهذه القدرة.

لا شك أن الرجل الذي باع التذكرتين لإتكا قد حصل على ثروة عندما انتهى من عقد صفقاته، لأنني وجدت كل يهود أوروبا في تلك السفينة. ولو كنا أبقارًا لدهسنا بعضنا حتى الموت قبل أن تقطع السفينة نصف المسافة. عندما أبحرت السفينة شعرت بأن كل شيء يبتعد معها ورائي.. أسرتي، ووطني، وأي اهتمام أحمله في داخلي للمستقبل.

كانت تلك الفترة أحلك الفترات في حياتي يا جوديت. ثم حدث شيء أنقذ حياتي. كان شاب في مثل سني يقف بجانبي مباشرة على سطح السفينة، ومعه أخوه. عرفا أنني وحيدة فمدا يد العون لي. قضينا أربعة أيام معًا في البحر، نصغي إلى أصوات التقيؤ والدعوات. إن تحدثتِ مع شخص ما، وأعني بذلك إن تحدثت معهم وأصغيتِ إليهم ولو لساعة واحدة فقط، فإنك

تستطيعين أن تعرفي حقيقتهم. فتخيلي أننا تحدثنا واستمعنا لبعضنا لأربعة أيام وليالٍ كاملة. بدأت رحلتي وحيدة كما لم يعش أي إنسان الوحدة من قبل، لكنها لم تنتهِ إلا وقد تعرفت على الرجل الذي سيكون جدكِ.

لو كان شخص ما واقفًا بيننا في تلك الرحلة لما التقينا، ولما حصلت كل الأمور التي حصلت في حياتنا بسبب ذلك اللقاء. ربي يسّر لنا ذلك، فأنا أغفر له ما فعل بي.

أبلغوني عندما رست السفينة أخيرًا أين وصلنا، لأنني لم أكن أعلم. كان ميناء هول، ولم أكن طبعًا قد سمعت به من قبل. كان لجدكِ أسرة في نيوكاسل. قال لي إننا نستطيع التوجه إلى هناك والزواج، وإننا سوف نفتح دكانًا لبيع الأزرار. وكنت قد تعلّمت الخياطة إلى حد ما من أبي، وكنت ماهرة بها يكفي لمساعدتنا على كسب العيش. عندما وقفت في ذلك الميناء، رأيت نفسي ما بين الحلم واليقظة، رأيت الورود وشجر الصنوبر تحت سماء كيشينف الزرقاء. كانت رائحة الورود تدغدغ أنفي كأنها معي ومتعلّقة بجلدي القذر.

كان بعض أفراد أسرة جدك من "مجلس الأمناء اليهودي"، وعندما وصلنا إلى نيوكاسل حضروا لاستقبالنا في المحطة. كانت سعادتهم لرؤيته بالغة، ورحبوا بي خطيبةً له. كان اليوم التالي هو عيد ميلادي، وكنت سأبلغ السابعة عشرة، لكنني لم أخبر أحدًا. أليس إثمًا أن أحتفل بالحياة، وإتكا وأمي وأبي وموشي كلهم أموات؟

ماذا بقي لأقوله يا جودي؟ تزوجت جدك وكنا سعيدين معًا. فتحنا دكاننا الصغير في ساندرلند، فأصبح هذا المكان موطني. غيّرنا اسمينا، وصرنا نتحدث الإنجليزية بدلاً من اليديشية، وربّينا أولادنا على عادات بلدهم الذي ولدوا فيه، وليس على عادات بلاد أجدادهم. نبذنا تلك الحياة السابقة كما تتخلص اليرقة من جلدها، لأنها لم تعد تنفعنا في هذا المكان.

وُلد عمك ماكس، واسمه مشتق من اسم موشي. ثم وُلد أبوك وعمك أليكس. وكنت أحلم لأعوام أن ألد بنتًا لأحيي ذكرى إتكا وأمي. لكن يبدو أنهما قد وجدتا الراحة الأبدية فعلاً، ولم يشأ الرب أن يقلق روحيهما في مرقدهما. بعض الأشياء إن ضاعت لا تعود أبدًا. في الحقيقة.. هذا ما كنت أظنه إلى أن ولدتِ.

طالت رسالتي يا عزيزتي جوديت، وأتمنى أن تسامحيني. لكني أريد أن تعرفي أي سعادة أجدها في بلوغك. هذه خطوتك الأولى نحو عالم جديد. لا يضطر اليهود هنا إلى الاختباء، ولا يخشون أي طارق على الباب. تستطيعين أن تحتفلي بحياتك في كنيس وأنتِ محاطة بأسرتكِ، لا على عربة قذرة قديمة تلحقها الأشباح. حتى إن اليهود اليوم وجدوا وطنًا لهم، ورفعوا علمهم بين الأعراق والديانات الأخرى. ربما يكون جيلك هو الجيل الذي ينعم بالأمان، الجيل الذي ينهي العذاب الذي لحقنا جميعنا.

إن الشيء الوحيد الذي يحزنني هو احتمال ألا أكون معكِ وأنت تحققين عهدكِ. لكن لا تحزني يا عزيزتي. أنت تبدئين رحلتك الآن، وأنا مستعدة لأنهي رحلتي. أنت تسيرين أمامي في الطريق، ومهما كانت نهايته فإنه سيجعلك المرأة التي ستكونينها في المستقبل. تأكدي أن يدي تمسك يدكِ وأنت تقطعين هذا الطريق. وأدعو الله أن يمنحك الشجاعة كي تشقي الطريق الذي يناسبك، وأن تجلب لك رحلتك السعادة في النهاية، كما أعطتني رحلتي السعادة.

جدتك التي تحبك دائمًا

ربيكا

الجزء الثاني

استيطان

أنا أيضًا أجبرني القدر القاسي على أن أبحث عن وطن جديد. لكنني تعلمت من عذابي كيف أواسي أولئك الذين يعانون مثلي.

فيرجل، شاعر روماني

1967

لندن

إنّ أول ما لاحظه عندما وقعت عيناه عليها هو شعرها الأشقر والسلسلة الذهبية الذي تتدلى منها نجمة. كانت نجمة سداسية ذكرته ببلده.

ثم ضاق عليه الحشد، وأخذت مارغريت ذراعه تجره إلى إحدى الزوايا لاستراق قبلة. كان طعم فمها تبغًا وليمونًا حامضًا من الكوكتيل الوردي في يدها.

مال جسداهما على النافذة، وقطرات المطر تضرب الزجاج، كأنها أيادٍ صغيرة تحاول الدخول. شعر بأن عقله بدأ يخف كالبالون. ما زالت برقية نادية مطوية على طاولته كما تركها قبل ثلاثة أسابيع. وقد أرسل حسّان برقية أخرى هذا الصباح رماها سالم في سلة النفايات.

أبعدت مارغريت نفسها عنه. كانت عيناها مرسومتين بالكحل الثقيل، وشعرها الأسود مرفوع برباط بنفسجي. التفّت إحدى ساقيها الطويلتين حول ساقه، فارتفعت التنورة إلى فخذها. الكل كان يلهث وراء مارغريت، وهي تعمل جاهدة لتدير رؤوس الجميع. فكانت السيجارة ملتصقة بأصابعها كأنها نجمة شهيرة، وأخذت تتعلم العزف على الجيتار، وتخلصت من لهجتها القروية فأصبحت تتحدث بلهجة سوهو. تذكّر أول ليلة ناما

فيها معًا، وكيف كانت قبلاتها عنيفة ثائرة لا يشبعها شيء. لكن قبلاتها الآن ساخطة منزعجة. عرف فورًا أنها ستبدأ بالشجار.

قالت بضيق: "ماذا بك اليوم يا سال؟" دغدغت قدمها قدمه، لكن عينيها لم تحملا أي عاطفة. "هل دخّنت حشيشًا تالفًا؟ لو كنت أقبّل الليلة فم سمكة لاستمتعت أكثر".

أجاب بلا أدنى اهتمام: "أنا آسف". ما سبب بقائه على علاقة مع مارغريت أصلاً؟ إلى جانب "مؤهلاتها" الواضحة طبعًا. لم تكن مارغريت يعجبها شيء فيه إلا أنه طويل وأجنبي، والأهم من ذلك أنه أكبر سنًا. بالنسبة لمراهقة جميلة مثلها فإنه شاب مكتمل الرجولة رغم أنه في الخامسة والعشرين. "عقلي مشغول بأبي". كانت هذه الجملة عادةً تخرس مارغريت. فمن الصعب أن تتشاجر مع رجل مات أبوه قبل أقل من شهرين، وفي منتصف الاختبارات النهائية.

"أووه... أف! كان يجب أن تحضر جنازته إذًا".

قال بانزعاج لاضطراره للكذب: "لم أستطع. قلت لكِ ذلك".

"والآن ليس لديك أي اختبارات. فتستطيع أن تذهب. هذا أفضل من بقائك هنا وإصابتي بالكآبة". حررته مارغريت من بين ساقيها، وجالت ببصرها في الغرفة المكتومة. كانت عيناها من أجمل العيون. تستطيع بهما أن تنفذ إلى أعماق عقل أي رجل، وترى إن كان فيه ما يثير اهتمامها. قال في نفسه: هناك شخص آخر يسلّيكِ أكثر مني.. اذهبي وابحثي عنه. وكما لو أنها قرأت أفكاره، وضعت مشروبها الوردي على طرف النافذة، ثم قرصت ذراعه بأظافرها الطويلة، وقالت بشيء من الحدة: "أريد شرابًا حقيقيًا. هذا القرف المسكّر أصاب رأسي بالصداع".

راقبها سالم وهي تمرّ من بين الضيوف، كأنها نمرة تتسلل بين حشائش طويلة. هذه هي الغرفة التي تناسب شخصية مارغريت.. دخان يكتم الصدور، وشباب وشابات فارعو الطول، وموسيقى لم يسمعها من قبل تخرج من الجهاز الموجود في الزاوية. كان الرجل يغني: هذه هي النهاية يا صديقي الوحيد.. نهاية خططنا الطويلة. نهاية كل شيء بيننا.

وكانت النهاية أيضًا لأبي حسّان، قبل أسبوعين من عيد الميلاد. قضت عليه جلطة وهو جالس على كرسيه يقضم المكسرات كما يفعل طوال اليوم. في لحظة امتدت يده نحو فمه يأكل، وفي اللحظة التي تليها كانت يده مرتخية إلى جانبه، خالية ومنبسطة الكف.

كان موت أبي حسّان متوقعًا منذ أعوام. لكن أي دموع ذرفها سالم لم تكن حزنًا على الرجل نفسه، بل أسفًا على شخصية أب كان يتصورها في خياله. إن أكثر شعور تملّكه في الواقع هو تردد كبير في العودة إلى بلده لحضور العزاء.

وقد كان لديه عذر مقنع. كان في السنة الأخيرة من دراسته في قسم الاقتصاد في يونيفرستي كوليج في لندن، والامتحانات قريبة. وهو الوحيد من أبناء الإسماعيلي الذي يلتحق بالجامعة، وقد كان طارق ونادية يؤكدان له مرارًا أن والده فخور جدًا به. شك سالم في صحة هذا، لكنه كان مسرورًا بأن ألقى على حسّان مسؤولية العودة إلى الناصرة. كانت العادة تقتضي أن يتم الدفن خلال 24 ساعة، ولم يكن ممكنًا أن يعود أي من الابنين خلال يوم واحد لترتيب شؤون الدفن. فتحمّلت نادية الابنة الكبيرة مهمة تشييع أبيها من هذه الدنيا بكل الاهتمام الذي حرمها منه عندما كان حيًا فيها.

ظل سالم في بريطانيا، وذهب حسّان ليتولى تدبير بقية الأمور وليستلم الإرث. عندما ذكر حسّان ذلك لسالم ضحك ضحكة عالية، وعلّق: "أنت بتعرف إنهم بيعلمونا الحساب في الجامعة.. صح؟ إذا قسمت صفر على اتنين

بيضله صفر".

لم ترجع مارغريت بمشروبها. لكن سالمًا كان راضيًا بالوقوف لوحده والاكتفاء بمراقبة رقص الغرباء. لم يكن يبدو أجنبيًا في لندن، لقد خُلق ليعيش في هذه المدينة بسمرته الجذابة، وجسمه الممشوق الطويل، وابتسامته التي يصفها الناس بأنها سلسة، كأنهم يعرفون كل شيء عنه. تعجّب سالم من استعداد الإنجليزيات لأن يرمين أنفسهن على عربي مفلس يعرف كيف يضحكهن، كما يعرف كيف يبكيهن. كنّ يتخيلن أنه سيكون عاطفيًا غامضًا فاتنًا بشيء من القسوة، مثل عمر الشريف في لورنس العرب. وقد استجاب لكل توقعاتهن. لكن تلك الأذرع التي تحيط به من الخارج لم تستطع قط أن تصل إلى داخله، فصار يفضل وحدته في النهاية.

قرر بعد دقائق أن يبحث عن تلك الشقراء. شقّ طريقه بين المتجمعين على طاولة الشرب، لكنه لم يستطع أن يجدها. وجد مارغريت مشغولة في الحديث مع شخص ما. دار سالم مرةً حول الحجرة حتى عاد إلى النافذة التي كان يقف عندها قبل دقائق. عم أبحث؟ من الأفضل أن أعود إلى البيت.

رأى صاحب الحفلة يمر أمامه مسرعًا، وقبعة خضراء تميل من فوق رأسه فتحجب عينيه. مدّ سالم يده فأمسك بمعصمه. "مايك".

"سال.. أهلاً يا رجل! ما بك؟"

"كنت أبحث عن فتاة".

"كلنا نبحث عن فتاة. أين مارغريت؟"

قال سالم: "تجرح قلب رجل آخر. التي أبحث عنها ضئيلة الجسم، شعرها أشقر طويل، محتشمة كأنها راهبة".

"أتقصد جود؟ أيها الأحمق.. إنها خلفك مباشرة". ظهرت حمرة الخجل

على وجنتيّ سالم لأول مرة منذ سنوات عندما أدرك خطؤه، وأن الفتاة التي لم يلاحظ أنها تقف بجانب مرفقه التفتت عندما سمعت اسمها.

قال مايك: "آسف يا رجل. سأترككما لتتعرفا على بعض يا قطط. أريد الذهاب إلى الحمام".

كانت صغيرة الحجم، وربما يكون هذا سبب عدم رؤيته لها. كانت قمة رأسها لا تصل إلى ذقنه، وشعرها الذهبي طويل لكن قصته صبيانية إلى حد ما، وعلى جبينها غرة تظلل وجهًا جادًا. كانت بشرتها بيضاء كالقطن، وقد ذكّرته عيناها الزرقاوان القلقتان بعينيّ لي لي يَشوف والوشاح فوق رأسها.

"أأبدو حقًا كأنني راهبة؟" كان الفضول واضحًا على وجهها. نظر سالم إلى فستانها الغريب، فمدت يدها تصلحه بلا وعي، كأنها تحمي نفسها من حكمه عليها. أثارت الحركة شيئًا ما في داخله.. شيء أشبه بالشفقة.

أجاب بابتسامة: "راهبة جميلة.. من الراهبات اللاتي يحنثن بالقسم". ابتسمت ابتسامة واسعة وهزّت رأسها.

قالت وهي تنظر حولها في الغرفة ثم إلى قدميها: "أنا لا أحب هذا النوع من الحفلات. لم آتِ إلا بطلب من رفيقتي. وأنا أعرف مايك.. نحن معًا في القسم نفسه.. ندرس الأدب. وأنت؟"

قال: "وأنا لا أحب هذا النوع من الحفلات". رفعت رأسها تنظر إليه في ريبة. قالت: "صحيح؟ رغم أنك جئت مع مارغريت".

"كل من في الحفلة أتى مع مارغريت، على ما أظن". ابتسم سالم في خبث يحاول أن ينظر في عينيها. لكنها أعادت بصرها إلى الأرض. بدأ الانزعاج يفور في صدره. ماذا عليّ أن أفعل لأجعل هذه الفتاة تنظر إليّ؟ "لقد بحثتِ عنك في كل مكان.. بينما أنت مختبئة هنا".

ثبتت الفتاة أخيرًا عينيها الزرقاوين في عينيه، وقالت في تحدٍ: "لم أكن مختبئة. ربما لم تكن تعلم عمن تبحث".

"قد تكونين محقة". رأى للمرة الثانية السلسلة الذهبية ذات نجمة داود السداسية على صدرها. أشار إليها وسأل: "ما قصتها هذه؟" رفعت يدها إلى السلسلة، ولاحظ أن أصابعها بدأت تتبع زواياها، كأن هذه عادة فعلتها مرات كثيرة. فكّر بعد سنوات ما إذا كان قد وقع في حبها في تلك اللحظة، ما إذا كانت الغيرة أصابته من قطعة حلي، وتمنى أن يحويه شخص ما بمثل هذا الحب.

قالت: "كانت لجدتي"، ثم ترددت وأردفت: "هذه نجمة داود. إنها ...".

قال بسرعة: "أعرف ما هي". لم يفكر بأبي حسان وهربهم من يافا، بل فكّر بإيليا وتلك الظهيرة التي قالا إنهما لن يكونا أصدقاء. وقع بينهما الصمت وبدا أنها مندهشة. أحس بأنه أقلقها بردّه، لكنه لم يجد أي كلمات يستخف بها من الأمر ويحوله إلى دعابة.

سألته: "من أين أنت؟" هو من تردد هذه المرة.

"لندن".

"صحيح؟" ابتسمت وهزت رأسها مرة ثانية.

قال: "ما الأمر؟" كان يخشى من أن تكتشف كذبته.

"لا شيء، ولكن.. أنت تشبه أحد أعمامي".

قال ضاحكًا: "يا إلهي! أتمنى أن يكون عمك وسيمًا".

ضحكت هي أيضًا: "لا.. لا أقصد هذا. أنت تذكرني به. فكلاكما... أسمران وجادان".

"وأين عمك الرائع هذا؟"

"إنه يعيش في الخارج".

"فلنحمد الله على ذلك". مدّ يده إليها وقال: "أنا سال". صافحت يده بثبات كأنها طفلة تتسلّم ميدالية.

ردّت: "أنا جود. يسرني أنك وجدتني".

"وأنا كذلك". وهذه المرة قالها بصدق يماثل صدقها.

***

التقيا بعد يومين فحسب. وافقت جود على أن تقابله لشرب القهوة في بلومزبري بالقرب من المبنى الذي تدرس فيه، حيث إنها ما زالت طالبة في السنة الأولى من الجامعة. كانت لندن ترعبها.. سرعة هذه المدينة تختلف عن سرعة ساندرلند، فهي عالم يرقص بمهارة على أنغام عالية سريعة الإيقاع. يقول الناس إن برودة الشمال لا تنقطع، لكنها وجدت نفسها تتدثر من شتاء لندن غير المنقطع، وهي تحلم بصفاء سماء ساندرلند الزرقاء، وهبوب نسائمها العليلة، والسحب القطنية البيضاء تطارد بعضها على البحر كأنها تسابق النوارس.

عندما عرض ذلك الشاب المدعو سال أن يتقابلا في مقهى لم تكن جود تعرف ما قصده بالضبط. فهي في التاسعة عشرة لكن لم يكن لها صديق من قبل. كان ثمة صبي اسمه ستورات، خجول مثلها، وكان يدردش معها عادة أثناء تمارين السباحة، وقد وصل بهما الأمر أن أوصلها مرةً إلى منزلها وهو ممسك يدها. وعندما أعاد الكرّة في الأسبوع الذي يليه سألت نفسها إن كان ستورات سيقبّلها هذه المرة، لكنه كان بالغ الأدب. ضجرت في النهاية من

كفه المتعرّقة، فأصبحت تعود إلى منزلها مبكرًا لتتجنبه، والشعور بالارتياح يرافق كل خطوة تمشيها.

كانت تعرف الحب من الأخبار، من قصص الحرب في فيتنام، والمظاهرات السلمية في أمريكا. لكن ما زال الحب مفهومًا غريبًا لم تره إلا في الأفلام. حتى بعد أن مضى على وجودها في لندن خمسة أشهر، فإن الحب يبدو لها مزيفًا متصنعًا، كالأزهار التي تراها في كل مكان مطبوعةً على ملابس الناس من تشيلسي إلى سوهو ومعلقةً في شعورهم. لم يكن هناك أزهار حول سكن الطلاب الذي تعيش فيه جود في كامدن لوك، بل خرسانة وفولاذ، وشقوق في الأرصفة، وصفوف طويلة من النوافذ المتسخة بالمطر والدخان.

في عالم جود، من الأدب أن تأتي إلى الموعد مبكرًا. جلست إلى طاولة في زاوية في مقهى فيرجينيا، وأخرجت من حقيبتها كتابًا. رذاذ مطر فبراير ينقر الأرض بخفة في الخارج، ويبتلع الموسيقى الخافتة التي تعزف داخل المقهى. الحافلات تقطع الطريق بسرعة، حتى لا يرى المرء عبر دخان السجائر وضباب النوافذ إلا حمرتها المارقة كوميض خاطف.

سال.. اسم لا يحكي قصة. من هو هذا الشاب، صاحب العينين الحادتين كعيني عمها ماكس، ونبرة الصوت اللطيفة المميزة؟ بدا في تلك الليلة أنه مثلها لا يحب حضور تلك الحفلات.

وهذا هو السبب الأهم الذي دفع جود إلى قبول الخروج معه، لكي ترى الابتسامة الحقيقية تعلو وجهه وتحل مكان تلك الابتسامة المصطنعة. كيف يبتسم لمارغريت؟ أقصت الخاطر عن ذهنها، وأمسكت سلسلة ربيكا تستمد منها الشجاعة، شعرت بالذهب كالماء الدافئ في كفها.

رفعت رأسها فوجدته واقفًا أمامها. رأت ابتسامته المرتبكة فاحتلت

ذهنها فكرة واحدة لا غير: لقد أدرك أنه ارتكب خطأ بدعوتي والآن لا يريد أن يكون هنا. ولكن قبل أن تفتح فمها، سحب الشاب الكرسي وجلس.

كشف ضوء النهار شحوب وجهه، وسواد شعره، وحدة نظرته. كان وجهه مبللاً بماء المطر، والقطرات تتساقط على الأرض من معطفه الثقيل وشاله الأخضر. كادت تسأله عن سبب حضوره بلا مظلة، لكنها أمسكت لسانها. كانت أمها تجيب دائمًا عن "لماذاتها" بكلمة واحدة: هكذا. حتى عوّدت جود نفسها على ألا تسأل عن الأسباب، كما يفعل كل اليهود في العالم.

لم يقطع أحد منهما الصمت، إلى أن نطق سالم: "ماذا تقرئين؟"

رفعت الكتاب ليراه، فضيّق عينيه يقرأ العنوان. "الإخوة كارامازوف. دوستويفسكي". كان واضحًا على وجهه أنه لا يعرف الرواية، فأردفت: "إحدى الكتب الموصى بها في مقرر الأدب الأجنبي. أنا أدرس الأدب الروسي والفرنسي".

قال مجاملاً: " تبدو مثيرة. لماذا اخترت هاتين اللغتين؟"

فكرت قليلاً. أرادت أن تبحث عن السبب الحقيقي من بين كل الأعذار والأسباب التي قدّمتها لوالديها.

قالت: "قضيت إجازة مرة في فرنسا. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسافر فيها خارج البلاد". استرجعت ذاكرتها لون السين البديع والنهر يتماوج على الضفة اليسرى، ورنين الضحكات الباريسية، ورائحة الطلاء وفراغ السماء. "لم أرَ في حياتي مكانًا مثلها. شعرت بأن الحياة تجري كالنار في عروقي. تفكيرهم يختلف عن تفكيرنا.. أكثر تحررًا. أردت أن..." لم تجد الكلمات التي تصف بها التوق الذي أصابها في ذلك المكان، فعضت شفتها حرجًا. لكنه أذهلها بأن وجد هو الكلمات التي تبحث عنها: "أردتِ أن

تأخذ قطعة منها حتى تكون معك إلى الأبد".

عجبت من فهمه لها. علت خديّها حمرة وقالت: "هذا صحيح. الكتّاب الفرنسيون مثل ستندال يتحلون بجسارة تثير الإعجاب. لا تقيدهم حدود مثلنا. إنهم يخلقون شخصيات مثل فابريسيو و... وكانديد ويجعلونهم يتصرفون كما يشاؤون أينما كانوا، يسمحون لهم بأن يعيشوا ألف حياة مختلفة".

ارتفع حاجباه في سخرية مصطنعة. "ألف حياة؟ هل تحتاجين إلى أن تعيشي ألف حياة حتى تجدي الحياة التي تسعدك؟"

فكرت بالسؤال بجدية ثم أجابت: "لا. لكن أليس من الممتع أن تتخيل من ستكون لو لم تمانع في التخلي عن كل ما يجعلك أنت الآن؟"

"يعتمد".

"يعتمد على ماذا؟"

"هل تستحق المبادلة التضحية؟ لنفترض أنكِ تخليتِ عن شخصيتك من أجل شيء ما أو شخص ما، ثم اكتشفتِ أنه لا يستحق أبدًا؟"

ابتسمت جود وهزّت كتفها. "أنا لا أعرف إجابة عن هذا السؤال. ولهذا أقرأ هذه الكتب، كي أرى ماذا يحصل في نهاية القصة".

أشار إلى الكتاب الذي كان مفتوحًا في يدها. "لكن إخوتك هؤلاء ليسوا فرنسيين".

"إنهم روس. وكذلك كانت جدتي".

تمسكت جود بالنجمة التي استقرت حول عنقها منذ سنوات، حتى أصبحت زواياها مثلومة من كثرة اللمس. سألته السؤال الذي تردد في

عقلها منذ رأته أول مرة. "ما أصل أسرتك؟"

رفع عينيه ينظر إليها، ثم أخفضهما نحو الطاولة مرة أخرى. بدا الحزن والخجل على وجهه. قال بحذر كأنما يدلي باعتراف: "اسمي سالم. سالم الإسماعيلي. أسرتي عربية. ليست روسية ولا فرنسية". رفع بصره نحوها للمرة الثانية.

قالت جود تلقائيًا: "لا بأس"، لكن نبضات قلبها تسارعت. كانت الرغبة الملحة في صدرها هي أن تطمئنه.. تطمئنه على ماذا؟ "عمي يعيش في إسرائيل". فلتت الجملة من لسانها. هذه الكلمات الغبية!

أومأ برأسه تجاه النجمة الذهبية التي تلعب بها. "توقعت ذلك. وأنا أيضًا من هناك. وكنا نسميها في زمني فلسطين".

سكتت جود. كادت أن تنسى وهي تنتظر الكلمات التي سينطق بها أنها جالسة معه على نفس الطاولة، وأنها جزء من القصة. كان منحنيًا على الطاولة واضعًا مرفقيه عليها، عاقدًا أصابع يديه. ظنّت للوهلة الأولى أنه متألم، لكنه نظر إليها بابتسامة ساخرة. "لم تتوقعي هذا، أليس كذلك؟"

"لا". لم تتكلم خوفًا من أن تقول ما يسيء إليه، خوفًا من أن تسمع صوت دورا يخرج من فمها.. العرب الملاعين. رفع يديه في عجب وأراح ظهره على كرسيه، وقال: "لم أنتِ مرتبكة؟ كان لي أصدقاء يهود عندما كنت أعيش هناك، ولديّ أصدقاء يهود هنا أيضًا. وعلاقتي بهم جيدة".

رفعت جود فنجان القهوة إلى شفتيها. كانت القهوة بيضاء ضعيفة، وطعمها سيء. وضعت الفنجان على الطاولة ودفعته بعيدًا.

قالت: "لم أقابل عربيًا من قبل. كنت أسمع عنهم من عمي ماكس. وكنت أظن بصراحة أنكم تكرهوننا ولا شك".

"ومن قال إن عليّ أن أكره وأحب كما يريد الآخرون؟ أنت إنسانة. وأنا إنسان. لماذا أكرهكِ قبل أن أعرفكِ؟"

قالت: "أنا لا أستحق الكراهية. أنا مجرد فتاة من ساندرلند أجبرها أهلها على أخذ دروس عبرية".

"أعتقد أنكِ لا تدركين قيمة نفسك. أنت ذكية ولطيفة وصادقة. وجميلة أيضًا. ربما تستحقين أن يكرهك أحد".

وضعت جود كتابها على الطاولة، وانتظرت أن تنتشر حمرة الخجل في وجهها. كان الخجل هو الصفة الوحيدة التي تشترك فيها مع غرتي، فينقلب وجهاهما إلى لون الشمندر عندما تحرّكهما أي عاطفة. لكن الدفء الوحيد الذي أحست به على خديها كان من هبوب الرياح. أبطأت دقات قلبها جريها المتسارع.

سألته: "هل وُلدت هناك؟"

"في يافا. قبل الحرب".

شعرت جود بموجة من الحزن العميق من أجله. قالت بهدوء: "لا أتخيل ما جرى لك. لم أعرف تفاصيل الحرب".

"كنت صبيًا عندما رحلنا عن يافا. سبعة تقريبًا. لا أتذكرها كثيرًا. عدنا بعد ذلك إلى حياتنا الطبيعية".

رأته جود يشبك أصابعه ثم يفرق بينها. وكان يفرك مفاصل أصابعه كطفل يحاول أن يزيل قذارة ما عليها.

سألت: "هل جاءت أسرتك معك؟"

نظر إليها. "لا. تركتنا أمي منذ أعوام. كانت مثل تلك الشخصيات التي

تقرأينها في القصص التي ذكرتها. أرادت حياة مختلفة. كان أبي رجلاً مسنًا، ولم يكن بالغ النباهة. لقد مات قبل شهرين".

هزت جود رأسها. وضعت يدها فوق يده على الطاولة، فتوقف عن الحركة. انتبهت فجأة إلى ما فعلته، فسحبت يدها بعيدًا عن يده كأنها نارًا لسعتها، وانقبضت أصابع يدها. تحركت عيناه متفرسًا وجهها. "لماذا فعلتِ ذلك؟"

"أنا آسفة". أحست بالتعاسة.. تعاسة لما مرّ به، وتعاسة على تصرفاتها الخرقاء.. تعاسة لكل الآلام، وعلى كل الآثام. "كنت أريد أن أعبر لك عن أسفي".

لم تبتعد عيناه عن عينيها، ولم تغير ابتسامةً جموده. قال: "لم أكن أسأل لماذا أمسكتِ يدي. كنت أسال لماذا تركتها؟"

***

لم يعرف سالم لماذا تركها دون أن يتفق معها على اللقاء ثانية. تركها هكذا ببساطة في المقهى.. دون أن يلتفت إليها، وضع وشاحه المبلل حول عنقه وغادر.

عرف من خبط أقدامه على الرصيف أنه غاضب. ترك رسالة لمارغريت، وقضى ليلته تلك معها ثملاً، يستمع إلى نقرات أصابعها على أوتار الجيتار وهي عارية بين ساقيه.

أنهيا لقاءهما في المقهى كطفلين شهدت عيونٌ قبلتهما الأولى. حكت له عن جدتها التي هربت من روسيا، وحكى لها عن حصار الناصرة والقائد اليهودي الذي رفض أن ينهب المدينة. اتفقا على أن اختلاف الدين لا يهم،

وأن بينهما اهتمامات مشتركة كثيرة، ورددا العبارات المستهلكة عن السلام التي ذكّرت سالمًا بأغاني الحب والسلام.

لكن كل هذا لا يعني شيئًا، كما أقنع نفسه. كيف يمكن لهذه اليهودية الإنجليزية الصغيرة أن تفهمه؟ عادت إليه الكلمة التي صرخ بها أبوه. أبدًا! اليد التي وضعتها فوق يده كانت كذبة. كان يعرف ذلك حتى لو لم تعرف هي.

بعد أسبوع، اشترى الإخوة كارامازوف من محل في تشارنغ كروس رود، واشترى - بعد حديث سريع مع صاحب المحل - رواية دير بارما لستندال. ولم يفهم أيًا من الكتابين. إن لم تكن الكتب مليئة بالأرقام والمعادلات فإنها محض عذاب لعقله. وقد قال له حسان إن لغته العربية صارت يرثى لها، وإن مفرداته يستخدمها الأطفال فقط.

أصبح يعبر أمام المقهى في طريق عودته من محاضراته في كنغز كروس كل يومين. وكان يراها أحيانًا في الداخل ملتفة بمعطفها تتقي البرد. ولم تكن ترفع رأسها أبدًا.

وعندما يحل الليل، كان يرى عينيها الزرقاوين تتفحصانه في حيرة غريبة. لقد أزالت ببراءتها قشرته كأنه برتقالة. شعر بتجرده وعصبيته. اتصل بنادية مدّعيًا أنه يود أن يعرف أخبارها، وحاول أن يجعل صوتها الأمومي الحنون المسافر من الخط الآخر يزيل توتره.

وجدها في نهاية المطاف تنتظره خارج مقهى فيرجينيا. رآها من على بعد مئة ياردة، عرفها بشعرها الأصفر الذي تلتمع عليه قطرات المطر البارد في ضوء الشمس الخجولة. دارت عجلات مركبات بلومزبري حولها بجنون، تتقلّب ما بين الأسود والأحمر والفضي. كان معطفها أكبر بكثير من مقاسها،

فبدت كأنها حيوان صغير منزوٍ داخله. توقف بجانبها وابتسم معتذرًا. قابلته بابتسامة وهي تمسح أنفها الأحمر.

سألها: "كيف عرفتِ؟"

رفّت عيناها بسرعة عندما تسلّطت أشعة الشمس عليهما. "رأيتك أكثر من مرة. ربما كنت تظن أنك ماهر في التجسس، لكن حتى النادلة رأتك تسترق النظر إلى داخل المقهى وضحكت".

رفع كفيه في استسلام. أخذ يضحك، وهو يشعر بالقلق المتجمّع منذ أسابيع على كتفيه ينزلق ويتحطم إلى ألف قطعة صغيرة على الرصيف المتجمد. قال: "كان يجب أن أخبركِ أنني أود أن أراك ثانية. لم أعرف إن كنتِ مهتمة برؤيتي، ولم أرد أن أذوق طعم الخيبة". شعر بسهولة جريان الكذبة هذه على لسانه، وأنها جاءت في محلها.

التمعت عيناها. قالت: "أعرف أن الأمر معقد، لكني أرجو أنك لا تمانع في المحاولة".

تساءل إن كانت هذه هي المرة الأولى التي تخبر رجلاً عن شعورها تجاهه، بطريقتها غير المباشرة تلك. تذكّر كيف حملت يديها نجمة داود، فأخذ إحداهما بين كفيه.

كانت تلك بداية شيء غير مكتوب. أوصلها إلى قاعة المحاضرات، وودّعها بقبلة على شفتيها. عندما رفعت رأسها إليه تتلقى قبلته، رأى التماع ضوء الشمس على بياض بشرتها، وانعكاس نبض الحياة من داخلها. بيضاء كلوحة لم يمسها لون. بيضاء كصفحة جديدة. كمكانٍ أبدأ منه.

***

أخذها في أول موعد حقيقي إلى مسرح أوستيريا في فينزبيري لرؤية ذا ووكر بروثرز. كانت التذكرتان في محفظته منذ أسابيع، وكان ينوي أن يهديها لمارغريت التي كانت تكره تلك الفرقة الموسيقية، لكنها تحب كات ستيفنز وجيمي هندريكس، وكان لهذين الاثنين وصلات في الحفلة نفسها. قالت له مارغريت إنها شاركت أخت كات ستيفنز السكن عندما كانت في مرليبون، وإنها تلفّ سجائر الحشيش مثلما يفعل هندريكس، بين الإبهام والبنصر.

كانت دعوة جود إلى الحفل بدلاً من مارغريت فكرة أفضل. سهُل عليه بعد أن فارقت شفتاه شفتيها أن يتصور نفسه الرجل المثقف، وأن يعرض عليها الذهاب معه إلى حفل موسيقي. لكن بعد أن أغلق باب شقته خلفه، ووقف في الخارج في المساء البارد، أحسّ بالقلق يكبّله. لقد تسرّع. لقد تصرف بلا تفكير. لن يعجبها الحفل.

لم يكن يستطيع تحمّل تكلفة سيارة أجرة من شقته الصغيرة في جنوب لندن إلى سكن جود الجامعي في كامدن، ثم بعد ذلك إلى فينزبيري بارك موقع الحفلة. لكنه رفض أن يجعلها تسير في الشارع كأنها امرأة فلاح. لذا استقل المترو إلى كامدن تاون وطلب سيارة أجرة من هاتف عمومي خارج المحطة. وعندما توقفت السيارة أمام عمارة جود، مرّر سالم كفه المتعرقة في شعره يجففها.

فتحت الباب من الطرقة الأولى. وقفت تبتسم. كان شعرها مرفوعًا، وترتدي فستانًا أخضر طويلاً يتجمع في دوائر حول ساقيها. وفي عتمة الطرقة الضيقة، ومرور الطلاب من خلفه، وصوت إغلاق أبواب حجرات السكن وفتحها ذكّرته جود بزهرة شاحبة راجية على ساق نحيلة.

قال: "مرحبًا". انحنى يطبع على شفتيها قبلة خاطفة. "تبدين جميلة جدًا". رأى وجهها يحمرّ، وشعر بوجنتيه تحمرّان معها. سأل نفسه: ما هذه

السخافة؟ لقد عرفتَ مئات البنات قبلها يا أبله. ما خطبك؟

ردّت وهي تمسك بيده الممدودة: "وأنت وسيم جدًا. مهندَم كما كانت جدتي تقول". شعر بأصابعها تضغط على أصابعه بخفة، فرفعت هذه اللمسة البسيطة سحابة التوتر عن رأسه بضعة إنشات.

فتح لها باب السيارة، وظلا يدردشان في موضوعات خفيفة لنصف ساعة، يقطعان فيها وقت الازدحام المعتاد في شوارع شمال لندن المظلمة، حتى وصلا حديقة فينزبيري. توقفا أمام مسرح أوستيريا في طريق سفن سسترز، فقال السائق: "جنيه واحد يا صاحبي". أعطاه سالم المال بابتسامة مستهينة. كل ما بقي معه الآن هو جنيه آخر لرحلة عودتهما، وهذا آخر ما بقي في ميزانيته الشهرية. سوف يعيش على الأرز المطبوخ في الأيام القادمة.

أسرع يفتح باب جود. رفعت رأسها وهي تنزل فقالت: "واو! انظر إلى هذا". تبعت عيناه ما تنظر إليه. كان مبنى الأوستيريا الرمادي واقفًا بشموخ فوق جزيرة محاطة ببحر من الجلبة والضوضاء، دوامة من أصوات أبواق السيارات وأضوائها يبتلعها ليل لندن. كان قرميد واجهة المبنى داكنًا بسبب الدخان والغبار، واللافتات الحمراء تبرق من أعمدته. تقلّبت الصور في مخيلته، فحلّ مكان المسرح سينما الحمراء في يافا، أو ربما شبحها، وقد صارت حيطانها البيضاء رمادية وأعلامها الحمراء ممزقة. أخذ يد جود ورمش بسرعة ليطرد تلك الصورة.

دخلا إلى المسرح، لكن حشدًا كبيرًا كان يقف بينهما وبين الصالة. سمع صوت قرع الطبول وهتاف الجمهور، وزعيق جيتار بألحان لم يسمعها من قبل. والهواء رطب خانق برائحة الدخان والعرق والحشيش، والطابور غابة من السيقان العارية والشعور المنفوشة. كان الرجل الواقف بجانب سالم قد خلع قميصه، فرأى على ظهره رمز السلام موشومًا وفوقه "طبعًا لن نقاتل"،

وبين ذراعيه فتاة تفرش خصلاتها الأسود على كتفه.

تجمدت جود كقطعة ثلج بجانبه، وسالم يلوّح بتذكرتيه يحاول أن يلفت انتباه الحارس. توقفت الموسيقى في الداخل وتعالى الصراخ والهتاف بدلاً منها. كانت البوابات مقفلة، وعلى كل بوابة حارسان مفتولا العضلات يشبكان ذراعيهما.

قال سالم بتذمر: "لابد أن هناك مشكلة أو شيء ما". نظر إلى جود ثم تابع: "لا أظن أنك تحبين هذه الحفلات. صحيح؟" أشاحت عينيها كأن السؤال أحرجها.

"كانت لي صديقة تحب هذا النوع من الموسيقى". ارتفعت يدها تتحسس سلسلتها المختبئة تحت فستانها. "كانت صديقتي في ساندرلند. ودائمًا ما تذكرني الموسيقى بها. كنا نستمع إليها بعد المدرسة ونرقص. وكان لكل واحدة اسم مستعار، كأننا مشاهير. لم يحب والداي أن أرافقها".

"ثم؟ ماذا حدث؟"

رفعت كتفها. "انتهت صداقتنا. عذرًا يا سال. أيمكنك أن تنتظر؟ أريد أن أذهب إلى دورة المياه".

شاهدها تدافع الأجساد المتعرقة تحاول الوصول إلى الحمامات. كانت غريبة في هذا المكان حتى إنه أشفق عليها وأحس بصدى رابطة جميلة مريرة تربطهما. لم نعد صديقين. وجد نفسه يفكر بإيليا ومازن، بل وأيضًا برافان الصغير، شقيقه الذي اعتاد الالتصاق بساقيه في الليل. ربما يشعرون بالحزن لأنهم خسروني أيضًا. كان غريبًا أن يتخيل أن شخصًا آخر يدفع ثمنًا كان يظن أنه وحده من كان يدفعه.

عندما عادت جود كان الرجل عاري الصدر الواقف أمامه يقبّل

صديقته، ويضغط فمه بقوة على فمها حتى كادا يلتحمان. ضربت ذراع الرجل جود وهي تحاول العودة إلى مكانها في الطابور، فزلّت قدم صديقته واختلّ توازن الحبيبين. قال الرجل غاضبًا: "انتبهي!" التفتت الفتاة نحو جود وسالم، شفتاها تلتمعان ببقايا اللعاب، وشعرها منكوش تحت ربطة حمراء. قالت بصوت عالٍ جذب انتباه كل من كان حولهم: "هيه! تراجعا قليلاً! لِمَ العجلة؟"

تورّد وجه جود، وأخفضت عينيها تحت وطأة نظرات الواقفين. قالت: "آسفة". اندهش سالم. قال لها: "لا تعتذري لهما. هما المخطئان".

"خطأنا؟ صديقتك دفعتنا يا رجل!"

"أنتما من كان يتقلب كالحيوانات. كانت واقفة لم تتحرك".

ضحكت الفتاة وأزاحت شعرها عن وجهها. "أسمعت ما قاله؟ حيوانات! هذا السافل". أخرجت لسانها الوردي الطويل تغيظهما.

كان رفيقها عاري الصدر، ذا شعر دهني يغطي عينيه، ولحية قصيرة وابتسامة ساخرة. قال: " أسمعتِ يا حبيبتي؟ يبدو أن الباكستاني والراهبة لا يحبان وجودنا".

شعر سالم بكتف جود يضغط على حرقة الإهانة في صدره. "لو سمحت". أراد أن يدخل نبرة الاحتقار في كلماته، لكن انجليزيته صارت فجأة ركيكة على لسانه. "إنها أفضل من مئة من أمثالكما أيها الحمقى".

"انقلع من هنا يا محمد!"

"اللعنة عليكما!" التفتت جود إليهما بوجهٍ استشاط غضبًا، والكلمات تخرج من فمها متدافعة كما يخرج البخار من قدر الضغط. "كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على إهانته؟ أتظن نفسك أفضل منا؟ أنت شخص فظيع، ولا تعرف

أي شيء عنا". كان تقف بين سالم والحبيبين. لاحظ للمرة الأولى ثقل لهجتها الشمالية في كلامها. ظلت تصرخ بهما حتى تراجع الرجل خطوةً، وانقلبت ابتسامته الساخرة إلى ابتسامة متوترة. استدارت بعدها جود وهرعت إلى الخارج، وسالم في أعقابها تاركين الحشد ورائهما.

تلقفهما برد المساء. استدارت تواجهه، والبقعتان الحمراوان على خدّيها تشحبان حتى عادتا إلى البياض. عقدت ذراعيها حول صدرها تحاول تهدئة تنفسها المضطرب. أدرك أن الاعتذار على طرف لسانها فسارع إلى القول: "إياكِ. لا تنطقيها". أحاطها سالم بذراعيه. "جود.. كنت مذهلة. مقاتلة حقيقية.. كأنك لبوة". كانت وهي واقفة تحت ضوء مصباح الشارع كأنها أحد فرسان الملوك المسيحيين في القصص التي كان الآباء في المدرسة يحكونها لهم، وكان يصغي إليها بشغف. أحد الفرسان الذين كان يمثل أنه منهم عندما يلعب مع الأولاد فيسخرون منه. قال بلا تفكير: "جود قلب الأسد". رأى وجهها يسترخي وسمع رنّة ضحكتها. وسمع ضحكةً تغرّد من داخل قلبه.

***

سارا في طريق سفن سسترز حتى وصلا حديقة فينزبيري. تركا خلفهما هدير الشارع، واحتواهما اخضرار الحديقة وصمت العشب. جرّد الشتاء شجر الحديقة من ردائها. رأت جود أذرعها الخالية تتطاول الفضاء، وبراعمها الجديدة مجرد نقاط سوداء على فروعها. مرّ عابرو لندن بجوارهما، بعضهم متشابكي الأذرع، وبعضهم مع كلابهم. وجوههم لا هي مسنّة ولا شابة. مجرد قناع موحّد في الطريق شبه المظلم. فكّرت جود بأن هؤلاء العابرون يتحدّون الوحدة، كأنهم كواكب تدور في أفلاكها، وتشعر بجاذبية كل جرم يمرّ بها.

كان سالم يضع ذراعه حول كتفيها، يستند إليها كأنها حاميته، كما استندت هي على ربيكا، وأحيانًا دورا. كانت ذراعه ثقيلة على جسمها النحيل، لكن القوة تسرّبت من ذراعه إلى جسدها. حاجز ما تلاشى بينهما، قد يكون الانفصال الطبيعي الذي يفصل بين أي غريبين. لم تعد مجرد جود. إن جسمها مشحون الآن بوجود غريب لا يملؤه إلا سالم.

تسلل النور بين الأشجار أمامهما وحمل معه زامر غناء. شخص ما قد أوقد نارًا من الأغصان الجافة، فتحلّق حولها مجموعة من الناس، تتراقص على سحناتهم الظلال. توقفا خارج الدائرة وقد عرفت الأغنية، وشعرت من اهتزاز صدر سالم أنه هو أيضًا كان يدندن كلماتها.

إنْ في يوم تركتني

فإن العالم لن يعنني

ورغم أن الحياة ستمضي

فإن قيمتها لن تهمني

سكت ونظر إليها، وقال: "هذه هي الموسيقى التي تعجبك، أليس كذلك؟" أجابته: "إنها من أغنياتي المفضلة".

كانت جود القديمة ستقدم سببًا، لكن الجديدة قد شبعت من التوضيح. ضبط عازف الجيتار ألحانه على غنائهما. كان الغناء عذبًا، كما هي أغاني ذا بيتش بويز دائمًا. سافر بها وهج النار خارج لندن إلى مكان دافئ حميم. كان سالم ما زال مستندًا عليها، وشعرت بأن قوتها تزداد تحت وزنه، كأنما جذورًا تمتد من قدميها في الأرض. تغنّت بكلمات الأغنية، تذكرت عبارة اعتادت ربيكا أن ترددها، وكانت تلك إجابة جدتها عن ألغاز الدنيا المستعصية. همستها لنفسها من بين الأصوات.. لا يعلم إلا الله. تمسّكت بيد سالم

والأشجار الهاجعة تتنفس بهدوء حولهما.

***

عاد حسّان من الناصرة في مايو. كانت السماء قد صفت وراقت، والهواء الدافئ ينساب إلى إنجلترا قاطعًا الأطلسي، ما هو إلا هبّة خاطفة من الحرارة التي تطوي بساتين جنوب الأبيض المتوسط.

كان سالم يخشى بادرة الصيف الأولى. فهي تعني اختبارات نهائية، وختام مشوار الدراسة، وبداية سلسلة القرارات الصعبة التي يجب أن يتخذها الرجل إن أراد أن يأكل.

لكن كان من السهل أن يغرق قلقه في جود. قضيا الربيع يتمشيان على طول التايمز تحت ظلال أشجار ضفته الجنوبية، ولم يتوقف لساناهما قط عن الحديث. لم تكن علاقتهما قد بلغت نهايتها الحتمية بعد، فلم يكن بينهما أكثر من القبلات. كانا روحين بريئتين على قارب يطفو بكسل فوق النهر، ويغمسان أصابع أقدامهما في تيارات لم يألفاها، ويتطلعان إلى سماء سرمدية.

تكلّمت هي في البداية عن باريس وفلوبير وفولتير، وتحدث هو عن موسم القطاف ورقصات الكرنفالات في صحراء النبي روبين. ثم توالت بعدها القصص الأخرى: حكاية كاث وبيغي عند الباب وإيليا ومازن في ساحة برج الساعة، خبط بوابات يافا والسكاكين فوق القبو في كيشينف، وحكاية الغرفة التي خلت به في الناصرة وصوت صافرة الإسعاف أمام بيتها في رايهب رود. لم يجرّب سالم شيئًا كهذا من قبل، هذا التقارب الروحي وانتزاع شوك الحزن والخزي من داخلها. كان يعرف أن المسيحيين يتلقون الغفران من الله أو من قساوستهم، وقد تحداه حسّان مرة أن يتسلل إلى داخل

حجرة الاعتراف. كانت مبطّنة بالقماش الأحمر، ورائحة العرق والخشب الرطب يملؤها. دعهم يتعلّقون بربهم الغفور. جود إنسانة وليست كاملة، لكنها تفهمه دون أن تحكم عليه. وهذا بالنسبة له أفضل من أي عدالة إلهية.

حزم سالم أمره، وجرّ قدميه جرًّا ليزور أخاه. أصبح حسّان أحد جنود التاريخ البسطاء. حقق ما كان يريده بالضبط، لا أكثر ولا أقل. إنه في الثلاثين من عمره، ويملك ورشة إصلاح سيارات مربحة في إحدى ضواحي العاصمة. تزوّج فتاة فلسطينية نافرة الصدر، بدأت بإنتاج الأطفال فور توقيع عقد النكاح. اثنان منهما في الحضانة ويتحدثان العربية أكثر من الإنجليزية، والثالث في الطريق. رائحة بيتهم ماء الورد، والفلفل الحلو، والمكسرات المملحة. كان حسّان وزوجته يصومان رمضان، رغم أن حسّانًا يرفض التوقف عن التدخين في النهار، وكان يردد بين الحين والآخر أنه سيذهب ليصلي في المسجد القريب. كان أصدقاؤهما معجونين بنفس الطينة، إلا أن شيرين اختارت أن تضيف إلى حياتها شلة من الصديقات الشقراوات طويلات الأظافر تعرفت عليهن من الصالون القريب، نساءٌ سمع سالم حسّانًا يتذمر منهن كثيرًا، ورآه يغازلهن كثيرًا.

حمد سالم الله أن أراد حسّان لقاءه في ورشته، لأن مزاج حسان عادةً ما يكون مرحًا هناك، وهذا يعني أنه لن يناصح سالمًا ويزعجه بمحاضراته. كانت رائحة الزيوت والدهون تغييرًا جيدًا يحتاجه سالم، بعيدًا عن طاولة الدراسة ورائحة الحبر العالقة بأنامله.

نادى سالم بصوت أعلى من هدير المحركات المعطلّة: "أبو سعيد!" طبعًا سمّى حسّان أكبر أبنائه على اسم أبيه كما هو متوقع.

أتاه الرد صراخًا: "أبو مِشكْلة!" ابتسم سالم رغمًا عنه. كان حسّان يبدي اعتراضه على عزوبية سالم رغم أنه في السادسة والعشرين بأن يدعوه بأبي

مشكلة. عندما يجد حسّان دعابة مضحكة فإنه لا يتركها حتى تتحول إلى سمجة.

صاح حسّان مرة ثانية: "تعا لهون يا زلمة!" أتى صوته من مكتبه خلف مجموعة من السيارات مفتوحة الأبواب، وأجزاء المحرّكات منتشرة بلا احترام على الأرض. نقل سالم قدميه ما بين المحركات في حذر، وهو يتمنى لو أنه غيّر قميصه الجيد الذي لبسه للقاء جود ذلك الصباح. خرج حسّان من باب المكتب يستقبله، فصفع ظهره بيده المغرقة بالزيت. "وين كنت كل الأسبوع اللي فات؟ كنت باستناك كل يوم تمر علي".

"كنت عم بدرس". تظاهر سالم بأنه يركز نظره خلف كتف حسّان الأيمن على البيتل الحمراء التي يقوم العمّال بتفكيكها. "جيت أول ما صحّ إلي يا أخوي".

"إنت هالك حالك بالدراسة. بتفكرش حالك أينشتاين؟ راح تصير زيه.. راس كبير وخصاوي ما فيه".

"إنت من وين بتجيب هاي الأفكار؟" ضرب سالم كتف أخيه مداعبًا. "أنا بآخر سنة، يعني لازم أدرس. لا تخاف... لما أصير محاسب غني وأعيش في مايفير، راح أبعت لك الجاغوار تبعتي لتصلحها".

ضج حسّان بالضحك. "طيب.. راح نستنى الجاغوار هاي. تعال.. تعال ناخد إلنا بيرة وراح أحكي لك عن المصيبة اللي صارت في الناصرة".

فتحا علبتيّ بيرة من ثلاجة المكتب، وسمع سالم بلا إنصات حسّانًا يتذمر من كل شيء وجده في الناصرة، من الإمام إلى الأقرباء. الشخص الوحيد الذي حرّك عواطفه هو نادية. ليس عدلاً ما جرى لكِ. لم نعطكِ أي شيء في حياتكِ، بل تركنا لك كل المتاعب. تساءل ما سيكون رأي نادية بجود؟

يستحيل ألا تحبها. إنهما روحان طاهرتان بلونين مختلفين.

كان شرب البيرة مع حسّان يذكره دائمًا بيومه الأول في لندن، على تلك الأريكة البنيّة المهترئة. لقد عمل جاهدًا منذ ذلك اليوم كي يحقق أمله. اشتغل في السنوات الأولى كالفلاح، يمضي نهاره في الورشة مع حسان وليله في المدرسة ليتأهل لدخول الجامعة. كان ماهرًا في الحساب، وبارعًا كذلك في إثارة إعجاب الإنجليز، مع إشعارهم في الوقت نفسه بأنهم أسياده الأفضل منه. ولا ينسى اليوم الذي حصل فيه على الجواز البريطاني، فقد عاد إلى منزله في نشوة انتصار، والدفتر الأسود يثقل جيبه كأنه مسدس ملقّم.

"وشو أخبارك إنت حبيبي؟" ملّ حسّان من الكلام عن الناصرة وأهلها، ويريد الآن أن يعرف تفاصيل حياة سالم العاطفية. "لساتك مع هديك المجنونة مارغريت؟"

"لا. خلصت منها". فكر سالم كيف يتطرق إلى الموضوع مع أخيه. "لاقت لها واحد تاني ما بيضايق لو طلّعت عيونه كل يوم".

ضحك حسّان. "يا خسارة إني متجوز. تكرم عينها لو بدها تطلّع عينيّ. وتطلع شو ما بدها مني كمان إذا ما كانت مشغولة".

قال سالم: "اشبع فيها. أما أنا فلقيت وحدة تانية".

"بالله؟ مين؟ مين؟"

"مش مهم". شعر سالم فجأة بتعرق كفيه. "بنت بتدرس معي بالجامعة. بتدرس أدب. وبتقرأ قصائد بالروسي والفرنسي".

ضحك حسّان. "والله؟ وبتقرأ وهي لابسة أوعايها وإلا شالحتهم؟ الله يخليك احكي لي إنها شالحتهم".

"هي مش هيك. بنت محترمة".

وكز حسّان سالمًا في ضلوعه. "أوه.. مسكين يا أخوي. الحب شلّه ومش قادر يصير رجال. شو راح يعمل؟"

"أنا ما بحبها". نهض سالم عن مكتب حسان المكسو بالغبار. "بس هي... غير. هي يهودية على فكرة".

اتسعت عينا حسان. "واو يا أبو مشكلة! ما حدا زيّك بيعرف يجيب المصايب. الحمد لله إنه بابا مات. وإلا والله كان يقطع لك خصاويك".

ضاق سالم فجأة بتدخل حسان. قال بالإنجليزية: "فمك قذر مثل مكتبك. ألا تنظف هذا المكان بالله عليك؟!"

ضحك حسان ساخرًا وأجاب بنفس اللغة: "أوه يا مستر سالم. أعتذر عن الإساءة إليك يا سيدي. إن كنت تظن أنك أنظف من ورشتي فاغرب عن وجهي. لم تكن أفضل منها عندما لم يكن لديك مكان آخر تذهب إليه".

"أنا آسف" هذه هي طبيعة علاقته بحسّان؛ حب نافر. صحيح أنهما يقولان إنهما أخوين لكن عروقهما متخاصمة، دماء أبي حسّان الحمراء القاتمة ضد دماء أمهما الزرقاء النبيلة. وكلما حاولا مدّ جسور التواصل اصطدما بجدار الحيرة وسوء الترجمة.

قال: "أنا بحاول أحكي لك إنه هاي البنت مش زي غيرها. هي مش صهيونية. بالعكس هي بتفهمنا. وبتفهمني أنا".

نظر إليه حسّان بارتياب. "طول عمرك بتدوّر على حدا بيفهمك يا سالم. بس حتى إنت مش فاهم ع حالك. لا تهز لِيّ راسك.. اسمعني بس. أنا ما عندي مشكلة مع اليهود. أنا صاحبت بنات يهوديات برضه أكتر من مرة. بس الله يخليك.. نام معهم، لا تحبهم. مهما صار مستحيل يفهموا واحد

عربي. طبيعتهم مش هيك".

"إنت ما بتعرفها".

هبّ حسان واقفًا على قدميه وأخرج بيرة ثانية من الثلاجة.

"إنت بتعرف شو بيصير في فلسطين هلاّ؟ اليهود بدهم سوريا وسيناء كمان. عم بيبعتوا جنودهم ليعبروا الحدود. بس ناصر واقف بوجه الكنيست الملعون. راح يسكّر البحر الأحمر في وجّهم ويقطع على الإسرائيليين البحر. ما راح يكون فيه تجارة لليهود. وبعدها راح تولع فيهم جهنم بإذن الله. وهالمرة النكبة بتصير عليهم هم".

استرجع سالم في ذهنه كيف كان حسان يتعلق بالراديو بعد أن رحلوا عن يافا، وكم تعلق بإيمانه العميق طويلاً بأسطورة تحرير العرب بأيدي العرب. لكن رغم جعجعة حسان عن فلسطين فإنه لن يرحل عن ورشته الصغيرة هذه أبدًا ليعيش هناك. سالم هو الوحيد الذي ما زال يحلم بأزهار البرتقال والبحر.

قال لحسان: "كل هدا مجرد حكي. ما راح يقدروا يعملوا اشي إلنا. حياتنا صارت هون هلاّ. وولادك راح يتربوا هون مش بسيناء".

رد حسان ويده على كتف أخيه: "يمكن هلاّ آه، بس مين عارف شو بيصير بكره؟ المهم.. كل قصدي هو إنه الوقت مش مناسب لتجيب وحدة يهودية ع العيلة". أومأ سالم برأسه. هذه هي أسهل طريقة لإنهاء الحوار.

عندما حان الوداع بين الأخوين، قال حسان: "أوه.. بالمناسبة.. فيه اشي تاني إلك. نادية قالت لي ما اعطيك إياه، بس هي لسه مفكره إنك ولد زغير".

سحب أخوه من جيبه الخلفي ظرفًا مطويًا متسخًا بعد شهر أمضاه في الجيب ما بين الحرارة والضغط. عرف سالم ما بداخله فورًا. كان طابع البريد

من لبنان، شجر الأَرز على خلفية حمراء.

نفذت الذكرى إلى قلبه كسكين حادة. ذكرى أمه وهي واقفة في الشرفة في الناصرة، برسالتها وأسرارها. لقد متِّ في نظري يا ماما. وحزنت على فقدك منذ سنين بعيدة. كان رؤية دليلٍ على وجودها حيةً في مكان ما الآن كرؤية شبح ميت ينبش قبره.

اخترق صوت حسان هدير الدماء في أذنيه. "سمعوا عن موت بابا. بيقول رافان إنه هو كمان ما إقدر يحضر.. مشغول متل أخوه سالم المتعلم. بس بعت عنوانه ورقم تلفونه وبيقول لازم تزوره. ولك والله ما فيه أكتر من البنات في بيروت. ومش بس شمسهم هي الدافية، حتى نسوانهم. وماما بتسلم عليك كمان".

***

بلغت جود عامها التاسع عشر بعد أسبوع. وقد تباهى توني بأنه استطاع تملّق عمها أليكس حتى اقتنع بضرورة إقامة حفل عشاء في يوم عيد ميلادها. كانت الصعوبة تكمن في أن أسرة غولد اللندنية، كما يسمي أليكس نفسه، لم يكونوا يحتملون أكثر من تجمع يهودي واحد في كل موسم.

قال توني: "قلت له إنكِ ستدخلين هذا العالم المختلط الكبير، وقد تنحرفين وتجلبين العار للأسرة إن لم نكبح جماحك. ثم ألا يمكنك أن تتخيلي أمك وهي تتصل وتشتكي من أخي زوجها الشمندريك الذي يتجاهل التشيسكاه التي أنجبتها، ويتركها تدور في المدينة بلا حسيب ولا رقيب[1]؟" ارتفع صوته في الجملة الأخيرة مصطنعًا الغضب.

1- في اليديشية: شمندريك تعني أبله، وتشيسكاه تعني كنز أو تحفة ثمينة.

كانت ابتسامة جود عريضة وهي ترد: "دورا لن تدعُني تحفتها أبدًا".

"أجل.. أجل. إنها أعلم بطباعك".

كانت فكرة إقامة حفل العشاء هي أول مطب في علاقتها مع سال. لقد تحدثا من قبل عن لقاء أسرتيهما. لكنها لا تتصور أبدًا أن تدخل منزل عمها أليكس في بورتلاند بليس وتقدمه إليهم بصفته... ماذا؟ إنها حتى لا تعرف من يكون بالنسبة لها؟

"إذًا فهو ليس صديقكِ؟" سألتها روث مايكلز في النادي اليهودي في أحد الأيام. فقد أوصلها سال إلى مقر النادي في طريقه لزيارة أخيه. ذراعه النحيلة ترتاح على كتفيها، وتلك العينان السوداوان في أقصى درجات اليقظة والتنبه، كأنهما رشتان من لون نابض حي على صفحة بيضاء. وعندما وصلا باب الشقة الصغيرة في ميدان مانشستر حيث يلتقي أعضاء النادي قبّلها مودعًا. كانت الشقة ملكًا لروث رئيسة النادي، وهي يهودية من أسرة ثرية. كان توني يصر على تسميتها بيك (اختصارًا لربيكا) كما كان ينادي كل فتاة يهودية من شمال النهر. وقد كان يدّعي أنه لم يقابل يهوديًا ثريًا قط إلا وقد حاول أن يخطبه لابنته سليلة الحسب والأصل ربيكا.

أجابت عن تساؤل روث بقولها: "إنه مجرد زميل"، ومع ذلك فقد أردفت بسخط خفي في داخلها: إنه أعز أصدقائي.. أفضل منكِ، وأقرب إليّ من أي شخص آخر.

عاد سالم من لقائه بحسان بعينين تفضحان دموعًا لن تُسكب. ظنّت أن السبب هو والده، أو ربما يكون السبب حديثهما عن الوطن. أو ربما تكون هي السبب. انقبض قلبها وضاق صدرها قلقًا وندمًا. سألته: "ألأنني ذهبت إلى اجتماع النادي اليهودي؟" كان أحد أسباب ذهابها هو اختبار ردة فعله.

لكن لم يطرف له جفن.. كل ما فعله هو أنه أوصلها وقبّلها، وتمنى لها وقتًا طيبًا.

والآن، بعد سؤالها، نظر إليها سالم في دهشة. قال: "لا.. لا. لستِ السبب. بلغتني أخبار غير متوقعة، لكنها ليست مهمة".

عندها جلس وأمسك يدها الباردة الخشنة بعد يوم طويل. رفع تلك اليد إلى عينيه كأنما تؤلمانه. قال: "جودي.. جودي.. لا يهمني أين تذهبين ما دام أنك تعودين لي".

كيف تقول له إذًا عن حفل عيد ميلادها الذي لم يُدعَ إليه؟!

قررت أن تنتظر إلى آخر لحظة، في صباح عيد ميلادها. قابلها ذاك الصباح دون أن يدري ما تخبأه عنه. جاء حاملاً باقة ورد وعلبة صغيرة. كان في العلبة سلسلة من ذهب، مقطّعة لأحرف متمايلة قال لها إنها تعني اسمها بالعربية. قال: "بحثت عن معنى اسمك. جوديث يعني الحمد لله. وهذه هي "الحمد لله" مكتوبة باللغة العربية، لأنني أحمد الله على أن عرفتك".

أحبّت جود الهدية كثيرًا، ولم تجد كلماتٍ تعبر عن سعادتها. كما هو واضح أيضًا من تكسر إنجليزية سالم الممتازة أنه سعيد مثلها ومرتبك.

وضعت السلسة على عنقها وقالت: "إنها جميلة".

"أعرف أنك تحبين سلسة جدتك. لكني آمل أن تجدي مكانًا لها معها".

قالت بعاطفة جيّاشة: "لها مكان طبعًا".

لّما رأت أن الموج في أعلى مداه قالت: "سال.. عمي دعاني إلى حفل عشاء الليلة بمناسبة عيد ميلادي. لا أستطيع أن أرد الدعوة. ولن يحضر سوى أسرتي".

بدت المفاجأة على وجهه، ثم تقبّل الأمر. "وأظن أنني لا أعد من أسرتك. صحيح؟"

شدّت على يده وقالت: "صدقني لن يعجبك الحفل. ما رأيك أن نخرج معًا غدًا؟"

"حسنًا لكن..." سحب يده من تحت يدها وأسند ظهره إلى الكرسي. "إلى متى سنظل هكذا؟ أنتظاهر أمام أسرتينا أم نخدع أنفسنا؟"

سألته: "ماذا تقصد؟" رغم أنها تعرف ما يقصده بالضبط.

"لم تخبري أسرتك أن صديقك عربي. وأنا لم أخبر أسرتي أن صديقتي يهودية. ولم نمضِ ليلة واحدة معًا حتى نقول إن ما بيننا حقيقي.. ما نهاية هذا الطريق؟"

عجزت جود عن التفكير أو الإجابة. صوت ربيكا يتردد في أذنها. كوني شجاعة. كوني مينش. رفعت عينيها إليه في توسل، فاعتدل جالسًا في سخط. قال: "حسنًا.. لا عليك. لا داعي للجزع. انسي الأمر اليوم. اذهبي إلى حفلتك وافرحي بعيد ميلادك. أنا متأكد أنكِ سوف ستقضين وقتًا ممتعًا بدوني". رغم أنه كان يمزح فإن ابتسامته كانت متصنعة، لكن جود استطاعت أن تتجاهلها عندما انحنت لتدفن قلقها بين شفتيه.

***

كانت الحفلة كارثية على كل الأصعدة. لم يفكر أليكس عم جود بدعوة أي من أصدقائها، بل كانت المناسبة أشبه ما يكون بتجمع الأقرباء في عيد الفصح، بالفضيات والشمعدانات والبروشات الماسية التي تخنق أعناقًا بيضاء مسنة متهدلة.

مالت دفة الحديث في غضون ثوانٍ من سنّ جود ودراستها وصحة والدها إلى مسالك أخرى. خاضوا فجأة في مناظرات صاخبة عن الحرب القادمة مع الدول العربية.

هتف أحدهم بشفتين مرتعشتين غضبًا: "ما يحتاجه السيد إشكول هو قنبلة كقنبلة ترومان. إنه يضيّع وقته على الهاتف ما بين الرئيس جونسون والأمم المتحدة". بصق خلف كتفه الأيسر ثم أردف: "بينما العرب يهددون بالدم والإبادة، وقطع الطرق البحرية أمام سفننا، وإطلاق النار على حدودنا.. لو أن لدينا القنبلة، صدقوني لما حدث أي شيء من هذا".

ابتسم أليكس، ورأسه الأصلع المنمّش يلتمع تحت شعيراته الفضية المتناثرة: "ها قد بدأ ستانلي.. الحل عنده دائمًا أن يدوس بأكبر حذاء دون إنذار".

ردّت زوجة ستانلي التي كانت تطعن قطع الكبدة بشوكتها بحرفية: "أليكس.. بالله عليك! أنت تعلم أن الأسطوانة تعيد نفسها في كل مرة. لم يتمكنوا من قتلنا في 48. وحاولوا مرة أخرى في 56. وهم يعتقدون الآن أن ناصر سيمنحهم فرصة جديدة. متى سينتهي الأمر؟"

رفع أليكس قطعة من صدر الدجاج إلى فمه، وأخذ يمضغها في تفكير. أجاب: "أنا لا أصدق حديث العرب عن أنهار الدم هذه. أقصد.. ماذا سيقول القادة العرب للفلاحين؟ أعرف أنهم يهددون بالدم والقتل لكن.. لكنه مجرد كلام". غمز بعينه لجود. "إنهم لا يملكون جيوشًا كي يبيدوننا. كل ما يعرفونه هو الخبط على الطاولات والتهديد".

"أربعة جيوش عربية ضد إسرائيل وتقول إن هذا مجرد كلام؟ ولا ننسَ أيضًا العرب الموجودين داخل إسرائيل.. الطابور الخامس. سوف نقاتل من

الخارج ومن الداخل إن لم نتخذ نحن الخطوة الأولى. لن نحظى بالأمان أبدًا دون سيناء والضفة الغربية، ودون السيطرة على عرب الداخل".

تململت جود في كرسيها في ضيق. عرب الداخل. سال منهم.. تذكرت حزنه، والأشياء التي حكاها لها، والصمت الذي أخفى حكايات أكثر لم يحتمل الإفصاح عنها. ماذا يعرف هؤلاء عنه؟

اعتدلت وتنفست بعمق. قالت: "ربما تكون هناك حلول أخرى نحمي بها إسرائيل. مثلاً... ربما لو عُومل العرب داخل إسرائيل بعدل وإنصاف، ربما يغيّر هذا الشيء الأوضاع. وقد يساعد على صنع السلام مع بقية العرب". خرج صوتها بنبرة عالية، أعلى مما كانت تتوقعه.

استدارت جميع الوجوه حول الطاولة تتطلع إليها، حتى توني. ضحك شخص ما. رفعت المرأة التي لا تتذكر اسمها شوكتها تجاه جود. قرطان من اللؤلؤ الأصفر يتدليان من شحمتي أذنيها، كأن أذنيها ذابتا وسالتا على كتفيها.

قالت لها: "أهذه أفكار شيوعية يا صغيرة؟ ابنة أخيك شيوعية يا أليكس. أهذا كل ما تؤمنون به هذه الأيام؟ الحب والسلام للجميع؟"

ردّت جود: "أنا لست شيوعية. ولا يحتاج الإنسان إلى الشيوعية ليؤمن بالعدالة. لا يريد كل العرب أن تختفي إسرائيل. هم تضرروا أيضًا، وخسروا بيوتهم وأهلهم".

صاح ستانلي بحنق: "وماذا تفهمون أنتم أيها الشباب؟ أنا أشفق على العرب المساكين الملاعين، لكن الحقيقة هي أنهم جلبوا الدمار لأنفسهم. لقد منحناهم أكثر من فرصة للسلام. نعطيكم نصف الدولة.. نسمح لكم بقيام حكومة مستقلة.. كان من الممكن أن يكون لهم ما يريدون. لكن في كل مرة

يرمي قادتهم عروضنا في وجوهنا. نحن من حوّل تلك الصحراء إلى بساتين. وأعطيناهم الماء والمستشفيات والمدارس والطرق! وجازونا بإطلاق النار على الأبرياء، وقطع الطرق التجارية، والتهديد بالإبادة الجماعية. يريدون أن ينهوا ما بدأه النازيون. فقولي لي إذًا من الظالم الآن؟"

قالت زوجته، وخيط حديثها يربط نهاية كلامه: "لقد طردوا قوة السلام التي أرسلتها الأمم المتحدة خارج سيناء كيلا يكون هناك أي شهود على ما يجري هناك. وعندما يغلق المصريون وناصرهم البحر الأحمر علينا فسوف نكون محاصرين كالسردين في علبة مغلقة".

"إنها أرضنا في الأصل". نطق صوت أنيق متحمس في نهاية الحجرة. محامٍ إن لم تخن جود ذاكرتها. "أرض أسلافنا وهدية ربنا. وفي النهاية فإن من لا يؤمن بهذا فلا يستحق أن يُسمّى يهوديًا".

اعتمل الغضب الأعمى في داخلها. غضبٌ لم تعرفه منذ تلك اللحظة التي أدارت فيها ظهرها لباب بيغي. كانت تعلم في قرارة نفسها أنهم مخطئون. وكانت متأكدة من ذلك بعد الوقت الذي قضته مع سال، ومن شكوكه الطبيعية في قوة علاقتهما. لكنها لم تجد الكلمات التي تشرح لهم كم أنهم مخطئون، أو ما هي الحقيقة.

تقلبت عجلة الحديث ثانية إلى أشياء لا تعنيها. رفعت عينيها فوقعتا على توني في نهاية الطاولة. ابتسم لها مشجعًا. لكن كل ما كانت تفكر به هو: لم تنطق بكلمة. أنت لا تمانع في أن تكون واحدًا منهم. أنت ذكي لكنك لست مينش. وابتسمت له أعذب ابتساماتها.

***

أيقظت البي بي سي وورلد سيرفس جود صباح الخامس من يونيو مقدمةً البرهان على صحة كلام أصحاب أليكس. هجمت إسرائيل أولاً. حتى مصر استيقظت على صباح مفزع، عندما طار شباب وشابات سلاح الجو الإسرائيلي بطائرات الداسو ميراج فوق الحدود، وأسقطوا أطنانًا من القنابل المتفجرة على رؤوس الطائرات المصرية النائمة.

وبعد بضع ساعات، سمعت جود أن الأردن أمطرت إسرائيل بقنابلها، وأن إسرائيل ردّت بقصف مدارج الطيران الأردنية. وثار العرب في داخل القدس. واحتشدت القوات الإسرائيلية على حدود الضفة الغربية. والدماء تُسفك في الشوارع... العربي ضد اليهودي.

لم يتحدثا بعد حفل عيد ميلادها إلا مرتين، وكل مكالمة كانت سلسلة من الأعذار المتلاحقة، كأن ما كان بينهما من تقارب مجرد وهم تبخّر. لكنها بقيت في ذلك اليوم في غرفتها وانتظرته، وأغلقت نوافذها عن العالم الخارجي.

تسللت الروائح المنبعثة من ردهات سكن الطالبات من بين شقوق بابها، فأزكمت أنفها روائح التوست المحترق، والملابس المبللة، والبيرة الرخيصة. لم تلاحظها من قبل قط، لكنها الآن خانقة. روائح الحياة التي استمرت طبيعية كأن شيئًا لم يحدث.

انتظرت.. انتظرت أن يطرق سالم بابها. أن يحتدم غضبًا، أن تثور ثائرته ويصرخ كما صرخ ستانلي وهو يتكلّم عن اليهود السفاحين وأسلحتهم التي لا ترحم. حاولت أن تتذكر ما قيل في الحفلة عن الوصول إلى طريق مسدود، والمحاولات الفاشلة المتكررة لإحلال السلام، واستحقاق العرب لأن هذا ما جنوه على أنفسهم.

لم يأتِ في ذلك اليوم، ولا اليوم الذي تلاه. بدأت تتخيل أن وقتهما معًا كان مجرد تصور من خيالها. تمتلئ الردهة كل مساء بأصوات خطوات المارّين وضحكاتهم، هتاف شباب ذاهبين إلى الحانات أو إلى السينما. صارت هذه الأصوات شوكة تنغرز في قلبها. حاولت أن تهاتفه. ظلّ الهاتف يرن ويرن، حتى أغلقت السماعة. وشعرت لأول مرة بمرارة الغيرة تحرق جوفها.

لكن سالمًا أتى في اليوم الرابع من القتال.

كانت جود قد وصلت للتو إلى غرفتها بعد محاضرتها، ففتحت الراديو واستعدت لتحكم إغلاق دنياها عن دنيا البشر. فتحت الصنبور ورشّت وجهها بماء دافئ، وضغطت بقوة على عينيها غير عابئة بالماء الذي سال على السجادة. تسرّب صوت مذيع البي بي سي إلى أذنيها. كان الانتصار حليف الجنود الإسرائيليين. إنهم يسيرون في الشوارع الفلسطينية بعد أن احتلوا غزة والضفة الغربية. إن صحراء سيناء الحارقة لهم. إن مرتفعات الجولان السورية لهم.

سمعت عبارة "الدفاع الاستباقي عن النفس"، ثم سمعت صوتًا آخر أعلى من سابقه يقول: "السياسة التوسعية الاستفزازية". تنافست أصوات القناة في سيمفونية تضخ في أذنها الجرائم المرتكبة والمظالم الواقعة. ومن بالله يستطيع أن يفرّق بين الاثنين؟

سمعت طرقات على الباب، طرقات مستعجلة قوية. انسكب بعض الماء على الأرض عندما استدارت لتفتح. أرجو أن يكون هو. أرجو أن يكون هو، وإلا فسأترك الماء يجري حتى يملأ الشقة ويزيحني من هنا.

قطعت هذا العهد المتهور في نفسها وهي تجري لتفتح الباب. أصمّ دوي نبضات قلبها صوت الراديو والماء الجاري. كانت عينا سالم حمراوين ترسلان

شرارًا أحمر، ومفاصل يديه بيضاء من شدة قبضته على إطار الباب.

تكلّم بصوت أجش، كأنه لم يستعمله منذ أيام. "أردت أن آتي. أيمكن أن يكون هذا حقيقة؟ هل نحن مجنونان؟"

أجل. هذه هي الكلمة التي تعلّقت في عقلها وهي تضمه إليها بيدين مبللتين. كلنا مجانين، كل شيء مجنون في هذا العالم. تحوّل خرير الماء إلى أنغام جميلة وهي تقرّب وجهها منه لتذوب في قبلاته. همست: "ابقَ هنا الليلة. ما يحدث ليس خطؤنا. يجب أن تظل هنا معي كما تشاء". وشعرت بالحرارة تنساب منه إليها وهو يدفعها إلى السرير خلفها.

***

تعاهدا على أن يبلغا أسرتيهما في اليوم نفسه.

اتفقت جود مع توني على تناول العشاء معه في شقته في شمال لندن، وقرر سالم أن يهاتف حسانًا ذلك المساء. سألته: "لماذا لا تذهب لرؤيته؟"، لكنه ابتسم وهز رأسه. أجابها: "إياكِ أن تبلغي عربيًا أخبارًا سيئة في ورشة مليئة بمفاتيح الربط".

كانت جود تعرف أنها تحاول أن تتحاشى الموضوع بطريقتها الخاصة. لم تتصور كيف ستخبر والديها. إن مجرد التفكير في الأمر يجعل أحشائها تتلوى. لكن توني... توني شيء آخر. سوف يفهم طبعًا. وسوف يقدم لها المشورة السديدة.

لبست ملابسًا اختارها لها سالم ليعطيها دفقة الشجاعة التي تحتاجها. جينز أزرق ضيق يتسع من تحت الركبة وبلوزة واسعة وبيريه على شعرها الأشقر. ركبت الحافلة إلى كامدن. ألصقت جبينها بالنافذة تتابع أطيافًا

ناعمة من الناس، تغدو وتروح في ساعات الغروب الصيفي المبكر، ذائبين في دنيا سعيدة.

كانت شقة توني متواضعة بالنسبة لابن رجل غني. لكن أينما نظرت جود وجدت آثار الثراء في كل زاوية. رفوف الكتب من خشب البلوط الثقيل، وجلود الكتب العتيقة تقول إنها طبعات أولى وليست كتبًا مستعملة. وحيث كان الطلاب يضعون ملصقات كبيرة على الجدران، وضع توني لوحات فنية. ومشغّل الأسطوانات الأنيق يعزف موسيقى إيلّا فيتزجيرالد في الزاوية.

تحدثا على العشاء عن أحوال الأسرة. كان توني قد قبل مؤخرًا وظيفة في شركة المحاماة التي يملكها أبوه. أراها صورة فتاة معجب بها، متدربة يهودية من سويسرا، تعمل مساعدة محامي في شركته. أشرق وجه الفتاة من الصورة، ببريق أسنانها البيضاء ولمعان شعرها الكستنائي الكثيف.

انتابها شعور غريب بالخيانة. شعرت أن توني خدعها. إنه يتحدث كمتمرد على العادات، لكنه في الحقيقة قد انزلق إلى حياة تشبه حياة أبيه، كما تنزلق اليد بنعومة في قفاز حريري. انضممتَ إلى شركة أبيك، وسوف تتزوج هذه الـ(بيك) من سويسرا، وسوف تنتقل إلى منزل في ريجنت بارك وتفرش طاولة طعامك بالكريستال. وسوف ترتاد الكنيس وترتدي الكيباه، وتحتفل بعيد الفصح في منزلك. وتفعل كل هذا بعينين تبرقان كأنهما تقولان إن هذه مجرد مسرحية هزلية تجاريهم فيها. لكنها ليست هزلاً. هذه هي حقيقتك. هذا هو أنت مهما حاولت الإنكار.

عندما انتهيا من العشاء، أخذا فنجاني القهوة وجلسا على الأريكة الجلدية الوثيرة. عرفت جود أن اللحظة قد حانت. فأخبرته بكلمات متلعثمة ما جاءت لتخبره به.

كان الأمر أسهل مما كانت تتخيل. فسال مواطن إسرائيلي-بريطاني، أي أنه لا يشبه أولئك الرجال الخطرين الذين يسكنون كوابيس العم ماكس. ولديه أصدقاء يهود كثيرون هنا وفي إسرائيل. وأمامه مستقبل عظيم، فهو من أوائل الطلاب في دفعته. وهو يعرف اليهود ويفهمهم أفضل من أي شخص "إنجليزي" ليس من دينهم. وهو يتحدث العبرية. وهو يحبها.. إنه يحبها أكثر من أي شيء آخر، وهي كذلك تحبه.

جلس توني على كرسيه جامدًا كالصنم إلى أن فرغت من الكلام. وبعد أن استقر الصمت بينهما، أمال ابن عمها رأسه جانبًا، ونظر إليها كأنه يلاحظ وجودها للمرة الأولى. انتظرت جود، والتوتر يطبق على حنجرتها.

سألها أخيرًا: "وماذا عن جاك ودورا؟ هل أفهم من كلامك أنك لم تخبريهما؟" هزّت رأسها نفيًا وعيناها تنظران إلى يديها. صفّر توني صفيرًا منخفضًا طويلاً. وعندما تكلّم كانت كلماته موزونة بدقة وثبات. "لا أعتقد أنهما سينخدعان بحكاية جنسيته الإسرائيلية هذه. وأنت تعلمين أنهما يعتبران ماكس رجلاً بربريًا غير متحضر. ماذا يريد أبوان بريطانيان من الطبقة المتوسطة من إسرائيل؟" تفرق نسيج سحابة الأمل التي كانت جود تركبها.

سألته بصوت حاولت إبقاءه هادئًا: "إذًا ماذا تقترح؟ يجب أن أخبرهما عنّا".

رفع توني كتفه. "قولي إنه يهودي".

فزعت جود. "لا يمكن أن أقول هذا!"

"لِمَ لا؟ إنه إسرائيلي. ويعرف العبرية. وأصله ساميّ. لو لم أعرف لقلتُ إنه موسى نفسه".

"لا يمكن أن أفعل هذا يا توني. سوف يعرفون الحقيقة. وهو سيعرف

أيضًا. سوف يظن أنني أخجل من أصله".

"ألستِ خجلة من أصله؟ أتيتِ إلى هنا كأنكِ مقادة إلى ساحة الإعدام. وتريدين مني... ماذا؟ أن أبارك لكما هذه العلاقة؟ أنا لست حاخامًا كما تعلمين". ابتسم ابتسامة باهتة.

"أريد منك أن تساعدني على إخبار أهلي. أن... أن تساعدني على معرفة التصرف الصحيح. كل ما أريده هو أن أساعدهما على فهمه كما أفهمه. وأنا أعلم أن الأمر لن يكون سهلاً".

"لن يكون سهلاً؟!" تراجع توني ليريح ظهره على الوسائد، وأمسك ذقنه بيده. "يا عزيزتي جود، أنت لا تتصورين كم سيكون الأمر صعبًا. لا عليك من جاك ودورا. أنا أفكر بكِ أنت يا صغيرة. أنا أؤكد لكِ أن الأمر سيكون شبه مستحيل. تريدين نصيحتي؟ انتظري قبل أن تخبري أي شخص آخر. انتظري إلى أن تتأكدي".

"لماذا أنتظر؟" تملّك الغضب جود الآن، فنهضت في عصبية وسارت إلى الناحية الأخرى من الأريكة. كانت أنوار لندن البرّاقة تشع عبر نوافذ الحجرة. "أنا أعرف أنني لن أتزوج يهوديًا أبدًا يا توني. أبدًا. حاولت من أجل أبيك، ومن أجلكم جميعًا، لكنني لم أقابل في حياتي رجلاً أستلطفه، ناهيك عن أن أحبه. والآن وجدت ذلك الرجل، وقد شاء القدر أن يكون عربيًا. قد لا تستسيغ الأمر، وقد لا يعجب جاك ودورا، لكن لماذا أحرم نفسي من شيء رائع؟ لماذا لا يكون هو الرجل الذي يصلح لي، كما أن فتاتك السويسرية هذه وأباها يصلحان لك؟"

انعقد حاجبا توني من جملتها الأخيرة. وقف هو أيضًا ووضع فنجانه على الطاولة، ثم سار نحو مكتبته. "دليل الشيوعيّ" كما كان أليكس يسمّيها.

علّق توني فوقها صورة لاعبي نادي ساندرلند لكرة القدم موقّعة من اللاعبين، وهذه واحدة من أثمن ممتلكاته. ودّت جود لو تعتذر. ودّت أن تصرخ: يجب أن تكون في صفي. قل لي إن كل شيء سيكون على ما يرام. ساعدني على حل المشكلة.

تنفس توني بعمق ثم قال: "كنتُ مثلك أكره المدرسة العبرية، والحاخامات المملين بطواقي الكيباه لا ينفكون عن الحديث عن مصير الشعب اليهودي. نهايات أسابيع لا تحصى ذهبت هدرًا في سبيل معرفة المصير اليهودي! كان يمكن أن أقضي ذلك الوقت في لعب كرة القدم". قلب ملامح وجهه في حزن مبالغ فيه، فابتسمت جود رغمًا عنها.

"كان كل ما تعلمناه بالنسبة لي قصصًا مريعة عن أشخاص معتلين نفسيًا، ولو فعل أشخاص من نيوكاسل مثلاً ما فعلوه لرموا بهم في السجن. أتعرفين قصة أصل اليهود؟ ليست قصة موسى.. بل القصة الأولى؟"

شعرت جود بالضياع. "إبراهيم؟"

"نعم، هو. إن قصته من أسوأ القصص. أولاً يتزوج امرأة في الثمانين، ويخبرها أنها ستكون أمًا لقوم كثيري العدد. ثم تصاب بالغيظ والقهر لأن لا حيلة لها، فهي لا تستطيع الإنجاب. فيعاشر جارية اسمها هاجر، ثم يأخذ الاثنان الطفل منها. ثم عندما تحمل العجوز بطفل ماذا فعل؟ يحاول أن يضحي به على جبل لأنه سمع صوتًا ظنّ أنه من ربه يأمره بهذا. قصة رائعة! لا عجب أننا فخورون به". ابتسم مرة ثانية، لكن جود أجبرت نفسها على الضحك هذه المرة، وفي داخلها تحرك الشعور المعتاد بالإثم.

"فتخلصا منها.. الفتاة العربية التي أنجبت الطفل الأول. سموّه إسماعيل. وهو خليفة إبراهيم الحقيقي. أصابت الغيرة سارة وأرادت

كل فضل الرب لصغيرها إسحاق. ويخبروننا أن هاجر وإسماعيل خرجا إلى الصحراء. فتاة وطفل، لوحدهما في تلك الحرارة، أرسلهما إبراهيم إلى حتفهما. علّمونا الحاخامات أن هذا ما قدّره الإله لهم، من أجل أن يخرج الشعب المختار. وقد خرج من إسماعيل شعب آخر، فلم يقع أي ضرر في النهاية، أليس كذلك؟ لكنني أؤكد لكِ أنه لا يوجد عربي على وجه الأرض لا يحمل في داخله جزءًا من إسماعيل. ومن يلومهم؟ إنهم منبوذون دائمًا. نبذهم الرب أولاً، ثم طردهم الآخرون. ولن يتوقفوا أبدًا عن القتال ليجدوا مكانهم".

استدار توني ليواجهها. كان وجهه شاحبًا في انعكاس النافذة الباردة.

"بوبيلا.. أرى أنك تحبين هذا الشاب. وإن كنت تقولين إنه يحبك فلا شك عندي إذًا. لكن صدقيني، لن يسامحكِ أبدًا".

همست: "يسامحني على ماذا؟"

اقترب منها وأمسك يدها. "يسامحك على أنكِ في الفريق المنتصر يا عزيزتي".

***

انتظر سالم عودة جود في تلك الليلة في قلق. نظّف الحجرتين الوحيدتين في شقته، وأعدّ كومة من الساندويتشات، وفتح التلفزيون القديم الذي حصل عليه من جاره مقابل القيام ببعض أعمال المحاسبة. قلّب الجهاز من قناة إلى قناة وسط أنين الهوائي المكسور. أحس بمعدته تنقبض. انتشرت في الحجرة رائحة المواد المنظفة والخشب المبتل. أكان قلقه على نفسه أم عليها؟ كان واثقًا أن أسرتها لن يتقبلوا الأمر بسهولة. والأمر أصعب دائمًا على المرأة

منه على الرجل.

وقد أثبت حسّان صحة ذلك. نعت سالمًا بالحمار المجنون، وقال إنه صاحب مشاكل من صغره، ورجل يخجل من قومه، وولد نسي تاريخه. لكن وراء سيل الشتائم العاتي، ثمة ثقة ذكورية يملكها كل الرجال العرب. الثقة في قدرتهم على ترويض نسائهم أو هجرهن كما يشاؤون، وأن أي مشكلة يجلبنها إلى حياة الرجل ستتبخر بسهولة.

عندما عادت جود أخيرًا بدا من صوتها أنها مبتهجة، وقالت لسالم إن توني يرحب بلقائه يومًا ما. لكن شحوب وجهها والطريقة التي رمت بها نفسها بين ذراعيه، كأنه زورق النجاة الوحيد في بحر واسع، أخبراه بالكثير.

سأل سالم: "أكان غاضبًا؟ هل قال إنه سيتحدث مع والديكِ؟" وفي مؤخرة عقله أزّ سؤال بإلحاح: هل انتهى أمري؟ هل غيّر رأيك؟

ضمّته وقالت: "لم يكن غاضبًا. لقد فوجئ بالخبر. وقال إن الأمر سيكون صعبًا علينا. لكننا نعرف ذلك".

"صحيح.. نحن نعرف ذلك". قبّل جبينها، متعجبًا من كمية الشجاعة التي اجتمعت في هذه المخلوقة الصغيرة. "أنتِ تستحقين كل عناء. أنتِ أشجع شخص أعرفه".

ابتسمت رغم الدموع. قالت: "مينش.. هذا ما كانت جدتي ستقوله. يجب أن يكون الشخص شجاعًا كي تكون له قيمة. أنا واثقة أنها كانت ستحبك يا سال. لم تكن لتهتم بأي من هذا. كانت ستراك على حقيقتك".

وصدّقها. كان إيمانه بها أكثر مما كان يظن أن قلبه يحتويه. لقد وقفت في وجه أسرتها من أجله، ورأت فيه شيئًا يستحق المخاطرة.

اجتهد سالم في ذلك الصيف ليحصل على أعلى الدرجات الممكنة في

اختباراته النهائية. وكانت جود تسهر معه حتى وقت متأخر من الليل، تكتب له ملخّصات على بطاقات لتساعده على تذكّر المعادلات والنظريات. وعندما يثقل رأسها ويغشاها النوم، كان يستلقي إلى جانبها ويراقب أنفاسها متعجبًا من اختيارها. كان شعرها بصفرة لهب الشمعة الذائبة، وبشرتها بصفاء الماء العذب. سوف يفعل أي شيء ليثبت أنه يستحق إيمانها به، وليصبح الرجل الذي تراه عندما تنظر إليه بعينيها الزرقاوين. كانت واثقة من الخير والأمل الذي يكمن في مستقبله. وكانت تعرف ما معنى أن تحلم بحياة أخرى محرّمة.

حاول أن يمهّد الطريق أمامها قدر الإمكان. فشرب الشاي مع روث مايكلز النزقة رئيسة النادي اليهودي، بل وحضر الصلاة في الكنيس المحلي. وضع الكيباه على رأسه وابتسم لجيرانه. كاد كل من يراه أن يقسم أنه يهودي. حتى أنا. وفي صحن الكنيس، ومن حوله حفيف البدلات الصوفية والملابس المطرّزة، كاد يصدّق نفسه. أنه هو، سالم الإسماعيلي، لم يكن عربيًا حقًا، مكتوبًا عليه الخسارة والخذلان إلى الأبد، بل واحد من المختارين، من الأسياد، من الذين قدّر لهم الغلبة دائمًا كما يبدو.

***

بعد انتهاء الاختبارات النهائية بأسبوع، أخذ سالم جود إلى حديقة فينزبيري، "موقع الجريمة" كما يحب أن يسمّيه. سكب الصيف ألوانه على الأشجار العارية التي يتذكرها، فصار الأخضر الغامق ناعمًا، والنسائم تتلاعب بأوراق الشجر. فرش سالم أغراض النزهة على الأرض. ساندويتشات الجبن وفراولة من أول القطاف. وقدّمت هي له زجاجة شمبانيا. وعندما أزاحت عن جبينه خصلات شعره، رأى شعاع شمس يوليو يلتمع على قطرات ما زالت متعلقة بشفتيها. ولمّا أطبقت الشفاه تذوّق

طعم النور.

بعد أن شربا ملء كأسين، قالت له مرة أخرى كم أنها فخورة به. وكم كانت جميلة هي في صدقها! انتهز سالم الفرصة. فقد كان يخطط للأمر منذ أيام، وقد انتظر طوال الصباح متحينًا هذه الفرصة كي يواجهها.

لم تخبر جود والديها بعد عن علاقتهما رغم وعدها له. هو بالنسبة لأسرتها لا وجود له. وفخرها به ما هو إلا نصف حقيقة، أو خداع لنفسها.. وإلا فما سبب السرية؟ بدأ التجهم يغطي وجهها، عندما خرجت الكلمات متناثرة بلا حساب من فمه.

قال يجادلها: "سوف تشعرين بالراحة بعد أن تخبريهما. إنهما يستحقان أن يعلما مَن الرجل الذي ترتبط به ابنتهما. ماذا تنتظرين؟"

رأى عينيها تفرّان إلى حيث الأشجار، كطيور أُفزعت من أعشاشها. قالت بغير اقتناع تحاول الدفاع عن موقفها: "سوف أخبرهما، لكن يجب أن يحين الوقت المناسب. وأحتاج إلى مساعدة توني، لكنه كان مسافرًا إلى جنيف طوال الصيف". ثم جاءت الهجمة المعاكسة. "أنت أيضًا لم تخبر أختك.. ولا أمك".

قال: "لم أرَ أمي منذ أكثر من عشر سنوات. لا يهمها إن كنت حيًا أم ميتًا. وحتى أختي لم ترني منذ فترة طويلة. لم تعودا جزءًا من حياتي الآن".

"لقد قلت لي عن تلك الرسالة التي بعث بها أخوك من لبنان. قلت إنها تريد أن تراك. لقد كتبت لك رسالة! لماذا لا تذهب لتراهما؟ قد يجعلك هذا تشعر بالراحة". كانت خدعتها طفولية مكشوفة، ومع هذا فمن الصعب تجاهلها.

"لماذا نتحدث عن أسرتي ولبنان؟ كنا نتحدث عن أسرتكِ أنت في

ساندرلند، الناس الذين لا تريدين أن يعرفوا أنك تعيشين مع عربي".

"يكفي أرجوك يا سال".

"لا.. أرجوكِ أنت يا جود. فلتفعلي ذلك من أجلنا. ألا ترين أن ما بيننا شيء مميز؟ شيء يستحق المخاطرة لأجله؟"

قالت مازحة رغم الهم الذي كسا وجهها: "حبٌّ نهتف به من سطوح البنايات؟"

"ممَ أنتِ خائفة؟" هزت رأسها، ورفعت كفها تلمس خده. قالت لمستها: لا شيء. لكنه لاحظ قلقًا عميقًا وهو يرى يدها تبتعد عن وجهه، وتلتمس السلسلتين الذهبيتين حول عنقها.

***

رتّب سالم بعد عناء موعدًا للقاء بين جود وحسان. كانت تلك محاولته الأخيرة للتلاعب بنزعتها الفطرية إلى العدالة، وتحريك خيوط الإحساس بالذنب التي تملي عليها تصرفاتها.

والحقيقة هي أن سالمًا كان مترددًا في الجمع بين جود وحسان في مكان واحد، بقدر ما كانت جود مترددة في الاتصال بوالديها في ساندرلند. حسان رجل عربي صريح وفخور بخشونته، رجل رفض الإتكيت الإنجليزي الذي تعلّمه سالم فور قدومه إلى البلد. كيف سيبدو في عينيّ فتاة يهودية غرّة لم تعرف حياة أجنبية تختلف عن حياتها، إلا ما شاهدته في الضفة اليسرى من باريس؟

تلاقوا في منزل حسان في عصر يوم الأحد. طبخت زوجة حسّان وليمة

مليئة بالدهون: ملفوف محشو بالأرز واللحمة، ودجاج على بساط من قطع البطاطس الغارقة بالزيت، وأشباه منقوشة محشوة بلحم الضأن الإنجليزي، وكنافة ناعمة غنية.

جلسوا على أريكتين متماثلتين قديمتين بلون البن. كان حسّان يدخن وسالم يشرب البيرة. لاحظ سالم عيني جود تتلفتان حولها في البيت الغريب. فحسان وشيرين كغيرهما من العرب يفضلان الإنارة الكهربائية على ضوء الشمس في غرفة الجلوس. وكانت الستائر منسدلة على نوافذها، فحجبت ضوء النهار، وجاء مكانه بريق الإنارة الرخيصة من سقف الحجرة. وفاحت رائحة التوابل والدهن من المطبخ، واختلطت بعد وصولها برائحة الدخان والرماد. تناثرت الأطباق النحاسية واللوحات التي تحمل أحاديث وآيات قرآنية، وكذلك باقات من الزهور البلاستيكية. استقرت في عقله خاطرة واحدة.. هذا ليس عالمها.

ولربما قرأ حسان أفكاره، لأنه أصبح مهتاجًا وفظًا في نفس الوقت. افتتح الحديث بتأنيب سالم لأنه لم يرجع إلى الوطن بعد تخرجه. "ألا تشعر بأي امتنان؟ دفع طارق ونادية مصاريفك في الجامعة وتبخل عليهما بخمس دقائق؟ وماذا عن رافان؟ يقول إنك لم ترد على رسالته. أهكذا يعامل الأخ أخاه؟"

رد سالم والغضب يعتمل في صدره: "وهل ينقطع الأخ عن أخيه لعشر سنوات؟ أرسل إليّ رسالة واحدة وتريدني أن أهرع إلى لبنان؟ لدي ما يشغلني عن هذا الهراء".

أشار حسّان بإصبعه تجاه جود، والابتسامة الساخرة تعلو شفتيه. أدرك سالم أنه نصف سكران. "أترين هذا السيد؟ إنه لا ينسى الإهانة أبدًا.. صدقيني. لا يغفر الزلة أبدًا. سوف ترين بنفسك. إنه لا يسامح أهله حتى...

يتعالى علينا. أتمنى ألا يتعالى على أسرته الإنجليزية أيضًا".

"حسّان.. اتركها بحالها". كان يعرف أن مشقة الحديث المتواصل باللغة الإنجليزية يضايق أخاه ويثير أعصابه أكثر.

لكن حسّانًا رفض الانتقال إلى العربية. فتابع: "لماذا؟ أتت إلى منزلي بقدميها. وهي امرأة ناضجة. دعها تسمع الحقيقة، لم لا؟"

قالت جود بسرعة: "سال يريد حقًا العودة لرؤية أسرته". كان العجب واضحًا على وجهها: كيف يكون هذا الرجل ورجلي أخوين؟ أردفت: "لكن وظيفته الجديدة ستبدأ في غضون أسابيع. وعندما يستقر، ربما نذهب معًا؟" كانت جملتها الأخيرة سؤالاً. نظر إليها فابتسمت. دهش سالم. أتظن حقًا أنني سأرجع إلى الشرق الأوسط معها؟

اتّسعت عينا حسان وقال: "أنتِ وهو ستذهبان إلى فلسطين معًا؟ يا سالم.. بماذا حشوت رأس هذه الفتاة؟ ألا تشاهد الأخبار؟"

شعر سالم باهتزاز الحجارة أسفل منه. هذه هي بداية الانهيار الصخري. "يكفي يا حسان".

علا صوت حسان. "كلا. تريدان أن تعيشا هذا الخيال؟ هذا السلام والحب؟ افعلا ما تشاءان لكن في إنجلترا. أما في فلسطين، فلا سلام ولا حب. إن ذهبتما معًا، لن يستقبلوكم بالأزهار بل سيرمونكم بالحجارة. كيف يرجع سالم بيهودية إلى أسرته؟ أنا آسف، لكن أنتما مجنونان".

رأى سالم وجه جود يمتقع، وقد وضعت فنجان القهوة التركية الذي لم تشرب منه سوى بضع رشفات على الطاولة الزجاجية، وقد زمّت شفتيها في سخط.

قالت بنبرة هزّها غضب نادرًا ما رآه فيها: "أنا وسال ننتمي إلى هناك.

وكلانا له أسرة هناك. ولا يرمي الجميع الأحجار هناك. لا يرمي الأحجار إلا من كان يريد القتال أكثر من أي شيء آخر".

قال حسان بحزم: "أنتِ لا تنتمين إلى هناك. يظن الصهاينة أن الرب أعطاهم منزلي، لكن هذا ليس مكتوبًا في القرآن ولا في أي كتاب آخر. يقول سالم إنك لست صهيونية، لكن ما أدراه؟ أنا أقول إن في داخل كل يهودي بن غوريون".

هبّت جود واقفة. رأى سالم الدموع تتجمع في مقلتيها، وهو يعرف أنها تكره ضعفها. وقف هو أيضًا وقال: "جود.. أرجوك، اجلسي". أمسك كفها بإحدى يديه، وأمسك يد حسان باليد الأخرى.

قالت بصوت كسير: "أعتقد أن الأفضل أن نعود إلى المنزل الآن". رفع حسان يديه في الهواء، وقال لشيرين بصوت أكثر هدوءًا: "لازم حدا يحكي لهم يعني".

كان في استطاعة سالم أن يلكمه أو أن يشتمه، لكن فات الأوان. عرف وهو يساعد جود على ارتداء معطفها، وهو يحاول أن يدردش ليخفف من حدة الألم، أن أضرارًا أعمق قد ترسبت في داخلها.

***

كانت الرحلة من ضواحي جنوب شرقي لندن إلى شمالها الغربي المكتظ طويلة وبطيئة. نفد صبر جود في ميدان بيكاديللي. قالت لسالم إنها سوف تعود إلى غرفتها في السكن، وإنها سوف تراه فيما بعد. لم يعترض بقوة. كلاهما كانا في حاجة إلى الانفراد بنفسه.

مشت عبر سوهو كما لو كانت تحلم. عبرت أزقة مظلمة تسكنها محلات

المتع الجنسية، ووجوه شابة ذات شعور طويلة ملونة ألوانًا صاخبة تنحدر على أكتافهم. سارت من بين مجموعة من هؤلاء، وهم يضحكون ويستنشقون الدخان من أعقاب سجائرهم النحيلة، ورائحة الفاكهة من البيرة المنسكبة على الأرض تلتصق بحذائها. حامت فوقها في هواء ذلك المساء أغانٍ متفرقة في تنافر مزعج. أذرع صوتية تحاول اجتذابها وهي تسير. كان الوقت في نهاية الصيف، والسماء ما زالت تفرغ ما بداخلها ككأس من ماء، وتتحضر لليلٍ وضّاح تتبعثر نجومه.

لم يتوقف ارتعاش جسدها، من القسوة التي لمستها في صوت حسان، ومن موجة الغضب والكره التي تكسّرت على شاطئها. وما زالت لسعة القهوة التركية المرّة باقية في فمها، طعم قوي منتصر يستهين بحاسة تذوقها الضعيفة. تذكرت كيف أنها رفعت عينيها من سواد الفنجان لترى السواد نفسه في عيني حسان.

لم يكن من المنطقي أن تلوم سالمًا لأن ذلك الرجل أخوه، ومع هذا فقد كانت في تلك اللحظة غاضبة منه. غاضبة لأنه عربي. غاضبة لأنه تعرّف عليها، وغاضبة أشد الغضب من نفسها لأنها أقحمتها في علاقة معقّدة مع رجل لا تتخيل أنها تستطيع أن تعيش بدونه يومًا. أهكذا ستكون حياتنا؟ بغض من كل طرف ولا مكان يجمعنا؟

قطعت الطريق فوصلت إلى شارع واروِيك، ومرّت أمام كنيسة انتقال العذراء، حيث اعتادت زميلتها البولندية الكاثوليكية حضور القدّاس.

كانت دهشة جود عظيمة عندما علمت أن أبواب الكنائس مفتوحة دائمًا. كانت تعتبر ذلك بادرة ترحيب لا تتخيل وجودها في ديانتها، كأنما الكنيسة عالم يفتح ذراعيه مرحبًا بالجميع، حيث لا غريب ولا دخيل بينهم. انفتح باب الكنيسة الخشبي الثقيل بلمسة بسيطة، فسحب جود عبر عتبته إلى لفحة

الدفء وضياء الشموع.

وفي الداخل شاع هدوء ساحر. تراقص لهب الشموع في العتمة، وبدا على النوافذ الوردية قديسون يمدّون أيديهم نحو أشخاص يلتحفون الأزرق والذهبي. شعرت جود بأنهم مطهرون. ووجوههم الخالية من التعبير ترمي نظراتها على التائبين الجالسين على المقاعد الحمراء.

دخلت ببطء إلى أحد الصفوف وجلست على قماش المقعد المهترئ. ماذا سيقول جاك ودورا إن رأوها الآن؟ ابنتهما تجلس أمام تمثال مريم العذراء! كانت دورا تحديدًا تكنّ احتقارًا خاصًا لأم المسيح. كانت مصرة على أن حملها به كان نتيجة سيرها أثناء النوم ودخولها في معسكر روماني، ومعاشرة أحد الجنود بلا قصد منها. "كانت دائمًا تمشي وهي نائمة. كانت معروفة بذلك"، هذا ما قالته دورا لجود مرةً وهي تسخر من دين صديقتها كاث.

وهذه المريم كانت فعلاً تبدو حزينة، بعينين نصف مغمضتين، وشفتين مقلوبتين في ألم. ذكّرها غطاء رأس التمثال بامرأة غارقة في شجونها، ما ظهر منها وما اختفى.

أحست جود باندفاع الدموع التي حبستها قبل قليل. الدموع الخائنة التي تأتي دائمًا في الوقت الذي لا تريد فيه إلا أن تصرخ. لم تمنعها الآن من الجريان على خديها. أخبريني ماذا أفعل.

تركت الرجاء يرتفع نحو مريم الشابة بوشاحها الأزرق وبشرتها البيضاء التي لا تشوبها شائبة، وقد مدّت ذراعيها نحو جود تواسيها. تعالت من حولها همهمات الندم والحمد وزادت. زادت حتى صارت أمواجًا تضرب شاطئ البحر في وقت الغروب بعد انجلاء العاصفة.

***

طلبت منه أن يلاقيها في مقهى فيرجينيا في الصباح التالي.

عندما وصلت، وجدته جالسًا مطأطئ الرأس. كاد قلبها ينفطر لهمه، لكنها أجبرت نفسها على الثبات. جلست فسألها: "كيف حالك؟"

أومأت برأسها بسرعة وقالت: "أنا بخير". يا لها من إجابة غبية! لكن عقل سالم كان مشغولاً فلم يلاحظ إجابتها.

قال بنبرة تشوبها لمحة عدائية: "أعتذر عما حصل أمس. لكن أنتِ تعلمين أن ذلك لم يكن خطأي. لا فائدة من النقاش مع حسّان. كان يجب ألا تدخلي معه في جدال".

قلّبت سلسلة ربيكا بين أصابعها تستمد منها الشجاعة. وضعت يدها على يده وقالت: "هذه هي المشكلة يا سال. لن يتركونا لوحدنا. لن يتقبلنا أهلنا هكذا. كنت أظن أن أسرتك قد تقبل بعلاقتنا، لكن من الواضح أنهم لن يفعلوا".

عض سالم على شفتيه ورفع يديه: "جود. أرجوكِ حاولي أن تفهمي أخي. إنه فلاح أحمق. أرجوك. أرجوك لا تتخذي أي قرار بسببه. يمكننا أن نصلح كل شيء مع الوقت".

قالت بحزم: "الأمر لا يقتصر على حسان فقط. بل كلهم. إذا سمعت أسرتي كلمة عربي فإنهم يتخيّلون أشخاصًا غاضبين دمويين يقتلون اليهود. وأسرتك تظن أنني إسرائيلية مثل كل اليهود. أنا لا أرى سوى طريقة واحدة كي نثبت أنهم على خطأ".

نظر إليها بريبة وسأل: "كيف؟"

"نفعل ما قال حسّان إننا لا نستطيع فعله.. خذني معك إلى بلدك. إلى إسرائيل.. فلسطين.. أنت تعرف ما أعنيه. هذه هي أفضل طريقة كي يعرفوا أننا لا نؤيد طرفًا ضد الآخر. يمكننا البقاء مع عمي في الكيبوتس ونرى كيف ستجري الأمور بعدها. ثم ننتقل إلى بيت أختك في الناصرة. أريد أن أرى يافا والمكان الذي نشأت فيه".

"أنا وأنت؟" زعزعت نظرة الذهول على وجهه ثقتها باقتراحها. ظلت ساهرة معظم الليل تفكر بالأمر، وتقلّب حياتهم بين يديها، كأنها صورة محطمة وهي تحاول لصق القطع في مكانها.

يجب أن يفهم. توسلت إليه. "يجب أن نريهم.. أن نري حسانًا وأسرتي أنهم كلهم مخطئون. كان والداي يريدان أن أذهب إلى إسرائيل. وكذلك ماكس، والجميع. كانت يحشرون إسرائيل في حلقي طوال حياتي. لكنني لم أتمنَّ قط أن أذهب إلى هناك. كانت لا تحمل أي معنى بالنسبة لي، إلى أن عرفتك. عندما تحدثت عن وطنك تغير شعوري تجاهها. أريد أن أرى ذلك المكان بعينيك. وإن أقنعنا أهلنا هناك فلا أحد هنا سيعارضنا. سوف نتوقف أخيرًا عن الاختباء والتظاهر إلى الأبد".

سحب يده من بين يديها، فلمست كفها فجأة برودة الطاولة. "كيف يمكن أن تفكري حتى في أمر كهذا يا جود؟!" كانت كلماته كاللكمات المتتالية. "لقد أُخرجت رغمًا عني من بلدي. ولم أعد إليه أبدًا. والآن تطلبين مني أن أعود وأن آخذ معي يهودية؟ وأن أسكن مع صهاينة؟ هل جننتِ؟"

تجمّدت كل عضلة في جسمها، وغطى العرق البارد كفيها. حاولت أن تجبر صوتها على التمسك بالهدوء. قالت: "لا تذهب مع يهودية.. اذهب معي أنا".

أشار إلى سلسلتها. "لن تستطيعي إخفاء هذا الشيء هناك. ولا تحاولي أبدًا. هنا، معًا، لدينا فرصة. لكن لو عدنا إلى هناك فستعودين مع فلسطيني خائن". دفع كرسيه بعيدًا عن الطاولة.

قالت: "أهذا كل ما يهمك؟ رأي أولئك الذين سخروا منك بنا؟"

اضطرمت النار في عينيه السوداوين. قال: "إنهم أهلي. أنت تهتمين بقبول أسرتك لي وبموضوع اليهودية والعربي هذا أكثر من اهتمامكِ بي. تريدين أن تأخذيني معك إلى كيبوتس عمك ليعرف الناس أنك دجّنتِ هذا العربي؟ مفهوم.. حسان محق. نحن لا نفهم بعضنا على الإطلاق".

رأته ينهض ويسير نحو الباب.. كأنها في حلم. تمهل للحظة في سيره والباب أمامه مباشرة. أمل حقير ضائع أطلّ برأسها: سوف يعود.

لكنه تابع سيره.. وعندما مرّ بجانب النافذة حيث تجلس كانت كأنها غريبة عنه، ثابتة كتمثال. مجرد صورة ضبابية لإنسان يجلس وراء زجاج متسخ.

بيروت

في ذلك اليوم، شعر سالم أنه نقل مهمة التفكير إلى ساقيه. سار مبتعدًا عن ذكرى وجهها، يضرب الأرض بقدميه في شوارع سوهو الكالحة، حتى أوصلاه بعد أسبوعين إلى المكان الذي أقسم أنه لن يطأه: المطار وبداية رحلة إنعاش الموتى.

حتى رسالة رافان التي فضها أخيرًا ومكالمتهما الهاتفية كانا تصرفين مغموسين بضبابية قاسية. أراد أن يدفن صورة جود في لمسة أمه، وفي عناق أخٍ كان ينام في حضنه. قرأ خط رافان المبتهج فتخيلهما معًا ينتظرانه في عالم أكثر دفئًا.

كانت سعادة رافان بلا حدود. سمع سالم صوته العميق المرح عبر أسلاك الهاتف. "خلِّي كل شي عليِّي أنا يا أخي. رَح تترجاني لتضل هون".

استرجع سالم ذلك الصوت في ذهنه مرات عديدة خلال الرحلة التي استغرقت خمس ساعات، يحاول أن ينبش ذكرياته المدفونة عن الطفل الذي كان.. عن الوجه الذي رآه لآخر مرة مبتسمًا في قبو بلا إنارة في الناصرة. كيف سيتعرفان على بعضهما في المطار؟ يا حسرة! منذ إقلاع الطائرة إلى هبوطها في مطار بيروت الدولي، ظل يصارع ذكرياته محاولاً قمعها وإفساح المكان لأجل ذكريات جديدة. سأستعيد أخي. سأستعيد أمي. هذا كل ما يهم.

لكن عندما رأى الرجل الغريب الذي يلوّح له في صالة القدوم التي تخنقها الرطوبة، شعر بالخيبة كنصل حاد في ضلوعه. قال الغريب: "أهلاً يا

أخي!"، واقترب منه فاتحًا ذراعيه.

كل شيء في رافان الذي يراه بعينيه الآن يبدو مألوفًا بشكل مذهل، كأنك تسمع لحنًا تعرفه وتحبه لكن بإيقاع مختلف. ما زالت العينان واسعتين بريئتين. ما زالت زاويتا الفم مرتفعتين على النحو الذي يذكره سالم، بابتسامة غامضة جذابة. لكن خديّ الطفل المكتنزتين نحلتا، فصار الوجه بجمال وجه أمه، بذقن خشن، ونظارة غالية مرفوعة فوق شعره الأشقر، وقميص من حرير.

حيّا سالمًا بضحكة مرحة رنانة، وقبّله بخفة على الخدين بشفتين ممتلئتين ناعمتين كشفتي فتاة. "أخي يا أخي! وأخيرًا إجا اليوم يلي بشوفك فيه".

"رافان". دهش سالم من اختناق صوته بعواطف لم يتوقعها. "أخيرًا شفتك". لماذا تأخرت في البحث عني؟ هذا هو السؤال الذي يتمنى أن يسأله.

شدّت يد رافان على ظهر سالم. "كل شي بوقته حلو يا أخي. إنت هلاّ هون ورَح تشوف. يلّا السيارة ناطرتنا".

توجها بالسيارة نحو ناطحات السحاب البيضاء في سماء بيروت، وهما يستمعان إلى الراديو في سيارة رافان المرسيدس الجديدة. تضاءل المطار ورائهما حتى صار نقطة صغيرة، ثم تلاشى في الضوء الباهر. انبسط الطريق السريع الجنوبي تحت قبة السماء الزرقاء. كانت امرأة تصدح بالغناء بصوتٍ معتّق بذكريات غريبة. أعرف هذا الصوت. هذه أم كلثوم، سيدة الغناء العربي. كانت أسطورة منذ أن كانت أمه فتاة صغيرة. كان العرب يتوقفون عن كل ما يفعلونه لينصتوا إليها. أما الآن.. ربما لم يبقَ منهم من يسمع.

أصابته عدوى الحزن من الأغنية. أمال جبينه على الزجاج الدافئ.

يا فؤادي لا تسل أين الهوى

كان صرحًا من خيالٍ فهوى

اسقني واشرب على أطلاله

واروِ عني طالما الدمع روى

كان صوت رافان يطغى على الموسيقى. تغنى الشاب بالبحار الدافئة، وشواطئ جونيه البيضاء، وطعم الشمبانيا الباردة في نادي سان جورج لليخوت. تركه سالم يتكلم. لهذا أتى... كي يغسل غبار إنجلترا عن جسده في المياه العربية.

التمعت مياه الأبيض المتوسط تغوي المارين بسياراتهم يسارًا وغربًا مع غروب الشمس. وبدا أمامهما خط المدينة الفاتنة متقوسًا... بيروت. ومش بس شمسهم هي الدافية، حتى نسوانهم. هذا ما قاله حسان. وهذا ما يحتاجه بالضبط.

تغير المنظر عن يمينهما. ترك رافان الطريق السريع، فأخذت المرسيدس تزحف عبر منطقة تكتظ بسطوح صدئة من صفيح تنتشر إلى أبعد مدى يصله البصر. سجادة قذرة مطوّحة عند قدميّ المدينة البيضاء. مخيمات اللاجئين. ملجأ عشرات الآلاف من الفلسطينيين كما قرأ عنها. وأعدادهم تتزايد يوميًا هربًا من الدبابات الإسرائيلية في الضفة الغربية. تخيلهم سالم وهم يغلقون أبواب بيوتهم في فلسطين من خلفهم، ويتساءلون ماذا يخبئ المستقبل لهم. تذكر انغلاق البوابة في يافا. كان المفروض أن الأمر لن يطول، ثم أصبحنا ننتظر إلى بقية حياتنا.

تعكّر مزاجه مما شاهد، والمنظر يزيده كآبةً مع تأوهات أم كلثوم وضجيج المحرك. لاحت بنايات بيروت الطويلة في الأفق.

لم يلقِ رافان بالاً للمخيمات. قال: "غيرنا الخطة يا أخي. بعد بكير، ما بدي إرجع ع البيت. ع بالي نشرب كاس. شو رأيك؟" وجد سالم لهجته غريبة، فيها أثر الفرنسية بحروفها المنزلقة المبحوحة. "رح نروح ع الحمرا بعدين. هلأ بدي فرجيك ع بيروت الحقيقية".

تقع الحمراء في الجزء الراقي من المدينة، مسكن الأسر العربية العريقة الغنية. عندما سمع سالم أن رافان يعيش هناك سأله: "كيف؟"، ثم تذكر أنه لا يريد أن يعلم كيف. ورغم ذلك فقد وصلته إجابة رافان، تصحبها ضحكته الواسعة عبر الهاتف: "شو فيني قول يا خيّي؟ الماما مش قليلة".

وبيروت أبلت حسنًا لنفسها كما أحسنت لمن سكنها. اتّسع الطريق المزدحم إلى المدينة تدريجيًا، حتى صار جادّات بيضاء مزهرة عريضة، يمتد على جانبيها أشجار النخيل خضراء زاهية في ضوء الشمس.

وأينما التفت سالم سمع صخبًا حادًا من محركات سيارات فارهة، ورأى سيقانًا برونزية تخطر متهاديةً قاطعة الطريق. وعبر ساحة الشهداء، ومن بين حافلاتها الجوّالة والسيارات المركونة والدراجات النارية اللامعة، يتقاطر الناس وينبضون بنبض الحياة في أبهى أشكالها، متجهين إلى اجتماعاتهم ومواعيدهم الغرامية، إلى المحلات والمقاهي. تبعتهم عينا سالم حتى كلّت. ذاهبون للرقص واللهو والعشق.

وفيما وراء قلب المدينة، يقع الكورنيش الذي سحب الأخوين نحو ملعب البحر الأزرق الكبير. فنادق حديثة تُبنى على امتداد البروميناد، ومعارض وأسواق تفترش الشاطئ. شق المتزلجون البحر عابرين بصمت، ومن خلفهم جناحان من الماء مشرعان في الهواء. وفي الأفق يرتفع جبل مطوّق بالأخضر. رأى سالم على رمال الشواطئ الطويلة رجالاً ونساءً يقتحمون البحر معًا بأجساد قدّتها الحرارة واللياقة. ذكّره المنظر بتل أبيب قبل أعوام

طويلة. نفس الأذرع والسيقان السمراء، ونفس الرقصة الغافلة اللاهية.

توقفا أمام أحد الفنادق الصغيرة. لحق سالم برافان إلى شرفة واسعة تطل على الكورنيش. جلسا بصمت يرتشفان من كأسيهما تحت صورة العذراء. كان فندق سان جورج الشهير أمام عيني سالم في نهاية الخليج، يبرق بلونيه الأبيض والوردي.

قال له رافان: "شوف هالجمال.. كأنه صدر صبية". ضحك سالم. ذاك الطفل الذي كان يبلل فراشه، وهذا الرجل المتمتع بالدنيا... كيف يمكن أن يكونا الشخص نفسه؟! لم يفهم لماذا شعر بالزهو عندما رأى هذا التغير في أخيه. أراح ظهره واسترخى. ومش بس شمسهم هي الدافية، حتى نسوانهم. لكن جود باردة. هنا سيكون على طبيعته.

أشار رافان نحو سان جورج وقال: "بتعرف إنه الفرنساوية عَمَّروا المكان هيدا؟ المسيحية. هنّي يلي معهن مصاري هون. الإسلام ما بيعرفوا يتصرفوا بمصْرياتُن.. إلا إذا كان عندهن بترول يلعبوا فيه".

"الظاهر حتى المسلمين حالهم منيح". كان سالم ينظر نظرة ذات مغزى إلى قميص أخيه الحريري وساعته الذهبية الثقيلة. "حكى لي حسان إنه هالبلد جنة العرب".

قال رافان: "جنة المهابيل. مهابيل ولَّا عرب.. كلهن نفس الشي. بإسرائيل اليهود فوق العرب. وهون المسيحية فوق الإسلام، والدروز بيحَمُّوا النار تحت الطنجرة. ورَح يجي يوم تحترق الطبخة كلَّا. بس من هلَّأ لَوَقْتا... صحتين". رفع كأسه وشرب.

انزلق الكوكتيل الحامض في بلعوم سالم، وأشاع الدفء في معدته. قال: "الانجليز بيفكروا إنه العرب إما أمراء وإلا شحادين. مو راضين يصدقوا

إني حيا الله محاسب". رغم أنه كان شحاذًا عندما وصل إلى بريطانيا. لن ينسَ ذلك قط.

ضحك رافان. "حتى أنا مش مْصَدِّق.. سالم الإسماعيلي بيحسب الجنيهات الإسترليني؟ بس وحياتك أحسن مما تكون طارق بالناصرة بيحسب شيكلات أسياده".

"وإنت؟ شو العملة اللي بتحسبها؟" لم يخبر رافان سالمًا قط عن عمله. لديه جواز لبناني عن طريق والدته، مما يسمح له بالعمل أو الدراسة، يختار أيًا منهما أراد. لكن مظهر رافان لا يدل على أنه طالب. ولا تصرفاته توحي بأنه رجل أعمال.

أدار أخوه إصبعًا مقلمة الظفر على طرف كأسه.

قال: "ما فيه إلا عملة وحدة بتستاهل الحساب يا أخي. وما بفتكر إنهم بيصرفوها بالبنك". رأى سالم أحد المتزلجين على الماء خلف أخيه يخط خطًا من رذاذ الموج على السماء، وسمع صرخة خافتة، لا يدري من فزع أو فرح، تأتي من ناحية الشاطئ. سأل نفسه مرة أخرى عما يريده من رافان. اعتذار؟ تبرير؟ نظر إليه باحثًا عن الطفل الذي كان يلجأ إليه، الفتى الذي ربوّه على الأسرار والآمال الزائفة، الابن الذي اختارته أمهم.

دفع كأسه بعيدًا وسأل: "منشان هيك إمي تركتنا؟ لأنه مصاري أبوي ما كانت تكفي؟ بالله عليك يا رافان.. أكيد هي قالت لك. كان هدا هو السبب؟"

تراجع رافان في كرسيه. مدّ ذراعيه وشبك أصابعه وراء رأسه، وتفحص أخاه الكبير.

"بتعرف يا سالم؟ ماما دايمًا بتقول خلي الماضي بالماضي. ليش بدك تقعد

هون بهالمطرح الحلو ومعك كاسك البارد وتحكي عن الهم يلي شفناه؟ بيهمك كتير هلأ؟"

التمعت شرارة غضب في صدر سالم. قال: "من حقي إنه أعرف. أنا اللي ضليت معك تمان سنين.. بتتذكر؟ تتركنا كل هالسنين وما بأسمع منك كلمة. ليش هلاّ بدك تعرفني؟ شو اللي خلاك تبعت إلي؟ ولا تحكي لي لأن أبوي مات لأني بعرف إنه كذب".

هز رافان إصبعه في وجه سالم. "يلي بدك تعرفه أنا ما بقدر خبرك ياه يا سالم. كنت زغير يا أخي. ما بتذكر شي من هيداك الوقت.. بتذكر مكان ريحته عفن وكوابيس". لم يستطع سالم قراءة عينيه من وراء نظارته الشمسية، لكن كلماته كانت جارحة. بعد كل الحب والعطف الذي قدمه له! ألم يكسب سالم مكانًا في ذاكرة رافان؟

مال رافان على الطاولة، وقرّب كأس أخيه إليه. "بس باقدر خبرك شو تعلمت بعد ما جينا لهون يا خيِّي. عرفت إنه العرب عايشين بفلسطين متل الجرادين. طارق ونادية كانوا فيران، وبيّنا كان جردون، ونحنا كنا جرادين زغار مناكل الفُتات يلي بيبقى ع طاولة الإسرائيلي. هيك بدك يانا نعيش؟ مش أحسن تضل رجال حر بين العرب مما تكون فلاح بمزرعة جدن مستعبدك؟" رفع كأسه إلى جبينه، ونظر بهدوء إلى سالم بعينين خضراوين ضاقتا بسبب وهج الشمس.

قال سالم: "حر؟ أنا شفت هديك المخيمات. والظاهر إنه فيها فيران كتير عايشة هناك".

رفع رافان كتفه. قال: "ما بتقدر تشوف كل شي بينشاف من الطريق يا أخي. متل ما بيصير بغابة الإنجليز تيعولك. يمكن الدياب تقدر تتخبى،

بس نيابها بعدها حادة وهنّي يلّي بيحكموا باقي الحيوانات".

ضحك سالم: "ديابة وجرادين.. شو عم بتحكي يا زلمة؟ لا يكون انضميت لمنظمة التحرير الفلسطينية؟" كان اسم المنظمة قد وصل إلى الأخبار في إنجلترا مؤخرًا. وقد ظنّ سالم أنها مجرد مضيعة وقت، محاولة أخرى لتنظيم مقاومة عربية ضعيفة. لكن نادية أرسلت له رسالة تقول فيها إن شباب الضفة الغربية المحتلة قد انضموا إلى المنظمة بعد الحرب الأخيرة، وإنها قلقة مما يحمله المستقبل لهم.

شاركه رافان في الضحك فاغرًا فمًا واسعًا. هز رأسه وقال: "يا سالم.. الحياة أقصر من أن نضيّعها في السياسة يا عزيزي". قال جملته الأخيرة بالإنجليزية. وقد سمعه سالم يتحاور مع ساقي الحانة بالفرنسية. طغت الجدية فجأة على صوته عندما قال: "ما بقدر إشرح لك كل شي هلّا يا أخي. بدك تشوف بعينك. بس لازم تعرف إني ما نسيتك ولا لحظة طول هالسنين. وكنت على طول اتمنى إنك تجي لهون. إيه.. لحتى أرد لك الجميل. مهما صار قبل نحنا عيلة وحدة ودم واحد. يلّا.. اشرب يا خيّي. قبل ما يجي اليوم يلّي بتنهشنا فيه الكلاب".

عندما لم يبقَ في الكأس الأول إلا قطع الثلج التي ترتج في قاعه، جاء الكأس الثاني، وتبعه الثالث تحت عين الشمس التي بدأت تنعس. أصبح لون البحر أحمر دمويًا وأمواجه تضرب نفسها على الشاطئ.

ذهبا إلى الحمراء لتناول العشاء. وانضمت إليهما فتاتان ضحوكان تسميان نفسيهما ليلى وداليا. طلب رافان أطباق عشائهم؛ قطع لحم مشوية، وطماطم حمراء غنية، وخبز ساخن وفلفل مبهّر. وانضم إليهم لاحقًا شاب يرتدي بدلة بيضاء ويقود سيارة بلون القشدة، فأخذهم إلى نادٍ ليلي في قلب المدينة.

طارت السيارة تقطع شارع فينيسيا مفتوحة النوافذ، وهواء الليل يصرخ في آذانهم. شعر سالم بيد دافئة تمسح على ساقه، وإن كان لا يدري يد من، ليلى أم داليا. كان صديق رافان يريد أن يقامر، والفتاتان تهتفان باسم الكباريه: "Crazy Horse! Crazy Horse!".

يذكر سالم أنه تعثر عندما دخل إلى صالة حمراء مخملية، ذات ثريات كريستالية ناعمة. والأرض من تحته تميد.. تدور ما بين ضحكات وساتان أسود. تمايل مع إيقاع تلك الضحكات، وارتطم بأحد الأعمدة السوداء بجانبه. كان رافان في إحدى الزوايا يتكلم مع شقراء، مقربًا رأسه من خدها وممسكًا يدها.

تأرجحت الألحان في قاعة الرقص. قالت ليلى إنها تريد أن ترقص وسحبته نحو جموع الراقصين. اختفى رافان. مال سالم بين ذراعي ليلى. أغلق عينيه وترك جسديهما يتحركان في الظلمة الخانقة الحارة.

شعر أنه يستطيع أخيرًا أن يتحرر.. من نفسه، ومن طيف جود، ومن الشخص الذي حاول أن يكونه. تغيرت الموسيقى وزادت إيقاعاتها حدةً وصخبًا. التصقت به ليلى أكثر. هو الآن وحيد، في بحر ساكن بلا مد ولا جز. وثمة أيادٍ تجرّه.. تشده بهدوء إلى الفراغ.

***

لا يتذكر كيف وصل إلى السرير. استيقظ وهو يشعر أن رأسه يزن طنًا، والنور يقتحم الغرفة من وراء الستائر المنسدلة.

امتدت يده نحو الفراغ الرمادي فارتطمت بشيء صلب.. حائط. ومن جانبه الآخر تقلب شخص ما. نظر إلى ذلك الجانب. رأى امرأة نائمة على

بطنها، تلبس قميصه وسروالاً داخليًا. ذكّرته بمارغريت، بشعرها الداكن الذي يغطي ظهرها، وقطرات دم تحت أظافرها الممسكة بالملاءة.

تناهت إلى مسمعه أصوات خافتة من وراء الباب. رفع نفسه ببطء حتى وقف. أفلتت منه زمجرة ألم ناسيًا آثار السكر عليه. وجد بنطلون الجينز على الأرض. أدخل ساقيه فيه بتأنٍ ثم ترنح نحو الباب.

انفتح باب الحجرة على صالة صغيرة، ينفتح عليها أبواب داكنة اللون. تسرّب ضوء الظهيرة من قبة زجاجية في السقف، وتراقصت ذرات الغبار في الهواء.

جلس أربعة رجال على طاولة في المنتصف. شمّ سالم رائحة الحشيش يحترق من مكان ما حتى تفوقت على رائحة السجائر. كان رافان ما يزال يرتدي ملابسه التي كان يرتديها الليلة الماضية. عيناه داكنتان مرهقتان في ضوء الحجرة الواهي.

أشار إليه رافان أن اقترب. "سالم يا أخي. تعا سلم على الشباب". اقترب سالم وأومأ محييًا الجالسين. كان أولئك الرجال مختلفين جدًا عن الرفيق الأنيق الذي قابله البارحة. كانت بشرة وجوههم أغمق، وملامحهم أغلظ، ولم يبتسموا عندما رأوه. رفع أقربهم إليه رأسه، ولاحظ سالم شيئًا ما يبرز من حزامه، أسود كأنه كعب مسدس.

"كيفك؟ كيفك؟" حيًا وصافح كل رجل على حدة. كانت لهجاتهم مألوفة. تشبه لهجة أبيه وإن كانت أكثر قروية. كانت أكفّهم غليظة الجلد. لابد أنهم كانوا فلاحين قبل أن يأتوا إلى هنا. فلاحون وبيّاعو الشوارع صاروا الآن رجالاً يحملون السلاح.

جلس سالم، وأخذ لفافة الحشيش من رافان ليملأ بدخانها رئتيه. باغتهم:

"إنتو من فلسطين؟"

قال الرجل ذو الحزام المتفخ: "أيوه يا حبيبي". شعر سالم أن "يا حبيبي" كانت تحية وتحذيرًا في نفس الوقت. "أنا وإخوتي جايين من طرابلس. هدا فاروق زايرنا من الأردن.. من الكرامة". هز سالم رأسه بصمت. الكرامة بلدة على الحدود الأردنية، ومقر منظمة التحرير الفلسطينية.

نظر إليه فاروق الرجل الضخم ذو العينين الغائرتين. "إنتو عيلة إسماعيلي من يافا متل ما سمعت. الله يبارك فيكم كلكم. أنا أصلي من هناك برضه، من المنشية. كنت باشتغل في البيارات مع أبوي تكرم لي عيونه نجمع المحصول".

جرت "أهلين وسهلين" على لسان سالم دون وعي. هذا رجل ربما كان قد استأجره أبوه. كان رزقهم من رزق الأعيان، وعندما شرد الأعيان لم يجدوا ما يأكلونه، ولا من يقودهم. والآن يعيش الأعيان في رخاء بين ربوع أوروبا، بينما الفلاحون هنا ينغصون على اليهود.

تابع الرجل: "الله يبارك فيك. إلنا معسكر هلاّ في طرابلس مع إخوانّا في فتح. وبظن إخوانّا في الأردن راح يلحقونا قريب إذا شبّت النار هناك. الأردن خاينة وحسين كلب من كلاب اليهود. راح ندوسه بالصرماية". كان صوته قاسيًا. حتى سالم كان يعرف من متابعته للبي بي سي العربية أن الملك حسين الداهية سوف يطرد يومًا ما كل الفلسطينيين مرة أخرى، وأولهم الرجال من شاكلة فاروق.

استفسر سالم بحذر: "كيف جيت لهون يا فاروق؟" شعر بمثل حالة الغربة التي أصابته في بداية استقراره في إنجلترا. يخشى أن يرتكب خطأ بلا قصد. لاحظ أن رافان كان يراقبه بانتباه.

"اجيت ع المخيمات اللي في طرابلس مع أهلي أيام النكبة. الإرغون هدّوا

بيتي في المنشية بدباباتهم. مرتي ماتت وأبوي مات. ابني الزغير مات هون في المخيمات بنزيف داخلي. وابني الكبير بيحارب معي الله يحفظه. هاي قصتي، متلها متل قصص كتيرة غيرها". توقف عن الكلام ليسحب نفسًا من سيجارة الحشيش. سعل والدخان الكثيف يخرج من فمه. "بس رافان حكى لنا إنك في لندن. منيح إنك هناك. الرصاص ما راح يطلع الصهاينة. بدنا ناس متعلمة وعقولهم كبيرة. وعنّا منهم هلاّ.. عرفات. عباس. شباب لكن مفتحين. نحتاجهم برضه في أوروبا. شو بتشتغل في لندن؟"

أجاب رافان: "بده يصير رجال غني يا فاروق. مش هيك يا خيّي؟ ورَح يتجوَّز شقراء صدرها كبير".

تجاهله سالم ورد على فاروق مباشرةً: "أنا درست علوم اقتصادية. وراح أبدا بأول وظيفة. أنا ما بلقّط مصاري من على الشجر متل أخوي هدا، بس برضه ما نسيت القضية". وضع يده على قلبه وشعر بالنبضات الفارغة فيه. شعر بالخواء الذي يقول له: أنت نسيت. أنت أجبرت نفسك على النسيان. لم يكن سالم يريد أن يكون جزءًا من القضية والكفاح. فلم يكن لها نهاية، ولم يبدُ أن لها نصيب من النجاح.

سكت الرجال عندما دخلت ليلى تتهادى من غرفة النوم. قبّلت رافان ثم شرعت تعدّ القهوة التركية. بدأت الشمس تغرب وبدأ الظلام يلف الغرفة. رأى سالم رافان وفاروق يختفيان في غرفة النوم معًا. خرجا منها بعد عشر دقائق. كان فاروق يحمل حقيبة سوداء من قماش، يظهر من شكلها وانتفاخها أنها تحوي أشياء مستطيلة كالطوب. حشيش أم مال؟ شعر بوخزة الأدرينالين كثلجة ذائبة على ظهره. إن كانت تلك هي طبيعة الكفاح، فما دور رافان؟ وماذا يريد هذا "الأخ" الغريب منه؟

بعد أن غادر الرجال، غيّر الأخوان ملابسهما وخرجا لتناول العشاء

وحدهما. لم يشعر سالم بأي شهية للأكل. ظل يحرك الطعام في طبقه، يحاول أن يفهم ما يريد أن يقوله. ركله رافان من تحت الطاولة. قال: "شو كنت متوقع يا خيِّي؟ إني طالب ماسك لايحة مطالب وعريضة وبيدور يجمع تواقيع؟ فرسان الطاولة المستديرة؟ الظاهر الإنجليز أثروا عليك، ونسيت كيف تكون فلسطيني".

اعترض سالم بغضب: "أنا فلسطيني. كيف بتتجرأ تحكي لي هيك؟ مفكر إنه الحشيش والسلاح بيخلوك فلسطيني عن جد؟ أنا الوحيد اللي طلعت روحه ع بيتنا. والوحيد اللي كان بده يرجع. أنت وماما وحسان ما صدقتوا تطلعوا".

قال رافان: "إنت غلطان يا أخي. أنت ما عدت فلسطيني بالمرة. ولا حدا منكن. عندك جوازك البريطاني وعندك شهادتك.. كتر خير الله. بس أنا بعمري ما كان بدي هالإشيا يا سالم". حشر كمية من الكباب في فمه. "هممم.. بيجنن.. طَعْمتُه". هز سالم رأسه رافضًا، فأكمل رافان كلامه.

"شو بيميز هيدا المكان؟ رَح خبّرك. فلسطين بَعْدا عايشة بالمخيمات ومع رجال متل فاروق. عنَّا إخوان بكل بيت من عمَّان لطرابلس. والمنظمة جاهزة لتعبر حدود الأردن وتسيطرع الجنوب. والشيعة رَح ينضموا إلنا. وهَوْدي الدجاجات اللي هونيك..." وأشار إلى الجزء الذي يقطن فيه المسيحيون المارونيون شرقيّ المدينة. "رَح يستسلموا. رَح يِجوا ورَح تشوف بعينك". لم يكن لسالم إلا أن يصغي إليه متسمرًا.

مال إليه رافان وقال: "ليش ما بتشَغِّل هالراس المفتَّح بشي ينفع عيلتك؟ شو اللي مخليك ترجع ع لندن؟"

جود. قفز اسمها من قلبه إلى شفتيه، لكنه أجبره على النزول ثانيةً.

سأله: "ليش أنا؟ أنا غريب هون".

"لأنك خيّي..". كانت العينان الخضراوان تجران خيوطًا خفية تستميل قلب سالم. "مين إلي غيرك؟ كل هالسنين ونحنا مفترقين.. فيك تقول إنك كنت سعيد؟ مش هيدا يلّي خلاك تجي تدور عليّي هلّأ؟ حتى ترجع لعيلتك؟"

ثار شيء ما في صدر سالم، شيء ما بين الأمل والغضب. موجة عارمة اكتسحت كيانه. هذا أخي، وهذه هي أسرتي الحقيقية. وفكرة العودة إلى بلده، وإصلاح أخطاء الماضي... تغريه بالموافقة. بيت حقيقي، وليس بيتًا من ورق كالذي كان يبنيه مع جود. سأل رغم أنه يعرف ما يتوق إلى سماعه: "وإذا انتصرنا؟ شو بدك يصير في النهاية يا رافان؟ بدك يانا نرجع؟"

ألقى رافان رأسه إلى الخلف وكركر ضاحكًا، كأنه جرو وجد متعته على الشاطئ.

مسح دموع عينيه واحتلت ابتسامة عريضة وجهه. قال عندما التقط أنفاسه: "سالم! ماما معَا حق.. إنت فلاح متل بيّك. ومهووس بكومة حجارة وشوية تراب. لا يا خيّ، ما فينا نرجع لحياتنا. بس فينا نحاسبهن ع اللي صار بالماضي. ورَح ندَفِّعْهن التمن".

***

قادهما رافان تلك الليلة إلى شقة أمهما في الحمراء. مرّا أمام حارس البناية في مدخلها الرئيسي إلى بهو مكسو بالرخام ومفعم بالضياء. أقلّهما مصعد إلى الطابق العلوي، وانفتح على دهليز طويل مظلم، برز من جدرانه أضواء شبه شفافة في منحوتات تتخذ شكل وجوه نساء في سبات. أحس سالم بضيق من

مرآها. هادئة، ومع هذا موحشة جدًا.

فتح رافان الباب، فسمع موسيقى خافتة لكنها عذبة.. فيروز، عشق اللبنانيين الجديد. كانت تغني أغنية لأم كلثوم. ومن خلال النوافذ المقوّسة، ألقت حياة الليل في بيروت أضواءها في موجات لونية حمراء وخضراء وزرقاء. أضاء مصباحان متقابلان ركنيّ الغرفة، وكان كلا المصباحين على شكل حصان يقف على قائمتيه الخلفيتين، وبين حافريه كرة ملتهبة من نور. والأرض مفروشة بسجاد عجمي أسكت صوت خطواتهما.

صاح رافان وهو يرمي مفاتيحه على الطاولة الفاخرة: "ماما.. ماما.. وينك؟ سالم هون".

خرجت من غرفتها ترتدي فستانًا واسعًا أخضر اللون، وهي تثبّت قرطًا في أذنها. كان شعرها الأحمر مرفوعًا كتاج مظّفر فوق رأسها. دنت منهما، فحمل الهواء عطرها نحو سالم، كأن رائحته نحاس مذاب.

"مرحبا ماما". عجب من الدموع التي ملأت عينيه. لقد تخيل هذه اللحظة مرات لا تحصى في عقله، وتدرّب على أدوار الغضب أو التسامح التي سيلعبانها. لكن الدموع أخجلته وأعادته الفتى الذي هجرته.

اقتربت منه. وضعت يدها البيضاء على خده، ووضعت شفتيها على خده الثاني. لم تكن طويلة كما يتذكر، وكانت المساحيق تغطّي وجهها. تراجعت لتنظر إليه بعينين خضراوين داكنتين كقاع البحر. قالت: "سالم.. شو طوْلْت يا عَيني! كنت عارفة إنك رَح تطلع طويل".

قال مرتعشًا: "مرت سنين طويلة. اشتقت إلّك".

ابتعدت عنه واتجهت نحو طاولة في الزاوية. أخرجت سيجارة من علبة فضية. اقترب منها رافان يحمل ولاعة. لاحظ سالم امتداد عنقها وهي تسحب

نفسًا من السيجارة. رأى العظام تتحرك تحت جلدها. فكّر مصدومًا: لقد كبرت. أم أنها كانت دائمًا هكذا؟

قالت وهي تتجة نحو النافذة التي تلتمع بانعكاس أضواء المدينة: "فيه إشيا الولاد الزغار ما بيقدروا يفهموها. بعرف إنه الوضع كان صعب عليك، بس هيك كان أحسن. إنت هلأ شب ناجح بإنجلترا. وعندي رجّال بيهتم فيّي متل ما بحب. وهيك كل واحد مبسوط". أطفأت سيجارتها وأردفت: "فيه بيرة بالمطبخ يا رافان. جيب لحالك".

جلست على طرف الأريكة، وربتت على الفراغ بجانبها، فجلس سالم ببطء. قالت بصوت أجش: "خبرني يا عَيني.. كيف الحياة في لندن؟ صار عندك شهادة وشغل منيح؟ قديش أنا شايفة حالي فيك! كنت عارفة إنك رَح تطلع شخص عظيم".

جلسا معًا في صمت، بينما هي تدخن وتحملق في نقطة ما في الفراغ فوق رأسه. حكى لها عن كل شيء؛ لندن، مطاعمها ومسارحها، والوظيفة الجديدة التي سيبدأها الشهر القادم. كل شيء إلا جود. تخيل جود جالسةً هنا بجانبه، وتجهم وجه أمه يمتص نورها وبهاءها.

رنّ الهاتف بعد عشر دقائق. قالت لمن على الطرف الآخر: "أنا جاية". جلب رافان وشاحًا من فرو، فلفّت كتفيها به. قالت: "رَح نحكي بعدين يا عَيني". كان يحلم باعتذار، بذراعيها حول عنقه ودموعها تبلل وجهه. لكن بعد أن قبّلته مودعةً واتجهت نحو الباب، أدرك أنه لا يريد أن تقترب ذراعاها منه.

***

مرت ساعات الليل زاحفة بطيئة على سالم الذي أرهقه الأرق وهو مفترش الأرض في غرفة أخيه. وعندما جاء الصباح، أيقظ رافان وقال له: "يلّا نروح". كان باب حجرة أمه مفتوحًا. لم تقضِ الليلة في منزلها.

قاد رافان السيارة على طريق دمشق القديم، ثم انعطف غربًا نحو مخيم شاتيلا. على أطراف المخيم حاجزان عسكريان، يحرس أولهما الجيش اللبناني. رأى سالم رجلاً مسنًا بلباس مدني يراقب الجنود وهم يوقفونهم. قال رافان: "Deuxième Bureau"، والجنود يشيرون لهما بالعبور بعد أن تفحصوا أوراقهما وجوازيهما. "مخابرات عسكرية. هدول الكلاب هن أول ناس رَح ينقبروا".

كان قاطنو المخيم يحرسون حاجز التفتيش الثاني. أوقف رجل يرتدي الكوفية السيارة. سلّم عليه رافان وحيّاه باسمه واطمئن على حال أبيه، وصافحه سالم عبر النافذة.

تقدمت بهما السيارة، فاصطدما بحائط من الضجيج والروائح الكريهة. فاضت فتحة مجارٍ إلى جوارهما، وحولها مجموعة متشابكة من الأسلاك التي تربط مساكن الصفيح ببعضها. تقاطر الماء من الغسيل في الهواء القذر. قبع شيخ على الأرض وحوله كومة من الأحذية القديمة. غار أحد خدّيه مع غياب الأسنان في لثته، وسال القيح من عين ملتهبة على الخد الآخر.

جرى الأطفال أمام السيارة وهم يهتفون لهما. تحرك شيء ما في داخله وهو يراهم يتقافزون حولهم ويصيحون في حيوية الطفولة ومرحها. سوف يفكر سالم بهم بعد خمسة عشر عامًا، بعد أن وقعت المجزرة التي خلّفت عشرات

الأجساد الصغيرة جثثًا حمراء هامدة على تلك الأرض. سوف يتذكر أولئك الأطفال، ويتساءل ما إذا قد قضوا نحبهم في المذبحة.

كان أبو زياد صديق رافان يلعب الطاولة، وهو يجلس على كرسي بلاستيكي بجانب كشك يبيع فلافل. فاض كرشه المنتفخ فوق ركبتيه، كما تتساقط حبات المسبحة في قبضته. وكانت رزمٌ مختومة بشعار الأمم المتحدة تُحمل إلى الزقاق الذي يقع وراءهم. وثمة ملصق فوق الباب مكتوب عليه "فلسطيننا"، وعلم فلسطين مرسوم بجانبه.

شربا قهوة تركية سريعة، بينما كان أبو زياد يشتكي من الحكومة اللبنانية وقياداتها المسيحية. قال إن الفلسطينيين المسلمين لا يحصلون على رخص عمل، بينما الفلسطينيون المسيحيون والأغنياء يمكنهم شراء جواز إن أحبّوا. "إحنا أقل من الكلاب عند هذول اللبنانية. بس بدو يجي اليوم اللي هذي الكلاب بتنهشهم فيه". تحدثوا عن فساد مشرفي المخيم الرسميين، وبطء مساعدات الأمم المتحدة، وفرص انتقال فتح خارج طرابلس. سُئل سالم عن الحياة في لندن، ومدى إمكانية انضمام البريطانيين إلى القتال إلى جانب فلسطين.

ناول رافان أبا زياد مبلغًا من مال في ظرف قبل مغادرتهما، قال له إنها مساهمة لأطفاله. شكره الرجل ودعا له بالبركة، واختفى الظرف في جيب الرجل المسن.

تنفس سالم الهواء بعمق قبل أن يخرجا. يريد أن يتذوق نتانة المكان ويحملها معه إلى الخارج. حياته في لندن، ووظيفة المحاسب التي تنتظره.. ماذا تعني أمام فداحة الأسى البشري هنا؟ شعر في تلك اللحظة بقذارته وذنبه في محاباة الإنجليز المتعجرفين وفي اعتزازه بجوازه البريطاني. كان رافان محقًا. إنه لا يستحق أن يسمي نفسه فلسطينيًا. إنه لم يدفع ثمن هذا اللقب بعد.

نظر إلى رافان. كان أخوه صامتًا على غير عادته. لاحظ سالم شفتيه المزمومتين، ويديه المشدودتين على عجلة القيادة حتى ابيضّت مفاصله. قال رافان بعد لحظات: "بتعرف إنّو عشنا هونيك أول ما تركنا الناصرة؟"

تعجب سالم. "في وحدة من هذولاك البيوت؟"

"بأنحس منها".

تركتْنا لأجل تلك المقبرة؟ لم يفهم سالم تصرفها. كيف استطاع رافان ذو الثمانية أعوام وذو المخاوف الكثيرة أن ينجو في ذلك المكان؟

"بس هي لبنانية".

"لبنانية إيه، بس إجت بلا اوراق. والجواز الإسرائيلي ما بيمشي هون. كان لازم حدن يفوِّتها ويضبِّط لها الموضوع. فنَطَرنا هونيك".

"مين ضبط لها الموضوع؟ أهلها؟"

رفع رافان كتفه. "المرة الهربانه ما إلها أهل. حدا ضبطها. واحد رجّال".

البرقية المكوّرة في قبضتها. تذكر الآن. بقعة صفراء على سماء الناصرة المظلمة. لابد أن اسمًا كان مخبأً فيها. اسم يستحق أن تهجرهم من أجله. يستحق أن تنتظر وحدها في مخيم لاجئين، بينما سالم يبكي فقدها ويحدّق في تلال الشمال. أتمنى أن ذلك جلب لك السعادة يا ماما. ومع هذا فقد بدت أمس وحيدة كما كانت يومًا. محبوسة في برج، محاطة بالرخام والزجاج، كأنها ملكة أسيرة من الحكايات القديمة.

"ليش عملت هيك؟" تفاجأ بالسؤال الذي خرج من فمه. "مش قادر أفهم".

قال رافان مجيبًا عن سؤال آخر: "هيدا يلي خَبَّرتها ياه". كأن ملامحه خلف

نظارته قدّت من حجر. "الله بيعلم. يمكن فيه جميل كان لازم ترده".

***

أيقظه رافان في اليوم التالي بهز كتفيه بقوةٍ، بعد ليلة قضياها في شقة ليلى. قال: "خبر حلو يا خيّي". لم يحلق رافان لحيته بعد، وكانت عيناه الخضراوان تبرقان. يبدو أنه تمضمض أممًا وبصقه مع معجون أسنانه. "رَح نروح ع طرابلس".

رفع سالم نفسه، واستند على مرفقيه يحاول أن يزيل غشاوة النوم عن عقله. "ليش بدنا نروح ع طرابلس؟" لكنه كان طبعًا يعرف الإجابة.

"فاروق بده ياك تجي. بده تشوف شوية ناس".

"إخوان".

رفع رافان كتفه بلا اهتمام. "إخوان. رفاق. ناس بيهمّونا. وكمان رَح تشوف طرابلس. صحيح ما فيها حياة متل بيروت..." لمح سالم من خلال الباب المفتوح شعر ليلى الأسود وساقيها الذهبيتين وهي تسير في المطبخ. "بس بتستاهل الواحد يشوفها. خاصة إنت".

ما أن ارتدى سالم ملابسه ودخل المطبخ حتى كانت قهوة ليلى التركية تغلي على الموقد. سكبت له فنجانًا وهي تفرك عينيها. سألها وهو يجلس على الطاولة، ويقلّب السائل الثقيل في الفنجان الذهبي المشطوب: "رحتِ لطرابلس شي مرة؟" قالت: "أنا مش فلسطينية. مع إنه نحنا هون بالغربية مندعم الفلسطينية، مش متل المسيحية". أشاحت بيديها. "بس هَيدول الناس يلّي بيشوفن رافان غير شي. طرابلس مكان مجنون.. للمتدينين المجانين".

فكر: وهذا المكان مجنون أيضًا، لكنه قلّب قهوته بصمت. دارت الفقاعات في الفنجان وتفرقعت مثل أفكاره.. هذه المخيم، وهذه وجه رافان عندما كان طفلاً، وهذه عينا أمه الجامدتان، وهذه جود. أفكاره دائمًا تنتهي بجود وإيمانها بأحلامه.

عندما دخل رافان قبّل ليلى وهمس بشيء في أذنها. نظرت إلى سالم ثم خرجت من المطبخ. جلس رافان بجانب أخيه وسحب سيجارة.

قال سالم: "أخدتني لنقابل أبو زياد. وقابلت كمان فاروق. يعني أكيد أنا عجبتهم. وإلا عشان أنا أخوك؟"

"عجبتهن. وليش ما تعجبهن؟ إنت ذكي ومتعلم. وبتتكلم إنجليزي ولا الإنجليز نفسنّ. وعندك جواز سفر بريطاني. راح تعمل العجايب إلهن".

صحّح سالم بلطف: "إلنا". ابتسم رافان. "طيب.. إلنا. ولعيلتنا".

"طيب احنا رايحين ع طرابلس منشان شو؟ لحتى اشوف مكتبي الجديد؟"

ضحك رافان ثانيةً. "فيك تقول هيك.. إيه. رايحين ندردش مش أكتر". انحنى إلى الأمام وناول سالمًا سيجارة. أخذها سالم وأحس بالحرارة داخله ترتفع. أمال رافان رأسه الوسيم إلى جهة كأنه طير جائع. ونظر إلى سالم بعينين فاحصتين.

"فكر بالموضوع يا سالم. ليش بدك تصير محاسب؟ يمكن الإنجليز عطيوك جواز، بس بالآخر رَح يبزقوا بوجّك متل ما بيعملوا مع كل العرب والهنود والأفريقية. إنت مش أبيض ليستقبلوك بالنوادي تبعن".

دفع سالم قهوته بعيدًا عنه. "إنت ما بتعرف اشي عن حياتي يا خوي".

"بعرف كفاية حتى قول لك إنك مش صريح مع نفسك. إسرائيل..

إنجلترا.. كِلّن نفس الشّي. إنتو مجرد عرب بتشتغلوا عند أسيادكن البيض".

قال سالم بخفوت: "إنت غلطان". ظل صاحيًا طوال الليل يصارع أفكاره.. مستقبلان، أحدهما يرسمه أخوه الجالس أمامه. لكن صوتًا ما بداخله يهمس: ليس هذا هو الصبي الذي كنت تعرفه. اختفى اللطف والمشاغبة منه. في مكان ما بين الناصرة والمخيمات وشقة أمه الفاخرة، فقد رافان قطعة من نفسه.

قال: "عندي حياتي في إنجلترا. حياتي اللي بنيتها بنفسي. تعليم، واحترام، وفرص". وحب أيضًا. فكر بجود. لقد أحبته، وربما ما زالت تحبه. حب طاهر. يقدم له كل شيء ولا ينتظر منه أي شيء في المقابل. "إنت عم تطلب مني إني اتخلى عن هدا كله.. واساعدك".

نهض رافان وقال: "إنت عم تقول إنك ساعدتني لما كنت زغير يا سالم. خليني هلّأ ردّ لك الجميل. حسان مرتاح يضل هونيك بجاراجه ويحط راسه حد راس مرته الناصحة. بس ماما كانت دايما تحكي إنك إنت عندك طموح. يلّي منقدر نعمله مع بعض... مش بس لناخد التار". نقر الطاولة بإصبعه. "إنت اختار يا خيِّي. كل هالسنين يلّي فرقتنا. هلّأ صار لازم إنت تقرر وين مطرحك... معهن ولّا معي؟"

اعتدل رافان وألقى نظرة على ساعته: "لازم إمشي، عندي شغل. بارجع عالستة. وإذا كنت معي يا خيِّي حَنروح سوا". دار رافان حول الطاولة، فوقف سالم ليحتضنه رافان في عناق قوي. سمع الكلمات التي نطقها في أذنه: "رَح شوفك بعدين إن شاء الله". ثم اختفى أخوه في الطرقة المظلمة، وسمع سالم صوت الباب يغلق خلفه.

***

غسل سالم وجهه بعد أن غادر رافان، وارتدى ملابسه. ودّع ليلى ثم خرج من البناية.

كانت الشقة الصغيرة المتواضعة مختبئة في متاهة من الشوارع القديمة التي تترفع عن ألق وسط بيروت وبريقها. مشى والشمس تطرق على رأسه بمطارق من لهب. ما أن وصل إلى البحر الواسع حتى كانت الشمس قد مالت ناحية الغرب.

سرح بصره على طول الساحل الشمالي، حيث يتسلل البر والبحر مختبئين في الأفق. هناك كان العالم العصري ينتظر. تصور الساحل وهو يجري إلى تركيا واليونان، ثم يصل إلى سواحل الريفيرا في أوروبا. ومن خلفه انجرف البحر، تاركًا بيروت وصور وإسرائيل، يغازل صحراء شمال أفريقيا الكبرى. إنهم فعلاً على مفترق طرق الأرض.

إلى أين أذهب من هنا؟ إلى طرابلس والإخوان؟ هل سيقود ذاك الطريق إلى يافا يومًا ما؟ لكن رافان سخر من هذه الفكرة. لم يكن لأخيه وطن، ولم يكن يريد وطنًا. إنه ينتشر في شوارع بيروت كشرارات نارية توقد كل شيء أمامها.

كان سالم يظن أن لا وطن إلا يافا. لكنه عندما يغلق عينيه فإنه يرى شيئًا لم يتوقعه: عينان زرقاوان، ذراعان مفتوحتان، ووجه جميل صادق.

ضغط بأصابعه على عينيه يحاول أن يفهم نفسه. انحنت النخيل الباسقة من حوله غربًا، وقد نضجت ثمراتها في عذوق ثقيلة. سرت فيه رجفة حسرة. لم أقطف ثماري قط. تركتها على أغصانها حتى تعفنت وسقطت.

كانت الساعة الخامسة عصرًا. أوقف سيارة أجرة وانطلق إلى الحمراء. كانت البناية التي تضم شقة أمه هامدة في غيبوبة العصر، حتى الحارس استسلم للنعاس على طاولته.

شعر وهو يرن جرس الباب بانشراح صدره، وأن قلبه خالٍ خفيف. فتحت الباب مرتدية الروب المنزلي، ووجهها مكشوف فاتر في ضوء المساء الخانق، والمفاجأة قد غضّنت جبينها.

قبّل سالم خدها ودخل. تبعته ببطء ووقفت عند رأس الدرج، كأنها تأمل أن يغادر سريعًا كما جاء.

سحب نفسًا عميقًا، ثم استدار يواجهها. "ماما.. أنت ما اعتذرتِ إلي. تركت ابنك وما سألت عنه أبدًا. ولما جيت لهون ما بتحكي إنك آسفة؟ ولا اشي.. ليش؟ لهي الدرجة أنا ما بعني إلك شي؟"

قست ملامحها ورفعت ذقنها تقريعًا، في حركة أعادته إلى أمه التي واراها النسيان. لكنه عرف معنى الحركة الآن.. إحساس بالذنب مغلف بعناد واستكبار.

قالت: "ما عاد فيّي اعتذر لحدا.. حتى إلك يا ابني الذكي. تعلمت هيك من زمان.. كل واحد لوحده بهالدنيا وما حدا فارقة معه شو بيصير لغيره". سارت إلى أن وقفت أمامه مباشرةً، فلاحظ البشرة المترهلة حول فمها وعينيها. "بيَّك ما كان يهمه إلا كرامته. إنت ما كان يهمك إلا البيت. رافان ما بيهمه إلا العابه. اليهود ما بيهمُّن إلا عَلَمهن، والفلسطينية بيهمُّن شوية تراب". رفعت يديها عاليًا وقبضتاها مضمومتان. "ليش أنا بس لازم دير بالي على الباقين وإنسى حالي؟"

سمع من مكان ما صوت امرأة تغني من جهاز. ملأ صوتها الفراغ

والعدم، وتردد صداه المتنافر بين الجدران الرخامية. أمسك يد أمه الهزيلة وقبضها بقوة حتى عندما حاولت أن تسحبها منه. سألها: "أنت حبيتينا أصلاً؟" هذه المرة لم يكن للدموع مكان في عينيه.

قالت: "كيف ما حبيتكن؟ بس الحب ما بينفع للناس يلّي متلنا. كل واحد إله طريقه وما رَح يقدر يغيره". رأى في عينيها عمرها منطويًا، تتّقدان به شررًا وغضبًا. الحاضر يتهم الماضي. "أنا مشيت بطريقي، وما بطلب من حدا يسامحني. هلأ صار لازم تمشي إنت بطريقك. الله يخليك يا عَيني. اهرب هلّا، وبعمرك ما تحلم بإشيا مستحيلة".

***

اهرب هلّا. ترك سالم شقتها قبيل الغروب. أخذ سيارة أجرة إلى شقة ليلى، فجمع ثيابه في حقيبة وترك رسالة قصيرة لرافان. آسف بس طريقي مش من هون.

استغرق مشوار السيارة إلى المطار ساعتين، وكلّفه ما بقي معه من ليرات لبنانية. قضى الليلة في المطار في انتظار أول رحلة إلى لندن.

وصل إلى هيثرو في عصر خريفي نسائمه خفيفة. استقل أسرع قطار وجده إلى المدينة. تسربت من خلفه برودة الخريف، ومن حوله أشخاص يسترخون في مقاعدهم بعد عناء يوم طويل، فتخيل أنهم يفكرون ببيوتهم، وليلة هانئة مريحة بجوار أحبتهم.

وصل بابها والشمس تسير في طريقها لعناق الأرض، قبلاتها تناثرت ضياءً أصفر قاتمًا في هواء المساء. دق سالم الباب ودق قلبه بقوة. وعندما فُتح الباب أخيرًا ظن أن ساقيه لن تحملاه.

لكن ذراعيها كانتا حول عنقه بلمح البصر، ودموعها تبلل كتفه وهي تحتضنه بقوة، حتى إنه شعر بنبضات قلبها من تحت قميصها. كانت تقول: "كان يجب أن أعطيك ما كنت تريده. كان يجب أن أكون شجاعة. كان يجب أن أعرّفك على أسرتي".

حمل وجهها الجميل بين يديه، وغطاه قبلاً محمومة. قال: "لا. إليكِ أنتمي. معك فقط أشعر بالأمان".

تعلقت قبضتاها بقميصه، تتمسك به وتدفعه في نفس الوقت. "أسرتي وأسرتك.. وكل ما قلتَه...".

أسند جبينه إلى جبينها، يملأ أنفه بعطرها ورائحة شعرها ودفء أنفاسها. "كنتُ مخطئًا. أرجوك.. لا شيء من ذلك يهم الآن. لا شيء يهم.. أتسمعين؟ ما وجدناه معًا معجزة".

التقت شفتاهما في رقصة غير مدروسة، فباح بينهما وعودًا. "جود. جودي. أقسم بأن أسعدك يا حبي مهما جرى. أقسم لكِ. عدتِ إليك الآن يا وطني".

الجزء الثالث

ساعة الحساب

مَنْ يُكدِّرُ بيتَه يرثِ الريحَ، والغبيُّ خادمٌ لحكيمِ القلبِ.

من إنجيل رانس دواي

السلام هو أغلى بكثير من مجرد قطعة من الأرض.

الرئيس المصري أنور السادات في

خطابه أمام الكنيست الإسرائيلي

بعد حرب أكتوبر 73

1976

الكويت

"أيمكنني أن أشتري آيس كريم؟ لقد سمحتِ لي.. أتتذكرين؟ لا أريد مصاصة. أريد آيس كريم ذهب كبير مع المكسرات".

دارت الطيور وحامت في قيظ الساحل، وشمس الكويت كرة من نار توّجت هامة السماء، ولا يوجد حتى شبح نسمة من هواء.

فتشت جود في جيبها بحثًا عن قطع نقدية. حتى العملات ساخنة. قالت مرةً لمارك إن سيارتهم ساخنة جدًا في منتصف الظهر حتى إنه يستطيع أن يقلي بيضة عليها. خرجت بعد ساعة فوجدته واقفًا بجانب غطاء محرك السيارة، وقشر البيض في يديه، يراقب بياضها يتصلب ويسيل ببطء على الإسفلت الحار.

قالت: "انتظر يا حبيبي. سيأتي بابا حالاً".

قالت صوفي بتجهم: "بابا لا يحب الآيس كريم". كانت تتدارى من الشمس في ظل تنورة والدتها الضيق، ومارك يقف أمامها مباعدًا بين ساقيه في عناد. وقع وهج الشمس على شعره فصار أبيض وبشرته شفافة. كانت العينان الزرقاوان الحانقتان تنظران إليها، وشفتاه مزمومتان في رفض ساخط. قال في إصرار: "لكني أريد الآيس كريم الآن. قبل أن يأتي بابا. إنه

يقول لا دائمًا".

رجت جود سالمًا في قلبها أن يعجّل. كان قد ترك المنزل هذا الصباح متأنقًا بأفضل بدلة يملكها وبربطة عنق فاخرة، وبعينين يسكنهما القلق. أشفقت جود عليه، وإن كانت تتمنى من كل قلبها أن تحبط مهمته وتبوء بالفشل. إن فشل سالم يمكنهم الرجوع إلى وطنهم.

انحنت على مارك وقرصت ذقنه. كان أصغر من أعوامه الستة وأكبر منها في نفس الوقت. أما صوفي وهي توأمه الأكبر فهي نسخة عن أمها، ولا فرق بينهما سوى بشرة الصغيرة السمراء. فداخل البشرة السمراء والعينين اللوزيتين تسكن طفلة هادئة دقيقة لطيفة مستعدة لنشر الحب.

لكن مارك... الله وحده يعلم من أين جاء مارك، كما اعتاد سالم أن يردد. تضايق سالم كثيرًا من بياض بشرة مارك، كأنها إهانة متعمدة في حقه. تفهّمت جود انزعاجه وارتيابه. أصحابك العرب هنا لا يثقون بزوجتك الشقراء، وبعد أن يروا ابنك الأبيض يحق لهم أن يتساءلوا... ابن من هو؟

لكن جود كانت تحب لون مارك، وإن أزعجتها المشاعر المتمردة التي تحركه. كان عقل صغيرها كعقل طير، لا يعرف إلا الحركة الدائمة والطيران. لم يكن يسمع كلام أحد. ولم يكن يقبل المكوث في مكان واحد وقتًا طويلاً. ومشاعره تقلّبه، ترفعه في السماء وتطرحه، كما تحلّق النوارس وتنقض على مياه الخليج العربي.

قالت: "اصبر يا حبيبي. يجب أن ننتظر هنا إلى أن يأتي بابا ويحكي لنا ما حصل في وظيفته. أتذكر؟" أخفض مارك رأسه وركل الحجارة بقدميه. سمعت جود صوفي تهتف من ورائها: "بابا!" نهضت وقفز قلبها قبلها.

كان سالم يبتسم بسعادة. ركع على الأرض المتربة وفتح ذراعيه لاستقبال

صوفي وهي تجري نحوه. رفعها فوق أحد كتفيه، فأخذت تقهقه وتضرب الهواء برجليها.

أمسكت جود يد مارك وأسرعت نحوهما. استدار سالم إليها ولثم باطن يدها، فهذا أقصى ما يستطيع فعله في الأماكن العامة بما لا يخالف القانون الكويتي المتشدد. قال بصوت أفعمته ثقة جديدة: "اطمئني يا حبي". كانت تخشى في الأشهر الماضية أن تتخلى عنه شجاعته. "وافقوا على منحي فترة تجربة. نحن على ما يرام خلال الستة الأشهر القادمة. وإذا نجحت فسوف أكون مدير إدارة التوسع في منطقة الخليج". كان من الواضح أن هذه الأخبار أعادت إليه ثقته بنفسه. صفع مؤخرة صوفي فقهقهت. صاح سالم يكلّم الطفلين وينكش شعر مارك: "ما رأيكما أيها القردان؟"

ما رأيي أنا؟ ضغطت جود على يده وابتسمت. "أنا فخورة جدًا بك يا حبي. تستحق هذه الفرصة. أرجو أن يكونوا نادمين على ما فعلوه بك".

قطب سالم لكن سرعان ما رفع كتفيه. "أرى أنهم فعلوا ما ظنوه صائبًا. يجب أن تفكر الشركة بصافي دخلها، وقسمي لم يحقق أرباحًا كثيرة". كان ذلك ما تعذّر به مديره الأمريكي حرفيًا عندما فصلوه من العمل الشهر الماضي.

لم تكن جود تتخيل قبل ثلاث سنوات أنهم سوف يعيشون في هذه الصحراء القاحلة. كان طريقهما في إنجلترا قد تمهّد لتوه، ومولد توأميهما خفف من شكوك المتشككين من الأسرتين. كان مارك وصوفي البرهان المذهل على شجاعتهما. لم يستطع سالم ولا جود أن يرفعا عينيهما عن المولودين في الأيام الأولى التي تلت مخاضها. هذان الكائنان المستحيلان متمسكان ببعضهما، وأطرافهما متشابكة بنسيج الحب.

كل شيء سبق وجودهما كان صعبًا. كادت دورا أن تصاب بنوبة قلبية عندما أخبرتها جود عن الخطوبة. لكن النوبة القلبية الحقيقية التي أصابت جاك هي التي فتحت الباب لقبولٍ متحفظ. وقفت دورا عابسةً في حفل زفافهما الصغير في مكتب الأحوال المدنية في تشيلسي، وتوني يقدمها لعريسها، بينما حسّان يقف متصلبًا كعمود خشبي بجانب سالم يلعب دور الإشبين.

بعد عامين، دخل سالم المنزل وعلى وجهه نظرة غريبة. جلس على السجادة ذات الدوائر البيضاء والبنية ولعب مع الطفلين، يدغدغ بطنيهما ليضحكا في مرح. بعد أن وضعا الطفلين في فراشيهما، أبلغ سالم جود بالخبر الذي سيرسلهم في رحلة مجهولة الطريق. اتصلت به إحدى شركات التوظيف تسأله إن كان يقبل بالانتقال إلى الكويت للعمل هناك.

"أين؟".. كان هذا أول سؤال استطاعت جود أن تسأله. شرح لها سالم. الكويت دولة صحراوية صغيرة تقع على شواطئ الخليج العربي، محشورة ما بين العراق والمملكة العربية السعودية. قال لها: "دولة صغيرة لكنها ثرية جدًا، وتزداد ثراءً كل يوم". كانت شركة أمريكية تروّج لأجهزة وتقنيات جديدة للشيوخ في مجالات الصناعة المتنامية فيها، ويطلبون شخصًا يعرف المنطقة. ضحك سالم وقال: "رغم أن هذا يدل على قلة معرفة الأمريكيين بالعرب، لأن الفلسطيني لا يتحدث نفس لهجة الكويتيين حتى".

"إذًا لماذا نذهب إلى هناك؟" لاحظت جود أنها تقبض طرف الطاولة بشدة، وأن غصّة سدّت حلقها. كانت تخطط للعودة إلى استكمال دراسة الماجستير بعد أن يبلغ الطفلان عامهما الثالث، حتى إنها قد أخرجت كتبها القديمة من العليّة ورتبتهم على الرف. "كيف يمكن أن أذهب أنا إلى هناك؟"

نظر إليها متفكرًا، لكنها رأت أن نيران الحماس في عقله قد تركت المنطق جمرًا ورمادًا. قال: "لا يبدو عليك إلا أنك إنجليزية. عدد الأجانب في

الكويت أضعاف عدد العرب.. لن يلاحظوك أبدًا. لن نحتاج إلى أن نقول شيئًا يا حبيبتي".

وبعد أن أجرى المقابلة الأولى ونجح فيها سألته: "وماذا عنك أنت؟" كانا يجلسان على الأريكة في ذلك المساء، وكانت بين ذراعيه، فقررت أن تلعب ورقتها الأخيرة. قالت: "أنت قلت إنك لا تريد أن تعود أبدًا. قلت إنك تريد أن تتحرر من كل شيء".

تذكرت كيف حمل يدها بلطف وقبّلها. ورغم الدموع في عينيه فإن صوته كان واضحًا منتشيًا سعيدًا. قال: "ألا ترين الاختلاف؟ الفرق هو أن لدي جوازًا بريطانيًا.. أنني لم أعد فلسطينيًا فقيرًا معدم الحيلة. أنا بريطاني. غربيّ. سوف يحترمونني رغمًا عنهم". كان رافعًا رأسه ينظر إلى السقف الأبيض، ويبتسم للمستقبل الخفي الذي يراه مرسومًا هناك. "سنذهب لبضع سنوات، وسوف نكون أغنياء يا حبيبتي. ولن نضطر للشقاء بعدها أبدًا".

وبعد مضيّ بضعة أيام كان دوغلاس فريند، الرئيس التنفيذي لشركة أوديل إنتربرايز - فرع الخليج، قد دعاهما لتناول العشاء معه في لا غافروش. وكان ذلك في يوم كيبور عام 1973م. كانت القنابل تتساقط مرة ثانية على إسرائيل، والقوات العربية تندفع كالموج الهادر عبر الصحارى والجبال نحو القدس. كانوا قد أتوا يسترجعون أراضيهم المنهوبة، وقد يئست جود من أن تعرف أين الحقيقة وأين الكذب.

أقنع سالم جود بألا تحضر وليمة الإفطار في منزل عمها أليكس وأن تأتي معه. وكيف ترفض وقومها يقتلان بعضهما في الجانب الآخر من الأرض؟ دبّرت جليسةً للطفلين وتعذبت من فراقهما طوال وقت العشاء. وبينما هم يأكلون وسالم يتحدث، ظلّت عيناها معلّقتين بضوء الشموع البرتقالي الذي ينعكس على كؤوس الشمبانيا الفارغة، فترسم صورًا شبحية على المرايا

خلف رؤوسهم. عندما عادا إلى منزلهما بعد انتهاء السهرة، وضعت جود يديها على وجه سالم وقالت: "لدي شرط واحد يا سال. إن ذهبنا فلا نغيّر من نكون. سوف نحمي أسرتنا. حتى لو كنا في بلد عربي... لا أريد أن يكبر طفلاي وهما يخبئان أصلهما".

وصلوا إلى الكويت مع حلول أزمة النفط التي جعلت الكويت أغنى من ذي قبل. والآن، بعد ثلاث سنوات.. ثلاث سنوات من ولائم العشاء الدبلوماسية، ونهايات الأسبوع في نادي الفروسية، والعمالة المنزلية الرخيصة، ووحدة جود الموحشة.. أخذت أحلام الثراء تتبخر.

استدعى دوغلاس فريند، ذلك الرجل الذي وعد سالمًا وأسرف بالوعود، زوجها إلى مكتبه يومًا ما ليخبره أن لا وظيفة له عندهم بعد اليوم. سوف يغلقون القسم الذي يعمل فيه، ولن يتم تجديد عقد سالم. عاد سالم في ذلك اليوم خائر القوى، على شفا الانهيار، ذكّرها منظره بعامل الميناء الذي رأته جود مرةً يسقط بعد أن ضربته رافعة متأرجحة من الخلف.

لم يبقَ إلا غصن أمل واحد أعجف. وعد فريند بأن يُرشح سالمًا للتجربة في منصب في قسم آخر من الشركة. تضاعف قلق سالم. يجب أن يثير إعجابهم وإلا فقد انتهى أمره.

أمسك سالم الآن صوفي بيدٍ، وجود باليد الأخرى، وتقدم أسرته بخطوات خفيفة تجاه المطعم المحاذي للواجهة البحرية. انتصبت ورائهم الأعمدة الثلاثة وهي أبراج الكويت الجديدة. ثلاث دوائر بزرقة البحر ترتفع مئات الأقدام في السماء، ويخترقها إبر بيضاء طويلة كأنها صواريخ موجهة نحو الفضاء.

طلب مارك الآيس كريم الذي كان يلح في طلبه، ودخل في جدال مع

صوفي عن أفضل نكهة من آيس كريم ذهب؛ أهي الشوكولاتة أم الفراولة؟

طوّق سالم خصر جود بذراعه وقال بصوت منخفض: "ارتحت كثيرًا الآن، لكني أعرف أنكِ ولا شك حزينة قليلاً يا حبيبتي. سنظل هنا لفترة قصيرة لن تطول لكي نؤمّن بقية حياتنا". ابتسمت جود وقد أحبت ارتباكه وهو يحاول أن يبث الطمأنينة في نفسها.

اقترب مارك منها وشد ذراعها. "ماما، هل يمكننا أن نذهب لشراء النباتات الآن؟ لقد انتظرت طوال الأسبوع". لم تفهم ما يعنيه فورًا. ثم تذكرت؛ الحديقة وهوس مارك. بدأ الأمر كفكرة من رأس مديرة مدرسته الإنجليزية الهزيلة التي تحلم برؤية ورود الصيف رغم أنف الشمس العربية. فقررت أن تتحدى الأطفال في مسابقة لصنع حديقة إنجليزية في المنزل. عمل كل طفل لمدة شهر بعد أن وجدوا النباتات والأزهار التي ترضى أن تنمو في الهواء اللافح. كانت حديقة مارك مصممة بعناية وجمال. أزهار وأبراج من حجارة ومجموعة من الأسلاك التي وجدوها في كومة خردة بجانب المنزل.

لكن في الليلة التي تسبق زيارة الفصل، حطّم سالم الحديقة بلا قصد. كان عائدًا من المكتب في ساعة متأخرة من الليل، فدعسها وهي يخطو خطوات عمياء في ظلام الحجرة. سمعت جود عويل مارك في الصباح التالي ورأت يديه الصغيرتين تحاولان في يأس إصلاح حديقته مع شروق الصباح.

ذهبت الجائزة إلى فتاة ساعدتها أمها في زراعة أزهار إبر الراعي. وجّه مارك خيبة أمله كلها في إيمانه بأنهم سوف يغيرون رأيهم إن استطاع أن يجعل حديقته أفضل.

قالت لسالم: "لنأخذ الصغار إلى سوق الجمعة. لقد وعدنا مارك الأسبوع الماضي".

غضّن سالم جبينه ونظر إلى ابنه. "أعدنا إلى حكاية الحديقة؟" أحست جود بالانزعاج يغلف كلماته.

حدّقت العينان الزرقاوان الصغيرتان بالعينين البنيتين بلا وجل. قال مارك: "تحتاج حديقتي إلى أن تكون أجمل. حديقة دينا فيها ألوان كثيرة ولهذا فازت".

رفع سالم كتفيه باستسلام. "حسنًا. فلنذهب. لكن هذه هي المرة الأخيرة يا مارك. لقد سئمت من الحديث عن هذه الحديقة. الرجال لا يبكون على أزهار!" ربت وهو يتحدث على رأس مارك.

أبعد مارك رأسه عنه. إنه لا ينسى الإهانة أبدًا. تذكرت جود كلمات حسان عن سالم. لا يغفر الزلة أبدًا. سوف ترين بنفسك.

***

كان سوق الجمعة أكبر سوق في الكويت. وكانت جود دائمًا تسمع السوق قبل أن تراه. طوفان هائل من أصوات تخرج من آلاف الحناجر البشرية والحيوانية، تستحضر في ذهنها صور الجِمال والصفريات النحاسية، وصراخ الدلالين ونشيج المتسولين. والسوق نفسه ينبسط في غير اتساق تحت شمس الظهيرة، كجثة امرأة عارية خرجت أحشائها في الحرارة. تجمّعت أسراب الذباب حولهم وهم يمرون على أكوام من البشر المستلقين على الأرض، ممن فقدوا أذرعهم أو سيقانهم أو عيونهم، يمدون مئات الأكفّ لهم. كانت تلك الأصابع تمزق ضمير جود حتى تشعر بأن الذنب أدمى قلبها. وكلما جاءت إلى هنا زاد خوفها من المكان. لكن زوجها لم يكن يلاحظ المتسولين أبدًا، ورأت بحزن أن مارك وصوفي لم يلاحظا كذلك.

فاحت رائحة سوق الماشية من أقفاص صغيرة خانقة، تحت قماش مشمّع غير مرتفع. سحبت صوفي يد أمها وهما تمرّان أمام قفص ممتلئ بالصيصان، تتسلق فوق بعضها وتشقشق بنعومة. كان كل صوص مصبوغ بلون لافت كالوردي والأخضر والأزرق. سمعت القفص الحديدي يهتز بمخالبها الصغيرة وزعيق الطيور اليائسة المشتاقة إلى السماء.

لمست صوفي القضبان. "ماما، هل يمكننا أن نأخذ صوصًا آخر؟" هزت جود رأسها وقالت: "آسفة يا حبيبتي. تعرفين ما اتفقنا عليه آخر مرة". ثمة حد لعدد الحيوانات التي يمكن أن يحضرها الطفل إلى المنزل، ثم يستيقظ في الصباح التالي ليجدها ميتة.

كان مارك قد سبقهم إلى محل يبيع الأشجار وأحواض النباتات. بدأ يضع رزمًا صغيرة من الأزهار الزاهية في أحد الجوانب، ثم أشار إلى شجرة صغيرة هزيلة ببراعم بيضاء عطرة. قال بكل حماس: "يمكن أن نضع هذه في المنتصف. ونضع الأخريات حولها على الأطراف".

وقف سالم إلى جانبه، وأشار إلى صاحب المحل أن يضع النباتات فوق عربة اليد التي تنقل البضائع ما بين السوق والسيارات. قال سالم: "يمكن أن نأخذ الأخريات لكن هذه الشجرة لا. هذه شجرة ليمون حامض. لا يمكن أن تنمو هنا في هذا الحر. ستموت خلال أسبوع. إنه يحاول أن يخدعك". منح البائع ابتسامة ساخرة، فابتسم الرجل الأسمر بملء فمه وأسنانه الصفراء.

هز مارك رأسه: "لن تموت. لن أدعها تموت. سوف أسقيها كل يوم".

رأت جود سالمًا يمسح جبهته ثم ينزل على ركبتيه ليقنع ابنه. "اسمع يا مارك. كنت فلاحًا في يوم ما. وأعرف أشجار الحمضيات. صدقني لن يمكنها النمو. يجب أن تسمع كلامي. لا تبدأ بالبكاء..." قالها بسرعة بعد أن

بدأت الدموع تنهمر على خدّيّ الصغير. استقام سالم محرجًا. "بالله عليك! ما هذا؟ هل تريد دلوًا لدموعك؟"

تقدمت جود لتقف معهما. حاولت أن تقاوم رغبتها في احتضان مارك إلى صدرها، لأنها تعلم أن غضب سالم سيزداد إن فعلت ذلك. سيقول: لماذا لا تدعينه يتعلم كيف يكون رجلاً؟ وسوف تجيبه: لأنه في السادسة.. إنه لم يتعلم كيف يكون طفلاً حتى.

قالت: "ماذا يضر لو أخذنا هذه الشجرة معنا؟ سوف يتعلم منها درسًا حتى لو ماتت. ويمكنك أن تساعده في الاعتناء بها. سيكون الأمر مفيدًا لكما معًا". همست جملتها الأخيرة لسالم بعد أن قرصت ذراعه قرصة خفيفة.

نظر سالم إليهما ثم رفع يديه في استسلام. قال: "أنت متساهلة جدًا معه". لاحظت بضيق وحنق أن يديه اتجهت إلى رأس صوفي مباشرة يمسح على شعرها الغامق الناعم، بينما مارك يقف جانبًا ويشبك ذراعيه البيضاوين.

قالت بابتسامة مغتصبة: "لنذهب إلى المنزل ومعنا كل هذه النباتات. لنصنع أفضل حديقة في الكويت". أخذت يد مارك ومدت يدها الأخرى تمسك يد سالم.

بدا الألم على وجه سالم للحظة عابرة كما ظهر على وجه مارك. لكنه أشاح وجهه، ودفع ثمن النباتات للبائع، وتبع أسرته نحو السيارة التي تغلي في الشمس.

***

عادوا إلى الفيلا، فزرعوا الشجرة في منتصف حديقة مارك. وبينما كانت جود وصوفي مشغولتين في المطبخ في إعداد العشاء، رأى سالم مارك يجلس

على الدرج في الخارج، أمام باب المدخل الزجاجي. خفّت حرارة الجو مع توشح السماء بلون الزهر والبنفسج، وتحركت أغصان شجرة الليمون مع أنفاس الليل الأولى.

رفع الفتى رأسه عندما جلس سالم إلى جواره. كانت عينا مارك حمراوين بعد نبش التراب للزراعة. ارتفعت أصوات المؤذنين عاليةً من حولهم مع الغروب.

سأل ابنه: "هل أنت سعيد الآن بشجرتك؟" أومأ مارك. شعر سالم بتعب ابنه يلتصق به كسحابة من غبار.

"أتعلم أنه كان لدي شجرة عندما كنت صبيًا؟" هزّ الولد رأسه الأشقر ببطء. "زرعها والداي عندما ولدت، وكنت أعتني بها وأقطف ثمارها كل عام. يمكننا أنا وأنت أن نفعل هذا معًا إن أردت".

نظر إليه مارك وقد اتّسعت عيناه. "حسنًا". وفجأة انزلق مارك على الدرجة حتى لامس جسمه ساق أبيه. أحاطه سالم بذراعه وجلسا في صمت، تاركين حمرة الغسق تدمي الهواء. شعر بالرياح الخفيفة تعبث بشعر مارك الأبيض كزغب طير. كانت أصابع الصغير على ساقيه تقبض قماش البنطلون. رأى فيه سالم ضعفًا أرعبه. كيف سيحمي نفسه من أشكال مازن في جيله؟

تململ مارك، ثم سمع سالم صوته الصغير يقول: "أنت قلت إن الحرّ هنا لا يدع النباتات تنمو".

التفت سالم إلى الحديقة. ما زال ترابها رطبًا وشجرة الليمون الحامض مغروسة بانحناء مقلق. "هذا صحيح. نحن في صحراء. والأشجار والفواكه مثل هذه تحتاج إلى الماء والهواء البارد. لهذا قلت لك أن تتركها يا حبيبي. أنا

لا أريد أن تحزن عندما تموت. يجب أن تتعلم أن عليك مواجهة الحقائق".

سكت سالم عندما لاحظ أن مارك يفكر بكلامه، ثم عصر الولد يديه معًا وقال: "النباتات تنمو في إنجلترا. ليتنا نعيش هناك. ستكون حديقتي رائعة هناك".

"لكننا نعيش هنا يا مارك. هذا هو بيتنا". شعر سالم بخوف بارد يزحف على جسده. "أنت عربي أيضًا. ومكانك هنا وليس هناك".

قال مارك مرة ثانيةً: "ليتني هناك". نهض الصغير ودخل المنزل تاركًا سالمًا لوحده في الظلام.

***

قضوا ليلتهم تلك في سهرة في البر، مع أصحاب ورجال يقولون إنهم أسرة واحدة. والكويت مليئة بـ "الأسرة"، وهم أعيان فلسطينيون هاجروا إلى بلد الشهد ليذوقوا العسل الأسود الذي ينبع من باطن الأرض، وينتظر من يغترف منه. على موائد العشاء، وعلى أطباق الحلو، كانوا يتحدثون عن الإخوان الذين يموتون في بيروت وفي المخيمات. وبعدها يتنهدون ويمسحون أيديهم، ثم يقودون سياراتهم إلى فللهم، مع زوجاتهم المغرقات بالجواهر وأبنائهم البدناء.

توقفت السيارة في وادٍ بين كثيبين عاليين، في مكان يدعى السرج. وكان السرج مشهورًا بسباقاته الشهرية التي يحبها الغربيون والكويتيون. كلما صوّر سالم صوفي ومارك بكاميرته السوبر 8 مم، كان قلبه يرفرف كالطير سعادةً، وقد شابت حمرةٌ وجهيهما من التشجيع في أعلى الكثبان، وحماسهما يزداد مع زمجرة المحركات وزعيق إطارات السيارات التي تمزّق الأرض إلى خطوط

رملية حمراء.

كان السرج في ذلك المساء هادئًا. تحرّكت جوانب الخيمة العالية مع رياح الوادي البطيئة. ثغت شاة وماعز مقيّدتا القوائم بأسى من مؤخرة سيارة نقل صغيرة. أوقف سالم السيارة، فألصقت صوفي وجهها في النافذة وصاحت: "لا! هل سيقتلونهما؟"

رد أخوها سريعًا، وقد شعر سالم بركل قدميه على ظهر مقعده: "هذا صحيح.. سوف يقتلعون رؤوسها وبعدها سوف نأكلها". صرخت صوفي: "لا.. لن نأكلها. أنت شرير!" ثم بدأت تبكي.

هز سالم رأسه وترك الأمر لجود كي تحل المسألة. عندما أغلق الباب على أصواته،م رأى بدويًا ملثمًا بشماغ يرفع الخروف فوق كتفيه، ويحمله بتمهل نحو السكين والساطور.

تمسّكت رائحة القهوة التركية المحترقة بالرجال المضطجعين على وسائدهم داخل الخيمة ذات الأهداب الحمراء. كان عدنان الخضرة جالسًا في الزاوية. رأى سالمًا فلوّح له. وصلت أصوات قرع الطبول إليهم، وكذلك عويل الربابة وبدويّها يصدح بصوت حاد في وقت الغسق.

كان اسم عدنان على رأس القائمة التي زودته بها نادية بعد استقرارهم في الكويت. أقرباء الأقرباء.. ويرتبطون بأبي حسّان وزوجته الأولى التي توفيت منذ سنوات طويلة بعروق صلة واهية. استقبله عدنان لأول مرة بعناق حار وقبلتين على الخد و"يا ابن أخوي". حافظ عدنان على التقاليد بإشارته لأبي حسان بـ "أخوي"، لكن كل عاداته الأخرى تنمّ عن تحضره، فهو يحب أن يُدعى باسمه الأول، وأصغر أبنائه، وهو شاب حاذق في الخامسة والعشرين، كان موظفًا يعمل في إدارة سالم الجديدة في أوديل.

كان عدنان الليلة يقضم المكسرات بين أسنانه، ويلبس قميصًا مفتوح الصدر وبنطلونًا خفيفًا من الكتان. ذكّر شعره الفضي المسرح بعناية وعيناه السوداوان سالمًا بسيارة أمريكية فخمة لامعة.

بصق عدنان من فمه قشرة، وقال: "قول لي.. كل اشي تمام معك؟ راح تبدا الشغل بكره مش هيك؟"

رد سالم: "إن شاء الله". ابتسم عدنان. "صحيح.. صحيح. أوعك توثق بأمريكاني لحتى تشوف شيك مرتبك بعيونك. بهدلوا ابني عمر على حكاية مرتبه كأنه كلب بيشحد منهم أكله. بس هلّا أنت واياه راح تشتغلوا مع بعض. كتير منيح. هو ولد ممتاز بس لسانه طايش.. عارف؟ محتاج حدا بخبرة حتى يعلمه كيف يركب ع ظهر الخيل".

سمع سالم هذا الكلام من قبل. الركوب على ظهر الخيل في مدينة الكويت يعني التشبث بلبدة الأسد الأمريكي وهو يعدو عبر العالم العربي. كان معنى كلام عدنان هو: اعتنِ بابني، فهو منك وفيك. لم يبلغ تحضره أن ينتظر من ابنه أن ينجح في حياته بالاعتماد على مهاراته فقط. تمنى لو يستطيع أن يقول لعدنان إنه يسعده أن يمرر أوراق ابنه إلى قسم الموارد البشرية، لكن حبال الذنب والواجب تقيده بقوة.

فلم يكن إلا أن أومأ وقال بكل لباقة: "بيسعدني انتبه لعمر. واضح إنه عنده مهارات".

نعق عدنان ضاحكًا. "مهارات! ايوه والله هو بيفكر هيك. وشو بيقدر أبوه يحكي؟ جيلكم بطّل محتاج إلنا، متل السيارات القديمة.. مش هيك؟ احكي لك اشي؟ على زماناتي وزمانات أبوك كانت الناس بتحسب قدر الرجال بطريقة مختلفة. الرجال الناجح مش بس هو الغني.. الرجال الناجح.. كيف

بدي إحكي لك؟" مصمص الملح من أطراف أصابعه، وضرب صدره بقبضته. "كريم. كان الرجال كريم بمصاريه، وكريم بحكمته إذا كان عنده حكمة.. أو حتى إذا ما كان عنده! أبوك ما كان عبقري زمانه متل ما إنت عارف. لكن ايده كانت مبسوطة للرايح والجاي. بس هاي الأيام كل اللي بيهم هو كيف علاماتك في المدرسة، وقديش إنت متهندم، وقديش بتحط في صحنك. ابني مفكر حاله عبقري لأني بعته يدرس في أميركا، ولأن الأميركاني أعطاه وظيفة. مفكر إنه هدا هو أهم اشي في الدنيا. وإنت يا سالم؟ هاه؟ إنت ختيار زيي وإلا بعدك شاب؟" ابتسم عدنان ابتسامة بيضاء عريضة.

دخلت جود الخيمة وشعرها الأشقر يلتمع في ضوء المصابيح. هبّت من ورائها نسمة باردة من الليل الصافي. ابتسمت وهي تدنو منه فذاب فؤاده كما يفعل دائمًا. نهض عدنان فقبّلها على الخد. "جود العزيزة. تبدين رائعة. كيف حالك يا سيدتي؟"

قالت جود وهي ترمي بنظرة باسمة نحو سالم: "الحر قاتل في هذه الخيمة. لم لا تأتون إلى الخارج؟ الأطفال يلعبون حول النار، والنساء يقلن إنهن لن يرقصن دون جمهور".

"ماذا ننتظر إذًا؟" أخذ سالم يدها وتبعها إلى خارج الخيمة. وقع الليل عليهم حادًا كالسيف وبرد الصحراء يقطّع جسده. تراقصت ألسنة اللهب تحت الخروف والماعز، وشحومهما تقطر وتطش على الحطب. وضع البدو داخل الخيمة صحافًا بيضاوية كبيرة من الأرز والشعيرية، والكبة والملفوف المحشو المطبوخ بالزبادي، وسلطات شهية بالخيار والبقدونس.

جلس سالم إلى جانب عدنان على سجادة مفروشة فوق الرمل. أتى شاب مسرعًا من وراء ضوء النار بوجه أحمر وكل غرائب الشباب تتجسد في قميصه التيشرت الضيق وتفاحة آدم البارزة. هذا هو عمر. انحنى كي يصافح سالمًا.

"أهلاً.. سالم الإسماعيلي. مضبوط؟ تشرفت بشوفتك مرة تانية. مش مصدق إنه راح نشتغل مع بعض!" تطاير الحماس من كل كلمة ينطقها. سوف تعمل عندي، وليس معي. عض سالم لسانه كيلا تفلت الكلمات وصافح الشاب.

أخذت النساء يرقصن حول اللهب. وكانت جود من ضمنهن كما رأى، وحبات الترتر في تنورتها تلتمع كالشرارات، بقدمين حافيتين، وشعر يصل إلى كتفيها وقد أغرقه الظلام حتى صار كالذهب المذاب. إن سر أصلها، وهو في الحقيقة سرهما، يجعل حبها أحيانًا يزداد في قلبه. هذا جزء منها مخبأ عن أعين الناس، لا يراه إلا هو، كتلك النسوة الكويتيات بعباءتهن السوداء، يفتنّ الناظر بقوة ما لا يراه.

حاولت جود قدر استطاعتها أن تندمج بالمجتمع، فأخذت دروسًا لتعلم العربية وقلّدت الرقص العربي. لكن قدميها باحت بسر أصلها، فتاة من شمال إنجلترا تثب بخفة تحت سماء زرقاء مكفهرة، على ألحان أهازيج البحارة في الميناء. لم يكن فيها من ليونة الشرقية وتمايلها شيئًا. وربما كان هذا هو السبب الذي يجعله يريدها أكثر من أي امرأة أخرى.

انضم مارك وصوفي إليها في الرقصة، ووهج النار يقلب بشرتيهما وشعريهما إلى البرونزي. كانت صوفي تقلد حركات أمها، لكن مارك كان يلف ويدور كدراويش النبي روبين. هناك، حيث كانت آخر مرة يرى فيها سالم أمه ترقص، في ليلة كهذه الليلة، في عالم ليس كهذا العالم.

نطق عدنان الجالس بجانبه: "شو حلوين ولادك. إنت محظوظ أنه اجاك ولدين مع بعض".

رد سالم بهدوء: "بعرف". رآهم يرقصون وينثنون في دائرة من الضوء. تطاير رماد الحطب حولهم، ولامس خديه كدموع ليست من ماء. سحرته

رؤية عائلته بعيدًا جدًا عنه، كأنهم صور على شاشة، وفرحتهم المشرقة تختفي مثل شرارات النار في سواد الليل.

تابع عدنان: "مرتك شجاعة بجيتها لهون". نظر إليه سالم، وقال بحدة: "ليش؟"

تململ الرجل العجوز، وعيناه متعلقتان بالأطفال الراقصين. "صعب على أي ست غربية إنها تربي ولاد عرب. بقصد يعني تربيهم تربية عرب. شوف ولادك. ما بيقدرو يحكوا مع أحفادي عربي. وما بيعرفوا القران".

حاول سالم أن يضحك. قال: "لحظة لحظة يا عدنان! إنت بتحكي لي إنك متلا بتعرف تقرا قران؟ أنا كمان ما بعرف. نسيت إني درست في مدرسة كاثوليكية؟"

"بس إنت تعلمت القران يا سالم. كلنا تعلمنا وكلنا بنتعلمه لحد هلّا. إنت مؤمن متلنا. هدا هو الشي اللي بيجمعنا كلنا في هالدنيا المشتتة".

رد سالم محاولاً أن يبعد الانفعال عن صوته: "ولادي بيعرفوا تاريخهم. وبيعرفوا شو أصلهم".

ابتسم عدنان ووضع يده على كتف سالم. "يا ابني.. إنت قد ولادي. نسيت اشي مهم. الرجال ما بيربوا ولادهم. النسوان هم اللي بيربوا. كل اللي بيتعلموه الزغار وكل اللي بيدخل قلوبهم بيجي منها. منشان هيك بحكي إنه التحدي بالنسبة إلها كبير. وباتمنى إنك توجهها وإلا حيصيروا أجانب متلها".

بحث سالم في داخله عن اعتراض، لكن أطباق الرز واللحم الذائب وُضعت أمامهم، وانقض عدنان بلقمة كبيرة ألقمها فمه، بينما الأطفال مستمرون بالرقص.

***

نام التوأمان في المقعد الخلفي من السيارة في طريق عودتهم إلى المنزل. نظر سالم إليهما. السخام يعلو وجهيهما، وأنوار الشارع المنخطفة تظلل عينيهما المغلقتين. أحاطت أصابع حب لا يحتملها بشر بجوانح قلبه واعتصرته بقوة. كانت جود تميل رأسها على النافذة تقاوم النعاس.

"أريد أن يأخذ الطفلان دروسًا عربية". تفاجأ بما قاله. لسانه سبق أفكاره.

رآها ترفع رأسها وقد طردت المفاجأة نعاسها.

قالت بتأنٍ: "حسنًا. يمكنهما أن يلتحقا بالدروس التي آخذها إن أحببت. أو يمكنك أن تعلّمهما بنفسك؟"

أزعجته فكرة كلامه مع طفليه بالعربية على نحو لم يعرف له تبريرًا.

قال: "سوف أعلمهما أنا أيضًا، لكن أريد أن تتأكدي أنتِ من مثابرتهما على الدروس. كنت دائمًا أسمع كلام أمي أكثر من أبي. ولا أظن أن طفلينا سيكونان مختلفين".

قالت جود للمرة الثانية: "حسنًا". لكنه لاحظ أن الحيرة لم تزايلها. "لكن لماذا الآن؟ لم تبدِ اهتمامًا بهذا الموضوع من قبل".

حاول أن يجد إجابة. تمايل الطريق أمامه في ضباب تقطعه أنوار النيون. "إنهما يكبران بسرعة. ولا ندري إلى متى سنبقى هنا. أريد أن يفهما أنهما فلسطينيان قبل أن يفوت الأوان".

اعتدلت جود في جلستها، ونظرت إليه والحيرة تزداد في عينيها. قالت

بصوت ثابت يعلو على هدير المحرك: "إنهما ليسا فلسطينيين فقط يا سال.. لهما ثقافتان، ثقافتك وثقافتي".

وبعض الناس يقولون إنهما لا ينتميان إلى أي مكان. هذا ما حذّرته أمه منه على شرفة شقة الناصرة قبل أن تهرب. برز وجهها من بحر ذكرياته أبيض، كقطعة خزف فوق بطانة فارغة. إلا أطفالي أنا.. أبدًا.

أجابها: "لا يمكن أن ينتمي الإنسان إلى ثقافتين كما لا يمكن أن يحيا بقلبين.. يجب أن يعرفا من يكونان".

احمرّ وجهها غضبًا: "ليس هذا ما اتفقنا عليه! أنت وعدتني أنهما لن يشعرا بالتشتت أبدًا".

رد سالم بغضب مماثل: "وعدم تشتتهما يعني أن نختار ثقافة واحدة. عائلتي خسرت كل شيء فعلاً. ماذا لو نسي طفلانا أصلهما؟!"

وضعت جود يدها على ذراعه. قالت بنبرة ملحّة: "لقد تعاهدنا ألا نفعل هذا. أتذكر؟ تعاهدنا ألا نقحم أنفسنا في صراعهم". سمع القلق في طيّات صوتها، لكن شيئًا أضخم من الحب بدأ يعدو بداخله.

"لو سمحتِ.. لأجل خاطري.. رتبي لهما دروسًا في العربية". أدخل نبرة رجاء في صوته. "يمكننا مناقشة الموضوع في وقت آخر". ظلت جود تنظر إليه بحيرة لحظات كأنها ترى غريبًا. ثم استدارت، وألصقت جبينها على النافذة ثانيةً. لم يلحّ أكثر من ذلك. سوف تنفذ الأمر. إنه يعرف زوجته، الفتاة الطيبة، صانعة السلام. تسربت أنوار زرقاء من النوافذ. حانت منه التفاتة إلى الطفلين من المرآة الأمامية. كانا هامدين بشكل مرعب، كجثتين أُنتشلتا من قبضة البحر الباردة. فوجئ بمارك يفتح عينيه، وينظر حوله بلا تركيز، عيناه مرآتان انعكست فيهما أضواء الطريق.

***

كان مكتب نائب رئيس شركة أوديل إنتربرايز - قسم التوسع والإستراتيجية يشرف على مدينة الكويت من علو شاهق، ويطلّ على أسواق المدينة التي تفوح بحرارتها، وعلى مياه الخليج ورياحه، وأبراج حفر آبار النفط. كان جو الغرفة جافًا، كعظمٍ جففته شمس الصحراء وبيّضته. شعر سالم أن الجفاف ينفذ إلى حنجرته كالرمال.

ها هو الآن.. مرفوع فوق كومة العرب المتكالبين. لكن حتى وهو واقف أمام سكرتيرة ماير صباح اليوم، شعر بأنه قد يُجرّد من هذا الشرف في أي لحظة. كان شعر السكرتيرة الأسود مصففًا بعناية فائقة على كتفيها، وفي عينيها نظرة ارتياب. اشتبه أن تكون من الأردن أو فلسطين، وأنه ببدلته الجديدة وخطوته الواثقة قد يستحق منها ابتسامة ود أخوية. لكنها زمّت شفتيها الحمراوين، كلون التفاحة إذا نضجت وفسدت. فكّر: هيه يا حبيبتي.. ألست أبيض بما يكفي لتريني أسنانكِ اللؤلؤية؟ سألت ببرود: "كيف أستطيع مساعدتك؟"، وعنقها ممدودة على نحو عجيب. كأنها توحي إليه بأنها ما زالت تستطيع أن تنظر إليه من فوق، وإن لم تكن تنوي النهوض من مكانها من أجله.

لكن الآن، وهو جالس في جناح نائب الرئيس، رأى أن ماير كان فعلاً ينظر إليه من فوق وهو جالس على زاوية مكتبه. كان يقول: "... وهذا هو الموضوع يا سال. إن التوسع لعبة فيها مقامرة دائمًا، لكن نحن هنا الآن لهذا السبب. لن تكسب شيئًا إن لم تغامر".

كان لماير وجه نبيل أرستقراطي، وجسد ملاكم مفتول البنيان. كان

أول كلامه مع سالم ذلك الصباح هو: "أهلاً سال. سمعت أشياء عنك تسرّ يا رجل. لا.. أرجوك، انسَ سيدي هذه. نادني جون". ذكّره ذلك بما قاله دوغلاس فريند له عندما أبلغه بنبأ تسريحه. قال: "جوني رجل ممتاز. سوف يعطيك فرصة، وستجد نفسك دون أن تدري في طريقك إلى القمة مرة أخرى".

تابع ماير حديثه: "أعرف أن دوغلاس أعطاك نبذة عن مهمة بغداد، لكن يجب أن تعرف أنني أعتقد أن بغداد مكان ممتاز للإعمار الآن. يجب أن نكسب هذا العقد، قبل أن يشتم الآخرون الخبر ويبدؤون الزحف". حرّك إصبعيه كأنهما الطرف السفلي من جسدٍ يمشي، فتخيّل سالم جموعًا من الرجال البيض، يحملون حقائبهم شاقين طريقًا لهم عبر صحراء العراق. "أنا أحسدك حقًا. بغداد مدينة مجنونة.. ومكان مذهل. سوف تقضي فيها أشهرًا عجيبة".

مسح سالم كفيه على قماش بنطلونه، ثم قال: "أنا مستعد تمامًا. وأعرف كيف أتعامل مع العراقيين. كنت في فريق دوغلاس وأشرفت على ترتيبات زيارتهم العام الماضي".

"وقد ذكر لي أن عملك كان ممتازًا". أخرج ماير سيجارتين من صندوق فضي على الطاولة، وناول سالمًا واحدة. بينما سالم يسحب من دخان لفافته، ألقى نظرة على البحر وراء رأس الأمريكي. مسطح رغوي بالأبيض والرمادي يرتعش تحت ضربات شمس الظهر.

قال ماير: "يمكنك أن تختار أعضاء فريقك. تحتاج إلى شخص يفهم الناحية التقنية، وكيف يمكن أن تعمل فرقنا والمؤسسات المحلية هناك معًا. وتحتاج إلى مختص بالتسويق، ومساعد مدير مشروع. يمكنني أن أعطيك بضعة أسماء.. إلا إن كان في ذهنك أشخاص محددون ربما؟"

فكر سالم بعمر ووعده لعدنان. "قد يكون في ذهني بعض الأشخاص، لكنني سعيد بمعرفة من ترشح أيضًا". أومأ ماير مستحسنًا.

"العمل في التوسع ليس سهلاً على الإطلاق يا سال. كان هذا السوق كعروس عذراء قبل بضع سنوات. أما الآن فقد أصبح كعاهرة مكلفة، وكل الرجال يصطفون لمضاجعتها. لسنا الوحيدين الذين نتباحث مع الصباح ولا آل سعود ولا صدام حسين.. أتفهم ما أقصده؟ يجب نكون أذكى منهم، وأسرع في الاحتفاظ بنصيبنا من السوق. صدام رجل حالم. يريد أن تكون بغداد القاهرة الجديدة. حسنًا إذًا.. فلنساعده على بنائها. وإن نجحنا في ذلك، إن أحسنّا في عملنا، فإن هذا المنصب المؤقت قد يصبح منصبًا ليس مؤقتًا".

نهض سالم وصافح اليد الممدودة. من خلف رأس ماير، صاحت النوارس وحلّقت فوق البحر الممتد. وحلّق شيء بداخل سالم معها، وهو يمسك كف ماير الناعمة ويهزها بقوة. سوق الذهب قريب من هنا. ربما يستطيع إن انتهى من عمله مبكرًا أن يبحث عن قرطين لجود يلائمان سلسلتها العربية التي أصبحت تلبسها في الكويت بدلاً من سلسلة جدتها.

قال ماير وهما متجهان نحو الباب: "بالمناسبة، كنت أتساءل.. سال.. يبدو لي اسمًا إيطاليًا. لكن أنت من هذه المنطقة، أليس كذلك؟"

أجاب سالم بحذر: "لست من هنا تحديدًا. أنا فلسطيني. تستطيع أن تقول إنني من إسرائيل".

نظر إليه ماير بفضول: "مفهوم.. مفهوم. واسمك الحقيقي...".

"سالم". لم يناديه أحد في حياته المهنية بهذا الاسم قط، وتمنى أن لا يبدأوا بمناداته به الآن.

"سالم..". نطقها ماير سليم في ركاكة جميلة قاوم سالم الرغبة في تقليدها.

ثم قال ماير وهو يضحك: "سْلِم! يجب أن ينادوك سْلِم، فأنت هزيل جدًا.. ليت لي جسمًا لا تتمسّك به الدهون مثل جسمك[1]".

ابتسم سالم: "أنا ألعب السكواش ثلاث مرات في الأسبوع، ولدي زوجة لا تجيد الطبخ". قهقه ماير ضاحكًا بصوت عالٍ، ضحكة رجل يعرف أن صوته لا يعلو عليه صوتٌ في هذا المكان.

قال: "حسنًا يا سلم.. إن هذا الاسم أفضل من سال على أية حال. اسم سال يوحي بأنك من رجال العصابات.. أو ربما هذا فقط في بلدي".

فكر سالم للحظة عابرة أن يسأله إن كان يهوديًا. فاسم ماير يوحي بذلك. وعندها يستطيع سالم أن يطلعه على سر زوجته اليهودية، وأن ترتبط الأسرتان بصداقة... ومن يدري إلى أين ستقودهما هذه العلاقة؟ لكن قبل أن يتخذ قرارًا، رأى ماير يتحرك مبتعدًا للحديث مع أحد مديري الشركة. فما كان أمام سالم إلا أن يتبع مؤخرة السكرتيرة المتمايلة نحو مكتبه الجديد.

***

لم يخلف ماير وعده. فرشح لسالم عددًا من مساعدي مدير المشروع، والتقنيين والمديرين، وترك له مهمة الفرز والانتقاء. كانت المهمة حرجة وضرورية. فالعراقيون يريدون أشخاصًا يملئون سمائهم بأبنية حديثة من فولاذ، وهذه مناقصة مربحة ستجني منها أوديل الملايين، وسيجني منها سالم الكثير والكثير.

وبينما هو يقضي أيامه ولياليه يعدّ القوائم ويقابل المرشحين، وجد نفسه

Slim-1: تعني نحيل.

أحيانًا متسائلاً عن سبب جدية هؤلاء الأمريكان، وسر حسهم المهنيّ الثابت. كل ما علينا أن نذهب إلى هناك ومعنا بضعة كراتين من الويسكي المعتّق، ومجموعة من الغادات النواهد، وعرض بتحويل جزء من المبلغ إلى حساباتهم السويسرية. وقد مرر فعلاً المزحة إلى ماير يومًا، فنظر إليه الرجل بعينين رماديتين ثابتتين، ثم قال: "إن كان هذا ما يتطلبه الأمر، فليكن".

لكن الشوكة الوحيدة التي تخنقه هو عمر. لقد كان كما وصفه أبوه، وقد ظهر ذلك جليًا في شهر رمضان، وبقية الموظفين في المكتب يذوون في جوع إيماني.

لم يكن لسالم أي نية في قضاء النهار بطوله بلا أكل ولا شرب، خاصة وأن درجة الحرارة تصل في الخارج إلى الخمسين. قال مرة لجود: "وماذا يهم ربنا ماذا أتناول في إفطاري؟" ومع ذلك فقد شعر بالشفقة على من صام في العمل، وحاول أن يخفي وجباته عنهم ما أمكن.

لكن عمر لم يفعل مثله. كان مصممًا على أن يكون حصان سباق شاب، لا أن يكون حمارًا عجوزًا يجرّ وراءه عربةً محمّلة بالالتزامات الدينية. دخل مكتب سالم في ذلك اليوم يحمل علبتيّ بيبسي كبيرتين وساندويتش دجاج من المطبخ. سأله سالم: "شو بتعمل؟"، ثم نهض سريعًا يغلق باب المكتب.

قال عمر وقد تملّكته مفاجأة حقيقية: "آسف! فكرتك جوعان أكيد. ما شفتك تطلع لتتغدى. ما بيهمك..". أشار برأسه إلى بقية الموظفين، وقال بتكتم: "هم بيعرفوا إنك ما بتصوم. وبعدين شو بيهمك بايش بيفكروا... يا ريّس! وإلا؟" جلس على طرف المكتب وبدأ يمضغ ساندويتشه، والفتات يتساقط على ياقة قميصه الوردي الأنيق.

كان سبب مجيء عمر هو رغبته في مناقشة مشروع بغداد. قال: "راح

تكون تجربة مذهلة. أكبر توسع بتعمله الشركة. باتمنى أساوي اللي بتساويه إنت في المستقبل.. اشيء كتير عظيم. كم رحلة بتعتقد راح ناخد لحتى يخلص المشروع؟ رحلتين وإلا تلاتة؟ هذول العراقية مخهم صِعب. أنا جربتهم قبل هيك".

راقب سالم عمر وهو يتحدث بشيء من الحسد المشحون بالإرهاق. حتى أسلوبه في الكلام كان يشبه أسلوب ماير. نسخة أصغر من رئيسه، قولبتها منازل من الرخام ومدارس خاصة ما بين الأردن وأمريكا. كان عندما يحكي عمر عن القضية وتاريخ أسرته يتذكر سالم رسمات مارك وصوفي البدائية بألوانها الزاهية... صور بلا معنى، ونار بلا حرارة.

قال له: "عمر.. أنت بتعرف أني ما اخترت أعضاء فريقي لسه. لازم أخد موافقة على كل اسم بقترحه. باتمنى اختارك طبعا بس مش متأكد مية بالمية".

حملق به عمر مصدومًا: "ليش لا؟! أنا كفاءة وقد الوظيفة. وكمان أحسن مساعد مدير مشروع بهدا الطابق. وفوق هيك أنا مهندس.. بقدر اساعد الفريق الفني.. ليش طيب ما بتختارني؟"

ودّ سالم أن يهز هذا الفتى، أن يدخل بعض المنطق في عقله الغض ولو بالقوة. "القصة مش قصة مهارات وبس. بعرف إنك ممتاز، بس فيه غيرك وبنفس المستوى. لازم ابيّن إلهم سبب اختياري إلك يا عمر. بيصحش لي اختار معارفي وأصحابي هيك بدون سبب مقنع. شو بدهم يحكوا عني؟"

وضع عمر علبة البيبسي، والاستياء واضح في عينيه ذات الرموش الطويلة. "ايه أكيد.. لازم تختار الفريق المناسب. فاهمك مزبوط. بس أنا مؤهل لهي الوظيفة. وما فيه حدا بيلومك لانك اخترت واحد عربي كفء.. متل ما إنت اخدت فرصتك".

تلوّن وجه سالم. تذكر ساعات العسرة في لندن، واستيقاظه قبل شروق الشمس ليمسح الأرضية في ورشة حسان، وسهره حتى ساعات متأخرة من الليل للدراسة بعد العودة من مناوباته في الحانات. تذكر تسلله من فراش جود الدافئ إلى الفجر المثلج، ليسير نحو عمله في مكتب يتعالى فيه أطفال إنجليز أثرياء أصغر من هذا الواقف أمامه.

أجاب ببرود: "أنا اللي بحدد مين الكفء. وفيش اشي نحكيه لحد ما أخلّص من تقييم كل المرشحين". تلاشت ابتسامة التفاؤل من على وجه عمر فقطّب. لاحظ سالم لأول مرة أسى حقيقيًا وراء قناع المشاكسة واللامبالاة. إن لم نساعد بعضنا فلا قيمة لنا.

"اسمع.. بعرف إنك أخوي...". وجد لسانه يقول الكلمة نفسها التي استعملها رافان عندما تحدث مع فاروق منذ أعوام وأعوام. "راح شوف شو بإيدي اعمله. خلي ثقتك فيّ".

قال عمر: "أنا واثق فيك". وانتهى النقاش بذلك.

عندما عاد إلى المنزل ذلك المساء، وجد الطفلين نائمين، فارتمى على الأريكة وقال لجود: "لماذا.. لماذا.. لماذا لا يتركونني وشأني؟ أينما أذهب تلحقني هذه التوقعات والمطالب. حياتي ليست ملكي.. يجب أن أعطي قطعة لنادية، وقطعة لحسان، ولهذا القريب، وذاك البعيد.. والحبل لا ينقطع. كل واحد منهم يسحب من حياتي شيئًا يوميًا".

أحس بيد جود على رقبته، وكفها الباردة تغطي عينيه. استنشق رائحتها بعمق. عذبة كالرغيف المخبوز أو كهواء البحر. قالت: "ربما لا يكون الأمر كما تتصور يا سال. بعض هؤلاء الأشخاص يحبونك حقًا. وربما هذه هي طريقتهم في التقرب منك".

ضحك سالم. "عمر لا يحبني. وهو ليس من أسرتي، حتى وإن قال عدنان ما يشاء عن الدم الواحد وباقي خرافاته. دمي يجري في جسم البعوضة، لكنني لا أسميها بنت عمي.. ولن يحبني كثيرًا إن لم أنفذ له ما يريده.. انتظري وسترين بنفسك".

***

بعد خريف وشتاء قضاهما سالم في تحضيرات مفصّلة ومضنية، أخذ عرض المناقصة وفريق مشروع بغداد إلى مكتب ماير.

حُدّد موعد زيارة العاصمة العراقية في مستهل فصل الربيع. سوف يقدّم الفريق عرضًا مبدئيًا، وإن سار الأمر على ما يرام فسوف يحصلون على موافقة العراقيين لتقديم عطاء أولي لتأمين عقد المورّد التقني في مشروعات التعمير التابعة لهم. وفي غضون أسابيع، قد تُدفع أموال طائلة كي تكون مصاعد أوديل مركّبة في كل مبنى حكومي عراقي جديد لمدة عشرة أعوام. وإلا انتقلت جرة الكنز – ومعها وظيفة سالم الجديدة – إلى شخص آخر.

ظل مسهدًا في الليلة التي تسبق عرضه، وهلاوس الفشل ترقص على سقف الحجرة. وفي السويعات التي سبقت انبلاج الصباح، بزغ وجه مازن من ظلام السقف. كان شعره الأسود ملتصقًا بتموجاته على رأسه المنتفخ، وكانت عيناه قاسيتين ساخرتين. قال صوته: سالم يا حمار، ثم اختفى مع الفجر.

ساعدته برودة مكتب ماير المكيّف على التركيز. وضّح اختياراته واحدًا واحدًا. كان يعلم أنها اختيارات صائبة وذكية، وأن الفريق متوازن، وأنه يضم معظم الأسماء التي رشّحها ماير شخصيًا. كلها تقريبًا. حيّرته هذه

المسألة كثيرًا. إن اختارها كلها فسيبدو أنه لا يعرف كيف يستخدم عقله. وإن اختار القليل منها فسيكون المتمرد المتهور. وإن ترك اسمًا مهمًا منها، فسيكون الرجل الذي لا يفهم بالإشارة.

جلس ماير وأصغى إليه بتهذيب. وعندما فرغ سالم من تقديم عرضه، تناول رئيسه الملفات المرتّبة بعناية وتصفّحها ببطء. تعرّقت راحتا سالم، فمسحهما بلا شعور ببنطلونه.

قال ماير أخيرًا: "أعتقد أن هذا هو الفريق الذي نحتاجه يا سْلِم. فريق متوازن. وهؤلاء الشباب من التقنية يبدون بارعين. لا أصدق أنني لم أسمع بهم".

سارع سالم إلى القول: "كانوا في فريق دوغلاس، وقد أجادوا في عملهم في مشروع قطر. لكنهم فقدوا وظائفهم مع إلغاء الإدارة. لكنني أضمن لك أنهم سيبرعون في عملهم في هذا الفريق أكثر من أي أشخاص آخرين. ولا أعني طبعًا أن الفريق هنا ليس بارعًا، لكنني قلت لماذا ندع هذه المهارات تذهب إلى أحد منافسينا؟"

ابتسم ماير. "ذكي وأيضًا محب للخير! يعجبني عندما نضرب عصفورين بحجر واحد. عرضك بثّ فيّ حماسًا". شعر سالم براحة شديدة.

انتقل ماير إلى صفحة أخرى. "أرى أنك لم تختر إريك لوظيفة مساعد مدير المشروع".

"كان الاختيار بين المرشحين صعبًا. مهارة التخطيط لدى إريك ممتازة، وأعرف أنه موجود في هذا الفريق منذ فترة طويلة".

"هذا صحيح". كانت يد ماير ثابتة على تلك الصفحة. دعا سالم في قلبه أن ينتقل إلى القسم التالي، لكن يده ظلت على تلك الصفحة، وخاتم زواجه

البلاتيني يبرق مع لمعة شعر يده الفضي.

لم يحتمل سالم الصمت الثقيل، فقال: "رأيت أن عمر الخضرة اختيار أفضل في هذا الفريق. فهو مهندس متمرس. وهذه طريقة ممتازة لتحسين التواصل مع الفريق التقني. وهو يعرف بغداد ويألف المدينة. وقد أعطيتَه تقييمًا ممتازًا على أدائه". ثم توقف عن الكلام.

قلب ماير الصفحة. قال: "القرار قرارك. لكن هناك بعض الجوانب التي تستحق إعادة النظر فيها، إن لم يكن في قولي تدخلاً. هذا مشروع حساس جدًا. وأنا واثق أن ثمة فرق عربية أخرى تقدم عروضها. وكلهم يريدون أن يبدوا محليين.. معرفة محلية، وعلاقات داخلية، وخلافه..." تراجع في مقعده ونظر إلى سالم.

"لكن الحقيقة هي... أن المحليّ لا ينفع. هؤلاء الأشخاص يريدوننا لأننا شركة دولية.. شركة أمريكية ولها خبرة واسعة. ولها كذلك اسم لامع، إن لم أكن فظًا بهذا التصريح. وهذا ما يحبونه وإن لم يدركوا ذلك. أتفهم ما أعنيه؟" أومأ سالم برأسه إيجابًا. "حتى إنه من غير المعتاد في شركتنا أن يدير الفريق شخص محلي كما تعلم".

"أنا بريطاني".

"طبعًا، أعرف هذا. ولكن السؤال هو: هل سينفعنا على الأمد البعيد أن نسلّم مهمة التواصل لرجل محلي أيضًا؟ هل يضر هذا بالرسالة التي نحاول أن نوصلها إليهم؟ أنا لا أعترض على كفاءة عمر.. أبدًا أبدًا. لكن هل تفهم وجهة نظري؟"

وجهة نظر حقيرة وظالمة. قال سالم بحذر: "طبعًا.. فهمتها. سوف أفكر. وأعيد النظر إن تطلب الأمر".

"هذا كل ما أطلبه منك". مال ماير وصافح سالمًا. "لقد أنجزت عملاً ممتازًا. وأتطلع إلى معرفة الخطوة التالية فيما يخص الرحلة".

***

عندما دخل سالم المنزل في تلك الليلة سمع صراخ التوأمين في حجرة النوم، وتلفزيون حجرة الجلوس يعمل على غير العادة. رأى جود جالسة أمامه، شاحبةً في العتمة، والأضواء تنعكس على وجهها مع تغير المشاهد. وقفت بسرعة عندما دخل وأقفلت الجهاز.

سألها وهي تدنو لتقبله: "ما الأمر؟" ردّت: "لا شيء"، لكن الإحساس بالذنب كان يطل من عينيها. "الطفلان مشاغبان اليوم، فاحتجت استراحة منهما. أعددت دجاجًا للعشاء". مرت بجانبه متجهةً نحو المطبخ ببلاطه البرتقالي. دخل مارك حجرة الجلوس راكضًا كالسهم وهو يهتف بأعلى صوته: "ماما!" تسمر في مكانه عندما رأى سالمًا.

قال: "جئت اليوم مبكرًا. هل أنت غاضب؟"

هز سالم رأسه نفيًا. ليس به طاقة اليوم ليتعامل مع مارك. "ما هذا السؤال يا مارك؟ من قال لك إنني غاضب؟ أنا لست غاضبًا".

"ماما تقول إنك تكون غاضبًا أحيانًا عندما تأتي من المكتب".

كانت صوفي قد لحقت به، وعندما قال ما قاله نكزته في صدره وهمست: "مارك.. هشش". شعر سالم بالمرارة تنبعث في صدره مرة أخرى. حتى في بيتي لا أحد يفهمني.

ترك الطفلين ودخل حجرة الجلوس حيث التلفزيون والستائر المنسدلة.

أدار الجهاز ثانيةً وجلس يشاهد الأخبار. كانت جود في المطبخ تثير جلبةً غير ضرورية بالأواني والقدور، كما فعلت أمها في تلك المرة الوحيدة التي تناول فيها العشاء في منزلهم قبيل زفافهما في لندن.

اشتغل التلفزيون بوهج من الطلقات النارية والصراخ. لم تستوعب عيناه في البداية ما يحدث، ثم تعرّف على المكان.. بلدة في الجليل لا تبعد كثيرًا عن شقة نادية. تراجعت الكاميرا لتغطي مساحة أكبر، فظهرت حشود عظيمة من الغاضبين الثائرين. شباب بوجوه سوداء يحملون عصيًا ويهتفون: أرضنا! دمنا!

شعر سالم بأصواتهم تتغلغل في كيانه. كانت الدبابات ترتجّ على الطرق الوعرة نحو قرى جنوب الجليل، ورجال يلبسون الجينز والكوفيات يهاجمون صفوفًا من الجنود الإسرائيليين الشباب.

جرى صوت المذيع مع حركة المشاهد، صوت إنجليزي مفعم بمشاعر عربية أثار أحاسيس سالم. صادر الإسرائيليون مناطق جديدة من أملاك الفلسطينيين الخاصة حول الناصرة. انتقلت الكاميرا إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين، وهو يتحدث عن حاجة إسرائيل إلى الأمن ومستوطنات جديدة. ثم تلا ذلك مقطع فيديو غير واضح لرجل، شاعر ما، اسمه زياد، يناشد الفلسطينيين بأن يقاوموا ويثوروا. زياد... كاسم ذاك الرجل في شاتيلا. لقد أعلنوا إضرابًا وطنيًا عامًا وسمّوه يوم الأرض.

انتقل حديث المعلق إلى التوتر في إيران، فأغلق سالم الجهاز. عليه أن يواجه عمر في الصباح ليبلغه بالخبر السيء. وهو يشعر الآن بأنه قذر منحط كأي خائن، وقد سأم من هذا الإحساس.

دخل المطبخ فوجد جود وصوفي ومارك جالسين حول طاولة الطعام.

كانت صوفي تقضم ساق دجاجة بيديها الاثنتين، ومارك ينزع اللحم من العظم ويرتب القطع في دائرة منظمة على صحنه. اهتزّ في الزاوية قفص طيور صوفي حيث تسلق مساجينه المجروحون -الذين تم انقاذهم من القطط ومن على الزجاج الأمامي للسيارات- على القضبان في عصبية.

رفعت جود رأسها عندما دخل. قرأ في وجهها تمردًا حزينًا. وما زالت حواس سالم ثائرة بحمم الذكريات البائسة. بدت زوجته في نظره في تلك اللحظة نسخة من لي لي يشوف عندما وقفت خلف زوجها عند بوابة منزلهم. جود ولي لي.. ورقتان شفافتان موضوعتان فوق بعضهما، فبانت فيهما ملامح واحدة: الأنف الطويل، والجبهة العالية، والعينان الزرقاوان.

سحب كرسيًا وأخذ طبق أرز من يدها. دفع الأكل في فمه رغم تقلّب معدته، وحاول أن يدفع الغضب عنه. أنا بريطاني. ألم يكن هذا احتجاجه المثير للشفقة على ما قاله ماير ظهر اليوم؟ كان توسلاً لا احتجاجًا، ومزيد من أراضي وطنه الحقيقي تُنتزع بأيدي رجال مثل ماير، ونساء مثل جود.

سألته جود: "هل سار الأمر على ما يرام في العمل اليوم؟ هل سرّ ماير؟"

"أعجبه إجمالاً". التفت إلى مارك الذي قابله بنفس النظرة وهو يأكل ساق دجاجة كبيرة. "ماذا عنك يا مارك؟ هل أخذت درس العربي اليوم؟"

قالت صوفي بمرح: "كان الدرس أمس. جاء السيد شاكر إلى المنزل".

لم يزح سالم عينيه عن مارك. كيف يكون له عينان زرقاوان؟ الابن الذي سيحمل اسمه لم يكن يحمل من طبيعته شيئًا. ما هذا الظلم؟ كأن جينات جود تآمرت مع جينات والدته لتذكّره أنه لا يملك أي قوة حقيقية، لا شيء يستحق توريثه لأحد.

سأل ابنه: "ماذا تعلمت في الدرس إذًا؟" نظر مارك بسرعة إلى طبقه.

"تعلمنا أسماء كل الحيوانات".

"صحيح؟ إذًا فيمكنك أن تقول لي اسم الحيوان الذي تأكله الآن". قطّب مارك حاجبيه وهو يتفحص دجاجته المتبوفة. رفع رأسه ينظر إلى أبيه، وفي عينيه الزرقاوين لمحة قلق. "نسيت".

هتفت صوفي: "أنا أعرف!" لكن سالمًا رفع يده لإسكاتها.

"لقد سألت مارك. هيا يا مارك. حاول أن تتذكر".

"قلت لك. نسيت".

"هذا كلام غير مقبول. لقد تعلمت الدرس أمس. كيف يمكن أن تنسى؟ ألم تكن منتبهًا للدرس أساسًا؟"

نظر مارك إلى أمه لتطمأنه، لكن تلك النظرة أججّت غضب سالم أكثر. ضرب الطاولة بيده، فجفل مارك وعادت عيناه تحملقان بأبيه. قالت جود: "سال.. أرجوك. لا تفعل".

قال بحرقة: "لا تتدخلي. المفروض أنهما يتعلمان. المفروض أنك تتابعين الدروس وتساعدينهما. قل شيئًا بالعربية يا مارك. أي كلمة.. حتى أتأكد أنك جاد في عملك كأي رجل. هيا". انحنى فوق الطاولة وسحب طبق مارك من بين يديه، كيلا يوجد أي شيء بين الولد وبينه.

بدأ مارك يبكي بتلك الطريقة المؤلمة؛ ارتعشت شفتاه كما تبكي الفتيات الصغيرات، وسالت الدموع على أنفه. رأى سالم وجه جود.. كان أبيض. قالت بصوت منخفض: "يكفي يا سال.. لو سمحت". من وسط شعلة غضبه وإشفاقه على نفسه، انبثقت رغبة في أن يمد يده إليها ليواسيها، وليعتذر منها. لكن صورة تلك الدبابات الإسرائيلية دعست هذه الرغبة، فساوتها بالأرض.

سمع نفسه يقول لها: "لو أنك قمت بمهامك كما يجب لما كان ضعيفًا رخوًا هكذا. لكن يبدو أنك لا تريدين أن يكون أحد أولئك العرب المجانين.. صحيح؟"

لاحظ أن صوفي بدأت تبكي أيضًا. عيناها اللوزيتان مغرورقتان بالدموع. من أين تخرج هذه الكلمات الفظيعة؟ أي بشر أنت؟! نهض من كرسيه غاضبًا منهم مذهولاً من تصرفاته، فهب إلى غرفة النوم وأغلق الباب. شعر براحة الصمت تغشاه وتحميه من العاصفة الهوجاء بداخله.

***

دعتهم زوجة ماير لرحلة إلى الشاطئ في نهاية ذلك الأسبوع. وصلت جود بابتسامة دافئة، مسلّحةً بكل الحقائق الأساسية التي تحتاج إليها لعقد صداقة جديدة: اسم زوجة ماير هو آن، وهي تتولى منصب أمينة سر نادي السيدات الدولي، ولها ثلاثة أولاد بالغون يعيشون في نيويورك.

فوق رمال الخليج الحامية، صافحتها آن ماير مصافحة رخوة وهي ترتدي قبعة شاطئ متهدلة على رأسها، كأنها فراشة أنهكها الهواء الملتهب. أثنت على طفلي جود "اللطيفين"، وتذمرت من "الحرارة الفظيعة". ثم استدارت نحو ضيوفها الآخرين.

ركضت صوفي فجأة لتنضم إلى مجموعة الأجساد الصغيرة المغطاة بالرمل التي تلهو عند حد الماء. نادت جود: "كوني حذرة يا قطتي!"، لكن ابنتها لم ترد إلا بتلويحة من ذراعها وهي تثب في سعادة. استلقى مارك تحت المظلة، يخط أجسادًا على الرمال. على مبعدة من الشاطئ، داخل البحر الأزرق، كانت هناك جزيرة صغيرة شكّلتها كومة من الرمال البيضاء. فكّرت جود:

هذه الجزيرة لا تبعد أكثر من مئة ياردة من مكاننا. في زمن مضى، كنت سأسبح إلى هناك دون تفكير.

استحضر اندفاع البحر وصراخ الأطفال صدى ذكريات بعيدة. صخب نادي ويرسايد، واختبارات فريق الناشئين، وبريق تلك الصداقات. حياة أخرى، وطريق آخر لم يُسلك. احتضنت ركبتيها إلى صدرها لتخمد الألم المفاجئ، ثم التفتت إلى سالم.

كان واقفًا بجانبها ومعه كاميرا السوبر 8 في يده، وعدستها مسلّطة على صوفي وهي تقفز وتلعب. تلاقت أعينهما فركع بجانبها. جسده بني كالرمال الداكنة. وضع يده على كتفها. منذ ليلة الشجار الغريب تلك وسالم يتقلب في تعامله ما بين الندم تارة والتحدي تارةً أخرى. كانت تطمئن نفسها أن هذا بسبب ضغط العمل على المناقصة ليس إلا. ثمة ضغوط رهيبة على الرجل كي يثبت خطأ الآخرين وينجح في مقامرتهم غير المحسوبة.

"أنتِ بخير يا حبي؟" رأت قلقه عليها مخطوطًا على قسمات وجهه، فشعرت بالشفقة عليه. هذه هي اللمحات الصغيرة الجميلة التي تذكّرها بأنهما نغمتان على إيقاع واحد، مدوزنتان على آلة واحدة. أن روح أحدهما تطلب، فتستجيب الروح الآخر ملبيةً.

ابتسمت له، ثم أشارت إلى الشاطئ. "أنا بخير. انظري إلى صوفي". كانت ابنتهما تثب بسعادة مع فتاة أخرى على الرمال الدافئة. "إنها لا تخاف أبدًا".

ضغط سالم على كتفها وقال: "مثل أمها بالضبط". طفرت الدموع في عينيها. اختلطت همهمة مارك الجالس بجوارها مع صوت تلاطم الأمواج، وارتطام الذكريات القديمة بحاضرها. انسياب قطرات المطر على جبينها

عندما قبّلها سالم لأول مرة، ساعة ولادة طفليها، والإحساس بالخواء التام في جوفها بعد خروج مارك أخيرًا من جسدها، بعد ساعات من خروج أخته. كانت فرحة سالم بطفليه لا تُوصف، يخرجهما من مهدهما ويقرّبهما إلى النور، والسعادة العميقة تشع من وجهه.

حتى اسميهما كانا مميزين. علمان مغروسان على الأرض يعلنان للعالم حقهما في اختيارهما. سميّا صوفي نسبة إلى صفية، زوجة الرسول اليهودية القوية التي كانت السبب في إسلام قوم من الكفّار. أما اسم مارك فكان اختياره أصعب. فالتقاليد تفرض "سعيد" اسم والد سالم عليهما، لكنهما دفناه بعد اسم مارك من أجل إحياء ذكرى الجد الذي أنقذ حياة ربيكا. وكم كانا فخورين بهذه الأسرار الصغيرة المخبأة في طفليهما، تربط حياتهما السابقة بحياتهما الجديدة التي يبنيانها معًا.

"هل تحدثتِ مع آن؟" كانت عينا سالم معلقتين بأصحاب ماير، وهم يشربون البيبسي تحت مظلة كبيرة.

أجبرت جود نفسها على الرجوع إلى الحاضر. "قليلاً".

"أتمنى أن تكونا صديقتين. اسمعي.. سأحضر لك شرابًا". ثم وقف وسار نحو حافظة المشروبات الباردة.

تابعته بنظرها. كان يحمل علبتيّ بيبسي ويحوم حول شلة الرجال الضاحكين، وعلى وجهه تعبيرٌ يفضح ضيقه بمقابلة ابتساماتهم بابتسامات لا تنقطع، وهم مع ذلك يتجاهلونه.

على الطرف الآخر من الشاطئ افترشت أسرة عربية كبيرة الأرض، ورائحة الشاي بالهيل تهبّ مع نسيم البحر تجاههم. لاحظت أن عيني سالم تنتقلان لا شعوريًا إليهم من حين لآخر. فهمت شعوره، السؤال الذي لم

يُنطق، البحث عن حضن مستعد للاحتواء.

تركت مارك وذهبت لتقف إلى جانبه. أخذت إحدى العلبتين من يده فنظر إليها، ورأت الإحراج في عينيه، فكان أن نادت آن المستلقية على أحد كراسي الشاطئ تقرأ مجلة. "مرحبًا آن.. أتريدين أن أحضر لك شيئًا؟"

"لا. شكرًا". لم يتحرك في آن شيءٌ سوى اليد النحيلة وهي تهوّي نفسها بالهواء الساخن. جرب سالم هذه المرة. قال: "آن، أتعلمين أنك وجود كلاكما مهتمتان بالتدريس؟ سوف تعمل جود في مدرسة الكويت العالمية.. كانت تحضّر للحصول على الماجستير في الآداب قبل أن نأتي إلى هنا. سمعت أنك عملت بالتدريس كذلك".

أصدرت السيدة ماير صوتًا غير واضح من حنجرتها، شيء ما بين الموافقة والتجاهل. أحنت رأسها كأنها تريد أن تنام. وقف سالم ينتظر ومعه علبة البيبسي. كان واقفًا يحدوه الأمل في أن تمنحه اهتمامًا أو إجابةً. ذاقت جود طعم الكراهية الشرسة. هذه البعوضة الحقيرة. تساءلت أين بيغي الآن، وعلى أي شاطئ تستلقي، وكتف من التي تخدشها بأظافرها الوردية.

استدارت بحدة بعيدًا عن سالم، وسارت بخطوات حانقة نحو الماء، وعيناها شاخصتان على الجزيرة الرملية الصغيرة. حطّ نورس وحيد على الرمال البيضاء النقية، صورة تجسد معنى الانعزال التام. تحوّل غضبها الشديد نحو سالم.. هذه الإهانات المتتابعة خطؤه هو. الثمن الذي يدفعونه لإرواء عطشه الذي لا ينتهي للحصول على القبول. لقد تركت بلدها من أجله. حبست تاريخ أسرتها في الصندوق مع المينورا التي ورثتها عن ربيكا، لكن حبها وحدها لم يكن يكفيه. غيرتها تريده أن يهرب، أن يرمي ترفّعهم في وجوههم الضاحكة ويهرب.. لكن هل سيكون هذا أفضل؟ هل أسعدها هروبها من الذل مرةً، وطرح كل أحلامها على باب منزل بيغي؟ كنتُ

الأفضل.. أفضل سبّاحة في تلك السنة. كان يجب أن أنضم إلى الفريق.

حرّكت قدميها نحو الماء، وشعرت به يمسّدهما. ماء هذا الخليج الدافئ المالح لم يكن يشبه ماء وايرسايد الأخضر البارد. لكنها تستطيع أن تتخيل السيد هيكس يصيح بها: "تحركي يا جوديث! هيا! هيا!" شعرت برغبة في أن تقف على تلك الجزيرة الصغيرة وأن تنظر إليهم من بعيد. أرادت أن تكون فتاة مرة ثانية، وكل شيء باقٍ أمامها جديدٌ لم تجربه.

كان البحر لطيفًا، أمواجه هادئة، وحرارته معتدلة. تحركت ذراعاها فيه. حرّكت ساقيها فعاد إليها ذلك الإحساس المذهل. جسمها الممدود يعرف حدوده في الماء، ويشعر بمقاومة البحر وسرعة حركته، رغم ألم العضلات التي لم تتحرك منذ زمن.

وفي منتصف المسافة، جرّها التيار.

شعرت في البداية بشيء يجذب ساقيها. ثم رأت الجزيرة تبتعد أكثر وتنحرف عنها يمينًا.

والآن أحكم البحر قبضته حولها، وذراعاها تصارعان الموج في معركة غير متكافئة. ظلّت تناضل لأن الغريزة تأمرها بأن تحاول أكثر. ضربت ذراعاها وساقاها الماء، لكن سرعان ما أصبحت ضرباتها وركلاتها بلا هدف، والقوة تتسرب منها لتتحد مع جبروت البحر.

يمكنني أن أصل إلى هناك. لكنها لم تعد تعرف أين موقع الجزيرة الرملية، والشمس تحرق رأسها. حمل التيار السريع جسدها، كأنها يأمرها بأن تستسلم لقوة القيد.

عومي بشكل مائل. ملأت الفكرة ذهنها. لكن الموج يكتسحها الآن من كل جانب. دخل الماء فمها فاستنشقته داخل رئتيها. لم يكن الأكسجين

كافيًا. يجب أن تصل إلى البر.. دفعت نفسها نحو الفراغ، ثم غطست. تاهت. ذراعاها أضعف. تتحرك في دوامات سريعة.

ارتفع رأسها للحظة فوق سطح البحر. رأت الأطفال بوضوح على الشاطئ، كأنهم رسومات من كتاب. وفتاة تشير بيدها نحوها، إما أنها تضحك أو تنادي.

ثم شعرت بذراعي شخص ما حولها، رفعتا رأسها وأرستا جسمها. كان الشاطئ قريبًا، مسافة قصيرة تفصل بينها وبين الأمان. وعندما وضعت رأسها على صدر الرجل، سمعت دقّات قلب سالم العنيفة تنبض مع دقات قلبها، وهو يجرها معه نحو الشاطئ.

خرجا من الماء فسقطت على ركبتيها فوق الرمال. سقط هو بجانبها، والماء يتقاطر من جسده، وذراعه تعتصرها. كان يصيح بالكلمات بلا إدراك: "ماذا كنت تفعلين؟ هل جننتِ؟" كان مارك معهما أيضًا متمسكًا بساقيها، وصوفي تحشر نفسها بينهم، حتى أصبحوا كتلة من الأطراف البشرية، والوجوه المغطاة بالرمل والدموع الحارة.

حاولت أن تمدّ يديها نحوهم، لكن ذراعيها لا تتحركان بأمرها. وأذرعهم حولها في كل ناحية أقوى وأكثر أمانًا. "آسفة جدًا". هذا كل ما استطاعت أن تهمس به فوق كتف سالم، وفمها ممتلئ بطعم عرقه.

اختنقت الكلمات في حلقه، وهم متعلقون ببعضهم، منصهرون في كيان واحد. "لا يهم. نحن هنا معًا الآن. نحن بخير". حلّقت الكلمات حولها مع نبض الأمواج، مغرقةً أي شيء آخر. نحن هنا معًا الآن. نحن بخير. نحن بخير. نحن بخير.

***

كل شيء تغير قبل رحلة بغداد بأسبوع.

أولاً، ماتت شجرة مارك. كافحت المسكينة وتمسكت بأهداب الحياة خلال أشهر شتاء الكويت القصيرة، ثم استسلمت أخيرًا، فالتوت أوراقها الخضراء وأصبحت جافة صفراء، ثم تساقطت بلا حول ولا قوة على الأرض. أراد سالم أن يقتلعها، لكن مارك أخذ يبكي بحرارة من مجرد اقتراح الفكرة. أحاطت صوفي في نهاية المطاف الجذع الضامر بالأحجار، فصار شكلها نذيرًا بالسوء. كره سالم رؤيتها عندما يغادر منزله كل صباح، شيء ما بين المقام المقدس والقبر.

في اليوم الذي حجزوا فيه تذاكر رحلة بغداد، دخل إريك، الذي رشّحه ماير ليكون مساعد مدير المشروع، مكتبَ سالم. كان وجهه أكثر شحوبًا من طبيعته، وحاجباه معقودان في حيرة.

سأله سالم: "ما الأمر؟" كان لإيرك شعر أحمر ناري، وعينان تدمعان دومًا بسبب الحساسية، وأنف يبدو كأنه سيسقط من على وجهه. شبّهته سكرتيرة ماير بالنار وخرطوم المياه إذا اجتمعا في جسد واحد.

أجاب وهو يشير إشارةً ذات مغزى إلى جهاز الهاتف فوق مكتب سالم: "يوجد اتصال لك عبر هذا الهاتف. أعتقد أن من الأفضل أن تسمع الأمر بنفسك".

رفع سالم السماعة، وضغط الزر الأحمر الوامض الذي يشير إلى أن هناك مكالمة تنتظر. استقبلته فرقعة الخط مباشرةً. صاح: "ألو؟"

"أستاذ سالم.. شلونك؟" أتته التحية العراقية من عبد الرحمن، وكيلهم في بغداد. "أريد أحكي لك حكي سمعته اليوم. اهوايه مهم". زعق الخط

فجأة، فأبعد سالم السماعة عن أذنه. كان ذلك صوت صفارة إنذار من إحدى السيارات. يبدو أن عبد الرحمن رأى أن من الحكمة أن يتصل به من هاتف عمومي.

"ما الذي حدث؟" قالها بالإنجليزية ليفهم إريك الواقف أمامه.

صاح عبد الرحمن: "رحت للرشيد على مود أتأكد من الحجز". كان الرشيد واحدًا من أفخم الفنادق في بغداد، وقريبًا من القصور الرئاسية. "كنت أريد أخذ حجرة قبل ما توصلوا بأيام، على مود أحضر نفسي يعني.. بس البنية اللي تشتغل بالاستقبال قالت ما ممكن تحجز. قالت اكو مجموعة ثانية جايين.. شوية أميركان من البحرين. خليتها تراويني الاسم.. طلعوا كوران آغاتي. الجماعة جايين من كوران للعراق خلال ثلاث أيام. خابرت مكتب الوزير وأكدوا لي كل الحكي. الأنذال سبقونا. راح يتفاوضوا كوران ويّا الوزير، وينطوه المقسوم وياخذوا الصفقة. وانتم راح تجون تسلمون ثم تودعونا".

شعر سالم بالدوار. "أنت متأكد؟"

"بلي حبيبي. متأكد. نصبوا علينا. شتريدنا نسوي؟"

ليس لدي أي فكرة. "سوف أتصل بك بعد عشر دقائق يا عبودي. أعطني رقم الهاتف الذي تكلمني منه، وابقَ هناك". أقفل السماعة. نظر إلى إريك وتساءل بماذا يفكر الشاب الآن؟ لابد أنه يظنه مجرد عربي فاشل. والعالم مليء بهم.

سأله إريك عاقدًا ذراعيه النحيلتين على صدره: "أتحب أن نبلغ ماير؟"

مستحيل! قال سالم: "ليس بعد. أمهلني خمس دقائق فحسب". أومأ إريك، وخرج من الباب متمهلاً. بقي سالم لوحده. تملّكه الذعر الذي يحمل

معه أفكارًا عصبية. لم يحسبوا الأمور بشكل صحيح.. أخطأوا في التوقيت، وسوف يسبقهم آخرون إلى هناك.. وسوف يكون هو الرجل الذي قاد الشركة إلى الكارثة والفشل.

اتّجه نحو النافذة ينظر إلى المدينة والصحراء الكبيرة الخالية وراءها. وفي الشوارع أسفل منه انعكس وهج الشمس على السيارات الفارهة. ذكّرته بالسمك الفضي الذي يعوم قريبًا من فكيّ الصحراء المفترسة، قريبًا جدًا من الفناء.

كانت صورة جود والتوأمين على الرف بجانبه. لفت شعرها انتباهه على الفور فأثار فيه ذكرى.. العبارة اليديشية التي تكررها دائمًا.. كن مينش.. كن جسورًا. من السهل عليها طبعًا أن تؤمن بهذا، ومن السهل أيضًا على ماير. فهو ولدوا ليسودوا. والقوانين دائمًا في صالحهم، فلم يضطروا في حياتهم إلى شق طريق خلفي.

وفي تلك اللحظة رأى طريقه الخلفي واضحًا كقرص الشمس. لم يكن ماير ليعرف هذا الطريق، لكن أي عربي سيفهم فورًا. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة.

قطع الطابق حتى نهايته ليصل إلى مكتب إريك، وقلبه ينبض بعنف مع كل خطوة. رمى رقم هاتف عبد الرحمن أمامه وقال: "اسمع.. أريد أن تتصل به، وتأمره بحجز كل غرفة في الرشيد لليلة الغد. سوف نذهب للقاء الوزير في بغداد. احجز الرحلات وأبلغ الفريق".

اسودّ وجه إريك المنمش، وانحدرت قطرة عرق على طرف أنفه. "لا يمكن أبدًا.. أقصد.. نحن لسنا مستعدين. وليس لدينا حتى موعد مع رمضان. يبدو أنهم غير مهتمين بلقائنا".

قال سالم، وهو يشعر لأول مرة بالتجلي، لأن معرفته هذه المرة تفوق معرفة أي شخص آخر في الفريق: "وماذا لو أن هذا صحيح؟ أكانت صديقتك مهتمة بلقائك في المرة الأولى؟ زوجتي لم تكن مهتمة أبدًا. ما بين اليوم وغدٍ، سأثير اهتمامهم".

ترك إريك، وسار إلى الطرف القصي من الطابق. تنفس الصعداء عندما وجد عمر في مكتبه. كان الشاب قد قاطعه تقريبًا بعد أن علم بقرار سالم. وعندما قابل عدنان سالمًا في حفل عشاء بعد ما حدث بأسبوع شعر بالبرودة في تعامله، رغم أن الرجل المسن كان مهذبًا طبعًا. فقد هزّ رأسه أسفًا وقال: "خسارة إنك وعمر ما صح إلكم تشتغلوا مع بعض". وعندما كانا يتحدثان عن السياسة أو السفر، ربّت على ذراعه وقال: "لازم نتنبه من هذول الأميركان. وإلا يا سالم؟ بتفكر إنهم صحابك، وبترمي حالك عليهم، بس في الآخر راح يتذكروا مين إنت".

اتسعت عينا عمر دهشةً عندما رأى سالمًا مقبلاً. "سالم! شو هالمفاجأة.. إنت بخير؟"

"مش كتير منيح الحقيقة". جلس سالم على طرف مكتب عمر. "لما رحت ع بغداد آخر مرة تعرفت على هديك المغنية.. شو اسمها؟"

"حنان".

"مضبوط. حكيت لي إنها قريبة كتير من رمضان". كان طه رمضان هو وزير الصناعة في العراق. الرجل الذي وعد بالكثير، ويريد الآن أن يقدم ما وعده لكن لأيدي أشخاص آخرين.

أجاب عمر والحيرة واضحة على وجهه: "صحيح. وإذا؟"

"بدياك تحاكيها ع التلفون هلّا. ما بيهمني كيف، بس لازم تعطيني رقم

طه الخاص. لازم احكي معه اليوم، وإلا كل المشروع بينهار". رأى ملامح عمر تقسو وهو يجيب بسخرية: "مفهوم.. يعني هلّا بقدر أخدمك يا سالم.. منشان مستقبلك".

هزّ سالم رأسه محاولاً إخفاء يأسه. قال: "ما بقدر اغيّر اللي صار. بس لو نجحنا في هدا يا عمر راح أمسكك بنفسي من ايدك وأدخلك على مكتب ماير واحكي له إنك إنت اللي أنقذتنا". رأى سالم أن الأفكار تتنازع في عقل عمر. صراع ما بين الطموح والذل والبغض. صراع يعرفه حق المعرفة. وعندما تناول عمر سماعة الهاتف عرف أن الطموح كسب الحرب. تنفس بارتياح، ثم عاد إلى مكتبه ليهدئ روع إريك، ويقود الفريق التقني الذي أصابه الذهول.

أرجأ الاتصال إلى الليل، قبل عشر ساعات فحسب من مغادرة رحلتهم. نجح عمر في الحصول على الرقم السري، وهو الآن في يد سالم. شعر بالجفاف في حلقه. رفع سماعة الهاتف.

لم تكن الافتتاحية مبشرة بالخير. سأله رمضان بغضب: "من وين جبت الرقم؟"

أجاب سالم بأفضل لهجة عراقية يستطيع محاكاتها: "من عشيقة معاليك. كانت تريدني أتأكد انو إنت مو ويّا وحدة غيرها". إما أن تصيب أو تخيب.

هبط الصمت على الطرف الآخر من الخط، ثم سمع ضحكة عالية مجلجلة. قال الصوت العميق: "هذول الأميركان... اهوايه جادين. ما مصدق إني راح اشوفكم مرتين بأسبوع واحد".

أجاب سالم: "والظاهر إنت راح تشوفنا قبل ما كنت مفكر معاليك. احنا جايين نقابلك باكر. مشتهي أعزم معاليك على أكلة سمك مسكوف على

دجلة". لقد قرأ في مكان ما أن الطبق العراقي الشهير هو الطبق المفضل لدى رمضان، وهو عبارة عن سمك شبوط يصطاد من النهر، ثم يُشق من الظهر حتى عموده الفقري فيفتح في دائرة تامة، ثم يرش بزيت الزيتون والتمر الهندي، ويشوي ببطء على نار الحطب.

سعل رمضان. "عيني أتمنى لو كنت أقدر. بس جدولي اهوايه مزدحم باكر. ولويش مستعجلين؟"

احتاج سالم إلى كامل شجاعته للاستمرار. "احنا علشانك راح نجي بدري. نحن نقدر ندفع إلكم أكثر من كوران. عرضنا أحسن كثير من عرضهم. لكن لو هم اجوكم قبلنا، راح نكون مثل الرجال اللي دخل على عروسه وهو عارف إن فيه رجال ثاني دخل قبله. ورئيسي ما راح يرضى بهالشي أبدًا. وراح تعلقوا إنتم مع أقل سعر".

كان الصمت مستمرًا من الطرف الآخر، عدا أزيز أنفاس رمضان الثقيلة. قال أخيرًا: "وأني لويش أهتم أي واحد من الأميركان نتعاقد ويّاهم؟ مو كلكم مثل بعض؟"

"أنا مو أمريكي معاليك". سحب سالم نفسًا عميقًا. "وإذا ما قابلتني ما راح تعرف شلون أفرق عنهم". أفلتت ضحكة سريعة من رمضان، لكنه لم يتكلم.. وهذه إشارة جيدة.

أردف سالم: "نقدر نسميها زيارة صديق. حتى ما لازم نخليها رسمية وندخل مكاتب. أقدر أدبر إلنا مكان أحسن.. مكان أشرح للقلب".

خرجت سعلة أخرى من الطرف الآخر. "هسه إنت تقول إنك جاي، براحتك.. أنا ما أقدر أمنعك". بدا لسالم أن رمضان ينتقي كلماته بعناية، فقرر أن يفعل مثله.

"راح نوصل بكرة الساعة احدعش الصباح. أتمنى أشوف معاليك في المطار".

قال رمضان: "يلّا.. الوقت متأخر. تصبح على خير يا سيد سالم". أغلق السماعة، فظلّت رنة نهاية المكالمة تتردد عاليةً في أذن سالم.

***

حلم تلك الليلة ببيت الشموطي.

كان وراءه في نهاية شارع طويل مضاء. والشمس فوقه بيضاء كشعر مارك تنسدل في خصلات حتى تصل الأرض، وتحجب الهواء.

وأمامه كان طفل يركل كرةً. ظلل سالم عينيه ليرى: كان الطفل هو مازن. لكن مازن تغير بطريقة ما فأصبح حسان ورافان وهما رجلان، والكرة تتجه نحوه بسرعة شديدة حتى إنه لم يستطع أن يمسكها. أفلتت منه الكرة وسط ضحكاتهم، لكنه لم يستطيع أن يجدها. همس بيت الشموطي وراء ظهره، ونادته أمه من الداخل.

نظر فوق رؤوس الأولاد-الرجال الواقفين كالأطياف على الطريق باحثًا عن البحر، لكن المكان كان مظلمًا ساكنًا.

تصاعد الذعر في قلبه، وحاول أن ينتشل نفسه منه، فتقلّب وتقلّب حتى ارتطمت يده بالأرض. عندها استيقظ والغطاء ملتفّ حوله، لا هو في سريره ولا هو على الأرض. متعلق في المنتصف.

***

هبطت الطائرة في صباح اليوم التالي على إسفلت المدرج في الفرن المسمى بغداد، تحييها كفّا الرافدين المنهكتان. وبينما العجلات تزعق محتجّةً، دعا سالم أي إله ما زال حيًا في قلبه.

لم يكن الفريق قد ناموا أو أكلوا شيئًا، وما استطاعوا النظر إلى بعضهم. إن كنتُ قد أحضرتهم إلى هنا من أجل لا شيء فلن يسامحونني أبدًا.

كان هناك وقت للإيمان، وقت للتصديق بالعدالة الكونية، وقد حاول سالم البحث عنه بداخله. لقد أعطى كل ما عنده، وخاطر بكل ما لديه. هذه النخلات المتمايلة، وسعفها الأخضر المرحب بهم.. أهذه علامة ما؟ كان النخيل محمّلاً بالتمور التي شارفت على النضج. صحيح أنها أصغر من البرتقال، لكنها لا تقل عنها حلاوة. هل فقد قطافه الأول ليُكافئ بمحصول أفضل هنا؟

انتهوا من إجراءات الجمارك، ودخلوا إلى صالة القدوم. تقاطر الأطفال والنساء من حولهم، ورجال شيوخ وشباب يحتضنون بعضهم. لكنهم لم يروا أحدًا من الوجهاء أو المسؤولين. انقبض قلب سالم الذي كان طائرًا على جناح الأمل. انتهى الأمر.

عندها شعر سالم بإريك يقبض ذراعه بقوة ويشهق. انفتحت البوابة ودخل منها رمضان تصحبه موجة صيفية حارة، ونائبه ووفد لاستقبالهم. أتى العراقيون. عرف سالم في تلك اللحظة أنه أصبح أخيرًا الرجل الذي يحلم أن يكون... الفائز في السباق، سيد قدره.

***

كانت لحظة الهبوط على أرض الكويت بعد ثلاثة أيام هي اللحظة الذي

تذوّق فيها طعم الانتصار الخالص لأول مرة. تطلّع من سيارة الشركة إلى زرقة الخليج العربي الشاسعة، فشعر بنشوة الفوز. إنه يعلم أنه حقق معجزة. ذهل المديرون التنفيذون الشباب من تصرف رجل حقيقي. حتى إن عبد الرحمن، البغدادي العبوس الذي لفحت نار بوتقة السياسة العراقية جلده حتى غَلُظ، صافح يده بابتسامة خبيثة وقال: "مبروك". وفي حقيبة سالم العقد الموقّع الذي كاد أن يكون مصيره قبل بضعة أيام في حوزة شركة أخرى. وطبعًا سوف يحظى ماير بالتقدير ويتلقى جلّ الثناء، لكنه سوف يكلّف سالمًا رسميًا بتولي منصب المدير العام.

كان المصعد الذي حمله إلى طابق ماير هو الموديل نفسه الذي ستركّبه الشركة في بنايات بغداد الحكومية وفي منطقة الأعمال والتجارة. ارتفع المصعد به في انسيابية. دفع سالم ذراعيه إلى جداريه المعدنيين الأملسين. صندوق حديد يحمل مصير إنسان. أغلق عينيه وشعر بشدّ الجاذبية يتقلص بينما تقنية أوديل تتحرر منها.

كان جذل ماير كما كان يتصور سالم، وكما تخيل مرارًا أثناء الرحلة من بغداد. "كانت تلك حركة جريئة يا سْلِم! ولا رجل عادي يفكر أن يفعلها".

استرخى سالم في الكرسي الجلدي وقال: "كان الفريق مذهلاً. كل شخص قام بدوره على أتم وجه، وأعدّوا العرض وقدموه رغم سهرهم وإرهاقهم".

"يجب أن يحصوا على علاوة، ألا ترى أنهم يستحقونها؟" سار ماير عائدًا إلى مكتبه ودوّن ملاحظة. يبدو أنه كان يفضل أن يخاطب سالمًا وهو جالس على طرف مكتبه.

"طبعًا. لا شك". تذكر وعده لعمر، يستطيع الآن أخيرًا أن يزيح الإحساس بالذنب المتعلق برقبته. "يجب أن تعلم أنني ما كنت لأنجح بالمهمة

لولا عمر الخضرة. هو من أعطانا المفتاح لباب رمضان السري. الحمد لله أن الشاب يستمتع بحياته الاجتماعية".

"حسنًا.. ربما يمكننا أن نركز عليه. أن نعطيه منصبًا في التواصل والإشراف عندما تبدأ العجلة بالدوران في بغداد. صحيح؟"

مرّت ذكرى عابرة في عقل سالم: البغض على وجه مازن، تجاهل أبيه المستمر لوجوده، تعالي زملائه في أول وظيفة.. أولئك الإنجليز العظماء. قال مخفيًا ابتهاجه: "يريد العراقيون أن نعيّن واحدًا منهم في المشروع كذلك. كان ذلك أحد الأمور التي اتفقنا عليها بطريقة غير رسمية مع رمضان".

قال ماير: "إن كان هذا ما تراه". وقف مرة أخرى، فجلس على مكتبه وبيده ملف. "سْلِم.. حان وقت منحك المنصب رسميًا. لقد تجاوزت كل التوقعات كما تعلم. أنا سعيد أن دوغلاس رشّحك للعمل معنا. لقد أعددت العقد. يمكنك طبعًا أن تطّلع عليه كما تشاء، لكنني سوف أكون مسرورًا إن وقّعت عليه هنا الآن". ناول سالمًا الملف، وعيناه الرماديتان تنظران إلى سالم بلا أي انفعال.

أخذه سالم بيدين مرتعشتين. ارتفع صوت دقّات قلبه كهزيم الرعد في أذنيه وهو يقرأ الصفحة الأولى، مغرقًا صوت ماير: "وستكون هناك علاوة عند التوقيع طبعًا. وأنت تستحقها بلا شك".

أحس سالم بالبرودة تمس أطراف أصابعه. رفع بصره إلى ماير. حاول أن تظهر نبرة صوته لامبالية: "ثمة خطأ هنا يا جون. مكتوب في هذا العقد أن الوظيفة هي نائب مدير. كان اتفاقنا أنها ستكون مديرًا عامًا".

تململ الأمريكي في جلسته، عيناه ثابتتان كانعكاس مرآة. "أنا مندهش أنك تظن ذلك يا سْلِم. لقد تحدثنا عن عدد من المناصب الشاغرة حاليًا،

ومنها وظيفتي المدير العام، ونائب المدير. وكنتَ تقوم بمهام كلا الوظيفتين في الحقيقة، وقد أديت المهام بشكل مذهل، وأنوي أن أظهر تقديرنا لك.. هذا العرض جزء من تقديرنا لك".

نهض سالم وواجه ماير بعينين ثابتتين. "أنا أتذكر حديثنا وكل كلمة منه. أنت قلت إنني سوف أكون تحت إدارتك مباشرة. أنني سأكون نائبك".

"وقد كنتَ كذلك فعلاً. أما الآن فهيوستن سوف ترسل شخصًا. رجل موهوب وذو خبرة في الشركة تتجاوز العشرة أعوام. إنه رجل رائع. أنا واثق أنك سوف تحب العمل معه".

"لكن هذه هي وظيفتي". شعر سالم بالألم ينتشر بداخله كأن لكمة قوية سدّدت إليه.. تحول الفتور والذهول إلى ألم مضنٍ. "لقد بذلت كل جهدي لأستحقها. أنت وعدتني بها".

انتصب ماير واقفًا ينظر إلى عينيّ سالم ببرود، كأنه منحوت من الغرانيت، قطعة سقطت من صخرة الأندروميدا. انصبّ صوته في أذن سالم كالـحديد المُذاب: "يؤسفني أن يكون هذا شعورك يا سْلِم. يؤسفني أن كان بيننا سوء فهم، أو أن سقف توقعاتك كان مرتفعًا". نظر سالم إلى الموجات البيضاء التي تضرب البحر الواسع خلف رأس الأمريكي.

"لا أدري إن كان في هذا عزاء لك، لكنني أؤكد لك أنه لم يتولَّ شخص غير أمريكي منصب المدير العام في شركتنا على الإطلاق. قد يكون هذا خطأً، لكن هذا هو الواقع. إذًا فما زالت هذه الوظيفة فرصة فريدة لك. سوف توفّر حياة رغيدة لك ولأسرتك، وسوف تُثرى بنفس السرعة. لكن إن لم يعجبك العرض... فأنا أتمنى لك حظًا وافرًا".

مدّ ماير يده لسالم، فصافحها بلا شعور، ونبضاته كالقنابل تدوّي وهو

يمسك الكف الخشنة التي لمست كفه.

"أنت رجل ممتاز يا سْلِم. وسوف تحظى بكل تقدير في أي شركة". أفلت ماير يده وأشار إلى الباب. "والآن لِمَ لا تذهب إلى البيت؟ استرحْ وفكر بالأمر. كانت الأيام الماضية مرهقة جدًا لك".

اضطر سالم إلى استعمال القوة كي يجبر جسده على الحركة، وأن يجبر نفسه على ألا يجادل أكثر ويهين نفسه أكثر. ليت معي قبعة أمدّها نحوه كي يكرمني ببعض النقود. خرج من المكتب كأنه شاخ فجأة، ومر أمام السكرتيرة الضجرة نحو باب المصعد الفولاذي الذي انفتح له كأنه ينتظره.

دخل المصعد فشعر بدوار. لاحظ بعد لحظات أن الصندوق بدأ رحلته في النزول نحو الأرض، مستسلمًا للقبضة التي تُحكم وتشتد كلما حاول الفرار.

***

سمعت جود صوت سيارة سالم وهو يركنها في المرآب في ساعة لم تتوقع عودته فيها. نهضت من مكانها فسقطت الإخوة كارامازوف على الأرض. كانت مقابلتها الوظيفية مع مدرسة الكويت العالمية صباح الغد. وقد قضت يومها كله تسترجع قراءاتها منذ أيام الكلية، وتخرج كتبها القديمة، وتوسّع بفرح مكانًا على الأرفف لاستقبال المزيد من الكتب.

رأت زوجها من خلال زجاج الباب الأمامي يعبر مدخل الفيلا. كانت الشمس تغرب خلف كومة من الإطارات المهملة وركام الحجارة في الأرض الخالية المقابلة للطريق الترابي. كان قد خلع سترته وأرخى ربطة عنقه، وكان يحمل كرتونًا في ذراعيه.

وقف بجوار شجرة مارك المحبوبة الميتة. مدّ يده ببطء يلمسها. كانت

الأغصان الصغيرة العارية تلمس الهواء الجاف، كأيادٍ أعلّها الضمور.

لم تفهم في البداية لماذا يقف سالم هناك، وأغراض مكتبه تحيط به. ثم شدّ ما أفزعها أن تراه يمسك المجرفة المسندة بالقرب من البوابة، ويحفر الأرض.

لم تدرك أنها كانت تجرى إلا بعدما فتحت الباب الأمامي بقوة وهي تصرخ من على الدرج: "سال! لا تفعلها!" انزلقت قدماها الحافيتان على البلاط المغطى بالغبار. ثار تراب من الأرض الجافة حوله في سحابة صفراء مع كل ضربة.

كانت جذور الشجرة الصغيرة مكشوفة. ترك سالم المجرفة وأمسك الجذع فاقتلعه من الأرض. ارتفعت الجذور المتشابكة وتمزقت، فانهال التراب يملأ الحفرة. شعرت جود بشيء ينغز باطن قدمها وهي تنزل الدرجات في ذعر. حاولت بكل قوتها أن تشد ذراع سالم بعيدًا عن الشجرة، رغم الغبار الذي يخنقها.

سمعت جود في تلك اللحظة نحيبًا خلفها. كانت صرخة حادّة ثائرة. ثم رأت جسدًا يمر بجانبها ويصطدم بجسم سالم، فسقط الاثنان أرضًا.

كان الفتى يبكي ويتخبط ويحاول أن يسحب الشجرة من يد سالم، والتراب يتجمع على وجهه. وهو يصرخ: "لا.. لا.. لا.. شجرتي!"

قبض سالم على كتفي مارك وصرخ: "الشجرة ميتة! أتفهم؟ إنها ميتة". شعرت جود بالحيرة والذهول، وهي ترى دموع سالم تنهمر على خديه. كان يحاول أن يحتضن ابنه، إلا أن لكمات الفتى الغاضبة تدفعه عنه.

جلس مارك على الأرض يحاول أن يرفع شجرته، أن يعيدها مكانها، لكنها أبت إلا أن تسقط. حاول ثانيةً، ومرة ثالثة بعدها، وهو ينتحب على الأغصان اليابسة التي تكسّرت، وهي تخدشه وتخلّف آثارًا حمراء على ذراعيه.

وقف سالم ونظر إلى جود. كان الأسى يسكن عينيه، ومع الأسى شيء آخر أكثر برودةً... شيء يشبه الاشمئزاز. استدار وتوجه نحو الداخل مارًا بجانبها، وبجانب صوفي الواقفة عند الباب والذعر يطل من عينيها البنيتين.

***

كانت المقابلة الوظيفية هي أول فكرة استحوذت عقلها. كل شيء انهار، كل استعداداتها الدقيقة ذهبت أدراج الرياح. انقلب فناء منزلها الصغير المرتب إلى فوضى عارمة قذرة، ومارك مغطى بالأغصان الصغيرة والدموع والتراب. وعندما انحنت عليه وقالت: "اتركها يا صغيري"، رفع إليها عينين منتفختين يشعّ منهما غضب أزرق.

صوفي هي التي أقنعته أن يمدد الشجرة على الأرض ويغطيها بملاءة. صوفي هي التي احتضنته بين ذراعيها، فاستسلم لها بخضوع وخواء، وجود تضع المطهّر على جروحه. وضعتهما فيما بعد في السرير، وهما يحتضنان بعضهما. كان مارك شاحبًا منهكًا، وصوفي مكتئبة. سألت أمها: "لماذا بابا حزين جدًا؟" أدار مارك وجهه ناحية الجدار. أجابت جود وهي تحاول إبعاد الخوف عن صوتها: "أعتقد أنه سمع أخبارًا سيئة في العمل يا حبيبتي".

وبينما الاثنان ينامان ملتصقين، راود جود أغرب إحساس. شعرت بأنهما مخلوقان فضائيان، ينتميان إلى بعضهما لكن ليس إليها على الإطلاق. جلست معهما حتى هدأت أنفاسهما وارتخت عضلات وجهيهما. جبين أبيض وآخر أسمر لا يفترقان عن بعض سوى بضعة إنشات. جمال يخطف الأنفاس.

عندما هبط الليل، وقفت أمام باب حجرة نومها مترددةً. انفتح الباب بلمسة خفيفة من أصابعها. دخلت بحذر.

كان يجلس على السرير مرتديًا قميصًا قطنيًا وسروالاً قصيرًا، ويحمل بين يديه الصورة التي كانت تسكن رف مدفأتهم. صورة منزله القديم الباهتة والطفل الرضيع أمامه. كان ظهره محدبًا ولوحا كتفيه بارزين.. ظهر المراهق من جسد الرجل. في غمرة غضبها منه وجدت أن قلبها يتألم لأجله.

"لم تحصل على الوظيفة؟" جلست بجواره وتركت مسافة قدر إصبع بينهما.

ناولها الصورة دون أن يرفع رأسه. أخذتها تلقائيًا ومررت أصابعها على وجه الطفل الجميل المصفرّ.

قال بصوت أجشّ: "كانوا محقين عندما كنتُ صغيرًا. أعني ما قاله مازن.. عني وعن أبي. قال إننا أغبياء، مجرد فلاحين بحفنة نقود وأفكار كبيرة. كنت أظن أنه مخطئ. ثم خدع أبو مازن أبي، والآن أراني هؤلاء الأمريكيون أنني بنفس الغباء".

"ماذا حدث يا سال؟" لم ينظر إليها. "كنت أظن أن الأمور جرت على ما يرام".

قال لها: "ما حدث هو أنني فشلت. خيّبت أملك وأمل الأولاد.. وكل شخص".

بحثت عن الكلمات المناسبة في عقلها. "هذا ليس صحيحًا. هذا لا يهمنا".

"بل يهم". نظر إليها وضحك. "قطعتُ كل هذه المسافة من أجل لا شيء".

شعرت بأن الصورة وإطارها ثقيلان في يدها.. ذكرى حديدية تدفعها دفعًا إلى ماضٍ لا تستطع أن تشاركه فيه.

ضغطت أصابعها على الزجاج. "أنا لست لا شيء يا سال.. طفلانا ليسا لا شيء! قد لا توجد أسرة مثلنا في العالم كله. ألا نكون فخورين بهذا؟"

رأته يهزّ رأسه الأسمر. "فخورين؟! سيرى مارك وصوفي دباباتك تدهس أهلي في الأخبار، ويحتاران بصف من يقفان".

تسمرت جود. "إنها ليست دباباتي يا سال. ونحن الآن أهلك.. أسرتك".

خيّم عليهما الصمت لحظات، وتساءلت إن كان سمعها أم لا. ثم قال: "رأيتِ ما حدث في ذلك اليوم على الشاطئ. عربي يتظاهر.. ربما يكون هذا كل ما أستطيع فعله". تذكرت ابتسامة بيغي وراء كتف كاثلين، والباب الثقيل وهو يغلق، فانقبضت معدتها.

توسلت إليه: "فلنعد إلى إنجلترا. سوف تجد وظيفة جيدة هناك. أرجوك يا سال، أنت لست مجبرًا على إثبات نفسك لأي أحد".

خطف الصورة بسرعة من يدها. "ماذا تعرفين أنتِ عن إثبات النفس؟ تريدينني أن أعود زاحفًا على ركبتيّ إلى إنجلترا ليتسلط عليّ أبيض آخر؟ أم لكي أعمل في ورشة حسان؟ أتعرفين؟ لولا أهلك، لولا اليهود لكنتُ شخصًا مهمًا الآن". ارتعش صوته. "صاحب أراضٍ ولي سلطة. وليس هكذا". وضرب صدره براحة يده.

هبّت واقفةً ودموعها تتدافع في سورة غضبها. "انظر إليّ يا سال. أرجوك.. انظر إليّ. أنا جود. زوجتك. هل أنا عدوك؟"

التفت ينظر إليها، فرأت توق الطفل إلى حلمه محفورًا في وجهه. كانت تعاسته وضياعه كتعاسة مارك وضياعه وهو يتشبّث بشجرته الميتة.

قال: "ربما أكون قد سئمت من دور الفلاح الذي يركله كل شخص من كل جانب". انقلب بعيدًا عنها، مستلقيًا على جانبه. "دعيني أنام أرجوكِ".

***

أحسّت جود بتيار الهواء وهي تغلق باب الحجرة، وشعرت بالسجاد البنيّ الدافئ تحت قدميها. كان منزلاً من السهل أن يكون الشخص فيه هادئًا، كل خطوة مكتومة، ومكيّفات الهواء تغطي أي ضوضاء. لكن كلما أوى سالم إلى حجرته بدا أن السكون يجثم على البيت ثقيلاً، مثل كيان ظالم يستحيل الخلاص منه.

دخلت بسرعة إلى الغرفة الملحقة بحجرتها والمخصصة لتغيير الملابس، ثم أغلقت الباب بهدوء وأضاءت المصباح الصغير بجانب المرآة. تناولت من وراء صورة أبراج الكويت التي رسمتها صوفي في الحضانة مفتاحًا صغيرًا. كان ذلك مفتاح الدرج السفلي بالقرب من قدميها، الدرج الذي تحتفظ فيه بحليّها وصندوق بنيّ صغير في نهايته. ارتجّت محتويات الصندوق وهي ترفعه نحو النور.

التمعت الفضة بعد أن أزاحت الغطاء. كانت يداها تألفان شكل ذلك الشيء؛ المينورا التي اعتادت أن تشعلها في الحانوكا، هدية ربيكا لها والغرض الوحيد الذي حملته معها في رحلتها الطويلة من رماد كيشينف. كادت تضحك عندما خطر في ذهنها أن زوجها العربي ينام في الغرفة المجاورة. من كان يظن أن هذا الطريق سوف يوصل إلى هنا؟

أغلقت عينيها، وحاولت جاهدةً أن تسترجع صورة يديّ جدتها، لكنها فشلت. طفرت الدموع من عينيها. بوبي، أنا وحيدة تمامًا. لم تستطع أن تعرف ما اسم هذا الإحساس البارد في داخلها.. بارد كبرودة تلك اللحظة التي

دخلت فيها غرفة ريبكا ورأت الحياة تفارق جدتها.

ثم تتابعت ذكريات أخرى.. ذكريات احتفالات أيام السبت العديدة التي أنارت فيها أسرة غولد شموعها الصغيرة وغنوا صلوات ليلة الجمعة. عرضت عليها دورا شموع يوم السبت هدية وداع، لكن جود رفضت أخذها بأدب.

تذكرت كيف كانت تدع نور الشموع يطوّقها في الغرف المظلمة، ورائحة الشمع، وغناء أمها العالي. كان صوتًا يصل إليها قاطعًا مسافات ومحيطات، موجة عظيمة من ملايين الأصوات التي تمسح وجه الأرض. كم مرّةٍ فكرت بالمدرسة أو كاث أو بيغي، وكانت تريد أن تكون في مكان آخر، أو أن تكون شخصًا آخر؟

التقطت شمعتين ذاب نصفهما من قعر الصندوق، وثبّتتهما في الفتحتين الأخيرتين من فتحات المينورا. سيقولون إن هذا لا يصح، أن هذا محرّم. لكنهم بعيدون جدًا، وأنا هنا.. وحيدة.. في الظلام. أشعلت عود ثقاب من الصندوق وأنارت الشمعتين، فرأت وجهها منعكسًا في المرآة.

كان الوجه الذي يطل من المرآة وجه امرأة غريبة. اختفى شبابها وبدأت الشيخوخة التي بداخلها تزهر. دقّت الظلال أوتادًا في وجنتيها، لكن الضوء المتذبذب جعل عينيها تحترقان بشعلة داخلية لم تعرف أنها تسكنها. انحنت فوق الشموع، وأخفت وجهها في يديها وبدأت بكل هدوء.. تغني.

1982

في ربيع التوأمين الثاني عشر، كانت جود تقود السيارة عائدة من مدرسة الكويت العالمية عندما سمعت الأنباء عن القنابل.

"هششش...". أسكتت ثرثرة الصغيرين الجالسين في المقعد الخلفي، ومدّت يدها ترفع صوت الراديو. أكان ما سمعت هو صوت قنابل؟ كان الصوت يشبه صوت الرعد، دوي عظيم تبعه اهتزاز النوافذ. هبت رياح قوية بعدها، ورأت غيومًا سوداء في السماء. عاصفة رملية. كان ذاك أول ما خطر في بالها. تعلمت أن تخشى هذه العواصف. كانت كل نافذة في المنزل مغلقةً بشريط لاصق، وكل فتحة أو شق مغلقًا بإحكام. لكن عندما تهبّ العاصفة فإن الصحراء الهائجة تختبر دفاعاتهم بأنامل ماكرة، وسوف تجد دائمًا طريقًا للدخول.

لكن الجاني اليوم لم يكن الصحراء. تحدث المذيع عن ست قنابل استهدفت السفارتين الفرنسية والأمريكية، ومصفاة نفط، وأماكن أخرى. كان عدد القتلى سيزداد لولا أن المفجّرين لم يكونوا خبراء في عملهم. وصلت الحرب بين إيران والعراق أخيرًا إلى الكويت، الدولة الصغيرة المحشورة بينهما. كان الأمر كما وصف عدنان صديق سالم؛ عملاقان يتصارعان على قزم يحمل نفطًا.

سألت صوفي: "ما الأمر يا ماما؟ ماذا حدث؟"

أجابت جود: "لا شيء يا حبيبتي. إنهم يتحدثون عن الحرب". رأت

عيني صوفي تضيقان بسبب صدق أمها.

قبضت جود على العجلة. أضفت الحرب ظلالاً قاتمة على حياتهم وعاداتهم منذ غزت إسرائيل لبنان الصيف الماضي. كان كل شيء يبدو متزعزعًا قلقًا، من حوارهم على مائدة العشاء إلى أعين الجنود المرتابة في نقاط المراقبة التي وضعها الجيش الكويتي في طريق عودتهم من المدرسة.

كان الروتين منذ سنوات هو أن تحضر الصغيرين من المدرسة العالمية بعد انتهاء حصصها. وبما أن طلاب المدرسة الابتدائية يفرغون من حصصهم مبكرًا، فقد كانا ينتظرانها عند المنطّة الموجودة في ساحة الملعب. وهناك اكتشفت أن مارك قافز بارع وجريء. ثمة شيء عجيب في ساقيه يكاد يقاوم الجاذبية. كان يثب كأنه سيخترق السماء إن هو شاء، وذراعاه ممدودتان فوق رأسه، وشعره كهالة بيضاء. وهو الآن نجم المسرحية المدرسية السنوية، وهو نشاط تديره مجموعة من مديري المدارس العجائز ذوي النبرات الأرستقراطية والماضي الإمبراطوري.

انطلقت صوفي تشكو للمرة المئة عندما ركبا السيارة: "هذا ليس عدلاً. إنه يجعلني أنتظره في جانب المنطة دائمًا. المكان ممل جدًا، وهو لا يعطيني حتى دورًا للعب".

رأت جود مارك من مرآة السيارة الأمامية يقلب وجهه ساخرًا منها، فضربته صوفي بذراعها السمراء وقالت: "توقف يا أحمق".

قالت جود بلا حزم: "لا عراك في السيارة". كانت تعلم أنهما يغيظان بعضهما للمتعة لا أكثر، وأن تعلّقهما الشديد لم يقلّ الآن عن الأيام التي كانا ينامان فيها متمسكين ببعضهما في سرير واحد.

"حاضر يا أمي. سوف ننتظر إلى أن نصل إلى المنزل لنتعارك". كان صوت

مارك ما زال فتيًّا حادًا سريعًا، يناسب لياقة جسمه الأبيض الرشيق كـالفهد، لكن سرعان ما سيستيقظ الرجل بداخله. وكانت جود تتساءل أحيانًا عما سيخرج من تلك الشرنقة.

توقفت السيارة أمام باب المنزل. قالت صوفي: "بابا عاد مبكرًا". كانت سيارته الشيفروليه البيضاء مركونة، والباب الأمامي مفتوحًا. انقبض قلب جود. منذ أن رفض سالم تلك الوظيفة في أوديل، عمل في أربع وظائف مختلفة، وكل واحدة منها أدنى وأقل من التي تسبقها. لم تسأله قط عن السبب، لأنها تعرف في قرارة قلبها حقيقة الأمر: إنه يشعر دائمًا بأنهم لا يقدّرون قيمته، فكان سريع الشجار مع إدارة عمله عندما يشكّ بأي إهانة أو ظلم.

العجيب هو أن عالم سالم ضاق وانكمش في الوقت الذي اتسع فيه عالم جود وازدهر. بعد أن انتهت من فترة التجربة في المدرسة، والتي استمرت ثلاثة أشهر، أخبرها المدير بأنها تمتلك موهبة تأليف القصص. وأخذت الأرفف في منزلها تمتلئ ببطء على مدار ستة أعوام، بكتبٍ أرسلها توني من إنجلترا، أو عثرت هي عليها في السوق أو منازل الأصحاب. أصبحت المدرسة منزلها الثاني، فأحبّت رائحة الفصل وأعين طلابها وهي تسافر بهم إلى عوالم لن يروها قط، وتعيش معهم حياة أغرب من حياتهم.

كان سالم يردد دائمًا أنه فخور بها، لكنها تشعر كل يوم بأن لهذه الكلمات مذاق الحسد على لسانه. والآن، إن عاد سالم قبل نهاية يوم العمل فإن هذا لا يعني سوى شيء واحد: استقالة أخرى، ثم أسابيع الاكتئاب والغضب التي تليها، ثم تسحبه وظيفة أخرى في دوامة الفرص التي تضعف يومًا وراء يوم.

خرجت من السيارة، وذراعاها اللتان كانتا يومًا بيضاوين بقّعتهما الشمس العربية بالنمش. كان سالم واقفًا عند الباب. حاولت أن تبتسم له. أصبحتُ حذرة.. كنت في يوم ما أركض نحوه وأحيط عنقه بذراعيّ. والآن

أصبحت صوفي هي التي تفعل ذلك.

عندها لاحظت شخصًا واقفًا بجانبه. كان أقصر منه لكنه يماثله في رشاقة الجسم وبروز عظام الوجنتين والعينين اللوزيتين. ابتسم الرجل الغريب أعرض ابتسامة، ومرر يده على ذقنه التي لم يحلقها منذ أيام. نزل الدرج متجهًا نحوهم إلى الحديقة المغبرة في فناء المنزل، ونادى: "يا أختي! أعتذر عن الحضور هكذا بلا إنذار ولا دعوة".

كانت لكنته الإنجليزية أمريكية، وإن كانت معجونة بلغةٍ أثقل كالفرنسية. بلغها فرأت أن عينيه خضراوان واسعتان كعينيّ سالم، لكنهما بريئتان كعيني طفل. ابتسم.. فسرت القشعريرة في جلدها.

وقف زوجها بخجل خلف الرجل كأنه ظله الممتد. قال: "حبيبتي، هذا رافان أخي الصغير". فهمت من النبرة المرتبكة أن سالمًا لم يكن يعلم بموضوع ظهور أخيه المفاجئ، وأنه مندهش مثلها تمامًا.

مدّت يدها وقالت: "مرحبًا. تسعدني رؤيتك أخيرًا". شدّ على يدها بيديه معًا، كأنهما يلتقيان كل عام. قال: "طبعًا.. من المؤسف أننا لم نلتقِ إلا الآن. لكننا سوف نعوض ما فاتنا. لا تقلقي". رفع يديه تحيةً للصغيرين اللذين كانا يحومان حولهم مبهورين بالغريب.

دخلوا المنزل فشعرت جود بأن قلبها يقفز بين ضلوعها كأرنب يثب على المروج. لم يتحدث سالم عن أخيه إلا نادرًا. كانت جود تعرف أنه يعيش في لبنان، ولم تسأل عن معلومات أكثر، لأنه جزء من ذلك العالم.. العالم الذي تركه سالم كي يتزوجها.

جلسوا على مائدة العشاء، والصغيران مهذبان هادئان ينتظران الغريب أن يبدأ بالحديث. أكل رافان من طبقه بنهم، مزجيًا الابتسامات وعبارات

الثناء. حرّك سالم الأكل في طبقه بلا شهية. إنه يعلم سبب وجود رافان هنا، لكنه لا يريد أن يقول. لابد أن حوارًا سريًا دار بين الاثنين في طريق عودتهما من المطار، مما رسم هذه النظرة الخانقة المذنبة على وجه سالم.

كسر مارك حاجز الصمت فقال: "هل كنت تعلم أن العم رافان سوف يزورنا يا أبي؟" توقف رافان عن مناداة أبيه بابا منذ أعوام، حتى إن جود بدأت تشك إن كان قد قالها أصلاً.

لوح رافان بشوكة تعلّقت بأسنّتها قطعة من لحم الضأن. "أنا فاجأت أباك يا صغيري. وهذا من سوء الأدب. لكنه أخ رائع ولم يمانع. طبعًا في إنجلترا ليس من التهذيب أن تزور الناس هكذا بلا إذن. لكن الأمر يختلف في الأسر العربية. فبيوتنا مفتوحة دومًا لبعضنا، أتعلم هذا يا مارك؟" رفع مارك حاجبيه. "خاصةً إن كان أخوك أو أختك في حاجة إلى المساعدة".

سألت صوفي: "هل تحتاج إلى المساعدة؟"

"قليلاً يا جميلة. أنتما تعلمان أنني أعيش في بيروت، صحيح؟ أنت تعرفان أين تقع بيروت؟" أومأ التوأمان. "فلسطينيون كثيرون يعيشون هناك. وهم لا يملكون بيوتًا كهذه. إنهم يعيشون في مخيمات، متكوّمين بعضهم فوق بعض، في فقر شديد ومساكن قذرة. أنا متأكد أن أباكما حكى لكما ذلك".

علّقت صوفي: "حكى لنا الأستاذ شاكر مدرس اللغة العربية". ضحك رافان ووكز سالمًا في صدره. "جبت لهن مدرس يعلّمُن لغتهن يا أخي". تحسنت لغة جود العربية أكثر من طفليها، وكانت تفهم منها أكثر مما يعلم سالم.

وضع مارك مرفقه على الطاولة، ونظر إلى رافان ملقيًا رأسه إلى جهة واحدة. سأله: "وهل تعيش في تلك المخيمات؟" هزّ رافان رأسه وقال: "لا،

خدمني الحظ فحصلت على جواز لبناني، فلم أضطر إلى العيش فيها. لكن الكثير من أصدقائي كانوا يعيشون فيها. في أحد تلك المخيمات، ويُدعى شاتيلا، كان هناك الكثير من أصدقائي الذين كانوا يحاولون أن يمنحوا الشعب الفلسطيني حياةً أفضل". مسحت عيناه الطاولة حتى استقرتا على جود. "يحاولون أن يسترجعوا أرضنا التي سُرقت منا".

"كان اليهود يعيشون في إسرائيل منذ آلاف السنين". قالها مارك بعفوية أيقظت الخوف في قلب جود. "ألا يعني هذا أن إسرائيل أرض اليهود كما أنها أرضكم؟"

أدار رافان رأسه ببطء نحو مارك، وابتسم تلك الابتسامة الصفراء. "هذا ما يقولونه هم يا مارك. هذا ما يدّعيه اليهود. لكن اليهود تركوا البلاد منذ فترة طويلة جدًا. إذا تركت شيئًا ثمينًا على الأرض وجاء شخص آخر واعتنى به لحوالي ألفي عام، هل يكون لك الحق في أن تعود وتأخذه ببساطة؟" فتح مارك فمه ليجادل، لكنه رأى وجه أمه فأغلقه.

مال سالم إلى الأمام بارتياب وسأل: "من أين جئت بهذا الكلام يا مارك؟" لكن رافان نقر ذراعه بخفة وأكمل كلامه.

"الحكاية أن أصدقائي في ذلك المخيم كانوا يحمون إخوانهم اللبنانيين في الحرب الأهلية. لكن الإسرائيليين كانوا يعلمون أن أشجع الرجال الفلسطينيين موجودون داخل المخيم. فقرروا أن يتخلصوا من أولئك الفلسطينيين إلى الأبد. فدخل اليهود إلى لبنان بجيوشهم. وتآمروا مع المسيحيين". توقف برهة ليبتلع قطعة لحم، أما الطفلان فجلسا مشدوهين وشوكتاهما بجانبهما.

"وفي الصباح، منذ بضعة أيام فحسب، قاد الإسرائيليون والمسيحيون

دباباتهم إلى حدود المخيم، وكان الأطفال والنساء نائمين في أسرّتهم. وقف الإسرائيليون يحرسون البوابات بينما دخل أفراد حزب الكتائب بمسدساتهم وسكاكينهم". التقط رافان سكينته من على الطاولة، ومررها ببطء على رقبته مبعدًا نصلها قدر شعرة عن جلده. لم تجد جود لعابًا في ريقها لتبلعه.

تابع رافان: "وعندما انتهوا كان هناك آلاف القتلى، ومنهم الأطفال الرضّع وكبار السن. وصلنا صراخهم في آخر المدينة". طعن قطعة لحم بشوكته ومضغها.

اشتد الانفعال بمارك حتى احمرّت وجنتاه. قال بصوت طفل صغير متألم: "لا يمكن أن يكون هذا حقيقي". فكرت جود: إنه خطأي. عرّفته على الطرفين وقلت له ألا يحكم على أي منهما. إنه لا يريد أن يكون أحدنا متوحشًا.

"بلى يا صغيري، وأنا لا ألومك. لكن هذه هي الحقيقة. دخلت المخيم لاحقًا ورأيت ما حدث. وقلت في نفسي إن كان هذا ما حدث لأصدقائي فمن الممكن أن يحدث لي أيضًا. فقررت أن آتي إلى هنا لفترة، لأرى أخي العزيز وأتعرف على أسرتي الإنجليزية". وطبع على وجهه ابتسامة ثانية لكنها موجهة لجود هذه المرة، غير أنها لم تستطع ردّ الابتسامة. لقد سمعت عن مجزرة الفلسطينيين في لبنان لكنها أبعدتها عن ذهنها. وها هي الآن جالسة في مطبخها تشير بإصبعٍ دامٍ إليها، وإلى دورا وماكس وربيكا.. كل من تحبهم. وإن كان ما يقوله هو الحقيقة، فإن تلك الدماء في أعناقهم. في عنق كل واحد منهم.

سكتوا جميعًا للحظة حتى تكلم سالم. "سيبقى رافان هنا المدة التي يريدها". ثم التفت إلى رافان. "يمكنك أن تأخذ الغرفة الإضافية. سوف تعدّها زوجتي لك".

التفت رافان إلى جود، وأومأ برأسه دليلاً على امتنانه. وردّت هذه المرة بابتسامة و"على الرحب والسعة"، وإن كانت باردة متكلفة، لأنها سمعت في أعماقها قرع طبول ودويّ رعد، ينبئ عن عدوٍ متربص.

***

تغيبت جود عن عملها في الصباح التالي لتصحب رافان إلى السوق كي يشتري ثيابًا. لم يأتِ إلا بحقيبة صغيرة، وقد قال إنه يحتاج إلى أغراض أكثر. قال إنه يعرف شخصًا يساعده في ذلك، فطلب من جود بشهامة مفتعلة إن كنت تقبل مرافقته.

بحثت عن شيء تقوله وهما وحيدان في السيارة. ما أقضّ مضجعها الليلة الماضية أنها حلمت بصرخات الأطفال تطاردها في شوارع حمراء ضيقة. كانت حرارة الخريف هذا الصباح خانقة، ووجهها رطب بقطرات العرق. اعتصر الحزن قلبها.. على من مات وعلى من سيموت، طالما أن عجلة الثأر دائرة.

قالت أخيرًا: "أنا آسفة على ما حدث. لا أصدق أن أحدًا يكون بهذه القسوة".

استدار ينظر إليها مندهشًا. "ولماذا تعتذرين يا أختي؟ أنتِ لم تقتلي أحدًا".

قالت: "أنت تعرف ما أقصده".

تسللت الابتسامة بهدوء إلى شفتي رافان. كانت عيناه الخضراوان اليوم مخبأتين خلف نظارة شمسية، وقميصه ملتصقًا بجسده الهزيل.

"أعرف ما تقصدينه يا عزيزتي جود". نظر من النافذة إلى شوارع الكويت

وضواحيها المزيّنة بأزهار تكاد تذبل في حرارة الصباح. "أنا أشهد لك بالشجاعة حقيقةً".

تفاجأت جود. "شجاعة؟ لماذا تظن أنني شجاعة؟"

خلع نظارته والتفت إليها. شعرت بنظرته كأنها أشواك حارة تخرق جلدها.

قال: "أنا معجب بأي شخص يصمم على القتال في حرب خاسرة. يستطيع أي شخص أن يرى ذلك. حتى طفليك يريان ذلك. ومارك.. إنه يحاول أن يقاتل في معركتك بدلاً منكِ. وأن تتركينه يفعل".

"ماذا تقصد؟" كادت أن تترك عجلة القيادة من الصدمة. "لا أريد أن يقاتل أحد. ولهذا...". سكتت تفكر قليلاً. "كنا نعرف أنا وسال منذ البداية أن الأمر سيكون صعبًا. لكننا لا نريد إلا أن يكون الصغيران سعيدين.. دون أن يشعرا بأنهما مجبوران على الاختيار". تذكرت جدال مارك على مائدة العشاء البارحة ودفاعه البريء عنها. لم تقصد أن تؤثّر فيه، لكنها كانت تخشى مما قد يسمعه من نشرات الأخبار التي يصر سالم الآن على متابعتها كل ليلة. ففي حين كانت صوفي تأوي إلى حجرتها لتقرأ، كان مارك يظل متشبثًا بالشاشة، وعقله الغضّ يمتص ألوانًا متعاقبة من الغضب.

قال رافان: "أنتِ تحلمين يا أختي. لا يمكنكم العيش في العالمين. أنا أعرف لأنني حاولت. إما أنني فلسطيني أو لبناني. إما أنكِ زوجة سالم أو يهودية. صدقيني أنني لا أعادي اليهود.. صدقيني. أنا لا أقول هذا إلا لمصلحتك. هنا.. هنا. من جهة اليسار". فتح نافذة السيارة وأشار إلى جانب الطريق.

توقفا أمام محل يبدو أنه يبيع الذهب وليس الملابس. لكن رافان قفز

من السيارة بسرعة وقال: "خمس دقائق.. أعدك". أسندت جود رأسها إلى ذراعها وهي تنتظره. قطع راعٍ بقطيع من الماعز الشارع المزدحم، ونعقت السيارات بغضب.

كانت تعلم عندما تزوجت سالمًا أنهما سيبنيان بيتًا واحدًا وليس اثنين، وكل طوبة منه وسام شجاعة.. من جود التي تصدّت لغضب أمها، ومن سالم الذي واجه رفض العرب. لكن رافان كان محقًا... شيء ما تغير. حوّل سالم عبر السنين الخيانة المهنية التي تعرض لها إلى أداة تدميرية، أحيا بها كل خيانة قاسى منها في ماضيه، وزرعت فيه الخوف من أن يكون هو نفسه خائنًا لأصله وشعبه. تلك الوجوه العربية الساخطة، وكل تلك الليالي التعيسة أمام التلفزيون يشاهد فيها شعبيهما يمزّقان بعضهما تمزيقًا. انفتح باب بيتهما للعالم الخارجي شيئًا فشيئًا، فدخل شيء مخيف.. أشباح الضياع والخيبة.

عندما عاد رافان إلى السيارة خالي اليدين، سألته في دهشة: "أين الملابس؟"

قال: "لا تقلقي. سوف تصلني خلال أيام قليلة. قياساتي دقيقة جدًا". غمز لها فابتسمت رغمًا عنها.

سألت وهما في طريقهما إلى المنزل: "لماذا أنت واثق أن ما بنيناه أنا وسالم لن يدوم؟ أليس هذا ما يقول الجميع أنهم يريدونه؟ السلام والسعادة ونهاية العنف؟"

هزّ رافان رأسه. "أنتم الإنجليز ساذجون جدًا. من يريد السلام؟ دعيني أقول لك الحقيقة. الهدف من القتال هو الاستمرار في القتال. إن انتصرت يقلّ مالك وتزيد مسؤولياتك". ضحك رافان ثم أردف: "وهذا ما اكتشفه اليهود الآن".

ردّت جود: "لا أصدقك. قلت لنا أمس أنك فررت من مذبحة.. هل يعقل أن يرغب أحد في إراقة الدماء هكذا؟"

أعاد النظارة إلى عينيه. "قد يكون السلام جميلاً يا جود العزيزة، لكن هناك أشياء أخرى أجمل منه بكثير. ولهذا أقول إنني معجب بك. فعندما تختارين السلام، تكونين قد اخترت الطرف الخاسر".

***

أوصل رجل ذو وجه طويل، يقود سيارة نقل بنية صغيرة، ملابس رافان في عدة حقائب صغيرة سوداء بعد بضعة أسابيع. وساعده سالم على إدخال الحقائب إلى حجرة الخدم في آخر الفيلا. راقبتهما جود من الباب الخلفي والتوتر يضطرم في صدرها.

بعد أن انتهوا، دخل رافان إلى المطبخ يمشي الهوينا، وعلى وجهه ابتسامة راضية. قرص خد صوفي وأخذ كأسًا من الماء الفاتر، ثم تثاءب وقال إنه يحتاج إلى أخذ قيلولة. "كان يومي طويلاً يا جميلة". واختفى في ظلام حجرته.

قال سالم إنه سيذهب إلى السوبرماركت لشراء خميرة وبعض العلب، فقد أقنعه رافان بفكرة صنع نبيذ منزلي في المخزن. "لا أصدق أنك تسمح لهؤلاء البدو المتخلفين أن يتحكموا بما تشرب".

وقفت جود تلوح له وهو يخرج السيارة من المرآب، وترانيم الأذان تنساب على أجنحة العتمة من المسجد. كان ذلك الصوت يومًا غريبًا على أذنها، يذكّرها بوحدتها وغربتها. لكن تغيّرت أذناها مع مرور الوقت. صار شدو المؤذن الحزين يحكي لها أشياء تألفها، ويذكّرها بما خسرته. انتقلت انتقالاً غير محسوس من نفورها من الصوت إلى عشقه، حتى إنها لا تعرف

متى قطعت الحد الفاصل بينهما.

ظهرت صوفي إلى جانبها. "يبدو غاضبًا اليوم، أليس كذلك؟" رغم أنها في الثانية عشرة لم تزل فإنها تكاد تقارب أمها طولاً، وجسمها الرشيق يلقي على الأرض ظلاً مدّته شمس الغروب.

"من؟ أبوكِ؟" كانت عصبية سالم واضحة منذ الصباح، وما كان ذهابه إلى السوبرماركت غالبًا إلا عذرًا لتجنبهم.

"لا، ليس بابا. المسجد". شدّت صوفي خصلة طويلة من شعرها. عادة حملتها معها من لباس الطفولة.

لمست جود أصابعها الملتفّة، وسألت: "ما الذي يقلقك يا قطتي؟"

خطّت صوفي بقدمها على الأرض. "لا شيء. لكن... عمي رافان... أتستلطفينه؟"

ضاق صدر جود. "لماذا؟ هل قال لكِ شيئًا؟"

"لا. لا بأس به. إنه مسلٍ. لا أعني أنه مضحك...". نظرت صوفي إلى الصحراء تفكر. "إنه يشبه بابا، لكنه ليس مثله إطلاقًا".

قرّبت جود ابنتها إليها، أحسّت بنعومة بشرة صوفي الفائقة. قالت: "أستطيع أن أقول الشيء نفسه عنكِ أنت وبابا". كانت بشرة صوفي السمراء نسخة عن لون أبيها. ورثت عنه شكله، لكن مارك هو من أخذ عنه طبيعته الثائرة. أما لون ابنتها فكان يذكّرها بأشياء مختلفة.. الأرض الدافئة، والبحيرات المظلمة، وأشجار ريبكا القوية.

أراحت صوفي رأسها على كتف أمها. قالت: "بابا ليس سعيدًا.. منذ أن جاء عمي رافان". ابنتي نبيهة جدًا. ولم يظهر تشوّش عقل سالم جليًا كما ظهر

هذا الصباح، من انحناء ظهره وهو يحمل حقائب رافان.

احتضنت صوفي فجأة ذراعها، وقالت: "اليوم جمعة!"

"تريدين أن نشعل الشموع؟"

"إن أردتِ. سوف يتأخر بابا قليلاً".

قالت جود بمزيج من البهجة والاحساس بالذنب: "أحضري مارك إذًا. وسوف أقابلكما هناك".

ارتجفت يدا جود وهي تخرج المينورا من درج الخزانة. عندما علّمت الصغيرين كيف يصليان، وكيف يشعلان شموع السبت والحانوكا، كانت تريد فقط أن تريهما مرة واحدة. أقنعت نفسها بأن من واجبها أن تعلّمهما شيئًا من دينها. لكنهما استمتعا بالتجربة. وسرّت هي كذلك بالصلوات الهامسة والضوء المخبأ، مع اختلاطها بأصوات المؤذنين في الهواء، أكثر من استمتاعها بالتحضيرات الاحتفالية الكبيرة في وضح النهار وأمام الجميع كما في طفولتها.

لكنها صلّت ودعت بحرارة في ذلك المساء. رأت على ضوء عود الكبريت انشغالها. كانت عينا مارك تراقبان خطوط السقف. كانت تريد أن تهزّه لينتبه إلى الحاضر. هذا ما يفعله أبوه أحيانًا. لكن حتى وجه صوفي كان منشغلاً في تفكير سارح.

عندما انتهت جود من الأغنية، ورفعت يديها عن وجهها، سمعت صوفي تقول: "الكلام الذي قاله عمي رافان.. عن ذلك المكان في لبنان واليهود الذين ساعدوا في قتل كل أولئك الناس؟ الأمر حقيقة.. سمعت عن ذلك في المدرسة. لقد فعلوا ذلك حقًا". انتقلت عينا مارك بسرعة إلى جود، فشعرت بقرصة العار الباردة.

قالت بصوت مخنوق: "أعرف". شعرت بأن صوفي ومارك ينظران إليها بحثًا عن تفسير. لكن ليس لديها أي تفسير.

سمعت صوفي تهمس لأخيها: "لا عجب إذًا أنه يكرههم". أرادت جود أن تقول: يكرهنا. لكنها شعرت في شبه العتمة بقشعريرة في رقبتها، كأن أعينًا لا تنوي خيرًا مسلطةً عليهم، كأن شاهدًا خفيًا يحكم على كل كلمة يقولونها.

سألت سالمًا لاحقًا وهي ترقد بجانبه على السرير: "ما السبب الحقيقي لوجود أخيك هنا؟" قال: "يختبئ من القتلة الإسرائيليين"، ثم انقلب إلى جانبه وتظاهر بالنوم. استلقت هي في الظلام والدفء، تنصت إلى تنفسه المضطرب، وتحاول أن تسكن عقلها الهائج.

***

في الصباح التالي، رافقت جود مارك إلى البروفات. كان ينتظر في السيارة مرتديًا الزي الأزرق الضيق الذي سيظهر به في المسرحية الراقصة بعد شهر واحد فقط. وعلى المقعد المجاور له جناحان من السلك. عندما فتحت جود باب السيارة لتركب، استقبلها بأوسع ابتسامة مرحة لديه، وقال: "أسرعي يا ماما. لا يمكن أن يتأخر نجم المسرحية".

"ومن قال إنك نجم المسرحية أيها القرد المشاكس؟" شعرت بالحب يملأ قلبها. مدّت ذراعها إلى المقعد الخلفي لتلمس وجهه.

قال بكل جدية: "يقول السيد ترافيليان إنني النجم. لا يوجد أحد أفضل مني، ولا حتى الطلاب الأكبر سنًا. يقول إن لديّ القوة والمرونة. ولهذا أعطاني دور باك، رغم أن الأولاد الأكبر مني أرادوا هذا الدور".

"أعلم يا حبيبي. أنا فخورة جدًا بك".

كان حماس مارك لأي شيء في الحياة قد خفتَ بعد كارثة الشجرة التي مرّت عليها سنوات. وقد قلقت جود من أن هذا الطفل الرقيق غريب الأطوار لن يجد شيئًا يغدق عليه عاطفته وحماسه.

لكن ما أيقظ حماسه هي مسرحية (حلم ليلة صيف) التي قدّمتها جمعية الفنون المسرحيّة. فيها راقصون صغار، وشخصية باك اللعوب، وكذلك حمار يتكلم. عندما رأى مارك المسرحية لأول مرة، جلس مسحورًا صامتًا لساعتين كاملتين، حتى إنهم اضطروا إلى نزعه من مقعده نزعًا، بعد أن بدأ موظفو صالة المسرح بإطفاء الأضواء. وفي اليوم الذي تلاه، توجّه مارك إلى معلمه في المدرسة الابتدائية، وطالب بضمّه إلى الممثلين في العرض القادم. تلقّت جود مكالمة وديّة تبلغها بأنه لا يُسمح لطفل تحت الثانية عشرة أن يمثل في المسرحية. وبعد أن سيطر مارك على خيبة أمله الكبيرة واستوعب مفهوم الانتظار، كان قد وجد الشيء الذي يعيش لأجله. وظلّ لمدة ستة أعوام يعاقب جسده في صفوف الجمباز بعد المدرسة وفي تدريبات الرقص، ليحضّر نفسه لهذه الفرصة، بينما كانت أخته صوفي تقضي وقتها في فرقة الزهرات.

وأخيرًا انتهى انتظاره. قررت الجمعية بمحض الفرصة السعيدة أن تعرض حلم ليلة صيف في أكتوبر 1982، بعد عيد ميلاد مارك الثاني عشر. وسيؤدي مارك دور باك على الخشبة هذا العام. سوف يعرف ابني قريبًا ما معنى أن يتحقق حلمه.

توقفت السيارة أمام مدرسة الرقص في مبناها الطويل الأبيض، الذي تحيط به أشجار النخيل وترويه بئر عميقة. كانت جود تشعر دائمًا بالراحة تحت هذه النخلات الخضراء التي ترف بظلها على الدنيا. دخلت الردهات الخشبية، فذكّرتها رائحة الحليب والبسكويت بمدرستها، وأولى الخطوات

بعد الطفولة.

كان تزاحم الأطفال وأولياء أمورهم في البهو شديدًا. اختفى مارك بسرعة في الحشد، وسمعت جود من ينادي اسمها. اقتربت منها امرأة طويلة، تجمّعت حبيبات العرق على منابت شعرها البني الذي تخطه شعيرات بيضاء، كأنها أسلاك معدنية. كانت ترفع كأسين بيديها، والأطفال يجرون من حولها.

"مرحبًا آنسة جود. أتريدين ليموناضة؟ الجو أحرّ من جهنم".

أخذت جود كأسًا وابتسمت. كانت هيلين من زوجات الدبلوماسيين الأمريكيين القلائل اللاتي لم يترفّعن عن الاختلاط بغير الدبلوماسيين. وكانت ابنتها تدرس في صف جود في المدرسة. وقد قالت لها مرةً في أحد اجتماعات أولياء الأمور: "لم أكن أستطيع أن أجعلها تقرأ أي شيء على الإطلاق. والآن تقرأ لي ديكنز على الإفطار. لولا الفضيحة لقبّلتك".

ضاقت عينا هيلين وهي تنظر إليها، فارتبكت جود تحت نظرتها الفاحصة.

"لم هذا العبوس يا عزيزتي؟ ما السبب؟ رجل أم مال؟"

رفعت جود كتفها. "أنا بخير. وسال... بخير. لكن أخاه وصل فجأة من بيروت بلا خبر، وسيعيش معنا لفترة. ولديّ إحساس بأنه واقع في مشكلات كبيرة".

"أي مشكلات؟"

"لا أعرف بالضبط". جرت كل شكوكها على طرف لسانها عندما رأت أن هيلين لن تقبل بالصمت. "إنه من بيروت، أعتقد أنه متورط بالحرب بطريقة ما. وهو...". سكتت فجأة وعضّت على لسانها. كان زوج هيلين رجلاً مسنًا مرحًا، لكنه القائم بالأعمال في السفارة. وعندما رآه سالم لأول مرة في النادي همس في أذنها: "انظري إليه! إنه أكبر سنًا من أن يتولى منصبًا

كهذا. لابد أنه من الاستخبارات الأمريكية".

ارتشفت هيلين من مشروبها وقالت: "منعش". ابتلعت جود من كأسها، فتركت حلاوة الليمون الصناعية طعمًا غريبًا في فمها. أردفت هيلين وهي تمسح جبينها: "هذه هي مشكلة العرب يا حبيبتي. لهم أسرة في الشرق وأسرة في الغرب، وفي كل مكان. لا يستطيعون الهروب منهم. إن اضطررتُ إلى العيش مع أسرتي فأقسم أنني سأكون مجنونة... أو أكثر جنونًا. لا أقصد أي إساءة لزوجك، لكن يجب أن تقولي له إنك لا تقبلين بهذا، إن كنتِ لا تحبين ما يجري".

ليت الأمر بهذه البساطة. وضعت جود شرابها على الطاولة. "سأقول له. طبعًا سأقول. لكن يجب أن أجد الطريقة المناسبة. يشعر سال أنه مدين لأخيه بشيء ما. لكنه يضعنا في المقام الأول. أنا متأكدة من ذلك".

"إن كنت تريدي مساعدة فما عليك إلا أن تطلبي. نحن خبراء في التخلص من الحشرات الضارة كما تعلمين".

فجأة انعطف مارك من الزاوية محتقن الوجه لاهثًا. "ماما!"

"ما بك؟"

"تركت فردة حذائي الأخرى فوق سريري".

"ألا تستطيع الرقص حافيًا اليوم؟"

"مستحيل! الأرض غير متساوية.. توجد أماكن تلتصق بها قدمي وأماكن تنزلق. يجب أن نعود إلى المنزل".

قالت جود بتوبيخ ممزوج بمزاح: "يا إلهي! سوف أقيم حفلة في اليوم الذي تتعلم فيه القيادة. اذهب إلى البروفة وسأذهب لإحضار حذاءك.

اذهب هيا!"

أمسكت ذراع هيلين وضغطتها بود: "سأكلمك فيها بعد يا هيلين. شكرًا على الحديث".

"العفو يا عزيزتي. وتذكري ما قلته".

أخذت الطريق الترابي متجهةً نحو المنزل، صحيح أنه أقسى على السيارة لكنه أقصر. تركت محرك السيارة دائرًا عند بوابة الفيلا، وهرعت إلى الداخل عبر باب المطبخ، ثم أسرعت نحو غرفة مارك. وجدت فردة الحذاء البيج معقوفةً على وسادته، كأنها فأر ميت. دسّتها في جيب بنطلونها الخلفي، وبينما كانت تسير نحو الباب الأمامي، سمعت صوت رافان في الصالة. سمعته يقول جود.

توقفت بلا حراك وحبست أنفاسها. هل يكلّمني؟ لكنها سمعت سالمًا يردّ، فاقتربت أكثر لتصغي إليهما.

قال زوجها: "تألمت جود لما حدث في شاتيلا كما تألمتُ. وكما تألمت أنت أيضًا. ويستحيل أن تقول للصغيرين شيئًا غير ذلك".

تبعه صوت رافان: "أنت أعمى وهي عمياء. وماذا تعرف عن شاتيلا أصلاً؟ أنت أو هي؟ لقد وقفوا يحرسون المخيم إلى أن مات الجميع، حتى الأطفال. أتعرف ما رائحة ثلاث آلاف جثة يا سالم؟" صمتا برهة، وعرفت جود ما سيتخيله سالم.. جثتا صوفي ومارك مضرجتان بالدماء على الأرض، ورجل من حجر يحمل سلاحه نجمة داود، يقف ملقيًا ظهره إليهما، مانعًا الدنيا عن مساعدتهما.

قال سالم بالإنجليزية أيضًا: "لا أعرف ماذا تريد مني.. لدي أسرة الآن. لدي طفلان. لا أستطيع الذهاب إلى لبنان حتى لو أردت".

"ما فيه داعي تجي للبنان.. فيه أشيا فيك تعملهن في أي مكان.. حتى هون. من وين مفكر الإخوان بيجيبو مصاري؟" سمعت صوتًا آخر، صوتًا معدنيًا. ثم قال سالم بحدة: "من أين أحضرت هذا؟"

"من غرفتك يا أخي. إنه لها.. تشعل الشموع عندما لا تكون موجودًا في المنزل، وتدعو مع الأولاد بالعبرية. أخبرتني صوفي بدون قصد منها".

شعرت ببرودة تسري في ظهرها، وأن قلبها قد تحول إلى قطعة ثلج. المينورا؟ فكرت كيف عرف رافان ومتى اكتشف الأمر، فتذكرت إحساسها ليلة السبت الماضي بأنه هناك من يراقبها هي وصوفي ومارك.

سمعت صرير كرسي، فجفلت وتحركت. استدارت وتسللت بصمت على السجاد الناعم بأسرع ما تستطيع إلى المطبخ، ثم ركضت عبر الحديقة والذعر في أعقابها. أغلقت الباب بقوة وتحرّكت بالسيارة، فثار الغبار من إطاراتها حتى انعطفت من عند الزاوية بعيدًا عن المنزل. أهرب كالجرذان. تذكرت رسالة ربيكا، والفئران الذين اختبئوا في القبو خوفًا من الفؤوس، فنسوا أنهم بشر. ضغطت قدمها على المكابح بقوة وأوقفت السيارة. أين شجاعتي؟ أمالت رأسها على مقود السيارة، وأطلقت سراح دموعها.

***

هبّت العاصفة العاتية على مائدة العشاء في تلك الليلة. ظلّت جود تردد في نفسها: لم أفعل ما أخجل منه. لن أختبئ.

حضر رافان إلى المائدة ودودًا ظريفًا كعادته. كم كرهته جود! وكم مقتت وقاحته وريبته وزيفه. وما زاد من الطين بلة أنها كانت مقتنعة أنها ملامة فيما جرى له. اليهود هم من شكّلوا هذه الروح السوداء التي ترفرف طائرة في

مطبخها، على جناحيّ مجزرة دموية.

كان سالم آخر من جلس إلى المائدة، بعينين حزينتين ورأس مطرق. أكلوا لبرهة في صمت لم يقطعه إلا التفاتة مارك نحو أمه ليقول: "قال السيد ترافيليان إن هناك مدارس للرقص في إنجلترا أستطيع أن أتعلم فيها أصول الرقص. هل أستطيع الذهاب العام القادم؟ قال إنه سوف يكلّمك بالموضوع".

نظرت جود إلى سالم الذي رفع رأسه ينظر إلى ابنه.

قال بهدوء: "إذًا تريد أن تعيش في إنجلترا يا مارك؟" أومأ مارك برأسه وقد نسي الحذر في غمرة حماسه. "أريد أن أكون راقصًا محترفًا". قهقهه رافان وعلّق: "أحسنت أيها الصغير. تحدث عن أحلامك ولا تخشَ شيئًا".

قال سالم: "هل اقترحت أمك ذلك عليك؟ أعرف أنها تحب الرقص". كانت عيناه رطبتين لكن وجهه مكفهر بطريقة عرفوها وألفوها.. ضغط البركان قبل أن تثور حممه.

انتبه مارك إلى لهجة أبيه فلاذ بالسكوت. ثم أخذته الجرأة فقال: "ولم لا؟ لا يمكن أن نظل هنا إلى الأبد".

اتّسعت عينا سالم. "صحيح؟ أهذا ما تقولونه عندما تصلّون صلاتكم اليهودية؟ كيف تهربون من هنا؟ كيف تهربون من شعبك ومن أبيك أيضًا؟"

واجهت عينا جود الزرقاوان المتحديتان عينيه السوداوين العميقتين. "أنت تعلم أن هذا غير صحيح. كيف يمكن أن تفكر بهذا الشكل؟"

اكفهر وجهه غضبًا. "كيف أفكر هكذا؟ طلبت منكِ أن تعطي الصغيرين دروسًا في العربية. وهما الآن في الثانية عشرة، بالغان تقريبًا، ولا يعرفان من اللغة شيئًا. حشوتِ رأسهما بقصص عن إنجلترا، رغم أن هذا هو وطنهما.

وتعلمينهما الصلاة اليهودية أيضًا؟ طفلاي أنا اللذان يحملان اسمي؟" اختنق صوته، ورأت جود رغم انفعالها واضطراب مشاعرها أن زوجها يرزح تحت وطأة ألم شديد.

جلس مارك فاغرًا فمه مذهولاً. همّت جود بالحديث لولا أن قاطعتها صوفي: "أنا طلبت أن نشعل الشموع يا بابا.. ولم نفعل ذلك إلا للمتعة". تعجّبت جود من جسارة ابنتها، لا تحمل أي خوف أمام الغضب الهادر، كأنها محيط يحتوي عاصفةً.

رد سالم بريبة: "أنتِ؟ لا أصدقكِ يا صوفي. ما المتعة في ذلك؟ أين عقلكِ؟"

قفز مارك من كرسيه وصاح: "لا تكلمها هكذا. لم يكن الأمر كما تتصور. ولا يدور كل شيء حولك أنت".

جذبته جود تعيده إلى كرسيه وهي تقول: "لا يا مارك. كان يجب أن أخبرك يا سال. إن من حقهما أن يتعلما شيئًا عن ثقافتي أيضًا".

شحب وجهه وقال: "إلا إذا كان هذا سيجعلهما ينقلبان ضدي. إلا إذا كان هذا سيجعلهما أقرب إلى اليهود من العرب. لقد جعلتيهما غربيين.. جعلتيهما صهيونيين مثلك".

صرخ مارك: "لماذا أنت غاضب طوال الوقت؟ أنت من يقلبنا ضدك. أنت لا تهتم بنا، ولا تهتم بأي شيء سوى دروس العربية الغبية".

شهقت جود عندما هب سالم واقفًا وصفع مارك. تركت يده أثرًا أحمر على الخد الأبيض الذي بدأ يفقد نعومة الأطفال استعدادًا لخروج الرجل من داخله.

رفع الولد يده إلى خده مشدوهًا. ورأت جود صوفي ترفع يدها إلى خدها

في ألم مماثل. شق الصمت جملة واحدة قالها مارك: "أكرهك"، ثم جرى من المطبخ إلى حجرة نومه.

***

رفع سالم إصبعه في وجه جود وقال: "إنه محروم من الرقص حتى يتعلم درسه"، ثم خرج الأخوان معًا دون أي تبرير. راقبتهما من النافذة الخلفية، وهما يحملان حقائب رافان السوداء الثقيلة من حجرته إلى السيارة، وسمعت صوت صرير الإطارات.

أوكلت جود مهمة تنظيف الأطباق إلى صوفي، وذهبت هي إلى حجرة مارك. وجدته واقفًا على يديه مستندًا إلى الجدار الذي ما زال يحمل ورقًا مرسومًا عليه قصة ماوكلي، اليتيم الذي تعلّم القفز كالقردة والقنص كالنمور.

احتبس الدم في وجهه المقلوب، ورأت خطين من الدموع الجافة على جبهته. ارتعشت ذراعاه من ثقل جسمه عليهما. قال بصوت مبحوح: "لا شيء أفعله يرضيه. إنه يكرهني وأنا أكرهه".

قالت: "هذا مجرد إحساسك وليست الحقيقة. أحيانًا نشعر بأن الحب والكراهية متشابهان جدًا".

رماها مارك بنظرة متشككة. لوّح ساقيه في الهواء فاعتدل جالسًا. "إنه لا يكلمني أبدًا، إلا إذا أراد أن يقول إنني فاشل في شيء ما".

"كانت حياة أبيك صعبة جدًا، وقد خذله الكثيرون. إنه مخطئ في التصرف بهذه الطريقة لكن هذا لا يعني أن تكرهه".

لم يقتنع مارك بمنطقها ورأت هذا واضحًا على وجهه، فأخذت ذقنه في يده. "أنتما الاثنان متشابهان جدًا. كلاكما لا تريان سوى وجهة نظركما في أي موضوع. عندما يعود سوف أكلّمه". اغرورقت عينا مارك الزرقاوان بالدموع، وآلمها أن ترى حاجة طفلها إلى حب أبيه. أومأ برأسه صامتًا.

خرجت من الحجرة، فاتجهت رأسًا إلى الهاتف واتصلت بتوني. كان اتصالها به محدودًا نظرًا لارتفاع تكاليف المكالمات ورداءة الخطوط. آخر مرة رأته كان في الصيف قبل الماضي، في أثناء إجازتهما في إنجلترا، وكانت زوجته تنتظر وضع طفلهما الثالث، أما مارك فقد كبر كرشه ونال منصب الشريك في شركة أبيه.

حكت له مخاوفها دون الدخول في التفاصيل، فعلّق: "هذا جنون! يجب أن تعودي إلى هنا الآن. يبدو أن رافان هذا متورط مع منظمة التحرير الفلسطينية أو جهة مشابهة. أتتذكرين ميونخ وما حدث لأولئك الرياضيين الإسرائيليين؟ هؤلاء المجانين لا يفرّقون بين البريء والمذنب". كان توني قد أخذ زوجته في شهر العسل إلى أولمبياد ميونخ، وقد عادا إلى إنجلترا دون استعمال تذكرتيهما، وصور الأحد عشر رياضيًا المذبوحين تملأ شاشات التلفزيون في كل أنحاء العالم.

شدّت قبضتها على الهاتف، وقالت في قلق: "لن يوافق سال على ترك الكويت الآن أبدًا. هذا أخوه، وقد تعرّض لأحداث لا يمكننا تخيلها يا توني. لكن يجب أن أعدّ خطة".

"ماذا تقصدين؟" سمعت أصوات أطفال توني تتسرب من بين كلماته.

"أريد أن تبحث عن مدارس للصغيرين، مدارس جيدة تقبل التحاقهما بها بعد بدء العام الدراسي. إن استطعت إقناعه بأن ذلك أفضل لمستقبلهما

فربما سيفكر بالأمر".

"سأفعل أي شيء من أجلك يا بوبيلا، وأنتِ تعرفين هذا. لكن الحقيقة أن ما يقلقني هو لجؤك إلى التخفي والتصرف بسرية. جود التي أعرفها تتحدى وتواجه. أتذكرين حادثة الكنيدلاخ؟!" ضحكت جود ولو أن جزءًا منها أراد أن ينهار ويبكي.

قالت: "أبلغني بها تجده سريعًا يا توني". عندما أغلق ابن عمها السماعة، ظلت تسمع السكون لثوانٍ قليلة، قبل أن تستجمع طاقتها فتضع السماعة.

***

أضاءت النور في غرفة رافان فوجدتها خالية كقبر مفتوح، وعلى الأرض آثار الحقائب السوداء.

عاد سالم ورافان مع بزوغ أشعة الشمس الأولى على الصحراء، وأصابعها الوردية تتحسس منزلهم. كانت مستلقيةً على الأريكة في الصالة. سمعتهما يصعدان الدرج إلى الباب الأمامي.

كان رافان يقول: "رفاقنا العراقية رَح ياخدوا المصاري للحدود الليلة. وع طلوع الضو حَتكون بسوريا. الأميركان دايمًا مراقبينا. منشان هيك منتلاقى كل مرة بمطرح. والشيخ بيرتب لنا الحكاية". دار مفتاح في قفل الباب.

قال سالم: "كم مرة راح تعمل هيك؟" أجاب أخوه جوابًا لم تفهمه جود، لكنها تظن أنه قال: "ما بعرف".

مرا بالصالة دون أن ينتبها إلى وجودها، وتوجه رافان مباشرةً إلى غرفته.

عندما سمعت الباب يغلق، مشت بخفة خارج الصالة وقالت بهدوء: "سالم". كان الاسم غريبًا على لسانها، وتذوقت الندم لأنها لم تدعُه به من قبل.

أتى زوجها عائدًا من غرفتهما، جسد أسود عند الباب المفتوح. "لم أنتِ مستيقظة؟" بدا مذنبًا كطفل أمسكه والده يفعل شيئًا خطأً.

اقتربت لتقف أمامه، فقالت: "لم أستطع أن أنام. أين كنت؟ أقلقني غيابك".

"في مكان ما. لماذا القلق؟ لم يحدث أي شيء. كنت أساعده فقط في قضاء مشواره. لم يحدث شيء". لكن وجهه كان شاحبًا وعيناه تتحاشيان النظر إليها. سمعت الكذب في صوته.

"مشوار". رغم أن غضبها كان قريبًا من السطح متأهبًا للانفجار، فإنها أطبقت عليه وكتمت الفوهة. لن أصل إليه بهذه الطريقة. "حقائب مليئة بالنقود تخرج في منتصف الليل من بيتك، حيث ينام طفلاك. لشراء ماذا يا سال؟" لم يجب. "أنت تعرف ماذا تشتري، أليس كذلك؟ أسلحة لقتل أطفال آخرين في بيوت أخرى. أهذا ما تريده؟"

هزّ رأسه. "لقد أسأتِ الفهم يا جود. رافان مهتم بالسياسة، هذا كل ما في الأمر. نحن نساعد اللاجئين". رغم أنه قال ذلك استكبارًا، فإن اليد التي مررها على عينيه في حركة تدل على يأسه فضحته.

تمسكت بقوة شجاعتها وقالت: "لا يمكنك أن تفعل هذا. أعرف أنه أخوك، وأنك لسبب ما تحبه. لكنك إن سلكت هذا الطريق فإنك تهجرنا".

لم يتحرك سالم للحظات، ثم قال: "أنا من يهجره الجميع يا جود. أخذوا مني منزلي، ثم هجرتني أمي. ثم أخذوا مني كل ما وعدوني به مقابل عملي

الشاق هنا. أقربائي يرون أنني خائن. والآن ابني يقول لي إنه يكرهني، وإن أسرتي تريد أن تتركني، وإنه يفضّل أن يتعلم صلاة يهودية على تحية عربية. لماذا تهتمين ماذا أفعل الآن؟"

أخذت كفه ووضعتها على صدرها بين ثدييها، الموضع الذي أراح رأسه عليه، وقبّله فمه مرات عديدة. شعرت بدقات قلبها تحت كفه، وقالت: "أتتذكر اليوم الذي طلبت أن تتزوجني فيه؟ لم تكن حتى قد أفرغت حقيبة السفر. أمسكت يدي ووعدت أن تشتري لي خاتمًا في اليوم التالي. وعدتني أننا سوف نكون سعداء، وأننا سنعيش حياة مختلفة. وقد حافظت على كل وعد قطعته طوال هذه السنين... إلا اليوم". كان وجهه شاحبًا وعيناه دامعتين.

تكلم فكان صوته مثخنًا بالأسى: "أعرف بم وعدتك. لكن كل شيء أصبح صعبًا. تستطيعين أن تتجاهلي الحرب إن أحببتِ، لكنها في كل مكان حولنا. وانظري ماذا أفعل.. أغلق عينيّ عما يجري، وألاحق أحلامي الكبيرة. لست إنجليزيًا، ولست عربيًا حقيقيًا أيضًا. حتى أنتِ تغيرت". ركّزت عيناه على عينيها. "كنتِ تفهمينني دون أن أتكلم. والآن انظري إلينا". فتح كفه بينهما لترى أنها خالية.

لمست جود خد سالم. "ما زلت أحبك كما أحببتك في ذلك اليوم". بدت كلماتها متعبة مكررة. "كنا مجرد أطفال حينها. كنا متمردين، كمارك الآن. وهذه الأمور التي تراها بيننا الآن.. هذا ما يحدث مع العشرة".

"سمعتِ ما قاله مارك. إنه لا يريد حتى أن يكون ابني".

جادلته مرهقةً: "إنه طفل. وهو مثل ظلّك. إنه يحتاج إليك بشدة. أرجوك، اطلب من رافان أن يرحل. إن كنتَ تريد أن تقاتل من أجل شيء،

فقاتل من أجلنا. هذه معركة يمكنك الانتصار فيها يا سال".

شعرت بلمسته الدافئة، فخفق قلبها استجابةً. نظر إليها وهز رأسه بيأس. لكنه قال: "سوف أتكلم مع مارك. هذا ما لم يفعله أبي معي". رأت الدموع في عينيه وعرفت ما يدور في خلده. لماذا لا يعيد التاريخ أفراحه كما يعيد أحزانه؟

قالت: "إنه يريد منك أيضًا أن تهتم بما يهتم به. مسرحيته والرقص. يجب أن يعرف أن قيمته لديك ليست فقط بالاسم الذي تتشاركان به".

ضحك ضحكة مريرة. ضغط على يدها ثم أفلتها. قال: "حسنًا". استسلام.. لكنها لم تعرف هل مبعثه الحب أم الإرهاق؟ "رافان.. سأتولى أمره. اذهبي إلى الفراش الآن". فتحت فمها لتجيب، لكنه قاطعها: "اذهبي أرجوكِ، ولا تقلقي. سأتبعك بعد لحظات". دار حولها متجهًا نحو المطبخ، وعلى ظهره همّ وحمل ثقيل. دخلت ببطء إلى غرفتهما المظلمة، حيث داعبت أشعة الصباح الأولى صورة شجرة البرتقال.

***

انتظر سالم حتى سمع صوت الباب يُغلق معلنًا نهاية سهرة جود. فتح حنفية المطبخ ورش وجهه من مائها الفاتر. التمعت القطرات بين أصابعه في ضوء الصباح الباكر.

كانت نافذة المطبخ تطل على جدار المجمع السكني الذي تزيّنه تعريشات مختضرة من فيلا جارهم. والبيت المجاور لهم يغط في سبات وسكون. تملّكته رغبة غريبة؛ إن ذهب إلى بيت جيرانهم الخامد واستلقى تحت سقفهم، فلربما سيستيقظ هو أيضًا غير مثقل بأي هموم.

كانت جود نائمة عندما تسلل إلى الغرفة ليأخذ صورة بيت الشموطي من على الرف.

حملها بيدين رائفتين، واتجه نحو غرفة طفليه. حان الوقت ليكون لكل منهما غرفة مستقلة. لقد كبرا. يمكننا أن نطليها باللون الذي يريده. يمكننا أن نطليها معًا.

أطل رأساهما من تحت الغطاء، شعر أسود والآخر أشقر منسدل على خدودهما، وفمهما مزمومان كما يفعل الأطفال. تحركت الأغطية مع حركة تنفسهما... هذان المعجزتان، هذان الناجيان من تيارات قاسية جرفت كثيرين قبلهم.

والحب جرف ألمه، كما يفعل التيار المعاكس العميق بعد موجة عنيفة. جلس إلى جوار جسد مارك الملتوي، وكان تحت الأغطية يبدو ضئيلاً بريئًا. صدر صرير من أعمدة السرير، ففتح الصبي عينيه الناعستين، وقد أضفت ظلال الغرفة عليهما هدوءًا وسلامًا.

"ما الأمر؟" كان صوته أجش محملاً بآثار النوم. جلس على السرير محتضنًا ركبتيه. لاحظ سالم أن قسمات وجهه تغيرت، واتخذت مكانها المعتاد في صورة الحذر التي يراها دائمًا على وجهه.

"لا شيء". شعر سالم بالضياع، ففقد الاتجاهات. نظر إلى وجه ابنه، ما بين غطرسة الرجولة وتردد الطفولة.

قال بسرعة قبل أن تلتهم الكلمات نفسها: "أردت أن أتحدث معك. أن.. أن أعتذر منك.. لأنني صفعتك. كنت مخطئًا". اتسعت عينا مارك، وتمسكت يداه بركبتيه أكثر. انتظر سالم أن يقول مارك شيئًا. ساعدني أرجوك على فعل هذا.

"أنت غاضب مني دائمًا". صوت خافت، صوت طفل صغير، لكن سالمًا أحس بأن أصابع من الذنب تخنقه.

قال: "أعرف". شعر بالدموع في جفنيه وهو يرمش. "لابد أنك تظن أنني غاضب منك. لكن الحقيقة أنك لم تفعل شيئًا خطأً. كل ما أريده هو أن تفهم تاريخك. يؤلمني عندما أشعر أنك لا تريد أن تعرف".

قال مارك بعينين دامعتين: "لكن أنت لا تتحدث معنا عن أي شيء. ولا تحكي لنا أي شيء. أنت فقط تتوقع منا أن نكون في صفك مهما حدث. ليس عدلاً أن تفعل هذا".

قال سالم: "أعرف". أعطى مارك الصورة، ورأى عينيّ ابنه تتسعان كعيني الطفل في الصورة. "أنت أحيانًا تتحدث عن العودة إلى الوطن. فأريد أن أريك وطني أنا. والبيت الذي أُخذ مني عندما كنت طفلاً أصغر منك. كان مكانًا جميلاً، أترى؟ والبحر خلفه مباشرة، والجو دافئ دائمًا. وشجرة البرتقال هذه غُرست عندما ولدت. برتقال يافا من أحلى أنواع البرتقال في العالم". ارتفعت الغصة في حلقه. "أنت كل ما لدي الآن بدلاً من بيتي، أنت وصوفي. لذا فأنا أتوقع منكما أكثر من طاقتكما أحيانًا".

مرر مارك أصابعه على اللوحة كالمسحور. قال: "يبدو المكان جميلاً".

"إنه جميل فعلاً".

مدد مارك ساقيه على السرير وقال: "لا أريد أن أكون فلسطينيًا ولا يهوديًا. أنا وصوفي مختلفان. لا نريد أن نتورط في هذا القتال. أنت لا تسألنا أبدًا ماذا نريد، أو ماذا نريد أن نكون".

قال سالم: "حسنًا. ماذا تريد أن تكون؟"

تردد مارك ووجهه البريء خليط من التشكك والأمل، حتى كاد سالم

أن يضحك.

قال أخيرًا: "راقص. أنا بارع جدًا جدًا. أنت لم تحضر أي بروفة لمسرحيتي. ماما سوف تحضر الأسبوع القادم عرض أولياء الأمور، لكن أراهن أنك لا تعرف أصلاً عن ذلك شيئًا".

بلى كنت أعرف، لكن غضبي منعني من أن أهتم. "أخبرت أمك أنني سأحاول الحضور. كل ما هناك أن التواصل بيننا صعب. أمك لا تجيد التواصل معي. وربما لست بارعًا في ذلك".

قال مارك: "إذًا سوف تحضر؟ ستكون ليلة الافتتاح بعد أسبوعين، وهذا العرض لمجرد معرفة أخطائنا". بدأت صوفي تتقلب في السرير الآخر. نظر سالم إلى الستائر المغلقة والضوء الأبيض الذي يتسرّب من خلالها.

قال: "سوف أحضر، أعدك. سوف نكمل حديثنا فيما بعد. أريد أن أجلس معك أكثر".

رأى شبح ابتسامة يمر على وجه مارك، والدفء يشعّ في وجهه الأبيض. ثم أومأ ابنه وقال: "حسنًا.. اتفقنا". مال سالم وقبّل خده الناعم.

قال سالم وهو يقف: "إذًا تريد أن تصبح راقصًا؟" نهضت صوفي ومطّت ذراعيها.

"هذا صحيح". حمل صوت مارك نفحة تحدٍ، كقط مستعد للهجوم.

قال سالم: "كما تشاء. ما دمت أنك ابني".

***

كان موعد عرض أولياء الأمور ليلة الأربعاء، آخر ليلة دراسية في

الأسبوع.

وضع سالم بطاقة الدعوة على الرف في غرفته، بجانب صورة بيت الشموطي. كانت بطاقة ذهبية مطبوع عليها صورة صبي ذي جناحين. فكر سالم: شيء غريب.. شيء إنجليزي خالص لا ينتمي إلى هنا. وذلك الصبي، الشخصية المجنّحة المستلهمة من قصص الخيال.. لم يكن مارك، ولكنه يكنّ جوهره. سرح سالم بفكره إلى عوالم خفية وراءه.

كان وعده بالحضور وعد شرف لا رجعة فيه، وهذا ما رفع مارك إلى حالة من الجذل والبهجة لم يعهد والداه رؤيته عليها من قبل. فكان يتدرب تدريبات مضنية في غرفته بعد العودة من المدرسة، وصوفي تساعده بحماس، وترفع معنوياته، وتتولى مهمة تشغيل الموسيقى في جهاز التسجيل الذي اشتراه رافان لها هدية.

وخلال الليالي الأربعة التالية، كان مارك يلتهم طعام العشاء بشراهة، ويصف لرافان صعوبة حركات الرقص، وأنه أصغر شخص يؤدي هذا الدور المهم على الإطلاق. "أحد الأدوار الرئيسية"، قالها بفم محشو بقطع لحم الضأن المبهّر المطبوخ مع الرز والشعيرية.

ربّت رافان على ظهر الصبي وقهقه. قال لجود: "هذا من سيغنيكِ في شيخوختك.. عينه على أعلى النجوم". رأى سالم جود تبتسم بأدب تلك الابتسامة التي سكنت عينيها واستولت على ملامحها في الأسابيع الماضية.

اعتزم سالم أن يتحدث مع رافان ويضع حدًا لإقامته معهم في الليلة التي تسبق عرض مارك. ووافقه حسّان على فعل ذلك عندما اتصل به سالم ليهنئه بالعيد هذا الصباح. بل إن حسّانًا انفعل لمّا سمع أن أخاهما الصغير ما زال موجودًا عنده. "والله يا سالم مستحيل أكون بكرمك هدا. بعطيك نصيحة

لوجه الله.. هذا الولد من صغره مشكلجي، وراح يظل طول عمره يحب المشاكل. هالمرة مرتك معها حق. خليه ينقلع من بيتك".

عندما أغلق سالم السماعة تنبّه إلى وجود ورقة صغيرة تحت الهاتف عليها ملاحظة. قفزت كلمتان أمام عينيه. إنجلترا.. مدرسة.

سحبها ورفعها نحو النور. كانت الملاحظة المكتوبة بخط صوفي الأنيق تقول: ماما.. اتصل العم توني بخصوص موضوع المدارس في إنجلترا. لديه أخبار سارّة. اتصلي به بسرعة. شعر بأصابع قارسة البرودة تمرّ على رقبته.

نظر ناحية المطبخ. رأى لمحة من شعر جود الأشقر وهي تعدّ الطاولة ثم تختفي وراء الباب. موضوع المدارس في إنجلترا. أي مدارس؟! بدأ القلق يسكنه.

"أبي!".. ناداه مارك يطلب رأيه في حركة من حركات العرض. شدّ ذراع سالم نحو الفناء الخلفي بحماس فرح، كأن نورًا يشع من أعماقه. قال سالم بابتسامة: "أمك تقول إنك رائع. لماذا تحتاج رأيي؟"

أجاب مارك وهو يضغط زر التشغيل على المسجّلة: "أمي تقول دائمًا إنني رائع. لكن أنت ستقول لي الحقيقة".

وثب قلب سالم مع وثبات ابنه وشقلبته في هواء المساء، أصابه الدوار الذي يصيب الإنسان من رؤية من يطير في الهواء بلا شبكة. والملاحظة المدسوسة في جيبه كالحجر الثقيل الذي يشدّه إلى الأرض. موضوع المدارس في إنجلترا. اتصلي به بسرعة. مستحيل. جود لن تخطط للرحيل دون أن تخبره، لن تخونه أبدًا بهذه الطريقة. حاول أن يولّد من هذه الرسالة احتمالات مطَمْئِنة، وهو يتابع دوران مارك وقفزاته. لكن حلقه كان جافًا ورأسه ثقيلاً، فطلب من مارك أن يأخذ استراحة.

كان يشرب من النبيذ المنزلي الذي أعدّه في الفناء الخلفي، ويبتلع مع كل رشفة مخاوفه. ظهر فجأة وجه رافان من بين أسدال الظلام. اقترب أخوه منه، حتى وقف بجانبه مسندًا ظهره إلى الحائط المنخفض. تهامست مخلوقات الليل على أطراف مسامعه.. صوت صراصير الليل مع أزيز البعوض. شعر سالم بأن الصمت حبل يربطهما. قال لها: سأتولى أمر رافان. فتح فمه لكن الشكوك أثقلت لسانه.. شكوك بجود وبالحب والوفاء. كل واحدة منها حجر يطبق على صدره.

قال رافان أخيرًا: "وصلتني رسالة اليوم". لم يستطع سالم أن يرَ إلا ظل ملامحه، الأنف المعقوف والحاجبان المعقودان. "من العراقية". أعادته كلماته إلى تلك الليلة.. سيارته واقفة على طريق صحراوي مقفر، ومن حوله وجوه بلا تعبيرات لرجال يأخذون حقائب رافان من صندوق السيارة، والعرق يتصبب على وجه سالم الجالس في مقعد السائق.

استدار رافان ينظر إليه: "لازم نرجع نروح ع الحدود بكره.. وهاي راح تكون آخر مرة".

نكس سالم رأسه في إرهاق، وأخوه يردف: "هالمرة المكان أبعد من يلّي قبل. شي خمس ساعات بالسيارة. أحسن شي نطلع من أول المسا. يعني دغري بعد ما ترجع من شغلك".

قال سالم: "وعدت مارك أني راح أروح معه بكره بالليل". أحس بهواء الليل ينسحب من حوله ثم يندفع جاثمًا عليه في ثوانٍ.. المستقبل يصطدم بالماضي.

"معليش.. هو صبي وإنت رجال. الجايات أكتر لهيك شغلات. مش وقته هلَّا.. هلّا وقت شغلنا".

دسّ سالم رأسه في يديه. أنهكته هذه القرارات.. في كل خطوة يواجه اختبارًا آخر عما يريد أن يكون. "بتقدر تاخد السيارة. روح لحالك".

"ما فيني. ما عندي إقامة هون. ولو حدا وقفني بروح فيها يا خيِّي. إنت الوحيد يلّي باوثق فيه. الوحيد يلّي إلي".

أدار سالم ظهره للحائط لينظر إلى أخيه. يفتش فيه عن الطفل الذي كان ينام بجانبه في الليل ويبكي في نومه. هذا ليس هو. ذلك الطفل اختفى، وهذا الرجل يستغلّك.

"ملعون أبو أصلك يا رافان. وملعونة تلميحاتك وكلامك. أنت اخترت طريقك.. خليني اختار طريقي". رمى الكلمات في وجهه وإن شعر بأنها عادت إليه.

ضحك رافان باحتقار. "عارف شو مشكلتك يا سالم؟ إنت ذكي بس منّك نبيه. مفكّر إنه لأن عندك مؤهلات وجواز بريطاني، البيض بدُّن ياخدوك بالأحضان؟ بس هنِّي ما عملوا هيك.. مفكّر إنه مرتك اليهودية بدها تنسى أصلها وتربي ولادك عرب؟ بس هي ما عملت هيك.. مفكّر أنك رَح تقدر تنسى القرف اللي جيت منه لما تعيش بغير مطرح؟ ما بتقدر.. عارف شو بحس لما شوفك؟ بحس واحد مش عارف مين هو".

ضغط سالم على عينيه. وفي الظلام ظهرت كلمات الرسالة التي تركها لرافان في لبنان بأحرف بيضاء محترقة. آسف بس طريقي مش من هون. أكان سيشعر بأنه أفضل حالاً، أو أكثر حريةً، أو أقل ضياعًا لو لم يكتبها؟

قال لرافان ولنفسه: "أنا بعرف مين أنا. عندي عيلة لازم أفكر فيها".

"عم تضحك ع حالك، وإنت عارف هالشي يا خيِّي. بنت لطيفة وعلى راسي وعيني، بس بالآخر رَح تلاقي انها راسمة لحالها طريق تاني. هيك

بيعملوا هَودي الناس. ومنشان هيك بيربحوا دايمًا بالآخر، ونحنا دايمًا خسرانين".

شعر بيد رافان تقبض على كتفه. موضوع المدارس في إنجلترا. اتصلي به بسرعة. بدأ السد في داخله يتصدع، والغضب يتسرب في سيل بارد. يدها على صدره تلك الليلة.. تقول له اخترني، اختر الحب. بينما هي تخفي عنه أسرارًا. تخطط لحياة من دونه، تخطط لعالم لا يكون جزءًا منه.

قال أخوه: "أنا ما بغشك يا سالم. أنا بعرف مين إنت. إنت خيِّي ودمنا واحد. هَودي الرجال يلّي منساعدهن.. هنِّي دمنا كمان. إنسى لعبة الزوج الأبيض يلّي عم تمثل فيها يا سالم. إذا بيحبوك فعلاً ما رَح يوقفوا بطريقك. بدك ترَجِّع يلّي أخدوه منك؟ هلّأ إجا الوقت ليدفعوا التمن".

أغلق سالم عينيه. لا شيء فيه حقيقي.. هو مجرد طيف يسكن الحاضر، ورافان وجود يقفان أمامه ثابتين مرعبين. رأى من خلفهما الدماء تسيل في ساحة برج الساعة، والقنابل تسقط في البحر، والأطفال يقفزون بمرح في شاتيلا والدبابات تقترب. رأى ظلال مستوطنات جديدة تبنى، وبيت نادية يتضاءل وينمحي. أرضنا! دمنا! كلمات تُهتف وتعلو على أزيز الرصاص. ماير يرمي باسم عمر في سلة المهملات ببرود. وجود.. زوجته.. تدع لهب شموع العدو ينعكس في أعين صغيريه.

تحسس الورقة في جيبه. موضوع المدارس في إنجلترا. اتصلي به بسرعة. كم أحبّها منذ أعوام طويلة وأميال بعيدة. وجهها يلاصق وجهه تحت شمس لندن الباردة. ما زالت تلك الذكرى حيّةً فيه، حلاوتها، كمتعة امتلاك شيء لم يتوقعه. لكن منزلهما الآن يعجّ بالغرباء. أُغلقت الأبواب ولم يعد يألف من مكانه شيئًا.

"مرة وحدة بس". خرجت الكلمات قبل أن يعرف أنه نطقها، مولودة من رحم الشك لا الاقتناع. "مرة وحدة منشان يافا". شعر برضا حارق بأن قلب الطاولة على جود ورمى إنذارها في وجهها. سيرى إن كانت صادقة أم لا. أهي تحبه فعلاً أم تحب وجوده في حياتهم؟ هذه هي الطريقة الوحيدة لمعرفة الإجابة.

لكن عندما رأى رافان يومأ برأسه مستحسنًا انتابه ذلك الشعور ثانيةً. شلل أصاب أحلامه. وطنه قريب منه في مكان ما، لكن قدميه متسمرتان مغروستان في التراب. ها أنا.. جذوري ممتدة كجذع شجرة بلا حول مني. ولا سبيل للتقدم إلى الأمام إلا بنزعها من جوف الأرض.

***

عند السادسة في ليلة العرض، أركبت جود مارك في السيارة، وعادت إلى المنزل لتستعجل صوفي. كانت الصغيرة في غرفتها تضع أحمر شفاه بلون الزهر بكل عناية. ضربت جود كتفها بخفة، وقالت: "أسرعي يا مدموزيل. إنه ليس عرض أزياء".

وزّعت صوفي اللون بتساوٍ بإصبعها، وقالت: "لا أدري لم أنتما مستعجلان. حتى بابا لم يصل بعد".

"أعرف يا حبيبتي". انقلبت معدة جود للمرة الثانية. لن يفوّت العرض. لقد وعد مارك.

سببت لها مكالمة توني اليوم اضطرابًا ذهنيًا. اتصل حوالي منتصف الظهيرة ليبلغها برسالة قصيرة جدًا. لا توجد سوى ثلاث مدارس قريبة من منزلها القديم في شرق لندن تقبل فكرة التحاق الصغيرين بها بعد البداية الرسمية

للعام الدراسي. وكل واحدة تتطلب خضوع الطالب لامتحان دخول يعقد في نوفمبر. أي أقل من شهر. وإلا فسوف ينتظران حتى العام المقبل.

قال لها توني: "فكّري بالأمر جيدًا. أستطيع مساعدتك إن قررتِ المجيء. سأفعل أي شيء تحتاجين إليه".

ردّت بحيرة: "لا أدري يا توني.. لقد وعد أن يطلب من أخيه الرحيل. وإن فعل فكيف أتركه؟"

طال الصمت من الطرف الآخر على الخط، ثم قال توني: "يبدو لي أنك تقفين في مفترق الطريق يا بوبيلا. ولا أحد غيرك يعلم أي اتجاه تسيرين فيه. لكن ما أريد أن تتأكدي منه هو أنني في انتظارك متى ما قررتِ أن تخطي الخطوة التالية".

سمعت صوت سيارة تقف أمام المنزل فشعرت بارتياح غامر. جذبت ذراع صوفي، وقالت: "هيّا.. أخيرًا جاء بابا. فلنذهب".

أسرعت تخرج من المنزل مع حلول المساء وصوفي تلحق بها. رأت مارك يخرج من الباب الخلفي للسيارة متهلل الوجه.

خرج رافان بخطوات واسعة من حجرة الخدم، يحمل حقيبة سوداء ثقيلة فوق كتفه. رمى جود بنظرة من طرف عينه عندما مرّ بها. كانت الحقيبة ممزقة من طرفها، وظهر منها أوراقًا نقدية خضراء. تجمّد قلبها في لحظات.

كان سالم واقفًا عند باب سيارته بقميصه دون سترة، يعلو التردد وجهه. نادى رافان بصوتٍ عالٍ: "يلا يا سالم. فلنذهب.. سنحضر البقية لاحقًا".

غطّت جود فمها بيدها وقالت لسالم: "لا يمكن!" رفع رأسه ونظر إلى عينيها. ولأول مرة في حياتها الزوجية لم ترَ شيئًا، أي شيء، تعرفه في عينيه. وصلها صوت مارك هاتفًا: "ما الذي يحدث؟ إلى أين أنت ذاهب؟"

سمعت سالم يقول لابنه: "أنا آسف. يجب أن أفعل شيئًا مهمًا جدًا. سوف أحضر مسرحيتك في وقت آخر".

"قلت إنك ستحضر الليلة. أنت قلت...". سمعت دموعه في صوته قبل أن تراها تنهمر. فتاها الصغير تحول إلى طفل يبكي مرة أخرى. اعتصر الألم قلبها وهي تقترب من سالم وتمسك ذراعه. ودّت لو أن أصابعها تستطيع سلخ جلد هذا الغريب لتبحث عن الرجل الذي تزوجته.

"لا تفعل يا سالم". هذه هي المرة الثالثة التي تنطق فيها اسمه. أول مرة كانت في يوم زفافهما، عندما قبلت به زوجًا.

شعرت بشيء يتحرك بداخله.. الذنب وهو يعتصر قلبه. لكنه سحب يده من يدها، وسار نحو البوابة. كان آخر ما رأته هو سواد شعره وهو ينعطف من عند الزاوية، ويد رافان تلوح لهم وهي تأخذه بعيدًا عنهم.

***

حلّق مارك كالطير على خشبة المسرح في تلك الليلة. جناحاه طيفا قوس قزح، ووجهه يلتمع بألوان كثيرة، عيناه ثائرتان وجسده أخف من أن تمسكه الجاذبية. شعرت بأن قلبها ينسى نبضه كلما رأته، وظلّت تقاوم رغبتها في أن تمد يدها وتشده إليها على الأرض.

لم يبقوا بعد أن انتهى العرض، لا لكي تشرب كأسًا مع هيلين، ولا لكي تسمع ثناء السيد ترافيليان. قادت السيارة وثلاثتهم صامتون. أمالت صوفي جبينها على النافذة الخلفية، ومارك مستلقٍ بارتخاء في مقعده. كانت جود واثقة بأنهم سوف يعيشون في دنيا مختلفة إذا عاد سالم إلى البيت هذه الليلة، أو الليلة التي تليها. أو إن عاد أصلاً.

أوقفت السيارة في المرآب. والمنزل خالٍ تغطيه أيدي الصحراء المظلمة الساكنة. اتجه مارك بهدوء نحو غرفته وأغلق الباب. تابعته صوفي بعينيها حتى اختفى، ثم استدارت نحو أمها. رأت جود بقايا خفيفة من اللون الوردي ما زالت متعلقةً بشفتيها.

قالت صوفي بصوت حازم: "إلى أين ذهبا الليلة؟ أبي وعمي رافان.. أنت تعلمين، أليس كذلك؟"

ابنتها تقف أمامها، جميلة جدًا وآخر لحظات الطفولة تتمسك بها. طاف بعقل جود ذكرى حفل البات متسفا عندما كانت في سنها. اليوم الذي ينتهي فيه خوفك، اليوم الذي تتخذين فيه مكانك بين قومك. يوم ربيكا جاء وهي تركب عربة مكسورة، ويوم جود جاء بجوار سرير جدتها. والآن جاء يوم صوفي، هنا في الصحراء، على بعد آلاف الأميال.

قالت جود: "إنهم ينقلون أموالاً إلى أصدقاء رافان. المقاتلين الفلسطينيين". المرأة البالغة تستحق أن يُقال لها الحقيقة. أومأت صوفي، وذراعاها تحيطان بجسدها كأنها تحتمي من ريح باردة.

قالت وعيناها تنظران إلى الأرض: "لا يمكن أن نستمر هكذا. تعلمين أننا لا نستطيع يا ماما". ثم استدارت لتتبع أخاها إلى الغرفة وتنورتها ترفرف حول ساقيها.

عندما تأكدت أن التوأمين في فراشيهما، اضطجعت جود على سريرها. أحست بأن روحها تحوم بعيدًا عن جسدها، إلى حلم حلّقت فيه فوق طريق عريض يخترق حقولاً، وتتفرع منه طرقًا أخرى في كل ناحية.

من أحد هذه الطرق اقتربت عربة يجرها حصان، وتركبها فتاة يهتز رأسها مع ضربات حوافر الحصان. تملّك جود إيمان مطلق بضرورة اللحاق بتلك

العربة، فجَرت إلى الأمام وقلبها يدق بعنف.. لتدرك في فزع الكوابيس أن العربة قد رحلت. ومهما حاولت وبحثت عنها، أو ركضت حتى تؤلمها رئتاها، فإنها لن ترى أي طريق من هذه المتاهة سارت فيه العربة.

استيقظت مع أولى خيوط الفجر. قفزت من السرير، وسحبت الدرج الذي كانت تحتفظ فيه بالمينورا. كان رافان قد أخرجها ليريها سالمًا.. لكن لم يخطر في بالها أن تسأل إن كان قد أعادها إلى مكانها. وجدت مخبأها القديم خاليًا. فتحت الأدراج واحدًا تلو الآخر، وأخرجت الملابس والصناديق القديمة، كامرأة مسّها الجنون.

وجدت العلبة أخيرًا تحت السرير. احتضنتها وكادت أن تبكي ارتياحًا وعجبًا من أنه احتفظ بها. طيلة الشهور الماضية كانت المينورا أسفل منها، حيث تنام وهي تسهر تحميها بصمت. شعرت فجأة بيأسها يتحول إلى عزيمة. كوني شجاعة. كوني مينش. لقد انطلقت الصافرة. وحان الآن وقت القفزة الشجاعة في الهواء.

لم تجد في ظلام غرفة الخدم إلا حقيبتين سوداوين. جرّتهما إلى الحديقة وأفرغت ما بهما على الرمال، وكل خلية في جسدها تنصت بحذر إلى صوت اقتراب سيارة.

تناثرت حزم من نقود خضراء مربوطة. كثيرة.. كثيرة جدًا كأنها تخرج من بئر بلا قعر. راقبت تساقطها حتى أصبحت كومة عالية.. عشرات الآلاف من الدولارات.

عندما تختارين السلام تكونين قد اخترت الطرف الخاسر. قد يكون هذا صحيحًا، لكنها لن تجعل رافان يكسب.

دخلت المطبخ وأخرجت علبة الكيروسين من تحت المغسلة. تناولت

علبة أعواد الكبريت من جانب الفرن. ارتجّ الباب وهي تخرج بأدواتها إلى الحديقة حيث يحرّك نسيم الصباح الأوراق. سكبت الوقود على كومة النقود. تراجعت إلى الخلف وأشعلت العود. نظرت إلى اللهب الضئيل وحرارته تتدانى من أطراف أصابعها. استعملت هذه الشعلة مئات المرات لتحتفي بالحياة في أعياد الميلاد، ولتضيء الشموع أثناء صلاة السبت السرّية. والآن ستستعمل اللهب لتحرق قيودهم.

أفلتت أصابعها العود. طار في الهواء فاتقدّت نار سئمت الانتظار. أذهلها المنظر، حتى إنها سمعت ألسنة اللهب تحكي.. هيّا يا جوديث! هيّا! تحركي يا فتاة!

استدارت جود وهرعت نحو غرفة طفليها. هزّت كتفيهما وأنهضتهما من الفراش. قالت صوفي: "ما الأمر؟" كان مارك قد استيقظ ووقف بجانبها ووجهه يلتمع في العتمة.

قالت وهي تسحب حقائبهما من أعلى الخزانة: "ضعا ملابسكما في الحقائب. سوف نذهب إلى المطار. وجد العم توني مدارس لكما، وسوف تختبران الشهر القادم لتلتحقا بها".

غطت صوفي فمها بيدها وامتقع وجهها. أمسكت جود يد ابنتها وضغطت عليها. قالت: "أنتِ محقة. حان الوقت لنجد مكانًا يسعدنا.. يسعدنا كلنا". تساقطت دموع صوفي مع إيماءاتها، وإحدى يديها متشبّثة بغطائها المزيّن بالخيول الواثبة.

قال مارك فورًا: "وماذا عن بابا؟" كاد الألم الذي سمعته في صوته والفزع الشديد يحجبانها عن فعل ما اعتزمت فعله. ركعت بجانب ابنها واحتضنت كفّاها وجهه. قالت: "يجب على بابا أن يتخذ قرارًا مهمًا. وإلى أن يتخذ هذا

القرار يجب أن نذهب إلى مكان آمن. سوف أشرح الأمر في السيارة، لكن يجب أن نسرع الآن".

أمسك مارك كتفيها بيأس: "ومسرحيتي؟ ماذا عن مسرحيتي؟"

طوقته بذراعيها. "أنا آسفة جدًا يا مارك. أحيانًا تكون الحياة قاسية جدًا.. أعرف. لكنني أعدك بأن أشياء أخرى في انتظارك هناك.. أشياء رائعة ومذهلة. هل تثق بي؟"

أومأ مارك لكن جسمه كله ذبل وانكمش، مثل شجرة الليمون التي رعاها بكل حب. لابد أنه عرف عندما رأى أباه يخرج من باب المنزل مساء أمس أن أهم لحظة في طفولته مجرد حلم، مثلما حدث مع باك تمامًا.

ما أن أشرقت الشمس حتى كانت حقائبهم في السيارة. غمرهم سكون الصحراء وجود تتجه نحو المطار لآخر مرة.

لم يستيقظ العالم بعد، وفي مكان ما قد يكون سالم عائدًا بسيارته إلى منزلٍ فارغ. كأن ابنتها قرأت أفكارها لأنها همست من مقعدها في الخلف: "هل سيسامحنا؟"

"سوف يسامحنا. إنه يحبنا أكثر من أي شيء آخر. لكنه يحتاج إلى أن يتذكر حبه". أنا أعرف من يكون حتى لو أنه نسي.

فتحت نافذة السيارة لتدع الرياح العليلة تدخل. قرعت هذه الرياح أذنيها كما كانت تفعل رياح الوير في طفولتها، كما ترددت هتافات الجمهور في بطولات السباحة التي تخيّلتها في صمت جدران غرفتها.

عندها شعرت به.. شيء ما بين الذكرى والأمنية. أصابع قدميها على طرف حمام السباحة، الماء يلتمع تحتها. تنتظر صافرة الانطلاق، جسمها مستعد للقفز.

انكشفت اللحظة أمام عينيها كما كان يجدر بها أن تحدث.. الماء الأزرق الرقراق، الأنوار المسلّطة، حماس التشجيع، وفقاعات النشوة التي تطير في داخلها وتحملها إلى مقدمة السباق. في الناحية الأخرى الأمان، وبهجة الأذرع المتشابكة معًا في طريقها إلى المنزل تحت سماء الشمال الغائمة.

عاد بصرها إلى اللحظة، إلى الطريق الممتد أمام عينيها، فرأتهم جميعًا يركضون بجانبها بوضوح.. كات وبيغي، جاك ودورا، مارك وصوفي، بل حتى سالم ورافان.. كلهم يعدون مسابقين سحب السماء، يلاحقون بعضهم نحو مستقبل مجهول. تبعهم الصمت والفراغ الذي سرعان ما امتلأ بوجود آخر.. وجود بثّ السعادة والراحة في نفس جود. أنتِ هنا. كانت ربيكا معها، تسير إلى جوارها، فأدركت فجأة أن هذا هو المكان الذي سيتلاقيان فيه، وأنها كانت تنتظر جود هنا طوال هذا الوقت لتجدها على هذا الطريق الطويل. مدّت جود يدها بحب تمسك يد جدتها، سعيدة بأنها ستقودهما معًا إلى حيث ينتميان.

الجزء الرابع

العودة إلى الوطن

إن أردتَ أن تستعيد موطنك

فسلّ سيفك وشد قوسك

الشاعر اليهودي نفتالي هيرتس إيمبر

ومشينا في طريق مقمر
تثب الفرحة فيه قبلنا
وضحكنا ضحك طفلين معًا
وعدونا فسبقنا ظلنا
وانتبهنا بعد ما زال الرحيق
وأفقنا ليت أنّا لا نفيق

قصيدة الأطلال لإبراهيم ناجي

غنّتها السيدة أم كلثوم

1987
لندن

عاد إلى صمتٍ، وكومة جمر خبت نارها في الحديقة، وملابس مبعثرة في غرفة النوم، ورسالة من جود حملها بأصابع متخدرة. رأى رافان يبتعد عن بقايا النار، وقطع النقود المحترقة تتطاير من بين يديه. وعلى الأرض حقيبة سوداء فارغة كأنها جلد مسلوخ. التقطها رافان وهزها بذراعين اسودّتا من الورق المحترق.

قالت جود في رسالتها:

سال.. لقد خنت وعدك. لم أفعل هذا إلا لكي أنقذ أسرتنا. سوف نذهب إلى بلدنا. كيف يبلغ بك العمى هذا الحد يا سال؟ يهود أو عرب.. ماذا يهم أيهما نكون؟ كيف تجرؤ على أن تقحم طفلينا في حرب لم يبدآها؟

لكنها ختمت الرسالة بنهاية ألطف، كتبتها بقلبها المحب الذي احتواه منذ البداية.

أنت ما زلت زوجي. أنا أعرفك وأؤمن بك، بالرجل الذي تزوجته. مكانك معنا نحن يا سال، معي ومع صوفي ومارك، لا مع أخيك ولا في الماضي. الخيار بيدك. أرجوك عد إلى بيتك. لم يفت الأوان. تعال إلى بيتك بيننا.

وفي آخر سطر قالت إنها سوف تتصل به عندما تصل إلى إنجلترا، من

بيت توني. شعر بيد رافان على كتفه، وبلغه صوت أخيه كأنه آتٍ من نهاية نفق طويل.

"ما قلت لك يا خيِّي. بياخدوا كل شي.. بيتك ومصرياتك وتاريخك.. وحتى ولادك. كل شي. شي واحد بس ما بيقدروا ياخدوه".

استدار سالم ببطء يواجهه، والرسالة مجعدة في قبضته.

قال ودمه يغلي في رأسه كالمرجل: "شو هو؟"

"تارنا.." ومدّ رافان يده يسحب رسالة جود من يد زوجها.

***

جمع رافان ملابسها من الغرفة ورماها في الأرض الفضاء بجانب المنزل. راقب سالم وجهه المحتقن تعبًا وغضبًا، وهو يكدّس الفساتين على كومة من إطارات السيارات المنسيّة.

أخبره رافان لاحقًا وهما واقفان في ظل الشرفة، وكان بيده إحدى حقائبه الخاوية: "صار لازم فِلّ من هون. اليوم.. ما حيصدقوا إنه الفلوس راحت.. بنت الكلب". نزع قناع اللطف، فظهر وجهه متوحشًا قبيحًا. "بفتكر فيني روح ع عمّان. فيه إخوان هونيك كمان. بس ما تعطل هم.. منظل ع اتصال يا سالم". أطبقت يده على معصم سالم بأصابع خانقة.

أخذ سالم صورة بيت الشموطي في سكون البيت بعد رحيل رافان، واحتضنها إلى صدره ونام. رأى في حلمه أن البرتقال نضج وأن الطعام معدّ له على الطاولة. رأى نفسه وحسّانًا كأنهما مارك وصوفي، ووالدته تضحك من نكات أبي حسّان، وهم مجتمعون ويأكلون. نهض وفي قلبه حرقة الاشتياق.

اتصلت به بعد يومين.

"ماذا كنت تتوقع أن أفعل؟" بلغه صوتها هادئًا عبر الأميال. كان ينتظر منها ندمًا أو دموعًا، لكن صوتها كان جدارًا أملس لم يستطع تسلقه.

قال: "رحل رافان".

سمع شهقتها. "كنت واثقة أنك ستتخذ القرار الصحيح". دبّت الحياة الآن في صوتها. "انتظر.. شخص ما يريد أن يكلّمك". حلّ الصمت لحظة، ثم أعقبه صوت أنفاس سريعة قلقة. "أبي؟"

"مارك". كان يتوقع أن يسمع صوت صوفي، ولما لم يكن مصيبًا عجز عن إيجاد كلمات يقولها.

سأل الفتى: "هل أنت غاضب منّا؟" شعر سالم بحنجرته تنقبض. نعم. أراد أن يقول نعم ونعم ونعم.

"لا. لستُ غاضبًا".

"هل ستأتي إلى إنجلترا؟"

"لا أدري".

سكت مارك. نظر سالم إلى الحديقة، إلى البقعة السوداء التي اشتعلت بها نار جود. كان مارك يرقص هناك قبل ثلاثة أيام فحسب. ومع خفوت الضوء كاد سالم يراه واثبًا كطيف سعيد.

"متى ستدري؟" كانت نبرة مارك يائسة ضعيفة كصوت طفلة خائفة، تقرص قلب سالم وتحسّسه بالذنب.

قال: "أنت أصغر من أن تفهم.. أنت وصوفي. ربما يكون من الأفضل لنا إن ابتعدنا عن بعضنا لفترة".

"لكن...". والآن انهمرت الدموع. "لكن أنت قلت إننا سنتحدث مع بعض أكثر". كان صوته الصغير أبعد ما يكون عن مقتبل الرجولة. "والمكان ممتاز هنا. سوف أخضع لاختبار في مدرسة وايت لودج. إنها أفضل مدرسة بالية في إنجلترا. وإذا قبلوني فسأكون مشهورًا يومًا ما". أطلق سالم ضحكة عالية. هكذا سيكون حالهم.. سيقضيان زهرة شبابهما بعيدًا عنه، أُنتزع منه شيء غالٍ قبل أن ينال فرصة الاستمتاع به.

أكمل مارك: "يجب أن تعود.. ماما وصوفي تريدان أن تكون معنا أيضًا. وأنا أريد ذلك".

شدّ سالم سماعة الهاتف. مارك. رافان. فلسطين. بيت الشموطي. هذا أكثر مما يستطيع العقل استيعابه. ومن حيث لا يدري برزت ذكرى سخيفة في ذهنه، نقاشه مع جود في مقهى فيرجينيا في حياة سابقة. سألته: من ستكون لو لم تمانع في التخلي عن كل ما يجعلك أنت الآن؟ وأجابها بأن من المستحيل أن يقارن قيمة ماضيه بثمن مستقبله.

قال أخيرًا للصبي: "سوف نجد حلاً. أنت محق.. يجب أن نكون معًا".

لكن الكلمات التي طمأنت مارك على الهاتف كانت في عقله كالسم البطيء. فإشراقة صباح كل يوم كانت تجلب معها دفعة طازجة من الغضب العنيف والمرارة الفائرة. جود لوت ذراعه. إذا رفض العودة فستقول إنه هو من اختار أن يتركهم.

قال لها وهما يناقشان ترتيبات الرحيل: "لا يمكنكِ إجباري على العيش في إنجلترا. لكن بما أن مارك وصوفي ما زالا صغيرين فسأحرص على زيارتكم كثيرًا". بدت جود مصدومة. أراد أن يصرخ بها: وماذا كنتِ تتوقعين؟

انتقل للعيش في شقة صغيرة في مدينة الكويت، والتحق بوظيفة بساعات

عمل أقل، ليتسنى له زيارتهم لبضعة أشهر في السنة. عندما وصل مطار هيثرو لأول مرة منذ سفرهم، قابلته أسرته الصغيرة في المطار. تدافعوا بين ذراعيه لاحتضانه، فتذكر أولى سنوات طفولتهما، عندما لم يكونوا يعرفون شيئًا غير الحب. استلقى تلك الليلة بجانب جود في فراش يجمعهما لأول مرة منذ افتراقهما، ورائحة العرق الخفيف وملمس الجسد العاري تملأ وجودهما. ظل يراقب وجهها النائم.

ما أن حلّ العام الثالث على انفصالهما، حتى كان سالم ينام في الغرفة الإضافية. ولم يعد يحضر الصغيران للقائه في المطار، بل اكتفت صوفي بأن تحتضنه عندما يدخل من باب المنزل. أما مارك، الذي خضع لقسوة المراهقة التي لا ترحم، فقد طلب منه أن يوقّع على ورقة يتعهد فيها بألا يتشاجر مع أحد وهو هنا.

ومع هذا فإن المشاحنات لم تنقطع. مهما حاول أن يقذفها بكل التهم، بالبرودة، بالخيانة، بالهجر، فإنها لا تلين ولا تذعن. كل شخص في ذلك المنزل لديه ما يشغله. جود وجدت نفسها في تدريس الإنجليزية في لندن، ورواية القصص القديمة لفصول تحوي طلابًا من أعراق شتى؛ يهود وعرب وغيرهم، كما كان يحلو لها أن تردد. صوفي كانت إحدى طالباتها النجيبات. أما مارك فما زال منغمسًا في أحلامه. وسوف ينضم قريبًا إلى مدرسة الباليه الملكية ويتركهم. كان بريق نجاحاتهم يلقى ظلالاً قاتمة على فشله. كانت تستحوذ تفكيره.. كانت الظلال تغطيه حتى يشعر أن درجات سلم الطائرة في هيثرو مفروشة بقطع الزجاج.

عاد سالم مرةً من المطار فوجد البيت خاليًا. لم تعد جود من العمل بعد. وغرفتا التوأمين في ظلام. وقف لحظات في هذا الصمت. تذكر ذلك الصباح الموحش قبل أربع سنوات في الصحراء.. الحجرات الخالية، والأبواب

المغلقة.

أسقط حقيبته على الأرض، وفتح سحّاب الجيب الأمامي، فأخرج صورة بيت الشموطي. التقط الصور التي صفّتها جود على رف المدفأة في الصالة صورة صورة.. لقطات عائلية مرتّبة، نزهاتهم في السرج، مارك مرتديًا حذاء الباليه، صوفي على ظهر الخيل. عندما خلا الرف من كل الصور، وضع صورة بيت الشموطي بإجلال على الخشب المكسو بالغبار. قد اشترى لها إطارًا ذهبيًا جديدًا من الكويت، لكن لمعان الأطراف جعلها تبدو كمكان مسكون بالأرواح.

عادت جود بعد ساعة مع مارك، واعتذرت لتأخرها.

قالت: "احتاج مارك إلى فحوصات أخرى فأخذته إلى الطبيب. يرون أنه يحتاج إلى مساعدة ليركز في دراسته ويقلّل حركته. أليس كذلك يا عزيزي؟" رفع مارك كتفيه مطرقًا رأسه. قال: "المدرسون أغبياء.. يجب ألا يقلل الراقصون حركاتهم!"

ثم لمح مارك الرف الخالي والصورة الوحيدة. سأل: "ماذا تفعل هذه الصورة هنا؟"

قال سالم: "هذا بيتنا في فلسطين". رأى حاجبيّ مارك ينعقدان، وانتظر انهيار الاعتراضات. لكن كل ما فعله الفتى هو أنه نقل بصره ما بين الصورة وأبيه، ثم قال: "أتذكر".

بعد عام، في عيد ميلاد سالم الخامس والأربعين، اختفت الصورة. كان سيسافر إلى الكويت في اليوم التالي. كانت جود في العمل، وصوفي غائبة عن المدرسة لإصابتها بنزلة برد، وهي تساعده بمرحها المعتاد على حزم أمتعته.

في فوضى الغرفة الإضافية التي صارت من نصيبه، كان يعطيها الملابس

وهي تطويها بذراعين بلون شطآن يافا. ذكر نفسه بأن الطفلة التي كان يقذفها في الهواء سوف تتخرج من المدرسة الثانوية قريبًا، سابقةً أقرانها بعام كامل. نبوغها المزهر يصيبه بالعجب والخوف معًا، الطفلة التي كانت تتسلل بعيدًا خارجةً عن ذاكرته.

كانت تعاتبه الآن. قالت وهي تضع قميصًا في حقيبته: "ألم تسأم من السفر المتكرر؟ ماذا حدث لنيتك الاستقرار هنا؟"

قال مازحًا: "لو فعلت فسوف تسأمين وجودي".

رمته بنظرة متشككة. "أهذا أفضل عذر لديك؟"

أشاح وجهه عنها. كم يدهشه أنها رغم لونها العربي فإنها ما زلت جود في صميمها.. نفس الصمود العنيد. "أنتِ لا تفهمين يا صوفي".

"أنك وأمي تعانيان من مشاكل في زواجكما؟ أن مارك صعب المراس؟ لقد نشأتُ في هذه الأسرة بالمناسبة.. أنا أتذكر".

قال كمن يرد اتهامًا: "أنتِ لا تتذكرين إلا ما تريدين أن تتذكريه، أو ما أخبرتك به أمك. وهو ليس الحقيقة دائمًا".

"أنت تلومنا على رغبتنا في العودة إلى هنا". كان سالم يعلم أنها محقة رغم أنه فتح فمه ليعترض. "كل ما أردناه هو مكان نستقر فيه ونكون سعداء. وأنت من بين كل الناس يجب أن تفهم ذلك. بعد كل تلك القصص التي حكيتها لنا عن أشخاص هربوا من مكان إلى مكان آخر.. أنت وعمي رافان وعائلة أمي. ربما لم يكن لديكم خيارًا فيما جرى حينها.. لكننا الآن نملك الخيار".

قال تلقائيًا: "هذا ما تظنينه". أخرجت صوفي زفرة مغتاظة. أخذت القميص وذهبت إلى حجرة النوم. نادته من داخلها: "أبي.. هل وضعت

الصورة في الحقيبة؟ لم أرها فيها".

استدار في ذعر إلى رف المدفأة. كانت جود قد أعادت الصور إلى الرف بعد مشادّة حامية. لكن المكان الذي تقف فيه صورة بيت الشموطي عادةً كان خاليًا.

تولاه الفزع. لابد أن جود رمتها فعلاً. كيف تجرؤ؟ قلّب سلال النفايات، وفتّح خزائن غرفتها والأدراج، وذاق مرارة الخوف. لم يجد صورته في أي مكان.

وفي يأس اقتحم غرفة مارك. كان السرير مرتبًا، والجدران مغطاة بورق يحمل صور راقصين تنثني أجسادهم في ألم مستتر. كانت على الطاولة الأدوية التي يجب أن يتناولها مارك عندما ينتابه ما يسميه "صداع الغضب". أصرّت جود أن يتعاطاها عندما أرسلت مدرسة الباليه خطاب إنذار، بعد أن حاول مارك إشعال النار في موقف السيارات، بجانب سيارة أحد المدرسين الذين لم يكن يتفق معهم.

وجد صورة بيت الشموطي خارج إطارها بجانب علبة الدواء، وإلى جوارها نسخة ثانية منها أكبر من الأصل ضعفين. رأى سالم في ارتياع أن هذه النسخة الكبيرة مشوّهة، فقد رسم مارك عليها بألوان صارخة. رسم صورة جود وصوفي وهما واقفتان عند شجرته تحملان كتبًا في ذراعيهما، ومارك يقف بجانبهما يرقص، وهو يرتدي تنورة حمراء كالتي ترتديها راقصات الباليه وحذاءً ذهبيًا. في طرف الصورة، كان سالم واقفًا يحمل برتقالة. رسم مارك نجمة داود على باب المنزل فوق رأسي جود وصوفي. وكان إصبع مارك في الرسمة يشير إلى النجمة، ويشير باليد الأخرى إلى أبيه.

بينما سالم يحملق في الصورة في دهشة، سمع صوت الباب. التفت فوجد

مارك يحمل ملابس الرقص، واقفًا كأنه طائر مستعد للإقلاع.

قال الفتى بعد لحظة صمت: "كنت أعدّها لتكون هديتك في عيد ميلادك. إنها أفضل من التحديق في تلك الصورة القديمة طوال الوقت. يجب أن تحمل معك صورة لنا نحن".

رفع سالم الصورة. "رسمتَ نجمة داود على بيتي..". فرك مارك جبهته وأطرق برأسه، وقدمه ترسم خطوطًا وهمية متعرجة على الأرض. "نوعًا ما.. لكن ليس هذا معناها".

"ماذا؟ ماذا تعني إذًا برأيك؟" كل ذرّة ارتياح أحس بها سالم لأنه وجد صورته انقلبت الآن إلى غضب.

ردّ مارك معاندًا: "ظننتُ أنك ستفهم! الصورة تمثلنا نحن جميعًا والبيت. أنت قلت إنه بيتنا. وهذا يعني بيت أمي أيضًا، فالنجمة لها".

"وماذا عنك أنت؟" رأى سالم الخوف يتسلل إلى عينيّ ابنه الزرقاوين. أشار إلى رسمة الفتى بالتنورة. "أتريد أن تكون يهوديًا مثل أولئك الفتيان في مدرستك؟ ألهذا رسمت نفسك بهذه الملابس؟ لتذكّرني بأنك لا تستطيع أن تصبح عربيًا؟ أتظن أنني سأجعل يهوديًا يرثني؟"

"أنا لست يهوديًا. أنا مجرد راقص".

"لا يوجد راقصو باليه عرب يا مارك!"

"إذًا سأكون الأول".

نظر سالم إلى صورة مارك، القدمان المنتصبتان على أصابعهما وفستان البنات، وشعر بغضبه ينقلب إلى قلق ممزوج بالشفقة.

من الأفضل أن يفهم الآن قبل أن يفوت الوقت. قال: "لا.. لن تكون.

لستَ مثل الأولاد الإنجليز في فصلك. أنت ابن الإسماعيلي، حتى وإن لم ترد أن تكون. يمكنك أن تبدو مثلهم وأن تتصرف مثلهم. وسوف يقبلونك طالما أنا أدفع مصاريف المدرسة. لكنك لن تكون منهم أبدًا. لهذا لا تجد عربيًا غيرك في مدرستك يا مارك. إنهم يعرفون أن من الأفضل ألا يحاولوا أن يتظاهروا".

بدأ مارك يمسح عينيه. "أنت تكذب. أنت لا تعرف أي شيء عن الرقص".

وضع سالم الصورة وأمسك بكتفيّ مارك بشدّة. قال: "لقد قلت لي مرةً إنني أقول لك الحقيقة دائمًا. وأنا الآن أقول لك الحقيقة.. لن تنجح فيما تفعله". اختنقت الكلمات في حنجرة سالم، لكنه أردف: "عربي أبيض يرتدي فستانًا! لابد أنك مجرد نكتة بالنسبة لهم. وسوف تفشل في كل مرة، كما فشلت أنا إن استمريت في التظاهر بغير حقيقتك".

صاح مارك: "أنا أعرف من أكون".

صاح سالم مثله: "من تكون إذًا؟ قل لي! لست عربيًا، ولست يهوديًا. لست رجلاً، ولستَ امرأةً. إذًا من تكون؟"

كان الصمت صامًا للآذان. رفع إليه مارك عينين حمراوين. همس ابنه: "أنا أعرف من أكون". تحرر فجأة من قبضة أبيه، واختفى كوميض أبيض لم يترك وراءه إلا صدى انصفاق الباب.

***

في عصر يوم صيفي، كان مارك وصوفي في المنزل. وكان سالم يجلس على كرسي أبيض وثير في ردهة بيت جود، وبيده عقد لم يُوقّع. شركة أمريكية

مقرها الكويت في حاجة إلى محاسب لمدة سنة. مسمى الوظيفة.. "مساعد مالي". كأن كل صفحة يقلبها تهزأ به. أراد أن يصرخ: كنت مديرًا عامًا ذات مرة.

أبدلت جود السجاد البنيّ ذا الدوائر بسجاد بلون المشمش، والجدران بلون العشب الأخضر. ومع تراقص شمس العصر على الأثاث، بدا كما لو أنه يجلس في بستان إنجليزي، ممتلئ بفواكه الصيف وأصناف التوت، ويصدح فيه غناء الطيور.

كانت صوفي جالسة تقصّ شيئًا من الجريدة. وجود مشغولة في المطبخ. باب المطبخ مفتوح، ولما رفع رأسه سمع طقطقة كعبها ولمح ساقيها. ولأول مرة منذ أشهر طويلة يتذكر أنها ما زالت امرأة جميلة.

اقتربت صوفي منه تحمل شيئًا. قالت: "انظر يا أبي.. مقال مكتوب في التايمز عن يافا".

أخذ الورقة منها وقرأها بسرعة. موضوع لا تنشره إلا التايمز، تحقيق يحكي أن اليهود والعرب يعملون سويةً أخيرًا لإنقاذ المدينة القديمة. وفي منتصف التحقيق صورة بالأبيض والأسود لبرج الساعة. أعادته في لحظة إلى الساحة، فاسترجع بهاءها قبل أيام الدم والركام والانهيار.

دفع الورقة إليها وقال: "موضوع مثير". اختفت الابتسامة عن وجهها، فشعر بالذنب. لكن فكرة جديدة خطرت في ذهنه مع دخول جود إلى الردهة.

سأل ابنته: "لماذا لا تذهبين إلى هناك؟ انتهت اختباراتك. اذهبي وزوري المكان. وسوف تهتم بك العمة نادية والعم طارق. وتستطيعين أن تري بنفسك ما الذي يجري هناك". وأشار إلى قصاصة الجريدة التي تحملها.

كانت حركة واحدة فقط هي التي قلبت مزاجه.. تلك الثانية السريعة

التي أدارت فيها صوفي رأسها جانبًا تنظر إلى جود بحاجبين مرتفعين.

دخل مارك الحجرة بينما صوفي تنتقي كلماتها بحذر: "قد تكون هذه فكرة رائعة. هل أستطيع اصطحاب إحدى صديقاتي؟ وعدت صديقاتي بأن أسافر معهن هذا الصيف".

تجاهلها سالم وقال: "مارك! لم لا تذهب إلى يافا مع أختك هذا الصيف؟" نظر مارك إلى صوفي بعبوس متحيّر. رآها سالم تغمز لأخيها وهي تقول: "لم لا يا ماركي؟ سيكون الأمر ممتعًا".

لم ينظر مارك إلى أبيه. لم يتحدثا منذ حادثة ذلك العصر في غرفته إلا عند الضرورة. وعندما عاد إلى لندن في زيارته التالية، وجد رسمة مارك تنتظره على سرير الحجرة الإضافية مقطّعة إلى قصاصات كثيرة.

تمتم ابنه: "لدي اختبارات أداء هذا الصيف في المدرسة. لا أستطيع أن ألتزم بأي خطط".

جزّ سالم أسنانه وقال: "إن لم ينتظروك لأسبوعين أو ثلاثة فهم غير مهتمين بك. أم أنك تختلق حججًا فحسب؟"

رأى سالم الدم يحتدم بوجه مارك، وعضلاته تنقبض كسلك مشدود. وضعت جود يدها تمنعه. قال بعصبية: "الأمر ليس بهذه البساطة! أتعرف مقدار الجهد الذي يجب أن تبذله كي تكون راقصًا؟ إن فاتتني اختبارات الأداء سيضيع مستقبلي".

"ألا تظن أن تاريخك مهم؟" هبّ سالم واقفًا، فتناثرت أوراق العقد على الأرض.

"لم أقل هذا. لماذا تحرّف كل شيء أقوله؟"

"لأن السبب الوحيد لعدم وجودي في يافا في هذه اللحظة هو أنت يا مارك. أتذكر؟ عندما هربت أمك بكما.. ورجوتني أن أعود إليكم؟"

صرخ مارك بغضب أسود: "لا أصدق! أنت تلومني أنا! أنت من تركنا في الكويت! أنت من قال لي إنني لست رجلاً حقيقيًا! أنت قلت إنني سأكون فاشلاً! فلماذا تريدني أن أذهب إلى يافا الملعونة؟" اقترب خطوات من أبيه، وكفاه مقبوضان إلى جانبيه. فأدرك سالم في ذهول أن هذا الولد يحاول أن يتحدى تحدي الرجال.

سمع جود تهتف في مكان ما وراءه: "مارك! لا.."، لكن صوفي هي التي حالت بينهما رافعة ذراعيها، وقالت: "توقفا.. أرجوكما.. أرجوكما".

دفعها سالم بعيدًا عنهما، فظن أن مارك سيضربه فعلاً في تلك اللحظة. لكن مرت الثواني، ورأى أن شجاعة الفتى خانته كما توقّع أنها ستخونه، رأى الخوف يحل مكان الغضب في تلك العينين الزرقاوين. تغيّرت وقفة ابنه، وتراخى وإن لم يزايله التوتر. لم يتوقع سالم أبدًا ألمًا بهذه الشدة.

تنحنح مارك وقال ببرود: "لا أدري لماذا لا تكف عن الحديث عن ذلك البيت السخيف. إنه ليس ملكك الآن".

إنه ليس ملكك الآن. أدرك فجأة جنونه.. كل هذا من أجل لا شيء.. الزيارات المتكررة والترضيات. لقد خسر أسرته منذ زمن بعيد.

مزّق في تلك الليلة العقد الجديد مع الشركة الأمريكية. وعندما دخلت جود الحجرة ورأته يحزم أمتعته قالت: "لكنك لن تذهب إلى الكويت اليوم؟!" أجابها: "لن أذهب إلى الكويت. سأذهب إلى فلسطين".

وفي آخر لحظة، قبل خروجه من الباب، أتى مارك مسرعًا من غرفته بوجه ممتقع ونظرة ثائرة.

"إلى أين ستذهب؟" كان صوته مجرد أنفاس متقطعة. وجود واقفة في آخر الحجرة وذراعاها مرتخيتان في عجز، ونجمة داود ترتاح على صدرها مع القلادة العربية التي أهداها إياها عندما التقيا. كانت تحرص على أن ترتديها عندما يكون موجودًا. تجاهل سالم مارك ونظر إليها مشيرًا إلى عنقها.

قال بنبرة تبث السم: "يجب أن تخلعي إحداهما".

كان وجهها هادئًا متعبًا. نظرت إليه بثبات، وأجابت: "كلاهما جزء مني". هزّ رأسه. فتح مارك فمه لكن لم تخرج أي كلمة منه. ولم يبقَ عندئذ شيء إلا أن يغلق الباب خلفه.

يافا

صادفت عودته إلى الوطن نهاية الصيف المتوسطي الطويل.

تصاعدت أنغام الشارع، فوصلت أذنيه وهو واقف في شرفة نادية ينظر ناحية الغرب. امتزج صوت أذان المسجد، وباعة الشارع، ومحركات السيارات مع عويل أسطوانة عتيقة تدور في جهاز تسجيل. انبسطت أصابع من ظلال المستوطنات اليهودية العالية في "ناصيرات عيليت"، كما أصبح اسمها، على المدينة القديمة وتلال الجليل الممتدة. في زمنٍ مضى، لم يظلل شيء هذه البيوت غير التلال والسماء. تذكّر عندما كانت نادية تقول له: انتبه يا سعدان.. ما فيه اشي بيحجب عين الله عنك من هون.

والآن سمعها سالم تناديه من الداخل. لم تكن تحب جلوسه هناك وحيدًا. شو عم تتأمل؟ لكنه لم يكن يتأمل، بل كان يخطط. نادته أخته: "صار وقت العشاء يا سالم. رح يبرد الأكل".

ردّ هاتفًا: "لحظة وحدة".

تسلل صوت طارق عبر المطبخ، يصرخ في الهاتف بالعبرية، ووثائق بيت الشموطي مفروشة أمامه.

أقلقته موسيقى نادية. كانت نفس الأغنية التي سمعها في السيارة في ذلك اليوم في بيروت.. السنوات الغضة من حياته، عندما قرر أن يتّبع حبه. لكن سرعان ما انكشف الأمل الزائف المخبأ في الحب، كما هو مخبأ في أشياء أخرى

كثيرة.

غرفت نادية على مائدة العشاء، وكوّمت الملفوف ولحم الضأن لكلٍ في طبقه. حدّث طارق سالمًا عن رأي حسّان بما دعاه "خطتك المجنونة".

صار شعر طارق الأسود أبيض عند الصدغين. "يا اللي بحاول افهمك إياه يا سالم، زي ما قلت لك قبل.. إنه استرجاع الأراضي العربية اشي معقد كتير. واللي بيرفعوا هيك قضايا ضد الدولة ما بيكسبوها.. هدا غير إنه إجراءاتها بتطلّع روح الواحد". هزّ طارق رأسه، وخلع نظارته فمسحها بطرف سترته. "بتهلك كتير". ونظر إلى سالم بعينين ضيقتين حانيتين.

قال سالم: "أنا بشوف الموضوع بسيط كتير". كانت الطاولة تغص بالأوراق المتكومة عليها، ومنها سجلات قضايا ملكيات متنازع عليها، حصل عليها طارق من أحد معارفه في المحكمة الابتدائية. "اليهود اشتروا بيتنا من واحد ما بيملكه. حتى الولد الزغير بيقدر يعرف إنه الأوراق مزورة. احتيال واضح. احنا بنطالبهم بحقنا. وفيه قضايا بتشبه قضيتنا قبل هيك.. قرأت عنها". ولم يفعل في الحقيقة شيئًا آخر غير قراءة تلك القضايا منذ ترك جود ومارك.

رفع طارق يديه. "معك حق لو كنا عايشين في أي بلد تاني. لكن هون إنت بتحارب أجنده. اليهود عملوا هاي القوانين لياخدوا الأراضي إلهم.. لحتى يتأكدوا إنه العرب ما راح يرجعوا أبدًا. اشي بيحكوا ضمان حق، واشي بيحكوا وعد الله. وهلّا بتفكّر إنك إنت بتقدر تقنعهم يغيروا رايهم.. إنت؟ سالم الإسماعيلي؟ صحيح عندك جواز بريطاني بس رحت وإلا اجيت بتضل عربي".

ضرب سالم الطاولة بيده، وصاح: "ملعون أبو الإسرائيليين. كنا في

حرب... كل الناس هربت من بيوتها. يعني اليهود ما هربوا كمان لما النازيين احتلوهم؟ ولما النازيين كمان سرقوا كل اشي تركوه، حكيوا اليهود إنه هدا عدل ومن حق النازيين؟!"

"اسمعني يا سالم. أنا مش خبير بهيك قضايا. أنا بفهم بقانون الأسرة. وإنت بتحتاج لواحد يقدر يساعدك. عندي شوية أفكار خطرت ببالي. لكن بانصحك ما تحط أملك في إنك تنجح".

كان سالم يعلم أن طارق ونادية لا يوافقانه الرأي بخصوص هذه القضية. فهم مثل حسان، يكتفون بالتعاطف مع مشكلاته، ولعن القدر، والانخراط بسرد الذكريات الحزينة. لكنهم لا يرون أي قيمة في محاربة قضية يظنون أنها خاسرة.

إلا رافان.. هو الذي يفهمه ويفهم دافع سالم في الحضور إلى هنا. كما قال له في آخر يوم في الكويت: "ما تشرب من كاس الدموع يلّي بيسقوك إياه هَودي الناس.. فيه إشيا أحلى بكتير لتشربا".

وضع سالم يده على ذراع طارق. "بعرف إنك ما بتريد لي إلا كل خير. إنت ونادية كنتم أقرب لي من أمي وأبوي. لكن ما تحكي لي ما أحط أملي في إني أنجح. ما بقدر اعيش متل الشحادين أكتر من هيك، أبوس ايد اللي سرقني ع القرشين يلّي بيرميهم علي. ما فيه اشي بالدنيا أهم عندي من هالقضية".

نظر طارق إلى أوراقه، وأصابعه تعبث في أطرافها. شعر سالم بردّه قبل أن يخرج من فمه.

قال الرجل المسن: "ولا اشيء بالدنيا.. هاي كلمة كبيرة يا سالم. كلمة كبيرة ع رجال عنده عيلة".

قال فورًا: "ما عاد بيهمهم شو بيصير فيّ.. وكمان مش محتاجيني.. هم

اللي تركوني".

"إنت عارف إن هدا الكلام مو صحيح".

ارتعش جسد سالم بمرارة الواقع. قال: "إنت ما بتعرف شو صار.. فالله يخليك لا تحكي لي بهالموضوع". رفع طارق كتفيه وتنهد. "متل ما بدك. راح اتصل بكم واحد هلّا.. إذا كنت متأكد".

"أنا متأكد".

تنهد طارق وأومأ برأسه. تابعه سالم وهو يتجه نحو التلفزيون، ممشوق الجسم وإن انحنى ظهره قليلاً. كان طارق دائمًا في تصوره رجلاً طويلاً، ويتذكر سالم أنه كان يرفع رأسه كي يكلّمه، وينتظر إجاباته واستحسانه ونصائحه. لكن الذكريات خدّاعة. وجد نفسه الآن ينظر إلى طارق هذا من أعلى، كما تنظر المستوطنات اليهودية إلى الناصرة القديمة المقيّدة.

امتلأت نشرات الأخبار بصور فتيان في شوارع الضفة الغربية المحتلة، وهم يرمون زجاجات المولوتوف على الدبابات الإسرائيلية. كانوا شبابًا بسنّ مارك، يعصبون رؤوسهم بأقمشة سوداء، وتسكن أعينهم نفس النظرة المتحدية.

لاذ سالم بالشرفة ليشاهد غروب الشمس. وتحت سماء الجليل التي تغطي كل شيء يقع تحت بصره، همس الكلمات مرة أخرى لنفسه. أنا متأكد. بدت له في صمت المساء ضعيفة كأنها دعوة استعطاف.

وقع في نفسه أن أمه قد نطقت الكلمات نفسها في هذا المكان، قبل زمن بعيد، وهي تمسك أمنيتها وتقذفها في فم السماء. أنا أتبع خطاك يا ماما. هل أنتِ فخورة بي؟ حاول أن يتذكر وجهها، لكن وجه جود هو كل ما استطاع رؤيته، بعينين زرقاوين جامدتين كالثلوج. لكن صورتها تلاشت شيئًا فشيئًا،

كما ابتلع الغروب التلال الغربية لتدخل في أحشاء الظلام.

***

ذهب طارق في اليوم التالي إلى تل أبيب ليرفع أوراق القضية في المحكمة الابتدائية. ومن ضمنها، كما شرح لسالم، طلب إبطال قيد المهلة القانونية المحددة للمطالبة بالأراضي. "الطبيعي إنه ما بيكون معك غير خمسة وعشرين سنة لتقدم شكوى ضد الدولة. وبعد أربعين سنة ما إلك أمل بنوب. لكن في هاي القضية بالذات لازم تشكرني أنا اللي أنقذتك. خليني أحكي لك شو القصة..".

في نفس السنة التي رحل فيها سالم إلى إنجلترا، أقنع طارق أبا حسّان أن يرفع شكوى يعارض فيها تملّك الدولة لمنزله. "يعني.. يمكن يكون فيه فرصة. مع إنه ما كان بده يعمل هيك". وبعدها بفترة قصيرة، تعرض والده لسلسلة من الجلطات التي أقعدته. مما يعني أن طارقًا يستطيع الآن أن يطالب بإسقاط الأعوام التي لم يكن والده يستطيع فيها أن يحمل ملعقةً بيده من أي مطالبة قانونية يتقدم بها ورثته.

بعد أن غادر طارق، ظل سالم يذرع الحجرة ليهدئ أعصابه.

كان يستطيع أن يرى من باب المطبخ نادية وهي تكوّر اللبنة بباطن كفيها، ثم تسقطها في برطمان مليء بزيت الزيتون والملح. خرجت رائحة اللبن الرائب الحامض من المطبخ، وهو يراقب يديها تضربان اللبنة مرة تلو الأخرى، ثم تضغطها وتشكلها بأصابعها في رقصات صامتة.

أمسك سماعة الهاتف فاتصل برقم صديق رافان، الرجل الذي قال أخوه إنه يستطيع مساعدته. كان رافان في الأردن الآن. "عايش حياة بسيطة

وهادية يا أخي. ما فيه شي تعمله هون غير إنك تربي خواريف وتاكلُن. راح كون ناصح كتير لما تشوفني المرة الجاية". لم يصدّق سالم كلامه البتة.

كان الاسم المكتوب بجانب الرقم جميل، وكان رافان يناديه جيمي. "جيمي رجال كتير منيح. هو أصلاً من يافا، بس عاش بتل أبيب بعد الحرب. وبيكتب مقالات بكل الجرايد، حتى لهَيدي الجريدة اللبرالية اليهودية هاآرتس. بيحبوه كتير هونيك. زلمة بوجوه كتيرة..فهمان عليِّي؟" فهم سالم ما قصده بالضبط. إن لبستَ أقنعة كثيرة، ألا تنسَ من تكون؟

جاء صوت جيمي من الطرف الآخر مرحًا عاليًا، والكلمات تنزلق من على لسانه. "سالم الإسماعيلي! آه بعرف أخوك. من أحسن صحابي.. وخدمني كتير ودلني على أخبار ممتازة. ويمكن هلّا يكون عندك خبر حلو إلي؟"

شرح سالم مهمته، وجيمي يهمهم مشجعًا بين الفينة والأخرى.

قال في النهاية: "والله يا حبيبي هاي قصة غريبة. وأنا بعرف هالزلمة.. أبو مازن. توفى الله يرحمه قبل فترة بسيطة. وإلا يمكن ما بدك ياني أترحّم عليه؟!" ضحك ضحكة صاخبة. "بس ابنه لساته موجود، ولساته محراك الشر".

استرجع سالم الوجه السمين والخصلات السوداء. قال: "ما بدي اشوفه".

قال جيمي: "زي ما بدّك. عندك أشياء تانية أهم تشغل بالك. طلب مني رافان إني اساعدك، فخليني اساعدك. أول شي.. لازم نتقابل. ليش ما تجي ع يافا بكره؟ بنشرب قهوة ونحكي ع راحتنا".

***

عاد طارق من تل أبيب عصر ذلك اليوم، محمرّ الوجه من شدة التعب لكنه مسرور جدًا من نفسه. كان قد تقدّم بطلبين: الأول إلى المحكمة الابتدائية يعارض فيها المدة المقيّدة قانونيًا في قضية سالم، والطلب الثاني قضية ضد "أميدار" شركة الإسكان الحكومية التي ابتلعت أرضهم.

قال لسالم وهم يتناولون العشاء: "الموضوع صار أحسن مما تصورت بكتير. وكمان عندي إلك مفاجأة". لكنه لم يقبل أن يفشي سر المفاجأة عندما استجوبه سالم ونادية. لم يزد عن هزّ رأسه والابتسام، ثم أخذ يكرر: "بعدين.. بعدين. بأوعدكم".

حكى له سالم ما دار بينه وبين جيمي، لكنه أغفل ما ذكره عن رافان. تردد طارق في البداية، ثم قال إن الصحافة الفلسطينية قد تكون فعلاً مفيدة لهم. "العرب هون عندهم جرايد ومحطات راديو كتيرة، مع إنه ما بتفرق مع الإسرائيليين. بس يمكن تساعدنا هاآرتس لأنهم بينشروا قصص عربية كتيرة. ويمكن يكون عندي اشي في تل أبيب بيفيدك كمان. خلينا نصبر ونشوف".

***

سافرا في اليوم التالي في سيارة طارق النيسان، قاطعةً طرق الجليل المتعرجة إلى السهول الساحلية المنبسطة. أمال سالم رأسه على النافذة، وبصره متعلق بما أمامه حيث الأرض تترامى وتتمدد.

مرت بهم سيارات لامعة كثيرة، والطريق يتمايل وهو يحملهم، كجدول فضي يشقّ حقولاً داكنة. تناثرت محطات الوقود والمجمعات، فولاذ وزجاج

حيث كان الأخضر في زمن مضى ناميًا. أُكلت الأرض. أكلها اليهود، والآن أرجوهم أن يستفرغوا لي لقمة.

وصلا إلى تل أبيب. صفوف طويلة من البنايات السكنية البيضاء تبرق في ضوء النهار، ومئات النوافذ التي تحدّق في البحر. وسماء تخترقها أبراج شاهقة، كتلك التي ترتفع في الواجهة البحرية في خليج الشيوخ.

لكن الكمال لم يبلغ كل شيء. فبعد أن ابتعدا عن المنطقة التجارية متجهين إلى الجزء القديم من المدينة، ظهرت آثار الخراب. كانت مباني تل أبيب على طراز بوهاوس محط إعجاب أهل يافا. حتى رئيس بلديتها هيكل أثنى عليها مرةً، بتقوّساتها وزواياها الغريبة، بيضاء كزبد البحر. أما الآن فتجد المظلات المكدودة تهبط من شرفاتها، والملوحة قد بصمت على جدرانها بالبني والأصفر. أثار مرآها في نفس سالم أسى وحزن غريبين.

وصلا إلى التقاطع الذي يربط تل أبيب بيافا. لم يستطع سالم أن يتنفس. حبست لسعة الذكريات أنفاسه في رئتيه. قال لنفسه: أنا هنا.. في وطني.

مرا على مبانٍ لم يعرفها في منطقة يبدو أنها صُممت للسياح. شخص ما أزال طوب يافا الأصفر المتداعي، الذي تشرّب رائحة الأركيلة والقهوة، واستبدله بحجارة جديدة مملّسة نظيفة.

فتح سالم النافذة يبحث هنا وهناك، ويرجو طارقًا في سره أن يتمهل لعلّه يجد شيئًا مألوفًا يرسي عليه آماله. مسحت عيناه الشوارع الغريبة، فرأت رجالاً ونساء عجائز يحملون كاميرات، وفتيات بسيقان لوّحتها الشمس ازدحمت بهن الأرصفة. شعر كأن المدينة تتجاهله، كطفل فتح ذراعيه مستعدًا لعناق لن يحصل عليه.

ثم رآه أخيرًا.. برج ساعة يافا، ما زال جميلاً، يقف متأسفًا في منتصف

تقاطع مروري مزدحم. غشيت سالم الراحة وهو يتتبع خطوطه العتيدة بعينيه. كان أصغر مما يتذكر، لكن ماذا يهم هذا؟ هنا لعقوا الكنافة من أصابعهم في سوق العطّارين. هنا لعبوا البلي وسط جلبة جامع المحمودية. وهنا ركل شاربو الأركيلة كاحليه عندما تحدّاه مازن أن يفسد عليهم لعبة الطاولة. وهنا سحب قطعًا من الركام بعد انفجار قنبلة الإرغون دون أن يعي أن مصيبةً أكبر في طريقها إليهم جميعًا.

والآن يقف فيها سياح بيض بدناء يلتقطون صورًا. وآخرون يجلسون في المقاهي مسترخين في شمس الخريف.

كان الاتفاق أن يقابلا جيمي في مقهى اسمه بيتنا، وقد اقترح جيمي بنفسه مكان اللقاء. كان يرى أن الأمر مضحك، فكلمة بيتنا تعني الشيء نفسه في العبرية كما في العربية. قال له: "هو صحيح محل يهودي بس ما تشيل هم. أنا بعرفهم وهم متحررين. والبنت اللي بتديره فلقة قمر". وكان محقًا. فتيات بأكمامٍ قصيرة وسيقان طويلة يقدّمن القهوة لشباب سعداء ذوي عيون داكنة.

وقف رجل بحجم الحوت يستقبلهما عندما دخلا. ارتطم كرشه بفنجان القهوة التركية على الطاولة أمامه، فانسكب الشراب الأسود على منفضة سجائر تنضح بالرماد. امتد ذراعاه لاستقبال سالم. هتف "سالم الإسماعيلي!" فالتفت نصف من في المقهى ينظرون إليهما. "يالله شو بتشبه أخوك!"

أصرّ جيمي على شراء القهوة والكعك قبل الدخول في الموضوع. قال: "كل الأوربيين بيعانوا من عسر هضم. أمعائهم يابسة متل رووسهم. ما بتشوفهم يسكروا تمهم لما بياكلوا؟ كأنه عيب إنه الواحد يكون جوعان. بس العربي بيبدّع وبيتفنن في مكانين بس: ع طاولة الأكل وفي غرفة النوم. وإلا؟" تململ طارق في كرسيه وتنحنح. التقط سالم نظرة زوج أخته الجانبية وسؤاله

الصامت: من هذا الحيوان؟

ولم يكذب جيمي فيما قاله، كان يستطيع الأكل والكلام في آن واحد. شرح له سالم الموقف والقضية، فقال بعد أزال فتات كعكة العسل عن فمه: "أنا مش محامي، فراح أترك الناحية القانونية إلك"، وأومأ إلى طارق فرد هذا الإشارة بالمثل. "بس عندي شوية صحاب.. بتقدر تقول منظمة صغيرة مهتمين بحقوق الملكيات هون. بتعرف إنه السلطات لسّاتها عم تخلي المباني العربية القديمة من اللي فيها؟ بيسموها أحياء فقيرة.. هدا موضوع سياسي.. مبادرة رئيس البلدية شلومو". نقر سيجارته في المنفضة. "فيه ناس كتير اجو لعنّا بدهم نساعدهم، بس قصتك إنت... كيف بدي اقولها؟ شاعرية. ما بعرف حدا أبدًا بيقدر يطالب بأرض من الثمانية وأربعين. ما حدا بيتجرأ".

قال سالم بحذر: "حكى لي رافان إنك بتقدر تساعدني. كيف بتقدر منظمتك تساعدني؟"

تراخى جيمي في كرسيه، واسترخت يداه على قمة كرشه. قال: "احنا بنقدم لك دعم معنوي". رماه سالم بنظرة خاوية من أي تعبير. أيظن أنني في حاجة إلى كتف أبكي عليها؟ أردف جيمي: "الرأي العام. احنا بنجمع الناس لتدعم قضيتك. بنثير اهتمامهم.. الصحافة والقيادات المحلية. وهيك بيصير صعب ع المحاكم إنها تتجاهلك. هدا اللي بنعمله".

سأل طارق: "وشو المقابل؟" ظلّت قهوته لم تمس أمامه.

رفع جيمي كتفيه: "اللي بينفعك بينفعنا. احنا كلنا اخوان هون". تصلّب ظهر سالم عندما سمع هذه الكلمة. تذكر فاروق في بيروت، بعينيه السوداوين وحقيبته المليئة بالرصاص. والآن ظهرت نجادة من نوع جديد، جيش من الصبيان في المناطق المحتلة اسمه حماس. يبدو من اسمه وكأنه نادٍ للشباب،

لكن هذا النادي أرسل مراهقين بحجارة وكوكتيل المولوتوف لمجابهة جنود إسرائيليين بأسلحة أتوماتيكية.

وضع سالم فنجان قهوته بحرص على الطاولة، ثم نظر إلى الرجل الجالس أمامه. "خلينا نكون واضحين يا جميل. ما بعرف رافان شو حكى لك بس كل اللي بدي اياه هو أني أرجّع بيتي. ويا ليت بتقدر تساعدني بموضوع الصحافة أو أي اشي يدعم قضيتي. بس مش أكتر من هيك". ضحك جيمي ورفع يديه.

"حكى لي رافان إنك زلمة فطين! لا.. مش أكتر من هيك. احنا بندعم اخوانّا المقاتلين في الضفة الغربية. بس بندعمهم بطرق قانونية لأنه احنا هلّا مواطنين إسرائيليين. والقضية بالنسبة إلنا هو إنه بدنا معاملة عادلة وجزء من السلطة. مش هيك؟"

لم يبرح القلق وجه سالم. "إذًا شو بدك يانا نعمل؟"

"بس خليك جاهز، وخليك على اتصال معي. راح أكتب قصتين تلاته عن الموضوع. ولما تاخد موعد أول جلسة يمكن ساعيتها بنقدر نعمل اشي أكبر. فيه ناس كتير هون مستعدين إنهم يدعموا أي قضية. ومش كل صحابي عرب ع فكرة. هيه.. أوزنات!" صاح بالعبرية فجأة يكلّم شخصًا عند طاولة الاستقبال فجفل سالم. "هذا الرجل يريد أن يسترجع بيته من الدولة. أتريدين مساعدتنا في استرجاعه؟"

رفعت فتاة يهودية ذات عينين رماديتين وبشرة سمراء رأسها. كان قميصها الأسود ملطّخًا بالسكر من الكعك، وشعرها مرفوع برباط. قالت بابتسامة بطيئة: "طبعًا. لم لا؟"

***

شعر سالم بأسنان الارتياب تعض على أعصابه، وهو يشاهد جيمي يحمل ثقله ويخرج من المقهى. ما سبب اهتمام صديق رافان هذا بمساعدته؟ إنه يخشى أن يثق به.. لكنه تعب من القتال لوحده في معاركه.

نقر طارق ساعته في قلق وقال: "سالم.. لازم نرجع لتل أبيب. فيه اشي لازم افرجيك ياه".

هز سالم رأسه ودسّ يديه في جيبيه. "مش مستعد إني أروّح هلّا.. بحتاج اضل هون مع حالي شوية".

تحقق طارق من الوقت ثانية ثم قال: "خلص.. تعرف شو؟ خلينا نتقابل هون بعد نص ساعة. راح أروح لتل أبيب وأرجع لك.. لأن المفاجأة اللي محضرها لك ممكن تتحرك". ثم ابتسم ابتسامة مرحة.

بعد أن اتجه زوج أخته نحو السيارة، سار سالم ناحية الشارع. فقطع ساحة البرج وتلك المباني الغريبة ورائحتها البيضاء الجديدة. اتجه جنوبًا يقوده إحساسه، كأن روح طفولته تلبّسته وحرّكت قدميه.

كانت المدينة القديمة محاطة بجدار عالٍ، يرى منها قمة برج كنيسة. وعلى يساره بدأت المباني تصبح أسوأ حالاً مع اختفاء السيّاح. انعطف خلف السور غربًا، تجاه ذكرياته عن البحر.

بدأ يعرف أين هو. مرّ بجانب المقبرة عن يمينه، وأكمل طريقه جنوبًا. الآن أصبح يراه... البحر والميناء. كان في زمان مضى يمشي على جدار الميناء مع مازن، متجهين إلى الساحة لشراء الحلوى. لكنه اليوم وجد أن الجدار مغلق بصفوف طويلة من الحاويات الفولاذية ذات الزوايا الحادة. وفي نهاية جدار الميناء موقف سيارات حديث عرضه مئة قدم. حلّقت طيور البحر

أعلاه يرفعها الهواء البارد.

تابع سيره جنوبًا، فوصل الآن إلى حي العجمي القديم، أو بالأصح المكان الذي كان يدعى العجمي. فبعد أن وقعت النكبة، تقاطر كل الفلسطينيين في يافا إلى هنا، مما جعل سالمًا فخورًا بأنه عاش في آخر المعاقل العربية في يافا. حتى عرف أخيرًا الحقيقة.. أنها لم تكن سوى أول سجن من سجون هزائمهم.

أصبحت مبانيها مهدّمة يتعكّز أحدها على الآخر، والأسلاك تمتد بينها كخيوط عرائس متجمّدة في رقصة حرمان. وأخليت معظم الأراضي المحاذية للبحر، وإن ما زالت بعض الشجيرات القصيرة اليابسة تتوزع أسفل التلال حتى تلتقي بشط البحر غربًا.

بحر أزرق صافٍ، لا ترى على أمواجه شراعًا مبحرًا. لم تعد هناك سفن في هذه الناحية، فلم يعد لها سبب للإبحار، ولن يلعب نسيم البحر أبدًا مع رائحة البرتقال المقطوف في موسمه. فالشاحنات تنقل الآن برتقال يافا إلى ميناء أشدود الإسرائيلي الحديث، على مبعدة أربعين ميلاً جنوبًا.

اعتلت شمس يافا عرشها في وسط السماء، وأرسلت سياطها الحامية تضرب عينيه. تفرّع طريقان من الشاطئ، فسار في الطريق الثاني، ووصل تقاطعًا مهّدوه بالإسفلت. أحسه غريبًا تحت قدميه، ومع ذلك فهو واثق أنه الطريق الصحيح.

ها هي. ما زالت البوابة سوداء متينة، وما زال البيت ورائها قائمًا بطابقيه. وشجرة الجهنّمية أكبر مما يتذكر، كأنها كرات حمراء متفجرة على جدار الفيلا.

صعقته الألوان حتى خنقت أنفاسه. اصطدام عنيف بين ذاكرته والعالم المادي. زرقة السماء الباهرة، وبياض الحجر الحارق. حرق ما يراه أمامه كل

ذكرياته المتجمّعة منذ سنوات، فمحاها كما تمحو شمس الظهر الظلال.

اقترب من البوابة وألصق كفه بالحديد البارد. تخيّل أنه يشعر بنبض قلب البيت. كل أحلامه كانت تنتهي هنا دائمًا.. لا يدري ماذا يفعل الآن.

رفع يده وضغط الجرس. تعالى نباح كلب في حماس من الداخل. سمع صوتًا يكلّمه بالعبرية من سماعة البوابة. فتح فمه لكن لم يستطع الكلام. ارتجّت البوابة ثم انفتحت.

كانت شابة، بعمر جود تقريبًا، وشعرها الكستنائي مرفوع فوق رأسها. وكانت تلبس بنطلونًا وقميصًا شمّرت أكمامه، وفي إحدى يديها قفاز مطاطيّ. ابتسمت له من بين فتحات البوابة. ومن خلفها تحرّكت أوراق الشجر، وتمايل البرتقال الناضج على الأغصان متأهبًا للقطاف، والتمع مع شمس الغروب التي لوّنت البستان بكل درجات الأخضر.

أدرك أنها سألته للمرة الثانية عما يريده هنا، فأجابها بالإنجليزية: "اسمي سالم.. سالم الإسماعيلي".

"نعم؟ أستطيع مساعدتك؟" كانت إنجليزيتها بطيئة ثقيلة، والسؤال على وجهها كافٍ.

مدّ يده يلمس الجدران البيضاء المختبئة وراء الأغصان خلفها. جفلت المرأة فتراجعت، وخرجت الكلمات متتالية من فمه رغمًا عن نفسه. "هذا بيتي. كان بيتي.. يومًا ما". رأى ملامحها تنقبض في حيرة، ثم اتّسعت عيناها في دهشة. هزّت رأسها.. لم يكن يريدها أن تخاف. شعر بحنجرته جافة وهو يطمئنها: "لا بأس.. لا بأس. لا أريد إلا أن أراه مرة أخرى".

غطّت فمها بيديها، وتسربت من بين أصابعها الإنجليزية التي أثقلتها لكنة أوروبية، كلكنة أم جود. قالت: "يا إلهي! متى؟ متى كنت تعيش هنا؟"

قال: "قبل الحرب". فرت الدموع من عينيه فأخفى وجهه بكفيه. قالت: "يا إلهي!" مرة ثانية، وشعر بيدها تنقبض شادّة على كتفه.

اعتدل فجأة. وماذا نفعل الآن؟ كانت تقبض صدرها بيدها المغطاة بالقفاز، وعيناها الزرقاوان حزينتان. لا أظنها إسرائيلية. سألها: "متى جئتِ إلى هنا؟"

قالت: "منذ فترة قريبة. من المجر. انتقل والداي إلى هنا بعد الحرب. أتيت لأكون بقربهما". أدرك أنها عندما تتحدث عن الحرب فهي تقصد حربًا مختلفة. حربهم مع ألمانيا. ولشعبيهما لم تكن هناك إلا حربًا واحدة.

فتحت باب المنزل مشفقةً وقالت: "أتريد أن تدخل؟ يمكنني أن أريك المنزل.. أو أعدّ لك شايًا؟"

شعر فجأة بالتقزز من فكرة دخوله إلى المنزل. هزّ رأسه وقال: "لا.. أشكرك. كنتُ.. يجب أن أغادر". إن كسب هذه القضية، فهي من ستغادر. لكن هذا للأسف لم يشعره بالانتصار.

منحته ابتسامة متأسفة ولوّحت بيدها تودّعه. استدار يخرج من البوابة، وسمعها تغلقها خلفه.

استدار فجأة وقال لها: "لحظة! أرجوكِ.. أتسمحين..." وأشار إلى شجرة برتقال وراءها. كانت واحدة منها شجرته، لكنه لم يعد يذكر أيها. "أتسمحين أن آخذ برتقالة؟ كنا نفعل هذا عندما كنا صغارًا.. أحد تقاليدنا".

أبقت البوابة شبه مغلقة وقالت: "سأحضر لك واحدة". رآها تتجه إلى أقرب شجرة، ثم مدّت جسدها الطويل فتعلقت بفرعٍ، وسحبته إلى أسفل حتى اهتزّ. وعندما عادت إليه كانت برتقالة مدوّرة كبيرة في كفها.

مدّتها من فوق حافة البوابة، فتناولها منها. وقفا في صمت لحظة، ثم هزّت

رأسها وقالت: "مع السلامة". وأغلقت البوابة. وقف سالم متسمّرًا. ثقيلة البرتقالة في يده، كثقل الأحزان التي حملها معه من هنا. شمّ رائحتها وأحنى رأسه.

كان ما زال واقفًا في مكانه عندما سمع سيارةً خلفه. مسح دموعه واستدار، فرأى النيسان تقف بجانبه، وطارق يخرج من السيارة. هرع طارق إليه وأمسك ذراعه. قال: "عرفت أنّا راح نلاقيك هون. إنت كويس؟ ما تهورت وعملت اشي جناية وإلا؟"

قبض سالم على يد طارق، وشدّها بقوة يطمئنه. شعر بوجود شخص آخر عند باب السيارة المفتوح. كان طارق يقول: "اسمع.. لازم نرجع هلّا. فيه أشياء كتيرة لازم نناقشها. وكمان عندي مفاجأتك هون. ما شفته؟" وأشار إلى السيارة.

ركّز سالم على وجه الرجل الغريب. كان طويلاً شاحبًا، وشعره بدأ يخفّ، لكن عينيه حادتان كالصقر. ابتسم عندما نظر إليه سالم، فعرفه فورًا. أصبح الآن رجلاً بالغًا. تقدّم نحوه يمسك كتفه. إيليا.

قال: "سالم.. كيف حالك؟ ما صدقت أبدًا لما قال طارق إنك راح تيجي".

مدّ سالم يده يتمسك بذراع إيليا، فشعر بصلابة العظام تحت جلده. أصابته لحظات السعادة والتعاسة المتتابعة بالغثيان، لا يجوز أن تسير هذه الذكريات في طريق حياته مرة أخرى هكذا.

"إيليا..". حاول أن يقول شيئًا آخر، غير أن الاسم هو كل ما استطاع أن يفكر فيه. "إيليا..".

حتى إيليا كان يبتسم وعيناه دامعتان: "سالم.. بتعرف إني محامي هلّا؟ الله

يرحم أيام محل الخياطة.. ومتخصص كمان في قضايا الملكية. راح اساعدك قد ما بقدر". أمسك كتف سالم الآخر كأنه يحاول تثبيت جسديهما على الأرض. "بوعدك يا صاحبي.. راح اساعدك نرجع لك حقك".

***

تم تحديد موعد جلسة الاستماع التمهيدية في قضية الإسماعيلي في الأسبوع الأول من نوفمبر. كانت صباحات الناصرة رمادية باردة، لكن سالمًا يعرف أن السماء عند الساحل ستكون زرقاء دافئة لا غيم فيها.

ارتدى قميصًا وربطة عنق وسترةً صوفية خفيفة. كانت مرآة الغرفة الإضافية التي استقر فيها مخدوشة وغير صافية. وقف أمامها متأملاً الوجه الذي يراه. لم أكبر بعد. خداه أنحل مما يتذكر، مغطيان بلحية نامية قصيرة. لمح لأول مرة شعرات رمادية على صدغيه. لمسها باحترام وحيرة.

وعد إيليا أن يقابلهما في المحكمة. أصبحت لديه عائلة الآن، وزوجته تعمل في تقديم الخدمات الاجتماعية للأسر المعوزة، بينما يحاول زوجها أن يشدّ قطعًا من أراضي العرب من قبضة إسرائيل الحديدية.

لن تكون المعركة قصيرة ولا سهلة. قال إيليا إن إسرائيل قضت أعوامًا طويلة تسنّ قوانين تكفل عدم وصول قضايا الأملاك كقضية سالم إلى المحاكم. "ما بيكفي إنه الأرض إلهم هلّا.. بدهم يثبتوا إنه الأرض ما كانت إلك أصلاً".

لكن ثمة أمل واهٍ في هذه القضية تحديدًا. "اسم أبوك مقيد في سجل الأراضي العثماني. والسجل بيثبت إنه الصكوك اللي استعملوها ليبيعوا البيت مزورة. ومنشان هيك رفعنا قضية ضد الدولة بسبب إهمالها، وعشان

تعوّض اللي خسرته".

لكنه، كما أكّد مرارًا لسالم، لن يصنع المعجزات. قال له: "راح احكيلك شو الفرق بين العرب والإسرائيليين. العرب بدهم يتحاكموا بالقانون نفسه.. القانون اللي تعلمناه واحنا زغار. الصح بيمحي الخطأ والعقوبة بتجي بعد الجريمة، متل ما الليل بيجي بعده النهار. بس في إسرائيل عنّا نوع تاني من القانون. قانون كله بنود وفقرات متفرعة.. وكل واحد بيفسرها على مزاجه، وفوق هيك فيه تحيز ضدك. الله والعدالة بريئين من هيك قوانين".

لم يستطع عقل سالم استيعاب هذا.. تعوّض اللي خسرته.. ماذا يعني ذلك لي الآن؟ ما خسره لم يكن مجرد مالٍ، ولم يكن مجرد أرض. كان أحيانًا يتخيل أنه سيفتح باب غرفته القديمة ويرى فيها كل ما يجب أن يكون.. سالم آخر مفعم بالثقة، مع زوجة وأطفال سعداء، وأمه تمد ذراعيها لاحتضانه.

كانت مباني محكمة تل أبيب مجموعة من المربعات والمستطيلات الرمادية، توقع في الأنفس الشعور المنشود؛ التسلّط والتحصين. زُخرِف الفناء المواجه للمحكمة الابتدائية بتماثيل معدنية مشكَّلة بأشكال غير مفهومة.. كأنها تنذر بالغموض والحيرة التي سوف تصيب من يدخل هذه المحكمة.

دخل سالم وطارق من بوابة المجمّع، فقال طارق: "اشي غريب!"

أشار إلى حشد صغير نشيط بهتافاته، وثلاثة حراس يمنعونهم من الدخول. رأى سالم لافتتين بالعربية والعبرية، مكتوب على الأولى العدالة للإسماعيلي، والثانية العدالة ليافا.

جيمي. كلّم جيمي سالمًا في اليوم السابق، وقد قال له: "ما تشيل هم. صحابي راح يكونوا هناك". اخترق سالم الجمع، وهم يهتفون له ويربّتون

على ظهره تشجيعًا. كان يريد أن يتكلّم معهم، لو لا أن طارقًا شدّه من ذراعه إلى الداخل. كاد سالم أن يحتجّ، لكنه رأى إيليا يتقدم نحوهم.

قال سالم: "شايف كل هذول الناس عند البوابة؟" ضخّت سعادته ثقةً جديدةً في نفسه.

رفع إيليا حاجبيه. "آه.. اشي حلو.. بس شو الفايدة إذا ما كانوا كلهم محامين؟ المهم.. يا رب القضاة يجوا من باب تاني. هديك المظاهرات اللي بتصير في الضفة الغربية خلت الناس تشك بكل مظاهرة بيعملوها العرب".

التفت سالم ينظر إلى اللافتات المرفوعة فوق الحائط، وردّ: "هي مش مظاهرة. هي إثارة اهتمام الرأي العام.. شو المشكلة في هيك؟"

كانت قاعة المحكمة منخفضة السقف ضعيفة الإضاءة. دخل القاضي بهدوء دون إعلان. كان هزيلاً بعينين مرهقتين وذقن متهدّل. وكان رداؤه الأسود واسعًا عليه، يرتدي تحته قميصًا أبيض وربطة عنق سوداء.

ثمة شباب واقفون على الطرف الآخر من منصة القاضي، وهم الممثلون لشركة أميدار للإسكان. همس إيليا: "هذول هم اللي بيديروا الأراضي والأملاك التي بتملكها الدولة.. الحكومة ولابسة بدل شغل". تفحّصهم سالم. عندما خسرت بيتي كان هؤلاء الرجال مجرد أطفال لا يجيدون القراءة والكتابة. تعجّب من هذا الجنون. كبر أطفال الحرب، وصاروا يحاربون بعضهم على أشياء لا يتذكرونها.

تمت الإجراءات بالعبرية، ولم تستغرق الجلسة أكثر من خمس عشرة دقيقة. وضّح إيليا الحقائق، وقدّم دواعي طلبه بأن تظل المطالبة التي رفعها أبو سالم سارية المفعول. وعارضه محامو أميدار بحجة أن مدة الطلب قد انقضت منذ فترة طويلة.

جلس القاضي منكفئًا على منصته برداءه الأسود. ولم ينطق سوى مرة واحدة.. ليسأل إيليا سؤالاً وهو يشير إلى سالم. حتى عندما نطق اسم سالم لم يحوّل عينيه عن المحامين. تخيّل سالم أنه يسمع الهتافات من خارج المحكمة. العدالة ليافا!

وفجأة، نهض القاضي وخرج بسرعة كما دخل بسرعة. فهم سالم أن الجلسة انتهت.. لكن كيف يمكن أن تنتهي؟! لم يصلوا إلى أي قرار. لم يتسنَّ له أن يتكلم!

لاحظ إيليا تعابير وجه سالم فابتسم وقال: "ما يكن لك فكر. هدا اشي ممتاز. هي مجرد إجراءات مبدئية. وأنا بعرف هدا القاضي، وراح يقرر بسرعة إذا راح تكون فيه قضية وإلا يرفض الدعوة من أولها. راح يكون فيه جلسة استماع تانية. يمكن بعد كم من أسبوع، ويمكن أقل".

الصبر. كلمة يهمسها سالم لنفسه كلما فتح عينيه صباحًا. لكن القول أسهل من الفعل.

ابتلع جرح كبريائه، ومد يده يصافح كف الرجل. "بتشكرك. خدمتنا كتير. ما بعرف ليش بس شكرًا كتير".

شرع إيليا يجمع الأوراق في حقيبته. قال دون أن يرفع رأسه: "إمّي الله يرحمها كانت تحكي عن إمك طول الوقت. كانت تجيها للدكان ويضلو يحكو ويحكو.. شغلات نسوان". ابتسم وهو يسترجع ذكرياته. "كنا دايمًا نقول إنها أحلى ست شفناها بحياتنا".

قال سالم: "كانت حلوة فعلا.. بس ما فيه اشي بيدوم".

اعتدل إيليا واقفًا، وقال: "بيجوز. ما فيه اشي بيدوم. بس في هداك الوقت خليتونا نحس إنه إلنا ضهر.. اليهود في تل أبيب كانو يعاملوا أبوي

متل الزبالة. وجيرانا في يافا ما كانوا يثقوا فينا. بس إمك.. وإنت كمان.. كنتو صحابنا واحنا ما نسينا إلكم هالشي". وضع يده على كتف سالم. "أشوفك بعدين". راقبه سالم يبسط كتفيه الضيقين ويخرج من قاعة المحكمة.

***

اتصل به جيمي في اليوم التالي. "شو؟ عجبوك الجماهير اللي في المحكمة؟"

ضحك سالم. "روعة. مين هذول؟"

تحولت الضحكة الصادرة من الطرف الآخر إلى سعال جاف. قال جيمي بصعوبة: "متل ما أنا قلت إلّك. منظمتنا إلها صحاب في كل مكان.. عرب ويهود.. وبوذيين حتى!" سعل مرة ثانية. "هلّا راح نعمل مقابلات مع الصحافة. وبديّاك تقول كم كلمة في بعض الاجتماعات.. بحضور شويه ناس ممكن يساعدونا".

سأله سالم: "امتى راح يكون هدا؟" كان الحديث مع جيمي كالقفز على نغمات أنشودة الأطفال القديمة.. أنت حية بالميه، كانت تعد للمية.. عشرة عشرين تلاتين أربعين خمسين ستين سبعين تمانين تسعين مية.. لكن إحساسه يؤكد له أن هذه الحية لو فلتت، ستنقضّ على من أفلتها.

قال جيمي: "راح أحكي معك قريب. ع فكرة.. احضر الأخبار بكره. يمكن راح تشوف اشي يعجبك فيها كمان".

لكن سالمًا لم يضطر إلى مشاهدة الأخبار، فقد أبلغه طارق بها شخصيًا. طرق باب غرفته طرقات عنيفة ظهر اليوم التالي. فزع سالم مستيقظًا من حلم ظهرت فيه جود. كانت شابة صغيرة وحول عنقها نجمة داود، والضوء يتلاعب بشعرها الأشقر.

سمع صوت طارق غاضبًا: "سالم!"

أجاب من داخل الغرفة: "شو فيه؟" فُتح الباب ووقف طارق هناك مزموم الشفتين.

"صاحبك هذا الجيمي".

"شو ماله؟"

ارتعشت فتحتا أنف طارق ولوّح بذراعيه في الهواء."اجاني اتصال من إيليا. صارت حادثة في البيت".

شعر سالم بالنعاس والغباء. "أي بيت؟ عن شو عم بتحكي؟"

"البيت! البيت!" بدا طارق كأنه يريد أن يهزّه. "كانوا عاملين مظاهرة. بدأوا من ساحة برج الساعة.. شوية ناس بيقولوا خطب عن حقوق الملكية في يافا، وبعدين بدأوا بمسيرة لحد ما وصلوا لدار أبوك، وكتبوا ع الحيطان العدالة ليافا وهيك كلام فاضي. اجت الشرطة واعتقلوهم".

نظر سالم إلى يديه ليخفي سعادته البالغة. "اشي عظيم".

هزّ طارق إصبعه. "اشي عظيم بس مش من صالحنا. بتتذكر شو حكى إيليا؟ لما الناس بيشوفوا عرب غضبانين ما بيفكروا انهم نشطاء.. لا.. بيقولوا هذول إرهابيين".

قال سالم: "جيمي صاحبه لرافان. راح احكي مع رافان. اطمن.. راح اتأكد إنه الأمور ما تفلت من ايدياتنا".

***

تابع المظاهرة في تلك الليلة على شاشة التلفزيون. كاد ألا يعرف بيت الشموطي! رشّ متظاهرون شباب متحمّسون جدرانه بكتابات حمراء، وحجبوا بوابته. كانت امرأة ما تتحدث بالعبرية وتحرّك يديها أمام عدسة الكاميرا، وحول رقبتها كوفية. بشرتها بلون الزيتون وشعرها بسمار الأرض.. مثل صوفي. أحس بطعنة ألم قوية عندما تذكر ابنته، فوضع يده على فمه وأغلق عينيه.

رنّ الهاتف وجاءت نادية على عجالة ترد. انتقل المذيع إلى مشاهد من المظاهرات التي بدأوا يسمونها بالانتفاضة، فعلّق أن الكنيست بدأ يسن قوانين جديدة لحالة الطوارئ. شعر باضطراب لسبب ما. شيء ما في كلام نادية على الهاتف أثار استغرابه. ثم أدرك ما هو ذلك الشيء. كانت أخته تتحدث بالإنجليزية.

استدار ببطء وتلاقت أعينهما. قالت: "نعم.. الآن يكلم سالم". ثم ناولته السماعة بهدوء.

جاء صوتها محترسًا، لكنه تعلّق به واستند عليه. قالت: "أرجو أن يكون الوقت مناسبًا".

أجاب: "الوقت مناسب". لم يتحدثا منذ أن غادرهم إلى إسرائيل.

قالت: "سمعت أن قضيتك تسير على ما يرام. قال حسان إنكم حضرتم الجلسة الأولى في المحكمة".

"لم أعلم أنك ما زلتِ على تواصل مع حسان".

"ما زلت على تواصل مع الجميع يا سال".

أغلق عينيه. لماذا تتصل؟ أبقي شيء بيننا لم نقله؟

صمتت لحظات ثم قالت: "ألم يبلغوك برسالتي؟" نظر إلى نادية التي تعمل في المطبخ. قد كتبت له ملاحظة أن جود اتصلت به، ووضعتها على سريره منذ أيام، لكنه لم يجد في نفسه الشجاعة ليتصل بها.

قال: "كنت مشغولاً جدًا. ما الأمر؟"

"معقول هذا يا سال؟!" فاجأته الدموع التي امتزجت بصوتها. ماذا جرى؟!

قالت: "مارك يا سال.. لقد فُصل من مدرسة الباليه الملكية. تعارك مع أحد الطلاب".

ضحك سالم برغم صدمته. "مارك؟ تعارك بيديه؟! لم أظن أنه يقدر على ذلك".

قالت جود ببرود: "لقد خدش وجه الفتى حتى سالت الدماء منه يا سال. وأعتقد أنك سبب الشجار في الحقيقة. كان الولد يهوديًا وقال مارك إنه سخر من الفلسطينيين. عندما اصطحبته من المستوصف كان ثائرًا مهتاجًا، وقال إنك قلت له إن العرب أضحوكة للناس كلهم، وإنه لن يسمح لأحد بأن يضحك عليه. ومنذ ذلك الحين... لا أدري". سمع تنهيدة عميقة مرهقة تصدر من أعماقها. "أنا قلقة عليه. يقول إنه يتناول أدويته لكني لا أصدقه. وأمس قبض رجال الشرطة عليه لأنه أشعل النار في تلك الخرابة في آخر الشارع. قالوا إنه رمى كوكتيل مولوتوف في داخلها".

ضحك سالم ثانية. "واو! كان ذلك المكان يستحق الحرق. أحسن مارك صنعًا".

صرخت جود: "ما خطبك يا سال؟! الأمر ليس مضحكًا. هذا الطرد..

إنه نهاية حلم حياته. يا إلهي يا سال! ألا تتذكر ما معنى أن يكون لديك حلم؟"

هواء لافح أجج جمر ألمه واستيائه. رد: "كانت لدي أحلام كثيرة. هذا مجرد حلم مارك الأول. صدقيني.. سيكبر وينسى".

"كما كبرت أنت ونسيت ما خسرته؟" أحس بلسعة سخريتها المؤلمة. تذكر الدموع في عينيّ مارك ذلك اليوم في غرفته. لم يشعر بشيء على الإطلاق عندها، لكن الآن تجمّع الحزن في قلبه على ابنه.

قال: "يؤسفني ما حدث لمارك. لكن ماذا تريدين يا جود؟ إنه لا يحتاج إلى أي شيء مني".

أجابت: "أنت أبوه! مستقبله معلّق في الهواء وهو في أمسّ الحاجة إلى والديه. إنه مشوش التفكير يا سال ويشعر بالأسف. أحيانًا يقول لي إنه سوف يسافر، وأحيانًا يسألني إن كنت ستعود. إنه يريدك إلى جانبه حتى وإن لم يقل هذا أمامك. ألا يجب أن يسعدك هذا؟"

صحيح، يجب أن يسعده. ما أسهل ذلك! أن يقول نعم ويركب أول طائرة ويفاجئهم. لكن عندها سمع صوت المذيع خلفه، وتذكر الطلاء الأحمر على جدران بيت الشموطي. العدالة ليافا! لقد اتّخذ قرارًا. لديه هدف يحققه. لا يمكن أن يتراجع الآن.. ليس من أجل مارك، ولا أي شخص آخر.

"إن كنت قد تحدثتِ مع حسان فأنتِ تعلمين أنني لا أستطيع المغادرة الآن". بدت كلماته أقسى مما كان ينوي. "نحن في معركة حامية الآن. ولو غادرت فسيضيع كل ما فعلناه. يجب أن أبقى هنا. أتفهمينني؟ يجب أن تشرحي ذلك لمارك".

التزمت جود الصمت. تصوّر وجهها الصافي كالماء الزلال وعينيها

الزرقاوين تتسعان في صدمة. ثم تكلمت بصوت ثقيل مستسلم. "لست واثقة أنني أستطيع أن أشرح له موقفك، لأنني أنا لا أفهم ما تفعله. ابنك يحتاج إليك. ماذا يوجد أهم من ابنك؟"

قال يحاول يخفي غضبه وشعوره بالذنب: "أنا أفعل هذا من أجله.. ولمستقبله. هذا إرثنا. يجب أن يهتم بذلك.. يجب أن يفهم".

قالت: "حسنًا يا سال. ابق هناك وحارب في معاركك. أتمنى أن تجلب لك السعادة. أنت تعرف أين تجدنا. مع السلامة". سمع التكّة وصوت نغمة الهاتف تقول له إن الفرصة ذهبت.

وضع السماعة بهدوء. رأى نادية واقفة عند باب المطبخ، عاقدةً ذراعيها على صدرها، وعيناها تنطقان استنكارًا. تكلّمت فكان صوتها حزينًا: "ما عم بفهمك.. شو بتساوي هانه؟"

"شو قصدك؟" انتقل فورًا إلى موقف الدفاع عن نفسه. "إنت من بين كل الناس.. كيف ممكن تسألي هيك سؤال؟"

قالت: "بقصد ما كان المفروض إنك تجي. وإنت بقلبك عارف هيك. أخوي اللي بعرفه ما كان ممكن يترك عيلته. كان راح يحميهم ويحطهم قبل كل شي". كانت عيناها حمراوين ويداها ترتعشان، كأنها أصابتها شجاعتها المفاجئة بالرعب.

صرخ متشبثًا بغضبه: "ليش عم بتبكي عليها؟ إنت حتى ما بتعرفيها. إنت ما حضرت عرسنا.. ويا دوب كلمتيها مرة أو مرتين طول ما كنا مع بعض. إنت ما كنت حابة فكرة زواجنا أصلاً. فليش بتبكي عليها هلّا؟"

رفعت نادية رأسها. امرأة أجزلت العطاء ولم تجد مقابلاً. قالت: "أنا بعيّطش عليها. فيه رجّال بيهمه شو بيفكروا الناس في مرته اللي هو

اختارها؟ أنا عم ببكي عليك أنت. آه يا أخوي الزغير..". أطلقت نادية العنان لدموعها. "قد ايش كان عندك أشياء عظيمة. وهلّا شوف حالك.. رميت كل اشي ورا ظهرك".

***

قبل سنوات بعيدة، ذهب سالم عندما كان طفلاً في رحلة صيد، ليتعلم كيف تُستعمل الشباك في صيد السمك. رحلوا مع بزوغ خيوط الفجر الأولى، عندما اتّحد لونا البحر والسماء، ولمّا يستنشق العالم أولى أنفاسه بعد. وكان كل ما فعلوه لأكثر من نصف ساعة هو سحب الشباك الخاوية مع تمايل القارب الخشبي. تشبّث سالم بحافة القارب خوفًا من تقلّب معدته، والمدى الأزرق يميد به في نعاس. وفجأة، سمع هتافًا، ثم انسكبت على قعر القارب سمكات فضيات تلتمع حراشفها في ضياء الشمس من إحدى الشبكات. احتدمت الحركة عند قدميه.. تناثر السمك في كل مكان، يقفز ويطير ويقطع الهواء كمئات السكاكين الصغيرة. ومن الأعلى هجم الغزاة الصامتون. سبحت في الهواء نحو المرفأ لتخطف لقمتها، وزعقت عندما طردها الصيادون بالعصي.

عندما اتصل به إيليا يبلغه بموعد المحكمة شعر بها مجددًا.. النشوة والخوف من الهجوم. فدفن إحساسه بالذنب بعد مكالمة جود، ودفن مخاوفه حول مصير مارك المجهول.

قال إيليا: "القاضي راح يسمع من الطرفين مرة تانية. ووعد إنّا ما راح نطلع من عنده إلا بحكم". كان الموعد المحدد هو الحادي والعشرين من ديسمبر، أي بعد أسبوعين. إما أن تنتهي اللعبة أو تبدأ.

وجيمي كذلك كان مشغولاً بتحضيراته. بدأت سمعة منظمته تبرز في كل مكان، كما قال لسالم في انشراح. وقال له أيضًا إنه خطيب رائع بطبيعته. كان جيمي يقضم ساندويتش فلافل ومخلل، وصلصة الهريسة الحمراء تسيل من طرفيّ فمه وتلطّخ ياقة قميصه. "وين كنت مخبى يا حبيبي؟ الله لو كانت الانتخابات البلدية هلّا، كان خليتك ترشح نفسك في أي حزب. بس معليش.. ع الأقل إنت عنّا الآن. ولو اخترنا حدا ليرشح حاله بعد سنتين فلازم يتعلم منك، صح؟" مسح ذقنه العريض فتخيل سالم أنه سيختفي في هذا البلعوم العظيم. عملاق يافا. يأكلني ويتغوط مقعدًا في المجلس البلدي.

رتّب جيمي جدولاً للمظاهرات يستمر حتى جلسة الاستماع الأخيرة. قال بمرح كعادته: "الأوقات مناسبة وما عملنا شوشرة. والشباب الله يبارك فيهم متحمسين كتير. تركتهم في يافا عم بيلونوا ويكتبوا ع خيام ليعلقوها فوق سياراتهم لما بيعملوا المسيرة. ولما سألتهم ليش اختاروا خيام؟ بتعرف شو حكوا؟ قالوا لإنه الخيام رمز النزوح. وبعد ما يدوروا في كل مكان حتى الناس كلهم يشوفوا الشعارات، راح يفكوها ويعملوا اعتصام متل ما بيعملوا الأميركان. ناويين يخيموا برا دارك! صارت الخيام دعاية وكمان راح يستعملوها في المظاهرة! الولاد اليهود هم اللي فكروا بهالفكرة. هاي هي المشكلة فينا يا سالم. بنفكرش بغير الحجر والقنبلة. بس اليهود ولاد الكلب أذكى بكتير.. ومنشان هيك هم اللي كسبوا في النهاية".

وصدق جيمي وعده. كانت الحركة تشتعل في يافا كلها، وكل يوم يُقاد سالم في إحدى سيارات جيمي يستعرض قصته أمام التقدميين، وكل يوم يُذهل من إصغاء الشباب اليهود والعرب. كانوا متشابهين في عينيه، كما يقول الإنجليز إن الأجانب متشابهون بالنسبة لهم. مجموعة من الوجوه السمراء والأذرع الهزيلة. كوفيات ملفوفة على أعناق الرجال والنساء.

فتيات يرتدين الجينز والقمصان الواسعة. رجال بشعر إما طويل ينسدل على أكتافهم أو قصير جدًا. وكانوا كلهم صغارًا.. لكن اليهود كانوا أصغر من في الحضور وأكبرهم. فكل من هم في الثامنة عشرة كانوا يؤدون خدمة التجنيد، متوشّحين بالأخضر، لون جيش الدفاع الإسرائيلي، ويتعلمون كيف يطلقون النار على الغرباء العرب في المناطق المحتلة.

رأى سالم الخيام ذات ليلة في التلفزيون، تتأرجح غير مستقرة فوق صفوف من السيارات، تجوب شوارع يافا وتل أبيب. والسماعات تلعلع بأصوات الهاتفين، وقد رأى اسمه مكتوبًا بالعربية والعبرية في لافتة من بين كل ثلاث لافتات. انتقل البرنامج بعد ذلك إلى مقابلة حادة مع رئيس بلدية تل أبيب منذ ما يزيد عن خمسة عشر عامًا شلومو لاهات. صرخ بأن هذا شغب وفوضوية. تمايل شعره الأشقر في غرة على جبينه، وحاجباه الأبيضان لا يكفان عن الحركة. أكّد للمذيع بأن خططًا عظيمة كثيرة تنتظر يافا والاستثمارات المعدّة لمباني العجمي المتهالكة. وعندما قيل له إن المحاكم الإسرائيلية غير مهتمة بتحقيق العدالة، رفّت عيناه وأجاب: "من يريد أن تدب الفوضى في يافا هم الذين لا يهتمون بتحقيق العدالة".

***

كان الفصل الأخير من المسرحية مخططًا لأن يكون في يوم الأحد قبل يوم حكم المحكمة. سوف يلقي سالم كلمةً في مؤتمر صحفي أمام بيت الشموطي. قال له جيمي: "صدقني حبيبي.. راح تكون اللحظة المثالية".

في صباح السبت اتصل رافان. ناولت نادية السماعة لسالم وقد قطبت جبينها في نفور.

قال رافان: "منيح إنه جيمي عم بيبَدِّع يا خيِّي. حتى بهالمزرعة المقطوعة هون عم توصلنا أخبار حلوة".

"جيمي فادنا كتير. شكرا لأنك عرفتناع بعض".

"ولا تشكرني ولا شي يا خيِّي. إنت بتساعدني وأنا بساعدك.. الدنيا ماشية هيك".

وهذا ما كان يخشاه سالم. "صعبان علي إنك مش مبسوط في الأردن. يا ريتك هين معنا".

"يمكن أمنيتك تتحقق يا خيِّي. هيدا يوم خيِّي الكبير.. كيف بدِّي رَوحه؟" شعر سالم بابتسامة رافان عبر مئات الأميال وإن لم يرها.

تذكر سالم مرة أخرى الطيور وهي تنقض من السماء بمخالبها ومناقيرها. إن آخر ما يتمناه في هذه اللحظة هو أن يعود رافان. لكن ربما يكون موجودًا فعلاً بروحه لا بجسده، مع جيمي والتقدميين وخططه السرية.

قال بشيء من الذعر: "لا تخاطر بجيتك ع الحدود. إنت بتحكي إنه عيون الإسرائيليين عليك. ليش تخاطر؟"

ضحك رافان. "منشانك. باعمل شو ما كان منشانك يا خيِّي. إنت بَلَّشت أول المشوار لما عملت اللي عملته بيافا. وصدقني فيه إشيا أكتر فينا نعملها هونيك. ما تعطل هم. جيمي مش الفلسطيني الوحيد يلِّي عنده أكتر من وجه. بشوفك بكره إن شاء الله".

***

مع غروب الشمس في ذلك اليوم، وقبل وصول جيمي ليصطحب سالمًا

إلى آخر اجتماعات المظاهرة، ركّب سالم جهاز العرض الذي يملكه طارق وتفرّج على فيديوهات أسرته.

كان قد أحضر كل البكرات معه من الكويت إلى إنجلترا ثم إلى هنا. وكل بكرة معلّمة بعناية. الخليج. السرج. حفل عيد ميلاد صوفي. حديقة مارك. رآهم يتبدّلون عبر السنين، يكبرون ويتغيّرون، تمتلئ وجوههم بضحكات صامتة. زادت التجاعيد حول عينيّ جود، طال شعر صوفي، اشتدّ عود مارك واكتنز جسمه النحيل. وبنقرة زر جمّد الزمن، فأعادهم إلى الطفولة والبراءة. ابتسمت جود له بالنمش الذي غطّى خديّها وهم على الشاطئ. تواثبت صوفي حول النار. ركض مارك يلحق بها وذراعاه تختفيان في الوهج الذهبي.

أعاد المشاهد مرات كثيرة، يبحث عن حقيقة ضائعة أو مختبئة في وجوههم. متى انقلب كل شيء رأسًا على عقب؟ كان يحلم في ذلك الوقت بالبرتقال والبحر الدافئ. لكن البرتقال اختفى والبحر محاط بالإسمنت. وهو يريد الآن أن يحلم بشعر جود الذهبي وبعينيّ صوفي وقفزات مارك في الهواء. لكن لياليه صامتة، وصباحاته لا تحتمل أحلامه.

***

أتى جيمي بعد غروب الشمس ليصطحب سالمًا إلى عرض الليلة الذي كان يحمل عنوان: العدالة ليافا.

أخذ سالم يتابع الحقول ومحطات الوقود تمر أمامه، ويتساءل عن سبب إحساسه بشرٍ قريب. شعر كأنه رجل نام وهو يقود، وجفل فجأة فوجد أن يده ليست على المقود.

تنحنح جيمي وقال: "سالم.. عندي مفاجأة بتستناك الليلة. صديق

قديم.. باعتقد إنه راح ينفعنا. يمكن في الانتخابات الجاية".

داخل الشك قلب سالم فورًا. "عن مين بتحكي؟"

"مازن. ابن الخليلي".

وقف شعر ذراعيه وانقبضت معدته كأن يدًا من حديد لكمتها. لابد أنه يمزح.

"كيف ممكن تفكر إني بدي اشوف مازن؟ هم السبب.. هم اللي خانونا". ارتفع صوته فالتفت جيمي ينظر إليه. حملت عيناه كلامًا لم يفهمه.

قال جيمي بنبرة باردة حادّة: "لحظة.. هدي أعصابك حبيبي. لا تنسى مين خان مين. اليهود هم اللي عملوا كل هالقصة. وكل الناس عملوا اللي كانوا مضطرين إنهم يعملوه. أنا حكيت مع مازن... وهو ندمان كتير ع اللي صار في الماضي. وهلّا بعد موتة أبوه الله يرحمه ما ضل إله مصاري كتير. الظاهر إنه الخليلي ما بيفهموا بالتجارة. بس هو ابن يافا.. شويه تزوييق وتنظيف وبينفعنا كتير".

"ينفعنا بشو؟"

"ينفعنا إحنا.. ينفع يافا في الانتخابات. إحنا محتاجين لواحد ابن يافا يوقف جنبك. واحد يجمع الرأي العام حواليه. إنت ومازن.. صحاب طفولة. كل اللي لازمنا هو إنهم يشوفوه واقف معك. لا تنسى..." نظر جيمي إلى سالم بعينين كأنهما بركتان من ماء أسود متجمد. "أنا عملت كل هدا جميل لأخوك. شو بيضر لو كلنا طلعنا من الموضوع منتفعين؟"

وصلا إلى القاعة الواقعة في ضواحي تل أبيب. حيث كان حي المنشيّة قبل أن تساويه الدبابات بالأرض. استقبله عند الباب شباب لا يعرفهم وصافحوا يده.

سار بين الجمع المجهول. رآه سالم فتوقف أمامه. رمش مازن ببطء وهو يحرك قدميه في توتر. ما زالت خصلات شعره السوداء كما هي، لكن الشحوم المتراكمة في وجهه ومعدته اختفت. أما ملابسه فلم تذكّر سالمًا بأبي مازن المتأنق، بل بأبيه وبدلاته الرديئة التي لم تخفِ جبنه وانعدام شخصيته.

قال مازن: "سالم الإسماعيلي..". تنحنح ومدّ يده في حركة تفوح بالإحراج. ظل سالم ينظر إلى يده دون أن يصافحه. لكن تحت نظرة جيمي المتفحصة اضطر إلى أن يمسك كف مازن الناعمة المتعرقة.

"مين بيتخيل أشوفك بعد كل هالسنين؟ سمعت إنك صرت اشي كبير بلندن".

سمع سالم نفسه يرد دون أن يعي: "ما عدت فلاح متل زمان".

ضحك مازن وإن انتقلت نظرته القلقة إلى جيمي. "يا سالم... ما بصدّق إنك لساتك متذكر".

لم يستطع سالم أن ينظر إلى أي شيء آخر غير هذا الرجل. خرجت الكلمات من قلبه بحرارة: "أنا بتذكر كل اشي. حتى هداك اليوم في تل أبيب". وكم ارتاح عندما رأى وجه مازن يتغير ويتلون.

قال مازن بشيء من التملق: "إنت ما بتتذكر شو اللي صار بالضبط. كنا مسجونين في يافا بعد ما اليهود اجو، زي الخرفان. انت كنت عايش بشقة ما أحلاها في الناصرة واحنا عم نعملها بحفر في الأرض لأنه المجاري طفحت من كتر البشر. ما كان بايدنا اشي نساويه.. إلا اللي أمرونا نعمله". نظر إلى سالم. "الإسرائيليين حاولوا يخلونا نخون بعض". أومأ جيمي موافقًا بحماس. "ومن حقنا إنّا نوقف بصف بعض هلّا".

قال جيمي: "خلص خلصنا.. صار الوقت. خلّوا الذكريات لبعدين.

عم بستنونا".

بعد أن فرغ سالم من إلقاء كلمته في تلك الليلة، جعل جيمي مازن يحكي قصته. وعندما مد مازن يده لسالم تحت مرأى من أعين الجمهور المتحمسين، وجد سالم نفسه يصافحها مع أصوات الهتافات. ابتسم مازن وعرقه يتصبب منه. شعر سالم بكفيهما ينزلقان عندما انتهيا من المصافحة، كأنهما خلّفتا أثرًا رطبًا في الهواء ورائهما. تذكّر أن الآباء في المدرسة كانوا يسلّون الأولاد بإقامة مسرح عرائس صباح كل سبت. وكان يجلس مع مازن وحسان يضحكون على ابتسامات العرائس البلهاء وحركاتها المتشنّجة. تخيل الآن نفسه إحدى هذه العرائس، ينظر إلى نفسه من الأعلى بلوم وتقريع.

وصل جيمي وسالم إلى شقة الناصرة بعد منتصف الليل. كانا ملتزمين الصمت طوال رحلة العودة. مسح سالم كفيه، ومع هذا فما زال يشعر بعرق مازن ملتصقًا به.

سأله جيمي: "شو مالك يا سالم؟ بلّشنا نوصل للنهاية.. كل صحفي في تل أبيب أكّد حضوره للمؤتمر الصحفي بكره. واليوم اللي بعده راح يصدر الحكم. بعدين الشغل الحقيقي ببدأ. فشو اللي معكر مزاجك؟ كل اشي ماشي حسب الخطة".

ما الذي عكّر مزاجي؟ قال سالم بتأنٍ: "طول عمري كنت باتمنى يندم مازن ع اللي عمله. بس الليلة حطيت ايدي بايده. معناتها شو هاي؟"

"معناتها إنك ذكي.. اسمعني يا صاحبي. إنت ما بتشوف أسلاك شايكة ونقاط تفتيش هون متل الضفة الغربية. بس هدا ما بيمنع إنه احنا لساتنا تحت الحصار. ما بنقدر نشغل حالنا نحارب بعضنا ع إشيا صارت بالماضي. إنت عملت الشي الصح حبيبي. وبكره راح تشوف".

صعد سالم الدرج تلحقه همسات أفواهٍ مختبئة في الظلام، تستحثه وتلح عليه.. لكن أذنيه لم تستطيعا أن تسمعا ما يقولونه. أخرج المفتاح في إرهاق ودخل شقة نادية. نهض شخص ما من على الكرسي المقابل واستدار يقابله. تسمّر سالم عند عتبة الباب. كان ذلك الشخص هو مارك.

***

ذُهل سالم. كان التلفزيون يعمل فبدا كأن مارك خرج منه. شظية حية من الذاكرة جاءت تخترق وجوده.

نحل ابنه نحولاً شديدًا. صار كهيكل عظمي يرتدي بنطلون جينز يتعلق بخصره، وقميصًا أسود يتدلى من كتفين هزيلين، كسلك رفيع يربط ذراعين مشدودتيّ العضلات، ورأسه مرفوع فوق عنق طويلة. وقفة راقص.

سأله الشاب: "تفاجأت؟" لم يتحرك أي شيء فيه ما عدا أصابعه الطويلة الشاحبة التي كانت تنقبض وتنبسط بشكل متكرر.

تقدم سالم منه وقال: "مارك..". لكنه توقف في مكانه عندما ردّ مارك: "لا.. إياك.. لم آتِ لهذا السبب".

حاول سالم أن يستوعب منظر هذا الغريب أمامه. هذه العظام الطويلة والعينان الوحشيتان تنتمي لشاب لم يقابله من قبل. لم يبقَ من الفتى الذي يتذكر أنه رآه قبل بضعة أشهر سوى القليل. جفل من رؤية الشفتين المجروحتين والمعصمين الضعيفين وبياض شعره الناعم.

سأله وهو يخشى سماع الإجابة: "إذًا لماذا أتيت؟ أتعرف أمك أنك هنا؟"

أجاب مارك: "سوف تعرف. اضطررت إلى أخذ بعض المال منها".

ضحك ضحكة جافة خاوية. "لا يهم ما أفعله الآن. أعتقد أنها أخبرتك بما حدث؟ لقد فشلتُ. كنتَ محقًا. ألستَ سعيدًا بذلك؟"

لم يعرف سالم بماذا يجيب. "لم أقصد بما قلته ذلك أبدًا".

ظهرت هالة حول جسد مارك من انعكاس ضوء الدرج. قال: "فعلتُ ما فعلته من أجلك. أتدري؟ كنتُ أظن أنه صديقي. لكنه قال إن العرب كلاب. وكانت هناك نظرة في عينيه.. فعرفت أنه يقصدني. فأخذت حقي منه كما أمرتني أن أفعل. والآن انتهت حياتي.. لن يعيدوني إلى المدرسة أبدًا".

شعر سالم بغضبه يستيقظ، وكم ألف هذا الشعور.. "لا تلمني على ما جرى لك يا مارك. أنت من اختار هذا الطريق. وإن كان أحدًا قد أهانك فربما كان هذا الطريق صحيحًا. ويمكنك الالتحاق بمدارس باليه أخرى، أليس كذلك؟"

ضحك مارك ثانية، لكن شيئًا تغير في عينيه.. انتقال كامل من شعور إلى شعور آخر، ربما يكون من الغضب إلى الدموع. وفي تلك العتمة كان من الصعب التفريق بينهما.

"قالت ماما إنك ستعود عندما حصل ما حصل. ما زالت تظن أنك تهتم. ما زالت واهمة. لكنني قلت لها.. أنت لا تهتم أبدًا، ولم تهتم قط. لكن كل ما أريده هو أن أعرف لماذا؟"

"أنت لا تعرف شيئًا".

"هيّا.. يمكنك الاعتراف الآن.. لم تكن سعيدًا معنا. أكان السبب هو دروس العربية؟ أم لأنك لم تستطع أن تستمر في وظيفة واحدة أكثر من خمس دقائق؟ أم أن غضبك من كل شيء في الحياة منعك من أن تحبنا؟ أبي المسكين.. وبيته الصغير المسكين الذي سرقه اليهود الأشرار".

قال سالم بغضب خالطه قلق حقيقي: "أنت مجنون. مارك.. أنت غير طبيعي. يجب أن تعود إلى البيت.. لا مكان لك هنا".

رفع مارك رأسه، والضوء من خلف الباب يحيط عنقه بطوق من نور. كانت عيناه مغلقتين لكن أصابعه ما زالت في حركتها دائبةً.

"لا مكان.. أعرف. أنت محق. لكنني أردت أن أراك. أن أقول لك شيئًا". تسارعت الكلمات تخرج من فمه. "بعد أن فصلوني حاولت أن أفهم ما جرى.. ما السبب في عدم سعادتي. أنا لا أتذكر أنني كنت يومًا سعيدًا. أعتقد.. أعتقد أنني لم أشعر بالسعادة إلا عندما كنت أرقص.. عندما كنت أطير ولا شيء يستطيع الإمساك بي. لكنني الآن عرفت". تهدّج صوته. "أتريد أن أخبرك؟ أيهمك أن تعرف؟"

قال سالم: "أخبرني.. إن كان الأمر يهمك إلى هذه الدرجة". كانت عينا ابنه الزرقاوان في تلك اللحظة وفي ظلام الغرفة أكثر اسودادًا من عينيه، أكثر اسودادًا من الليل.

"بسببك أنت.." ثارت في نفس سالم شفقة بلا حدود على ألم ابنه. "أنت لم ترغب قط في أن نكون أسرة سعيدة. كنت تريد دائمًا أن تكون في مكان آخر. حاولتُ أن أعوضّك.. لكن لا شيء أفعله يكفيك. لكنك طبعًا محق يا أبي.. لن أفعل شيئًا يستحق".

ساد الصمت بين الاثنين. ثم رفع الشاب حقيبة ظهر كبيرة من على الأرض ورماها فوق كتفه. اتّحد ظله بظلها على الجدار وراءه، خدعة من خدع الضوء أخرجت شيئًا مخيفًا متوحشًا.

قال: "يقولون إنك ستتحدث في مؤتمر صحفي غدًا.. عند البيت المشهور".

أجاب سالم: "هذا صحيح. كنتُ سأقول يمكنك الحضور، لكن لا أتوقع أنك تريد".

رفع مارك كتفيه. "ربما أودّ أن أرى هذا البيت. ماذا كنت تسمّيه؟ إرثك؟ رائع.. ومعك حق، فهذا البيت أقرب إليك من ابنك".

في مكان ما في أعمق تلافيف مخ سالم، استرجع صراخه في وجه أبيه في هذه الشقة نفسها، وسمع الكلمات واضحةً. كله منك. أنت سبب كل اشي صار معنا. مرّ مارك بجانبه في غمرة ألمه وتظاهره بالشجاعة.

دفعته الغريزة إلى أن يمسك ذراع ابنه، رغبة جامحة تملّكته.. أراد أن يرمي كل شيء وراءه، أن يقنع ابنه بحبه له ولأسرته، أن يقنعه بأنهم سيجدون مكانًا يبدؤون فيه من جديد. كان وجه مارك ملتفتًا إليه نصف إلتفاتة وإن غطّت الظلال جزءًا منه. توقف ابنه ثانيةً.. ثانية لم تطل. عقل سالم كان مشغولاً بالخطط والمؤتمرات الصحفية، والكلمات التي يحتاجها في هذه اللحظة مدفونة في أعماقه ولم يجد طريقة لإخراجها.

سحب مارك ذراعه وخرج من الباب. كان آخر ما رآه سالم هو يد ابنه وهي تمسك الحقيبة، قبل أن يندسّ في ظلام الدرج. سمعه يقول: "مع السلامة يا أبي". ثم اختفى كالحلم.

***

أشرق اليوم الأخير كتفتح زهور يافا. وما أن حلّ الظهر حتى تدثّر بيت الشموطي بنور باهر تحت سماء شتوية.

وقف سالم في نهاية الشارع ينظر إلى البيت عبر إطار تخيّلي، كأن البيت لا يعيش إلا في الصورة معزولاً عن العالم المتغير. انتشرت النباتات المتسلّقة

على جدران البستان المسوّر، تتمايل بنعومة مع هواء ديسمبر البارد. النوافذ المقوّسة في الطابق العلوي، كأعين واسعة تحملق بالبحر ويافا الجديدة المتّسخة، وترمي نظرةً على المدينة القديمة الشامخة تحت نور الميناء الخافت.

وحول البيت هرج عظيم. عجّت الأرض بخيام متنقلة خطّ عليها تقدميو جيمي رسومات وعبارات. وعلى البوابة شرطيان، فيما وقفت عناصر شرطة إضافية بجانب سياراتهم لإغلاق الشارع. ومضت شارات السيارات البيضاء والزرقاء في صمت.

وما زالت جموع تتقدم لتنضم إليهم. أناس لم يجدوا ما يفعلونه في صباح السبت، وإن ابتعد معظمهم عن قلب الحدث. وقفوا متشابكي الأذرع خلف طوق سيارات الشرطة، وتهامسوا فيما بينهم. أما الجَسورين منهم فاقتحموا منطقة الخيام ضاحكين، وهم يشيرون إلى اللافتات ويلتقطون الصور.

تناقلت أصداء أجراس الكنائس المسيحية على أنقاض العجمي البائدة. ورأى سالم متعجبًا نورًا يحترق في غرفة في الطابق العلوي من البيت. مينورا. ثم تذكر.. اليوم هو العشرون من ديسمبر، سادس أيام الحانوكا. وبعد غدٍ ستشعل يد الشمعة الثامنة، إحياءً لذكرى اليوم الذي ثار فيه اليهود واستردّوا المعبد. يا لسخرية الأقدار!

وجد سالم جيمي فجأة يقف بجواره، وبيده نصف منقوشة مغرقة بالجبنة. "بتعرف إنها طلعت من البيت؟"

"مين اللي طلعت من البيت؟"

"هي..". أشار جيمي بالمنقوشة إلى النور الخارج من النافذة. "الست اللي كانت ساكنة هون هي وابنها. سمعت إنها طلعت بس اليوم. يمكن بدهاش صورتها تطلع في الجرايد. والله ما بلومها".

تذكّر سالم ابتسامتها المرتبكة ويدها الحانية على كتفه. مس قلبه الندم.. روح أخرى نالها ألم الفراق كما ناله.

"ما تشيل هم هالموضوع هلّا يا حبيبي. عنّا شغل اليوم. خلينا نحكي عنها بعدين. يلا.. راح اروح أجيب مازن. ما أحلاكم انتو الاتنين مع بعض. بدي يطلع يتصور معك".

ازداد الحشد وتصاعدت الضوضاء. سار سالم نحو المنصة. كان أحد تقدميي جيمي يلّفها بالعلم الفلسطيني. راقبه سالم، وتذكر أن دبلوماسيًا بريطانيًا اسمه سايكس هو من صمم العلم أيام الثورة العربية على الأتراك. كان طارق يقول إنها نكتة. خدعة أخرى من خدع الإمبراطورية البريطانية ليوحوا للعرب أنهم أمة واحدة.

وتذكر ذلك اليوم الذي علّمه فيه مازن كيف يخنق دجاجة في السوق. حاول الطير الفرار من الحبل الملتف حول عنقه. قال مازن حينها: "غبيات.. بيحاولوا يفعفطوا ومش حاسين إنه الحبل بينشد أكتر". تحسس سالم عنقه يبحث عن الأنشوطة الخفية. ربما يكون رافان هو من يشدّ الطرف الآخر من الحبل.. أو ربما كان جيمي. أو ربما كان هو نفسه من يشدّها. أنا أغبى من الدجاجة. لم ألاحظ وجود الحبل لأكثر من أربعين عامًا. فجأة أصبح هذا العرض خاويًا بلا معنى، كالمنصة المحتجبة بالعلم. أمن أجل هذا تخلّيتُ عن ابني؟

رأي إيليا يشقّ طريقه من بين الحشد. كان صديقه مقطب الجبين، وقد ضاقت عيناه بسبب الأنوار الساطعة خلف كتف سالم. قال وهو يهزّ رأسه: "شو هالجمع! يا رب يكون هدا من صالحك يا سالم. بس متل ما حكيت لك قبل، ما بظنش إنه هالطريقة منيحة".

شعر سالم بالحزن الثقيل يقبض على حنجرته. أجاب بصوت خافت: "بعرف. زاد الموضوع عن حده... زاد كتير". نظر إليه إيليا في قلق. "شو مالك؟ ليش وجهك مصفرن هيك؟ صار اشي؟"

كاد لسانه ينطقها. ابني جاء إليّ ورددته. لكن ما الهدف من إخبار إيليا؟ بعد أن ينتهي كل هذا، بعد أن تصدر المحكمة حكمها، سوف يصلح الوضع.

نظر إلى البيت والشموع المحترقة في نافذته. تمنى للحظة أن لو كان مؤمنًا بالله، أو أن يكون مؤمنًا بشيء أقدس إليه من كومة حجارة.

قرص إيليا ذراعه وأشار إلى جيمي الذي يسير نحوهما ومعه مازن، ومن وراء الاثنين طارق عابسًا. رأى مازن وجه إيليا، فلاحظ سالم أن تعابير وجهه انقلبت من حيرة إلى بغض.

قال مازن: "إيليا! يالله.. دايمًا بترافق العرب".

استدار إيليا مبتعدًا، كأنما تذكّر جسده دون أن يشعر أن عليه حماية نفسه بوجود مازن. "احنا في صف واحد هلّا يا مازن. القصة مش قصة سياسة.. إحنا هون منشان سالم".

ضحك مازن، واستقام ظهره: "آه صح.. احنا في صف واحد. السيد وكلبه".

تدخّل جيمي بينهما قائلاً: "يا ولاد.. يا ولاد. ممكن تسمحوا لي بدقيقة مع نجم العرض". اهتزّت ذقونه وهو يومأ برأسه نحو سالم، ويسحبه ناحيةً قصيةً عن الحشد.

قال همسًا: "فيه رسالة وصلتنا هلّا من القدس. أخوك محتاج إلك". ناوله ورقة مطويّة من المنتصف. أخذها سالم لكن قلبه تمرّد ورفض. كانت الورقة شبه مفتوحة، كأنها باب يعرف سالم إلى أين يؤدي. لستُ مضطرًا إلى

العبور منه.

"عبر الحدود وما صار اشي. وبعدين خانوه.. هجموا على المخبأ اللي كان متداري فيه وأخدوا كل اللي كانوا فيه".

لمس سالم عنقه وشعر بالحبل يشتدّ أكثر. لم يكن الحبل دومًا ملتفًّا حول عنقه، كانت ذراعا رافان تحيطان بها.. حب أخيه الصغير الخائف. وهو الآن يتألم لحال رافان، وحال مارك، وحاله هو.. يأسى لحال كل الأولاد الصغار الذين التهمتهم هذه الأرض التي لا يشبعها شيء.

صفعه جيمي صفعة خفيفة على خده. "هيه! اصحى.. القصة كبيرة كتير. ويمكن يكون فيها الموساد، وبيروح أخوك بشربة ميه". مال إلى سالم وأردف: "حكى لهم إنه هون منشانك.. بس ليزور عيلته. ومعه أوراق بريطانية. بعد المؤتمر راح نروح ع المخفر. لازم نثبت إلهم إنه بيقول الصدق".

فتح سالم الرسالة ببطء. مكتوب فيها بالإنجليزية:

أخي الكبير.. تذكّر.. أساعدك وتساعدني. تعال بأسرع وقت ممكن. أنا أنتظرك هنا. رافان

التفت سالم يتطلّع ناحية الغرب، حيث يطلّ البحر فوق رؤوس الجموع. وفي لحظة خاطفة ظنّ أنه رأى وجه مارك، شاحبًا مشرقًا كضياء الشمس. استدار بجسده كله، لكن الوجه اختفى.. وإن كان يشكّ أنه كان موجودًا أصلاً.

التفت ثانية إلى جيمي هذه المرة، وقال: "بعد ما نخلص من هون لازم أروح أدوّر ع ابني". دسّ الورقة في يده السمينة وسار متجهًا نحو المنصة.

كان طارق وإيليا ومازن بجانب المنصة في شجار محموم، وقد تجمّهر أشخاص من حولهم باسمين مشجّعين. كان مازن يقول لإيليا ساخرًا: "بدك

تصير عربي روح اطلب من إمك. يمكن اليهودية البيضاء ملّت من الخياط، وراحت تفشخ رجليها لواحد اسمراني من المنشية".

أمسك جيمي كتف سالم وقال: "وحياتك يا سالم...".

تجاهله سالم ووقف أمام مازن. رأى في وجهه غضبًا أسود عارمًا غرسته وروته أعوام من الخيبات.

قال: "احفظ لسانك وانتبه لكلامك يا مازن. هذول أهلي". شعر بوجود طارق وإيليا خلف كتفه الأيمن، وسمع أنفاسهما الثقيلة، ورأى مازن يتراجع في عجب.

وضع جيمي ذراعه حول كتف مازن، وقال ببغض صريح لم يعبأ بإخفائه: "أهلك؟ أهلك قاعدين بالحبس يا سالم عم يستنوا التخلص هالكلمة الملعونة. يلا عاد. خلونا نخلص انتو الاتنين. لازم تطلعوا في الصور هلّا".

قال طارق بهدوء: "ما تسمع كلامه يا سالم.. ديل الكلب بيضل أعوج".

دارت عينا مازن المذعورتان ما بين وجه سالم ووجه جيمي. ثم بدا كأنما استجمع أعصابه. مال إلى سالم، ونَفَسه حار على خديّه. تسلّل شبح الابتسامة الكريهة التي يكرهها سالم منذ الطفولة، ابتسامة حاقدة ساخرة اعتلت الشفتين. قال مازن: "الكلب أحسن من الحمار"، وغمز لسالم. سمع ضحكة جيمي من وراء مازن.

أمسك سالم رأس مازن بيديه، وقرّب وجهه من وجهه كأنهما يتعانقان. ورأى الحيرة على وجه مازن وعيناه تحدّقان به. لمح سالم وجه جيمي في الخلف يمتزج بوجه أبيه ورافان والإرغون وقنابلهم الملعونة، وكل الرجال الذين سلّمهم زمام حياته.

همس سالم: "بس ما عدت حمارك". ثم دفع مازنًا بنفس القوة والمتعة التي

أحسّ بها أعوامًا وأعوامًا مضت، وهو يرمي كرته فتطير في الهواء.

لحظة ارتطام.. سقط مازن وارتطم بجيمي، وتدحرج الرجل الضخم في التراب وقطرات حمراء تسيل من أنفه.

صرخ شخص ما وانطلقت فلاشات الكاميرات. تشبّث جيمي بكمّ شخص ما ليقف فلطّخه بالدم. التقت عيناه وهو يترنح بعيني سالم في استنكار ودهشة.

قال له سالم: "حط هدا في صورك". استدار وأخذ الميكرفون من يدٍ ممدودة واعتلى المنصة.

***

كان البحث عن مارك هو أول فكرة تخطر على باله، بيد أنه لم يجد له أثرًا. لابد أن ما لمحه هو خدعة أو سراب صنعته أمنياته. أحس بوجود بيت الشموطي خلفه كيانًا منذرًا بشرٍ. حتى النور كان كما لاح له في أحلامه، شديد السطوع يؤذي العينين، وأصوات بعيدة اكتسحت صمتًا غائرًا.

شعر بوجود هذا الصمت كأنه بئر سقط فيها. أعرف ماذا يريدون أن أقول. بإمكانه أن يقول لهم القصة نفسها، أن السلام لن يحل حتى تُعاد كل البيوت إلى أصحابها. لكن هذا مجرد نصف الحقيقة.

أما النصف الآخر فكان أصعب في التعبير وأثقل على السمع. لو كان مارك واقفًا أمامه لوجد الكلمات المناسبة في ذهنه. لقد خسر بيته الأول رغم كل ما فعله لاستعادته. لكن تلك الخسارة لا تُقارن أبدًا بألم وفداحة خسارة البيت الذي بناه ثم هدمه بيده.

فتح فمه ليتكلم، لكن صوتًا آخر ارتفع من حولهم، مزيحًا كلماته قبل أن تتشكل في عقله. في لحظة الارتباك تلك لم يستطع أن يتعرف على الصوت. بدأ كصرخة من أحد الحضور، أو كنعيق طير حلّق من فوقهم، ثم تحوّل إلى دويّ عالٍ، وانفجار حرارة وضوء.

سمع الصوت واضحًا الآن.. زئير غاضب وبحر من بشر يصرخون ويتدافعون. استدار فرأى اللهب يتساقط كأوراق الشجر فوق الجدار، والدخان يتسلل كيدٍ صامتة فوق النوافذ.

ثم سمع صوتًا أعمق. هبّة رياح ولفحة نار، وعويل ترتجّ له العظام. أصمّ الصوت أذنيه وملأ عينيه بالتراب. شعر بأن رأسه خفيف كالطير، وساقاه تفقدان توازنهما مع انهيار المنصة. سقط سقوطًا بطيئًا في الفراغ. مدّ ذراعيه فالتقمته أرض يافا في جوفها.

البحــر

وجدوا جثة مارك في المطبخ.

ورد في تقرير الشرطة أنه تسلّق الجدار الخلفي من البيت، وتسلق الشجر نزولاً، ثم اقتحم المطبخ. رمى بعد ذلك ذخيرته من زجاجات المولوتوف واحدة تلو الأخرى في غرف الطابق السفلي. أما آخر ثلاث زجاجات فاحترقت بجانبه وموقد الغاز مفتوح.

لم يعلم أحد إن كانت تلك حادثة، أم أنه تعمّد قتل نفسه. وقد حكمت الصحف بأنه انتحار، لكن سالمًا رفض تصديق ذلك، لأن مارك قد حجز تذكرة عودة إلى لندن في رحلة غادرت تلك الليلة. ثم قرأ الرسالة التي كتبها لصوفي وأرسلها قبل المؤتمر الصحفي. كانت بداية الرسالة: لا أنتظر منكِ أن تغفري لي، وانتهت بـ: تذكري أنني أحبكِ. وفي ذيل الصفحة رسم مارك صورة صغيرة لشخص يثب نحو السماء فاتحًا ذراعيه في تحية مبتهجة.

لم تخفت الضجة الإعلامية التي أعقبت ثأر مارك إلا بعد شهور عديدة. تناولته أيدي الصحافة وتقاتلت فيما بينها لتحصل على قصته.. الشاب البائس الذي انتقم ممن سرقوا إرثه، أم الإرهابي الساذج الذي لم يفلح إلا في قتل نفسه. وقالوا وكتبوا وناقشوا اضطرابه النفسي.. وتأثير عمه المطلوب من قبل الموساد منذ أعوام، والذي وقع في أيديهم أخيرًا.

ثم تناولوا موضوع المطالبات القانونية والتعويضات. ونحّت المحكمة قضية سعيد الإسماعيلي وأبنائه التي عمّرت أربعين عامًا. وانتحبت صاحبة

البيت والبلدوزرات تتحرك من ورائها لإزالة الحطام. كانت تمسك بيد ابنها الصغير، وتقول باكيةً للكاميرات: "أنقذنا الله.. لولاه لكنّا داخل ذلك المنزل". شاهدها سالم ودعا لأول مرة منذ بلوغه أن يكون مارك قد تأكد من خلو البيت، قبل أن يبعث رسل الموت فيه.

رأى جود مرةً واحدةً في تلك السنة، في القاعة التي عُقد فيها التحقيق. وعندما أعلن القاضي أن الوفاة كانت قضاءً وقدرًا، رفعت رأسها المنكّس. نظرت إليه بعينين زرقاوين سوّدهما الحزن. وعندما انتهت الجلسة، رأى نادية تسحب جود لتمنعها من أن تكلّمه. لكنه قرأ الكلمات في عينيها وإن لم يسمعها، كأنها ألسنة من نار تحرق الهواء بينهما. أنت.. أنت من قتله. أنت قتلت ابننا.

ثم حلّ الصمت أخيرًا. انتقلت الصحف إلى أخبار أخرى، ودُفعت التعويضات. سُوّي موقع بيت الشموطي بالأرض، وتركوه للبحر كي يضمه إلى صدره. بدأت الأغصان الصغيرة والأعشاب تنمو فيه، والنوارس تحلّق فوقه. وعندما يحين الوقت الذي تقرر فيه السلطات ما ستفعله بالأرض، ستجد فيها أشجارًا غضة تحمل برتقالاً على وشك النضج.

***

وقف سالم في ذكرى وفاة مارك في العام التالي على طريق يرتفع عن التل وينحدر إلى البحر. توسطت الشمس في كبد السماء، وهبت الرياح باردةً منعشة من الغرب. تمايلت أعشاب يابسة من حوله، وتطايرت حبيبات اللقاح البيضاء على أجنحة الهواء الرطب. ستجد أماكن تحطّ فيها، ولن تكون بعيدةً عن هنا، وسوف تنمو مع أنفاس الربيع الأولى.

كان يراقب مجموعة صغيرة من الأشخاص على قمة التلة. كانوا مجتمعين حول شجرة صغيرة خضراء يانعة، وتراب حفرتها الرطب مكوّم حول جذعها.

كلهم هنا. رأى شعر صوفي الكستنائي وطولها الذي يفوق طول جود، وبجوارها وقف شاب ممشوق أسود الشعر أبيض البشرة. كان يحيط خصرها بذراعه ويشدّها نحوه بحب. غيرتي الشاحبة موجودة أيضًا، والعم ماكس وتوني الذي كان يرتدي بدلة سوداء ومعه زوجته وأولاده. دورا التي هزلت واحدودب ظهرها تستند إلى ذراع أليكس عم ابنتها، وذراعها الأخرى تمسكها نادية التي كانت تربّت على يد المرأة العجوز. وقف طارق بجانب جود، وإيليا في الجانب الآخر من طارق. حتى حسّانًا وزوجته كانا موجودين، ومن حولهما تجمّع أولادهما وثلاثة أحفاد صغار يركلون التراب خلف المجموعة.

ثم رأى جود رافعةً رأسها الذهبي. ركعت على الأرض واغترفت من تراب يافا بيدٍ، ثم أدخلت اليد الأخرى في جيبها وأخرجت منديلاً مربوطًا. شاهدها وهي تنثر تراب إنجلترا الغامق المتفتت من المنديل على تراب يافا الفاتح الدافئ في كفها. التمع الغبار في حبيبات حملها الهواء، وهي تضع الترابين الممزوجين عند قاعدة الشجرة.

وقف مكانه دون حراك، مصغيًا لصوت الرياح. كانت تغني له أغنية عذبة بلا كلمات لطالما أحبّ سماعها.

تقدمت صوفي لتقف بجوار أمها. كانت تمسك إبريقًا تستعمله نادية في صنع اللبن. انسكب الماء منه صافيًا كالسماء على الأرض الصلبة. امتصّته الشجرة كما يمصّ الرضيع حليب أمه، فتلوّن التراب بلون الحياة. انتهت المراسم وتفرق الجمع. أمسكت صوفي ذراع جود واتجهتا نحوه. قبّلت جود

ابنتها، ثم أفلتت صوفي ذراع أمها. سارت جود ناحيته وهي تفكّ أزرار معطفها الكحلي.

انعكس الضوء على السلسلتين حول عنقها. هديته لها متشابكة مع نجمة ربيكا. وهديتي الأخرى لها ترقد تحت التراب. أصبح مارك جزءًا من الأرض الآن.

وقفا متواجهين على طرفي الطريق الصغير. هبّ الهواء من حولهما محرّكًا ثيابهما. ثم لمح السلسلة الثالثة حول عنقها. كانت من الذهب الأبيض على شكل طفل بجناحيّ فراشة يقفز عاليًا.

حاولت جود أن تتعرف على الغريب أمامها، أن تفتّش في وجهه عن بقايا الشاب الذي أحبته لطيبته ودفئه. كان زوجها متقوّس الظهر بلا حياة. رجل رمادي مرسوم بخطوط من ألم. جزء منها يرثي لحاله والجزء الآخر يرقص طربًا.

أجبرت نفسها على كسر حاجز الصمت. قالت: "أتتذكر أننا تكلّمنا عن المجيء إلى هنا يومًا؟"

أومأ وأجاب: "وقلت لكِ إن الأمر مستحيل".

"ومع ذلك.. ها نحن هنا". نظرت إلى البحر المضطرب. "لا أحد يعلم كيف ستكون حياته".

كان الجمع وراءها يتجه نحو السيارات. كانت صوفي واقفة على قمة التل، يدها بيد حبيبها. وانتصبت شجرة مارك لوحدها، تذكار على هشاشة الحياة، وأذرعها الخضراء تلوح لضياء الشمس. ومن خلفها امتدّت المدينتان، القديمة والحديثة، على مدّ البصر.

قال: "أنا لا ألومكِ على كرهك لي. كنتِ محقة. أنا قتلته".

لم تدمع عيناها. "كرهتك يا سال. وكنت سأظل أكرهك حتى آخر يوم في عمري لو أن هذا سيعيد مارك. لكنه لم يكن ليريد هذا". لمست يدها عنقها حيث يستقر الفتى القافز. "أنت تعرفه.. كان يريدنا أن نودّع بعضنا".

"أعرف". كان صوته خافتًا. مدّ يده داخل جيب معطفه، وأخرج مستطيلاً ملفوفًا بالحرير الأبيض لون البراءة.

سألت بحذر: "ما هذا؟"

أجاب: "كنتُ سأدفنها هناك.. حيث يرقد بسلام. لكن أعتقد أنه لا يريدني أن أقترب منه. أنا خذلته". انهمرت الدموع أخيرًا. ولأول مرة يبكي. كانت دموعًا حارقة تكوي وجهه وهي تسيل. "جاء إليّ لأساعده لكنني لم أفهم. أضعت فرصتي معه".

سحبت قماش الحرير فكشفت صورة بيت الشموطي. حدّقت فيهما عينا الطفل الرضيع من الإطار الذهبي في حيرة بريئة. بدت الشجرة هشة غضّة وراءه، كتلك التي ترفرف أوراقها بخفة فوق رماد مارك.

ضحكت عندما رأت الصورة، فانطلقت دموعها تجري هي أيضًا. قالت: "واو سال! ما زلت تستطيع إدهاشي بعد كل هذه السنوات". احتضنت الصورة إلى صدرها. كان عزاؤها الوحيد وهي تذوق مرارة الفقد والحزن أن بيت الشموطي احترق أيضًا.. أنه ذاق ألم اللهيب الحارق. ذهب إلى الأبد كما ذهب طفلي. لكن الطفل نظر إليها من بين يديها، فأعادها إلى سنوات طفولتها. كان هذا الوجه هو وجه مارك، ووجه سالم، ووجهها في أحضان ربيكا. حرّر هذا شيء ما بداخلها، حمل قديم أثقلها.. شعرت به يرتفع ويحلق في السماء بعيدًا.

رأى سالم دموعها تسقط على الإطار. جودي.. أنا آسف جدًا. لا

تستحقين أن تبكي.

قال: "خذيها. إنها لكِ الآن. أنت وصوفي. أنتما كل ما أريد أن أتذكر".

لمست بأصابعها وجه الطفل. رأى سالم بيت الشموطي لآخر مرة من بين أصابعها قبل أن تدسّها في جيبها.

تمالكت نفسها قليلاً، ثم قالت: "عرفت معلومة غريبة من نادية اليوم. قالت إن المسلمين يؤمنون أن إبراهيم كاد يضحي بإسماعيل وليس بإسحاق. أن إسماعيل هو خليفته الحقيقي".

قال: "تعلمنا ذلك في المدرسة. في أيام عيد الأضحى. لم أكن منتبهًا لتلك الأمور".

مسحت أنفها في كمها وقالت: "يا له من أمر غريب نتجادل حوله.. بأي الولدين ضحى". أردفت: "كنت أعشقك". لم تكن تلك الكلمات التي أرادت أن تقولها، لكنها مع ذلك خرجت متتابعة منسابة كالمياه. "رغم أن حبنا كان محكومًا عليه بالفشل فإنه كان حبًا مذهلاً.. أليس كذلك؟ ذاك الحب هو ما خلق طفلينا. هو ما خلق مارك".

"صحيح". تخيّل طفليه صغيرين مرسومين في النور الساطع.. وتذكّر العجب والفخر الذي أحس به وهو يحملهما في ذراعيه.

نظرت إلى البحر. "وعندما كانت نادية تحكي لي القصة، فكرت.. تلك الحكايات القديمة التي لا نستطيع نسيانها هي العدو الحقيقي. ولذلك فمهما كان ما فعلته يا سال، ومهما كان من يستحق اللوم... لا أريد أن أكون غاضبة بعد الآن".

سمع صوت صوفي تنادي من جانب التل وأصوات محركات السيارات. نظرت إليها جود لكنها لم تتحرك. شعر سالم بموجة أمل تداعبه متزامنةً مع

تلاطم موج البحر.

سألها: "وماذا الآن؟ إلى أين نذهب من هنا؟"

أغلقت عينيها فانسحب أمله خائبًا.. ومع ذلك فلم يستطع أن يبعد عينيه عنها. شعر بأن منعطفًا خطيرًا أمام طريقهما، وأنهما يقتربان منه في سرعة مخيفة. خسرت الكثير لأنني كنت أنظر إلى الوراء. وخسرتها لأنني لم أجد طريقي.

ويا لعجبه عندما التقت عيناهما، فرأى في عينيها وضوحًا كالذي رآه أول مرة يقابلها، عندما رآها وحيدة في حفلة صاخبة.

قالت: "كنت دائمًا تحكي لنا عن البحر بجانب بيتك". تذكر ما تقصده. عندما كنا نستلقي جنبًا إلى جنب في قارب على النهر الإنجليزي، كما يفعل مارك وصوفي، ونتحدث عن الوطن. "لماذا لا تريني البحر طالما أننا هنا؟"

ضحك وقال: "الجو بارد. نحن في فصل الشتاء إن لم تكوني قد لاحظتِ".

عضّت شفتها تخفي ابتسامة. "إذًا اسبح وأنا ألوّح لك".

ما زالت أصابعها مغطاة بالتراب. أراد أن يمد يده ويمسك أصابعها، لكن الخجل منعه كما منعتها لوعة الحزن. ارتفع صوت أذان الظهر من الجنوب. ربما لم يبقَ أي طرق نسير عليها. تنهدت واستدارت.

قال: "تعالي إذًا يا جوديث ربيكا الإسماعيلي. سيري مع زوجك للمرة الأخيرة. قبل أن يرسلوا فرقًا للبحث عنكِ". رفعت رأسها فرأى ابتسامة مارك على وجهها.

تقدمته نحو الشاطئ. سمعها تقول: "يلاّ أيها العجوز.. ألن تأتِ؟". كانت بقعة ضوء صغيرة في أرض قاحلة، طفل يطارد كرته التي رماها في

البحر ورحلت بها الرياح إلى حيث لا يدري.

أجابها: "أنا قادم". وتبعها موليًا ظهره نحو الأرض وثمارها، راكضًا تجاهها تاركًا الدنيا تختفي خلفهما. وعندما بلغها التفتت، فرأى الطريق المنسي يمتدّ أمامهما. حددا لهما طريقًا في فراغ المكان، خطًا واحدًا تمايلت حدوده مع ضياء الشمس. وعند طرف الساحل قابلهما الطريق المتعرج فحملهما ناحية البحر.

شكر وتقدير

كثيرون يستحقون الشكر الجزيل. وأولهم، مع كل الحب والعرفان، أولئك الذين باركوا العمل منذ بدايته، أسرتي: روان وليلى وأمي الجميلة التي عاشت حياة أغرب وأجمل من الخيال، وهي من أعطتني، وهذه الرواية، نقطة الانطلاق.

ولأولئك الذين مضوا من قبلنا؛ إيثل ونُهاد وسعيد وماكس وترودي وجيرالد وآن ومروان. وأولئك الذين ما زالوا معنا على الدرب؛ آبلا وبلانش وبولي ومحمود وحاج وسام وأبناء عمومتي، الجيل الذي وُلد في الطريق.. الذين يحملون قصص القومين النفيسة معهم إلى عوالم جديدة.

وأشكر كذلك وكيلي غوردون وايز لإيمانه بي، وجولييت في دار (ون وورلد) للنشر لخوضها هذه المغامرة. والشكر مقدم لمحرري الكتاب روس وإيلينور وجيني لمساعدتي على إيقاظ حكاية طال سباتها.

ولا أنسى طبعًا باولو هيويت "دون" شمال لندن، وجيني فيرفاكس لوضعي في بداية الطريق. وأشكر كذلك آدم لابور للطفه الشديد وكتابه الرائع "يافا.. مدينة البرتقال". وشكرًا لويليام غودلاد لإلقائه النظرة الأولى على الرواية.

وشكر من أعماق القلب لستيفن فزنسي لصداقته، ولأنه سمح لي أن أسرق اقتباسًا من روايته "مليونير بريء"، ولكل كلمة كتبها وما زالت

تذهلني كما أذهلت الملايين قبلي.

وأخيرًا، شكري وكل حبي لزوجي الذي أعطاني المساحة والحب اللذين أتاحا لي السفر في هذه الرحلة الطويلة، مع انشغاله بإنقاذ العالم. أشكرك يا حبيبي. أنت تعرف قيمة هذا لديّ. ولابنتي التي منحتني سببًا للكتابة. دليلا يا حبيبتي.. هذه هي قصتكِ.

شكر من المترجمة

أود أن أتقدم بجزيل الشكر للسيدة لانا خطّاب والسيدة سمر أبو زيد على ما قدّمتاه من مساعدة عظيمة في تصحيح اللهجات الواردة في الرواية.

"برتقال إسماعيل حافلة بلحظات الالتقاء بين الثقافات، وكلير حجاج تعرف هذه اللحظات جيدًا، فأمها يهودية ووالدها فلسطيني، لكن هذه الرواية ليست إدعاءً ورديًا بريئًا بأن "كل معضلة ستُحل إن أحبّ أحدنا الآخر". فسالم وجود يقعان في الحب في ستينيات لندن لكن الذكريات والواجبات القومية والأسرية التي حملاها منذ الطفولة تفرّق بينهما وسنوات الكراهية تمضي منطوية".

- ذا ناشونال

"الإبداع السردي في برتقال إسماعيل يتخطى الزمن ويستحوذ على الحواس".

- إلياف شفق

"كتابة ثرية تسكن المخيلة... جمال لا يمكن قياسه... قصة حجّاج تضيء بنور العاطفة".

- إندبندنت

ISBN 978-614-01-0746-5

illustration by James Nunn